



مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبحان

للغافل



عليه  
صباح  
الرمضان

www.

www.

www.

www.

Ghaemiyeh

.com

.org

.net

.ir

السيرة

نفسية القليل

للمعلمة تريا الشيد محمد حسين الطيب البستاني

المجلد الرابع

منشورات

مؤسسة الأمل للطبوعات

بغداد - العراق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# الميزان في تفسير القرآن

كاتب:

محمد حسين طباطبائي

نشرت في الطباعة:

علامة طباطبائي

رقم الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

## الفهرس

٥	الفهرس
١٢	تفسير الميزان المجلد ٤
١٢	اشاره
١٢	اشاره
١٥	[ بقيه سوره آل عمران ]
١٥	[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٢١ الى ١٢٩]
١٥	اشاره
١٥	بيان
٢١	بحث روائى
٢٧	[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٣٠ الى ١٣٨]
٢٧	اشاره
٢٨	بيان
٢٩	تعليم القرآن و قرانه العلم بالعمل
٣٠	[بيان]
٣٣	بحث روائى
٣٦	[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٣٩ الى ١٤٨]
٣٦	اشاره
٣٧	بيان
٤٢	كلام فى الامتحان و حقيقته
٤٨	[بيان]
٥٢	[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٤٩ الى ١٥٥]
٥٢	اشاره
٥٣	بيان
٦٢	معنى العفو و المغفره فى القرآن

- ٦٤ ..... [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٥٦ الى ١٦٤]
- ٦٤ ..... اشاره
- ٦٥ ..... بيان
- ٦٩ ..... [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٦٥ الى ١٧١]
- ٦٩ ..... اشاره
- ٦٩ ..... بيان
- ٧٣ ..... [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٧٢ الى ١٧٥]
- ٧٣ ..... اشاره
- ٧٤ ..... بيان
- ٧٦ ..... كلام فى التوكل
- ٧٦ ..... بحث روائى
- ٨٥ ..... بحث تاريخى [فهرس أسامى شهداء أحد].
- ٩٠ ..... [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٧٦ الى ١٨٠]
- ٩٠ ..... اشاره
- ٩١ ..... بيان
- ٩٤ ..... بحث روائى
- ٩٤ ..... [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٨١ الى ١٨٩]
- ٩٤ ..... اشاره
- ٩٥ ..... بيان
- ٩٧ ..... بحث روائى
- ٩٨ ..... [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٩٠ الى ١٩٩]
- ٩٨ ..... اشاره
- ١٠١ ..... بيان
- ١٠٣ ..... بحث فلسفى و مقابسه [بين القرآن و التوراه فى أمر النساء]
- ١٠٤ ..... بحث روائى
- ١٠٥ ..... [سوره آل عمران (٣): آيه ٢٠٠]

- ١٠٥ ..... اشارة
- ١٠٥ ..... بيان
- ١٠٦ ..... كلام فى المرابطه فى المجتمع الإسلامى
- ١٠٦ ..... ١-الإنسان و الاجتماع:
- ١٠٦ ..... ٢-الإنسان و نموه فى اجتماعه:
- ١٠٨ ..... ٣-الإسلام و عنايته بالاجتماع:
- ١٠٩ ..... ٤ اعتبار الإسلام رابطة الفرد و المجتمع:
- ١١٢ ..... ٥-هل تقبل سنه الإسلام الاجتماعيه الإجراء و البقاء
- ١٢١ ..... ٦-بما ذا يتكون و يعيش الاجتماع الإسلامى
- ١٢٦ ..... ٧-منطقتان منطق التعقل و منطق الإحساس:
- ١٢٨ ..... ٨-ما معنى ابتغاء الأجر عند الله و الإعراض عن غيره
- ١٣٠ ..... ٩-ما معنى الحريه فى الإسلام
- ١٣١ ..... ١٠-ما هو الطريق إلى التحول و التكامل فى المجتمع الإسلامى
- ١٣٤ ..... ١١-هل الإسلام بشريته يفى بإسعاد هذه الحياه الحاضره
- ١٣٥ ..... ١٢ من الذى يتقلد ولايه المجتمع فى الإسلام و ما سيرته
- ١٣٩ ..... ١٣-تفر المملكه الإسلاميه هو الاعتقاد دون الحدود الطبيعيه أو الاصطلاحيه
- ١٤٠ ..... ١٤-الإسلام اجتماعى بجميع شئونه:
- ١٤٥ ..... ١٥-الدين الحق هو الغالب على الدنيا بالآخره
- ١٤٧ ..... بحث روائى
- ١٤٨ ..... (٤)سوره النساء مدنيه و هى مائه و ست و سبعون آيه(١٧٦) -
- ١٤٨ ..... [سوره النساء (٤): آيه ١]
- ١٤٨ ..... اشارة
- ١٤٨ ..... بيان
- ١٥٢ ..... كلام فى عمر النوع الإنسانى و الإنسان الأولى
- ١٥٥ ..... كلام فى أن النسل الحاضر ينتهى إلى آدم و زوجته
- ١٥٧ ..... كلام فى أن الإنسان نوع مستقل غير متحول من نوع آخر

- ١٥٨ ..... كلام فى تناسل الطبقة الثانية من الإنسان
- ١٦٠ ..... بحث روائى
- ١٦٤ ..... [سوره النساء (٤): الآيات ٢ الى ٦]
- ١٦٤ ..... اشاره
- ١٦٥ ..... بيان
- ١٦٥ ..... كلام فى الجاهليه الأولى
- ١٦٩ ..... كيف ظهرت الدعوة الإسلاميه؟
- ١٧٩ ..... [بيان]
- ١٨٥ ..... كلام فى أن جميع المال لجميع الناس
- ١٨٥ ..... [بيان]
- ١٨٨ ..... بحث روائى
- ١٩٢ ..... بحث علمى فى فصول ثلاثه
- ١٩٢ ..... ١-النكاح من مقاصد الطبيعه:
- ١٩٦ ..... ٢-استيلاء الذكور على الإناث:
- ١٩٦ ..... ٣-تعدد الزوجات:
- ٢٠٩ ..... بحث علمى آخر ملحق به فى تعدد أزواج النبى
- ٢١٢ ..... [سوره النساء (٤): الآيات ٧ الى ١٠]
- ٢١٢ ..... اشاره
- ٢١٢ ..... بيان
- ٢١٥ ..... كلام فى انعكاس العمل إلى صاحبه
- ٢١٨ ..... بحث روائى
- ٢٢٠ ..... [سوره النساء (٤): الآيات ١١ الى ١٤]
- ٢٢٠ ..... اشاره
- ٢٢١ ..... بيان
- ٢٢٦ ..... كلام فى الإرث على وجه كلى
- ٢٣١ ..... بحث روائى



٢٣٦----- بحث علمى فى فصول

٢٣٦----- ١-ظهور الإرث:

٢٣٧----- ٢-تحول الإرث تدريجيا:

٢٣٨----- ٣-الوراثه بين الأمم المتمدنه:

٢٤٠----- ٤-ما ذا صنع الإسلام و الطرف هذا الطرف

٢٤٢----- ٥-علام استقر حال النساء و اليتامى فى الإسلام:

٢٤٥----- ٦-قوانين الإرث الحديثه:

٢٤٦----- ٧-مقايسه هذه السنن بعضها إلى بعض:

٢٤٧----- ٨-الوصيه:

٢٤٧----- [سوره النساء (٤): الآيات ١٥ الى ١٦]

٢٤٧----- اشاره

٢٤٧----- بيان

٢٥٠----- بحث روائى

٢٥١----- [سوره النساء (٤): الآيات ١٧ الى ١٨]

٢٥١----- اشاره

٢٥١----- بيان

٢٥٨----- كلام فى التوبه [و فيه أبحاث]

٢٦٥----- بحث روائى

٢٦٧----- [سوره النساء (٤): الآيات ١٩ الى ٢٢]

٢٦٧----- اشاره

٢٦٧----- بيان

٢٧٢----- بحث روائى

٢٧٥----- [سوره النساء (٤): الآيات ٢٣ الى ٢٨]

٢٧٥----- اشاره

٢٧٦----- بيان

٢٩٧----- بحث روائى

- ٣٠٣ ----- بحث آخر روائى
- ٣٢٤ ----- بحث علمى [كلام فى معنى الابن شرعا].
- ٣٢٧ ----- بحث علمى آخر [فى حكمه تحريم محرّمات النكاح].
- ٣٣١ ----- [سوره النساء (٤): الآيات ٢٩ الى ٣٠]
- ٣٣١ ----- اشاره
- ٣٣١ ----- بيان
- ٣٣٤ ----- بحث روائى
- ٣٣٨ ----- [سوره النساء (٤): آيه ٣١]
- ٣٣٨ ----- اشاره
- ٣٣٨ ----- بيان
- ٣٣٩ ----- كلام فى الكبائر و الصغائر و تكفير السيئات
- ٣٤٧ ----- بحث روائى
- ٣٥٠ ----- [سوره النساء (٤): الآيات ٣٢ الى ٣٥]
- ٣٥٠ ----- اشاره
- ٣٥١ ----- بيان
- ٣٥٤ ----- كلام فى حقيقه قرآنيه
- ٣٥٤ ----- [بيان]
- ٣٤١ ----- كلام فى معنى قيمومه الرجال على النساء
- ٣٤٢ ----- بحث روائى
- ٣٤٩ ----- [سوره النساء (٤): الآيات ٣٦ الى ٤٢]
- ٣٤٩ ----- اشاره
- ٣٧٠ ----- بيان
- ٣٧٤ ----- بحث روائى
- ٣٧٥ ----- [سوره النساء (٤): آيه ٤٣]
- ٣٧٥ ----- اشاره
- ٣٧٤ ----- بيان

٣٧٧ ..... بحث روائى

٣٧٨ ..... [سوره النساء (٤): الآيات ٤٤ الى ٥٨]

٣٧٨ ..... اشاره

٣٨١ ..... بيان

٣٩٧ ..... بحث روائى

٤٠٤ ..... [سوره النساء (٤): الآيات ٥٩ الى ٧٠]

٤٠٤ ..... اشاره

٤٠٧ ..... بيان

٤٢٨ ..... بحث روائى

٤٣٤ ..... [سوره النساء (٤): الآيات ٧١ الى ٧٦]

٤٣٤ ..... اشاره

٤٣٦ ..... بيان

٤٤١ ..... كلام فى الغيره و العصبية

٤٤٢ ..... بحث روائى

٤٤٦ ..... تعريف مركز

سرشناسه : طباطبائی، سید محمد حسین، ۱۲۸۱ - ۱۳۶۰.

عنوان و نام پدید آور : تفسیر المیزان / محمد حسین طباطبائی؛ ترجمه ناصر مکارم شیرازی... [و دیگران].

وضعیت ویراست : [ویراست ۲؟]

مشخصات نشر : قم: بنیاد علمی و فکری علامه طباطبائی؛ تهران: مرکز نشر فرهنگی رجاء: امیر کبیر، ۱۳۶۳-

مشخصات ظاهری : ۲۰ ج.

شابک : ۱۶۰۰۰ ریال (دوره کامل)

یادداشت : جلد ۱۱ و ۱۹ کتاب توسط سید محمد باقر موسوی همدانی ترجمه شده است.

یادداشت : ج. ۱۱ (چاپ صد و بیست و هشتم: ۱۳۶۳).

یادداشت : ج. ۱۹ (چاپ اول؟: ۱۳۶۳).

یادداشت : عنوان عطف: ترجمه تفسیر المیزان.

عنوان عطف : ترجمه تفسیر المیزان.

موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده : مکارم شیرازی، ناصر، ۱۳۰۵ -، مترجم

رده بندی کنگره : BP۹۸/ط۲۵ م ۹۰۴۱ ۱۳۶۳

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۲۶

شماره کتابشناسی ملی : م ۶۳-۳۵۴۹

ص : ۱





إشارة

وَ إِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَيَجْعَلُ عَلَيْكُمْ (١٢١) إِذْ هَمَّ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصِيرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ فَيُنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢٩)

بيان

رجوع إلى ما بدأت به السورة من تنبيه المؤمنين بما هم عليه من الموقف الصعب،

و تذكيرهم بنعم الله عليهم من إيمان و نصر و كفايه، و تعليمهم ما يسبقون به إلى شريف مقصدهم، و هدايتهم إلى ما يسعدون به في حياتهم و بعد مماتهم.

و فيها قصه غزوه أحد، و أما الآيات المشيره إلى غزوه بدر فإنما هي من قبيل الضميمة المتممة و محلها محل شاهد القصة و ليست مقصوده بالأصالة على ما سيجىء.

قوله تعالى: «وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ» إذ ظرف متعلق بمحذوف كاذكر و نحوه، و غدوت من الغدو و هو الخروج غداه، و التبؤئه تهيئه المكان للغير أو إسكانه و إيطانه المكان، و المقاعد جمع، و أهل الرجل كما ذكره الراغب-من يجمعه و إياهم نسب أو بيت أو غيرهما كدين أو بلد أو صناعه، يقال:

أهل الرجل لزوجته و لمن في بيته من زوجه و ولد و خادم و غيرهم، و للمنتسبين إليه من عشيرته و عترته، و يقال: أهل بلد كذا لقاطنيه، و أهل دين كذا لمنتحليه، و أهل صناعه كذا لصناعاتها و أساتيدها، و يستوى فيه المذكر و المؤنث و المفرد و الجمع و يختص استعماله بالإنسان فأهل الشىء خاصته من الإنسان.

و المراد بأهل رسول الله ص خاصته و هم جمع، و ليس المراد به هاهنا شخص واحد بدليل قوله: غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ إذ يجوز أن يقال: خرجت من خاصتك و من جماعتك و لا- يجوز أن يقال: خرجت من زوجتك و خرجت من أمك، و لذا التجأ بعض المفسرين إلى تقدير في الآية فقال: إن التقدير: خرجت من بيت أهلك، لما فسر الأهل بالمفرد، و لا دليل يدل عليه من الكلام.

و سياق الآيات مبنى على خطاب الجمع و هو خطاب المؤمنين على ما تدل عليه الآيات السابقة و اللاحقه ففي قوله: وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ، التفات من خطابهم إلى خطاب رسول الله ص و كان الوجه فيه ما يلوح من آيات القصة من لحن العتاب فإنها لا- تخلو من شائبه اللوم و العتاب و الأسف على ما جرى و ظهر من المؤمنين من الفشل و الوهن في العزيمه و القتال، و لذلك أعرض عن مخاطبتهم في تضاعيف القصة و عدل إلى خطاب النبي ص فيما يخص به فقال: وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ، و قال: إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ، و قال: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، و قال: قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ، و قال: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ، و قال: وَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا الْآيَه.



فغير خطاب الجمع في هذه الموارد إلى خطاب المفرد، وهي موارد تحبس المتكلم الجارى في كلامه عن الجرى فيه لما تغيظه و تهيج وجده، بخلاف مثل قوله في ضمن الآيات: **وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ**، وقوله:

**وَ الرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ**، لأن العتاب فيهما بخطاب الجمع أوقع دون خطاب المفرد، و بخلاف مثل قوله في ضمن الآيات: **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ** الآية، لأن الامتنان ببعثه النبي ص مع أخذه غائبا أوقع و أشد تأثيرا فى النفوس، و أبعد من الوهم و الخطور، فتدبر فى الآيات تجد صحة ما ذكرناه.

و معنى الآية: و اذكر إذ خرجت بالغداه من أهلك تهيبى للمؤمنين مقاعد للقتال أو تسكنهم و توقفهم فيها و الله سميع لما قيل هناك، عليم بما أضمرته قلوبهم، و المستفاد من قوله: **وَ إِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ**، قرب المعركة من داره (ص) فيتعين بذلك أن الآيتين ناظرتان إلى غزوه أحد فتتصل الآيتان بالآيات الآتية النازله فى شأن أحد لانطباق المضامين على وقائع هذه الغزوه، و به يظهر ضعف ما قيل: إن الآيتين فى غزوه بدر، و كذا ما قيل: إنهما فى غزوه الأحزاب، و الوجه ظاهر.

قوله تعالى: **« وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ »** أى سميع يسمع ما قيل هناك، عليم يعلم ما كان مضمرا فى قلوبكم، و فيه دلالة على كلام جرى هناك بينهم، و أمور أضمرها فى قلوبهم، و الظاهر أن قوله: **إِذْ هَمَّتْ**، متعلق بالوصفين.

قوله تعالى: **« إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَ اللَّهُ وَئِيَهُمَا »** الهم ما هممت به فى نفسك و هو القصد، و الفشل ضعف مع الجبن.

و قوله **وَ اللَّهُ وَئِيَهُمَا**، حال و العامل فيه قوله: **هَمَّتْ**، و الكلام مسوق للعتاب و اللوم، و كذا قوله: **وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**، و المعنى: أنهما همتا بالفشل مع أن الله وليهما و لا ينبغى لمؤمن أن يفشل و هو يرى أن الله وليه، و مع أن المؤمنين ينبغى أن يكلوا أمرهم إلى الله و من يتوكل على الله فهو حسبه.

و من ذلك يظهر ضعف ما قيل: إن هذا الهم هم خطره لا- هم عزيمة لأن الله تعالى مدحهما، و أخبر أنه وليهما، و لو كان هم عزيمة و قصد لكان ذمهم أولى إلى مدحهم.

و ما أدرى ما ذا يريد بقوله: إنه هم خطره، أم مجرد الخطور بالبال و تصور مفهوم

الفشل؟ فجميع من هناك كان يخطر ببالهم ذلك، ولا معنى لذكر مثل ذلك في القصة قطعاً، ولا يسمى ذلك هما في اللغة، أم تصوراً معه شيء من التصديق، وخطورا فيه شوب قصد؟ كما يدل عليه ظهور حالهما عند غيرهما، ولو كان مجرد خطور من غير أى أثر لم يظهر أنهما همتا بالفشل، على أن ذكر ولايه الله لهم ووجوب التوكل على المؤمن إنما يلائم هذا الهم دون مجرد الخطور، على أن قوله: **وَ اللَّهُ وَ لِيَهُمَا**، ليس مدحاً بل لوم و عظه على ما يعطيه السياق كما مر.

و لعل منشأ هذا الكلام

ما روى عن جابر بن عبد الله الأنصارى أنه قال\*: **فينا نزلت، و ما أحب أنها لم تكن، لقوله: وَ اللَّهُ وَ لِيَهُمَا** ففهم من الرواية أن جابراً فهم من الآية المدح.

و لو صحت الرواية فإنما يريد جابر أن الله تعالى قبل إيمانهم و صدق كونهم مؤمنين حيث عد نفسه ولياً لهم، و الله ولى الذين آمنوا و الذين كفروا أولياؤهم الطاغوت، لا أن الجملة واقعه موقع المدح فى هذا السياق الظاهر فى العتاب.

قوله تعالى: **« وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ »** إلى آخر الآية ظاهر السياق أن تكون الآية مسوقه سوق الشاهد لتتميم العتاب و تأكيده فتكون تؤدى معنى الحال كقوله: **وَ اللَّهُ وَ لِيَهُمَا**، و المعنى: و ما كان ينبغى أن يظهر منكم الهم بالفشل و قد نصركم الله ببدر و أنتم أذله، و ليس من البعيد أن يكون كلاماً مستقلاً سيق مساق الامتنان بذكر نصر عجيب من الله بإنزال الملائكة لإمدادهم و نصرهم يوم بدر.

و لما ذكر تعالى نصره إياهم يوم بدر و قابل ذلك بما هم عليه من الحال - و من المعلوم أن كل من اعتر فإنما يعتر بنصر الله و عونه فليس للإنسان من قبل نفسه إلا الفقر و الذله - و لذلك قال: **وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ**.

و من هنا يعلم أن قوله: **وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ** لا ينافى أمثال قوله تعالى: **وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ**: المنافقون: ٨ فإن عزتهم إنما هى بعزه الله، قال تعالى: **فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً**: النساء: -١٣٩ و ذلك بنصر الله المؤمنين كما قال تعالى: **وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصِيرُ الْمُؤْمِنِينَ**: الروم: -٤٧ فإذا كان الحال هذا الحال فلو اعتبر حال المؤمنين من حيث

أنفسهم لم يكن لهم إلا الذله.

على أن واجهه حال المؤمنين أيضا يوم بدر كانت تقضى بكونهم أذله قبال ما كان عليه المشركون من القوه و الشوكه و الزينه، و لا ضير فى إضافه الذله النسبيه إلى الأعزه و قد أضافها الله سبحانه إلى قوم مدحهم كل المدح حيث قال: فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ: ﴿X﴾ الآية «المائدة: -٥٤».

قوله تعالى: «إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ»، الإمداد من المد و هو إيصال المدد على نعت الاتصال.

قوله تعالى: «بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فُورِهِمْ هَذَا»، بلى كلمه تصديق و الفور و الفوران: الغليان يقال: فار القدر إذا غلا و جاش، ثم أستعير للسرعه و العجله فاستعمل فى الأمر الذى لا ريث فيه و لا مهله فمعنى من فورهم هذا من ساعتهم هذه.

و الظاهر أن مصداق الآية هو يوم بدر، و إنما هو وعد على الشرط و هو ما يتضمنه قوله: إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فُورِهِمْ هَذَا .

و أما ما يظهر من بعض المفسرين أنه وعد بإنزال الملائكه إن جاءوهم بعد فورهم هذا يعنى يوم بدر بأن يكون المراد مِّن فُورِهِمْ هَذَا هو يوم بدر لا- فى يوم بدر، و كذا ما يظهر من بعض آخر أنه وعد بإنزالهم فى سائر الغزوات بعد بدر كأحد و حين و الأحزاب فمما لا دليل عليه من لفظ الآية.

أما يوم أحد فلا- محل لاستفاده نزول الملائكه فيه من الآيات و هو ظاهر، و أما يوم الأحزاب و يوم حنين فالقرآن و إن كان يصرح بنزول الملائكه فيهما فقد قال فى قصه الأحزاب: إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا: «الأحزاب: -٩» و قال: وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ ﴿X﴾ إِلَىٰ أَنْ قَالَ ﴿X﴾: وَ أَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا: «التوبه: -٢٦» إلا أن لفظ هذه الآية: بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فُورِهِمْ هَذَا، قاصر عن إفاده عموم الوعد.

و أما نزول ثلاثه آلاف يوم بدر فلا ينافى قوله تعالى فى سوره الأنفال: فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ: «الأنفال: -٩» لمكان قوله: مُرَدِّينَ أى متبعين لآخرين و هم الألفان الباقيان المكملان للعدد على ما ذكر فى هذه الآيات.

قوله تعالى: «وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا لَكُمْ»، الضمير راجع إلى الإمداد، ولفظه عند ظرف يفيد معنى الحضور، وقد كان أولاً مستعملاً في القرب والحضور المكاني المختص بالأجسام ثم توسع فاستعمل في القرب الزماني ثم في مطلق القرب والحضور المعنوي كيفما كان، وقد استعمل في القرآن في مختلف الفنون.

و الذى يفيد فى هذا المقام أعنى قوله: وَمَا النَّصِيرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ بالنظر إلى ما سبقه من قوله: وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ هو المقام الربوبى الذى ينتهى إليه كل أمر وحكم، ولا يكفى عنه ولا يستقل دونه شىء من الأسباب، فالمعنى: أن الملائكة الممددين ليس لهم من أمر النصر شىء بل هم أسباب ظاهره يجلبون لكم البشرى وطمأنينه القلب، وإنما حقيقه النصر من الله سبحانه لا يغنى عنه شىء، وهو الله الذى ينتهى إليه كل أمر، العزيز الذى لا يغلب، الحكيم الذى لا يجهل.

قوله تعالى: «لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ» إلى آخر الآيات، اللام متعلق بقوله: وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ، وقطع الطرف كناية عن تقليل عدتهم وتضعيف قوتهم بالقتل والأسر كما وقع يوم بدر فقتل من المشركين سبعون وأسروا سبعون، والكبت هو الإخزاء والإغاظه.

وقوله: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ معترضه، وفائدتها بيان أن الأمر فى القبط والكبت لله، وليس للنبي ص فيه صنع حتى يمدحوه ويستحسنوا تدبيره إذا ظفروا على عدوهم ونالوا منه، ويلوموه ويوبخوه إذا دارت الدائرة عليهم ويهنوا ويحزنوا كما كان ذلك منهم يوم أحد على ما حكاها الله تعالى.

وقوله: أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ معطوف على قوله: لِيَقْطَعَ، والكلام متصل، وقوله:

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

، بيان لرجوع أمر التوبة والمغفرة إلى الله تعالى، والمعنى: أن هذا التدبير المتقن منه تعالى إنما هو ليقطع طرفاً من المشركين بالقتل والأسر أو ليخزيهم ويخيبهم فى سعيهم أو ليتوب عليهم أو ليعذبهم، أما القبط والكبت فلا من الأمر إليه لا إليك حتى تمدح أو تدم، وأما التوبة والعذاب فلا من الله هو المالك لكل شىء فيغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، ومع ذلك فإن مغفرته ورحمته تسبقان عذابه وغضبه فهو الغفور الرحيم.

و إنما أخذنا قوله: وَ لِلَّهِ مَلَكٌ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَلَكٌ فِي الْأَرْضِ، في موضع التعليل للفقرتين الأخيرتين أعنى قوله: أَوْ يَتُوبَ اه، لما في ذيله من اختصاص البيان بهما أعنى قوله: يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ .

و قد ذكر المفسرون وجوهاً أخر في اتصال قوله: لِيَقْطَعَ طَرَفًا، و في معنى العطف في قوله: أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ، و كذا في ما يعلله قوله: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، و ما يعلله قوله: وَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ، أغمضنا عن التعرض لها و البحث عنها لقله الجدوى فيها لمخالفتها ما يفيدُه ظاهر الآيات بسياقها الجارى، فمن أراد الاطلاع عليها فليراجع مطولات التفاسير.

## بحث روائى

في المجمع: عن الصادق (ع) أنه قال \* كان سبب غزوه أحد أن قريشا لما رجعت من بدر إلى مكة - و قد أصابهم ما أصابهم من القتل و الأسر، لأنه قتل منهم سبعون و أسر سبعون - قال أبو سفيان: يا معشر قريش - لا تدعوا نساءكم تبكين على قتلاكم - فإن الدمعه إذا خرجت أذهبت الحزن و العداوه لمحمد - فلما غزوا رسول الله ص يوم أحد - أذنوا لنسائهم في البكاء و النوح، و خرجوا من مكة في ثلاثه آلاف فارس - و ألفى راجل و أخرجوا معهم النساء.

فلما بلغ رسول الله ص ذلك - جمع أصحابه و حثهم على الجهاد - فقال عبد الله بن أبي بن سلول: يا رسول الله - لا - تخرج من المدينة حتى نقاتل في أزقتها - فيقاتل الرجل الضعيف و المرأه و العبد و الأمه - على أفواه السكك و على السطوح - فما أرادنا قوم قط فظفروا بنا - و نحن في حصوننا و دورنا، و ما خرجنا إلى عدو لنا قط إلا كان الظفر لهم علينا.

فقام سعد بن معاذ و غيره من الأوس فقالوا: يا رسول الله ما طمع فينا أحد من العرب - و نحن مشركون نعبد الأصنام - فكيف يطمعون فينا و أنت فينا؟ لا حتى نخرج إليهم فنقاتلهم - فمن قتل منا كان شهيدا، و من نجا منا كان قد جاهد في سبيل الله.

فقبل رسول الله ص رأيه، و خرج مع نفر من أصحابه يتبوءون موضع القتال - كما قال تعالى: وَ إِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ الْآيَةَ - و قعد عنه عبد الله بن أبي بن سلول، و جماعه

من الخزرج اتبعوا رأيه.

و وافق قريش إلى أحد-و كان رسول الله عباً أصحابه و كانوا سبعمائه رجل- و وضع عبد الله بن جبير في خمسين من الرماة- على باب الشعب، و أشفق أن يأتي كمينهم من ذلك المكان، فقال لعبد الله بن جبير و أصحابه: إن رأيتمونا قد هزمتناهم حتى أدخلناهم مكة- فلا تبرحوا من هذا المكان، و إن رأيتمهم هزمتناهم حتى أدخلونا المدينة- فلا تبرحوا و الزموا مراكزكم.

و وضع أبو سفيان خالد بن الوليد في مائتي فارس كميناً، و قال: إذا رأيتمونا قد اختلطنا فخرجوا عليهم- من هذا الشعب حتى تكونوا وراءهم-.

و عباً رسول الله ص أصحابه، و دفع الراية إلى أمير المؤمنين (ع)- و حمل الأنصار على مشركي قريش- فانهزموا هزيمة قبيحة، و وضع أصحاب رسول الله ص في سوادهم- و انحط خالد بن الوليد في مائتي فارس على عبد الله بن جبير- فاستقبلوهم بالسهم فرجع، و نظر أصحاب عبد الله بن جبير إلى أصحاب رسول الله ص- ينتهبون سواد القوم- فقالوا لعبد الله بن جبير: قد غنم أصحابنا و نبقى نحن بلا غنيمه؟ فقال لهم عبد الله: اتقوا الله- فإن رسول الله قد تقدم إلينا أن لا نبرح، فلم يقبلوا منه، و أقبلوا ينسل رجل فرجل حتى أدخلوا مراكزهم، و بقي عبد الله بن جبير في اثني عشر رجلاً.

و كانت راية قريش مع طلحة بن أبي طلحة العبدى- من بني عبد الدار فقتله علي، و أخذ الراية أبو سعيد بن أبي طلحة- فقتله علي و سقطت الراية- فأخذها مسافع بن أبي طلحة فقتله علي- حتى قتل تسعة نفر من بني عبد الدار- حتى صار لواؤهم إلى عبد لهم أسود يقال له: صواب- فانتهى إليه علي فقطع يده اليمنى فأخذ اللواء باليسرى فضرب يسراه فقطعها- فاعتنقها بالجذماوين إلى صدره، ثم التفت إلى أبي سفيان فقال: هل عذرت في بني عبد الدار؟ فضربه علي على رأسه فقتله، و سقط اللواء فأخذتها غمره بنت علقمه الكنانية فرفعتها-.

و انحط خالد بن الوليد على عبد الله بن جبير- و قد فر أصحابه و بقي في نفر قليل- فقتلهم علي باب الشعب ثم أتى المسلمين من أدبارهم، و نظرت قريش في هزيمتها إلى الراية قد رفعت فلاذوا بها، و انهزم أصحاب رسول الله ص هزيمة عظيمة،

و أقبلوا يصعدون في الجبال و في كل وجه-

فلما رأى رسول الله ص الهزيمة كشف البيضة عن رأسه- وقال: إلى أنا رسول الله- إلى أين تفرون عن الله و عن رسوله؟ و كانت هند بنت عتبة في وسط العسكر- فكلما انهزم رجل من قريش دفعت إليه ميلا و مكحله، و قالت: إنما أنت امرأه فاكتحل بهذا.

و كان حمزه بن عبد المطلب يحمل على القوم- فإذا رأوه انهزموا و لم يثبت له أحد، و كانت هند قد أعطت وحشيا عهدا- لئن قتلت محمدا أو عليا أو حمزه لأعطينك كذا و كذا، و كان وحشى عبدا لجبير بن مطعم حبشيا- فقال وحشى: أما محمد فلم أقدر عليه، و أما علي فرأيتته حذرا كثيرا الالتفات فلا- مطمع فيه، فكمنت لحمزه فرأيتته يهد الناس هدا- فمر بي فوطئ على جرف نهر فسقط، و أخذت حربتي فهزرتها و رميته بها- فوقع في خصرته و خرجت من ثنته- فسقط فأتيتته فشقت بطنه، و أخذت كبده، و جئت به إلى هند- فقلت هذه كبد حمزه، فأخذتها في فمها فلا كتها- فجعله الله في فمها مثل الداعضة- و هي عظم رأس الركبة- فلفظتها و رمت بها، فقال رسول الله (ع):

فبعث الله ملكا فحملة و رده إلى موضعه- قال: فجاءت إليه فقطعت مذاكيره، و قطعت أذنيه، و قطعت يده و رجله- و لم يبق مع رسول الله ص إلا أبو دجانة سماك بن خرشه و علي، فكلما حملت طائفه على رسول الله استقبلهم على- فدفعهم عنه حتى تقطع سيفه- فدفع إليه رسول الله ص سيفه ذا الفقار، و انحاز رسول الله ص إلى ناحيه أحد فوقف- فلم يزل على (ع) يقاتلهم حتى أصابه في رأسه و وجهه- و بدنه و بطنه و رجله سبعون جراحه، كذا أورده علي بن إبراهيم في تفسيره- فقال جبرائيل:

إن هذه لهي المواساه يا محمد، فقال محمد ص إنه منى و أنا منه- فقال جبرائيل: و أنا منكما-

قال أبو عبد الله: نظر رسول الله ص إلى جبرائيل- بين السماء و الأرض على كرسى من ذهب و هو يقول: لا سيف إلا ذو الفقار و لا فتى إلا علي.

و في روايه القمي " \* و بقيت مع رسول الله ص نسيبه بنت كعب المازنيه - و كانت تخرج مع رسول الله ص في غزواته تداوى الجرحى - و كان ابنها معها فأراد أن ينهزم و يتراجع - فحملت عليه و قالت: يا بني - إلى أين تفر عن الله و عن رسوله،

فردته فحمل عليه رجل فقتله، فأخذت سيف ابنها-فحملت على الرجل فضربتته على فخذه فقتلته، فقال رسول الله ص: بارك الله فيك يا نسيبه، و كانت تقى رسول الله بصدورها و ثديها-حتى أصابتها جراحات كثيرة.

و حمل ابن قمئه على رسول الله ص و قال:أرونى محمدا لا نجوت إن نجا، فضربه على جبل عاتقه، و نادى:قتلت محمدا و اللات و العزى.

أقول:و فى القصة روايات أخر ربما تخالف هذه الروايه فى بعض فقراتها.

منها:ما فى هذه الروايه أن عدّه المشركين كانت خمسّه آلاف فإن غالب الروايات أنهم كانوا ثلاثه آلاف رجل.

و منها:ما فيها أن عليا(ع)قتل حاملى الرايه و هم تسعه و يوافقها فيه روايات أخر، و رواه ابن الأثير فى الكامل عن أبى رافع، و بقيه الروايات تنسب قتل بعضهم إلى غيره(ع)و التدبر فى القصة يؤيد ما فى هذه الروايه.

و منها:ما فيها أن هنداً أعطت وحشياً عهداً فى قتل حمزه فإن ما روته أهل السنه أن الذى أعطاه العهد مولاه جبير بن مطعم و عدّه تحريره على الشرط، و إتيانه بكبد حمزه إلى هند دون جبير يؤيد ما فى هذه الروايه.

و منها:ما فيها أن جميع المسلمين تفرقوا عن رسول الله ص إلا على و أبو دجانة و هو الذى اتفقت عليه الروايات، و فى بعضها ذكر لغيرهما حتى أنهى من ثبت مع رسول الله ص إلى ثلاثين رجلاً- لكن هذه الروايات ينفى بعضها ما فى بعض، و عليك بالتدبر فى أصل القصة و القرائن التى تبين الأحوال حتى يخلص لك الحق، فإن هذه القصص و الروايات شهدت مواقف موافقه و مخالفه و مرت بأجواء نيره و مظلمه حتى انتهت إلينا.

و منها:ما فيها أن الله بعث ملكاً فحمل كبد حمزه فردّه إلى موضعه، و ليس فى غالب الروايات، و فى بعضها كما فى الدر المنثور عن ابن أبى شيبه و أحمد و ابن المنذر عن ابن مسعود فى حديث قال:ثم قال أبو سفيان:قد كان فى القوم مثله و إن كانت لمن غير ملائنا ما أمرت و لا نهيت، و لا أحببت و لا كرهت، و لا ساءنى و لا سرنى،



قال فنظروا فإذا حمزه قد بقر بطنه، وأخذت هند كبده فلاكتها فلم تستطع أن تأكلها فقال رسول الله ص: أأكلت شيئا؟ قالوا: لا قال: ما كان الله ليدخل شيئا من حمزه النار، الحديث.

و في روايات أصحابنا وغيرهم: أن رسول الله ص أصيب يومئذ بشججه في جبهته، وكسرت ربايعيته: واشتكت ثنيته رواه غيره.

و في الدر المنثور، أخرج ابن إسحاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر عن ابن شهاب، ومحمد بن يحيى بن حيان، وعاصم بن عمرو بن قتاده، والحسين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، وغيرهم كل قد حدث بعض الحديث عن يوم أحد.

قالوا: لما أصيب قريش أو من ناله منهم يوم بدر من كفار قريش ورجع فلهم إلى مكه، ورجع أبو سفيان بعيره مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمه بن أبي جهل و صفوان بن أمية في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم بيدركم فكلما أبا سفيان بن حرب و من كانت له في تلك العير من قريش تجاره فقالوا: يا معشر قريش إن محمدا قد وترككم و قتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربنا لعلنا ندررك منه ثأرا بمن أصاب، ففعلوا فأجمعت قريش لحرب رسول الله ص و خرجت بجدها و جديدها، و خرجوا معهم بالظعن التماس الحفيظه و لثلا يفروا، و خرج أبو سفيان و هو قائد الناس فأقبلوا حتى نزلوا بعينين جبل بطن السنجه من قناه على شفير الوادى مما يلي المدينه.

فلما سمع بهم رسول الله ص و المسلمون بالمشركين قد نزلوا حيث نزلوا قال رسول الله ص: \*إني رأيت بقرا تنحرو، و رأيت في ذباب سيفى ثلما، و رأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينه فأولتها المدينه فإن رأيتم أن تقيموا المدينه و تدعوهم حيث نزلوا فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، و إن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها.

و نزلت قريش منزلها أحدا يوم الأربعاء فأقاموا ذلك اليوم و يوم الخميس و يوم الجمعة، و راح رسول الله ص حين صلى الجمعة فأصبح بالشعب من أحد فالتقوا يوم السبت للنصف من شوال سنه ثلاث.

و كان رأى عبد الله بن أبى مع رأى رسول الله ص يرى رأيه فى ذلك أن لا

يخرج إليهم، و كان رسول الله ص يكره الخروج من المدينة فقال رجال من المسلمين- ممن أكرم الله بالشهادة يوم أحد و غيرهم ممن كان فاته يوم بدر و حضوره-:يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أننا جينا عنهم و ضعفنا فقال عبد الله بن أبي:يا رسول الله أقم بالمدينة فلا- تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا- أصاب منا، و لا دخلها علينا إلا أصبنا منهم فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر، و إن دخلوا قاتلهم النساء و الصبيان و الرجال بالحجارة من فوقهم، و إن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا، و لم يزل الناس برسول الله ص الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم حتى دخل رسول الله ص فلبس لأمته، و ذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة ثم خرج عليهم و قد ندم الناس، و قالوا:استكرهنا رسول الله ص و لم يكن لنا ذلك فإن شئت فاقعد فقال رسول الله ص: ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل.

فخرج رسول الله في ألف رجل من أصحابه حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة و أحد تحول عنه عبد الله بن أبي بثلاث الناس، و مضى رسول الله ص حتى سلك في حره بني حارثه فذب فرس بذنبه فأصاب ذباب سيفه فاستله فقال رسول الله ص -و كان يحب الفال و لا يعتاف- لصاحب السيف:شم سيفك فإنى أرى السيوف ستستل اليوم، و مضى رسول الله ص حتى نزل بالشعب من أحد من عدوه الوادى إلى الجبل فجعل ظهره و عسكره إلى أحد، و تبعاً رسول الله ص للقتال و هو فى سبعمائه رجل.

و أمر رسول الله ص على الرماه عبد الله بن جبير-و الرماه خمسون رجلا- فقال:انضح عنا الجبل بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كان علينا أو لنا فأنت مكانك لتؤتين من قبلك، و ظاهر رسول الله ص بين درعين.

و فى الدر المنثور، أيضا عن ابن جرير عن السدى فى حديث " \*: و خرج رسول الله ص إلى أحد فى ألف رجل، و قد وعدهم الفتح أن يصبروا- فرجع عبد الله بن أبي فى ثلاثمائة- فتبعهم أبو جابر السلمى يدعوهم فأعيوه، و قالوا له: ما نعلم قتالا و لئن أطعنا لترجع معنا.

و قال: إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا، و هم بنو سلمه و بنو حارثه- هموا

بالرجوع حين رجع عبد الله بن أبي فعصمهم الله، وبقى رسول الله ص في سبعائه.

أقول: بنو سلمه و بنو حارثه حيان من الأنصار فبنو سلمه من الخزرج و بنو حارثه من الأوس.

و في المجمع: روى ابن أبي إسحاق و السدى و الواقدي و ابن جرير و غيرهم و قالوا:\*

كان المشركون نزلوا بأحد يوم الأربعاء- في شوال سنة ثلاث من الهجرة، و خرج رسول الله ص إليهم يوم الجمعة، و كان القتال يوم السبت النصف من الشهر، و كسرت ربايعه رسول الله ص و شج في وجهه- ثم رجع المهاجرون و الأنصار بعد الهزيمة- و قد قتل من المسلمين سبعون، و شد رسول الله بمن معه حتى كشفهم، و كان المشركون مثلوا بجماعه، و كان حمزه أعظم مثله.

أقول: الروايات في قصه أحد كثيره جدا و لم نرو من بينها فيما تقدم و يأتي إلا النزر اليسير الذي يتوقف عليها فهم معانى الآيات النازله فيها، فالآيات في شأن القصه أقسام:

فمنها: ما تتعرض لفشل من فشل من القوم و تنازع أو هم أن يفشل يومئذ.

و منها: ما نزل و لحنه العتاب و اللوم على من انهزم و انكشف عن رسول الله ص و قد كان الله حرم عليهم ذلك.

و منها: ما يتضمن الثناء على من استشهد قبل انهزام الناس، و من ثبت و لم يهزم و قاتل حتى قتل.

و منها: ما يشتمل على الثناء الجميل على من ثبت إلى آخر الغزوه و قاتل و لم يقتل.

### [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٣٠ الى ١٣٨]

#### إشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَ اتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَ سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَ الْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَ الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَاسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدًى وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨)

آيات داعيه إلى الخير، زاجره عن الشر و السوء، و هي مع ذلك لا تفقد الاتصال بما قبلها و لا ما بعدها من الآيات الشارحه لقصه غزوه أحد، و بيان ما كان في المؤمنين يومئذ من مساوي الحالات و الخصال المذمومه التي لا يرتضيها الله سبحانه، و هي الموجه لما دب فيهم من الوهن و الضعف و معصيه الله و رسوله، فالآيات من تتمه الآيات النازله في غزوه أحد.

ثم هدايتهم إلى ما يأمنون به الوقوع في هذه الورطات المهلكه، و العقبات المرديه و دعوتهم إلى تقوى الله و الثقه به و الثبات على طاعه الرسول، فهذه الآيات التسع خاصه فيها ترغيب و تحذير، فهي ترغب المؤمنين على المسارعه إلى الخير و هي الإنفاق في سبيل الله في السراء و الضراء، و كظم الغيظ و العفو عن الناس، و يجمعها بث الإحسان و الخير

فى المجتمع، و الصبر على تحمل الأذى و السوء، و الصفرح عن الإساءة قباله الإساءة، فهذه هى الطررقه الوحده التى تستحفظ بها حياه المجتمع و يشد بها عظمه فىقوم على ساق، و من لوازم هذا الإنفاق و الإحسان ترك الربا و لذلك بدأ به، و هو كالتوطئه للدعوه إلى الإحسان و الإنفاق، فقد مر فى آيات الإنفاق و الربا من سورة البقره أن الإنفاق بجمع طرفه من أعظم ما يعتمد عليه بنىه المجتمع، و أنه الذى ينفخ روح الوحده فى المجتمع الإنسانى فتتحد به قواه المتفرقه فتنال بذلك سعاده فى الحياه، و يقوى به على دفع كل آفه مهلكه أو موزيه تقصده، و إن الربا من أعظم ما يضاد الإنفاق فى خاصته هذه.

فهذا ما يرغبهم الله فىه ثم يرغبهم فى أن لا- ينقطعوا عن ربهم بقواطع الذنوب و المعاصى فإن أتوا بما لا- يرضاه لهم ربهم تداركوه بالتوبه و الرجوع إليه ثانيا و ثالثا من غير أن يكسلوا أو يتوانوا، و بهذين الأمرين يستقيم سيرهم فى صراط الحياه السعيده فلا يضلون و لا يقفون فيهلكوا.

و هذا البيان كما ترى أحسن طريق يهذى به الإنسان إلى تكميل نفسه بعد ظهور النقص و أجود سبيل فى علاج الرذائل النفسانيه التى ربما دبت فى النفوس المحلاه بالفضائل فأورثت السفال و السقوط و هددت بالهلكه و الردى.

### تعليم القرآن و قرانه العلم بالعمل

و هذا من دأب القرآن فى تعليمه الإلهى إذ لم يزل يجعل فى مده نزولها- و هى ثلاث و عشرون سنه- لكليات تعاليمه مواد أوليه حتى إذا عمل بشىء منها أخذ صورته العمل الواقع ماضه لتعليمهم ثانيا فألقاها إليهم بعد إصلاح الفاسد من أجزائه و تركيبه بالصحيح الباقى، و ذم الفاسد، و الثناء على الصحيح المستقيم و الوعد الجميل و الشكر الجزيل لفاعله، فكتاب الله العزيز كتاب علم و عمل لا كتاب فرض و تقدير، و لا كتاب تعميمه و تقليد.

فمثله مثل المعلم يلقى إلى تلامذته الكليات العلميه فى أوجز بيان و أقصر لفظ و يأمرهم بالعمل بها ثم يأخذ ما عملوه ثانيا و يحلله إلى أوائل أجزائه من صحيح و فاسد فيبين لهم موارد النقص و القصور مشفعه بالعظه و الوعيد، و يمدح موارد الاستقامه و الصحه و يقارنها بالوعد و الشكر و يأمرهم بالعمل ثانيا، و هذا فعاله حتى يكملوا فى

فهم و يسعدوا في جدهم.

و هذا الذى ذكرناه من الحقائق القرآنيه اللائحه للمتدبر الدقيق فى بادئ مره فتراه سبحانه ينزل كليات الجهاد مثلا فى آياته بادئ مره: كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ۖ الْآيَاتُ ۖ X:

«البقره» ٢١٦ و يأمر المؤمنين به فيها ثم يأخذ قصه بدر ثانيا و يأمرهم بما يبين لهم فيها ثم قصه أحد ثم قصه أخرى و هكذا، و تراه سبحانه يقص قصص السابقين من الأنبياء و أممهم ثم يجعلها بعد إصلاحها و بيان وجه الحق فيها عبره للاحقين و دستورا لعملهم و هكذا، و قد نزل فى هذه الآيات من هذا القبيل قوله: فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ الْآيَةَ، و قوله:

وَ كَأَيُّنْ مِنْ نَبِيِّ الْآيَاتِ..

### [بيان]

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾ إلى آخر الآيات الثلاث قد مر سابقا وجه إطلاق الأكل و إرادته الأخذ، و قوله: أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً يشير إلى الوصف الغالب فى الربا فإنه بحسب الطبع يتضاعف فيصير المال أضعافا مضاعفه بإنفاذ مال الغير و ضمه إلى رأس المال الربوى.

و فى قوله: وَ اتَّقُوا الذَّارِئَاتِ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ، إشاره إلى كفر آكل الربا كما مر فى سورة البقره فى آيات الربا: وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ: «البقره: ٢٧٦».

قوله تعالى: «سَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ»، المسارعه هى الاشتداد فى السرعة و هى ممدوحه فى الخيرات، و مذمومه فى الشرور.

و قد قورن فى القرآن الكريم المغفره بالجنه فى غالب الموارد، و ليس إلا لأن الجنه دار طهاره لا يدخل فيها قذارات المعاصى و الذنوب و أدرانها، و لا من تقذر بها إلا بعد المغفره و الإزاله.

و المغفره و الجنه المذكورتان فى هذه الآيه تحاذيان ما فى الآيتين التاليتين، أما المغفره فتحاذى ما فى قوله: وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاجِسَةً، و أما الجنه فتحاذى ما فى قوله:

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ

و أما قوله: جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، فالمراد بالعرض السعه و هو استعمال شائع، و كان التعبير كناية عن بلوغها فى السعه غايتها أو ما لا يحدها الوهم البشرى، و له معنى آخر سنشير إليه فى البحث الروائى الآتى.

وقوله: «عَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ كَالْوِطْئِ الَّذِي يَلْمِزُكَ لِيُذَكَّرَ لَكَ مَا يَدَّكُرُ بَعْدَ مَا يَذُكَّرُ مِنْ أَوْصَافِ الْمُتَّقِينَ، فَإِنَّ الْغُرُضَ هُوَ بَيَانُ الْأَوْصَافِ الَّتِي تَرْتَبِطُ بِحَالِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْمَقَامِ أَعْنَى عِنْدَ نَزْوْلِ هَذِهِ الْآيَاتِ وَقَدْ نَزَلَتْ بَعْدَ غَزْوِهِ أَحَدٌ وَقَدْ جَرَى عَلَيْهِمْ وَمِنْهُمْ مَا جَرَى مِنَ الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ وَالْمُخَالَفَةِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مُشْرِفُونَ عَلَى غَزَوَاتٍ أُخْرَى مِثْلَهَا، وَحَوَادِثُ تَشَابَهَتْهَا، وَبِهِمْ حَاجَةٌ إِلَى الْإِتْحَادِ وَالْإِتْفَاقِ وَالتَّلَاوُمِ.

قوله تعالى: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ» إلى آخر الآيه السراء والضراء ما يسر الإنسان وما يسوؤه أو اليسر والعسر، والكظم في الأصل هو شد رأس القربة بعد ملئها فاستعير للإنسان إذا امتلأ حزناً أو غضباً، والغيط هيجان الطبع للانتقام بمشاهدته كثره ما لا يرتضيه، بخلاف الغضب فهو إرادته الانتقام أو المجازاه، ولذلك يقال: غضب الله ولا يقال: اغتاظ.

وفي قوله: «وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»، إشارته إلى أن ما ذكره من الأوصاف معرف لهم، وإنما هو معرف للمحسنين في جنب الناس بالإحسان إليهم، وأما في جنب الله فمعرفهم ما في قوله تعالى: «وَبُشِّرِ لِلْمُحْسِنِينَ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ Xالآيات X: (الأحقاف: ١٣)» بل هذا الإحسان المذكور في هذه الآيات هو المحتد للمذكور في قوله: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ»، الآيه فإن الإنفاق ونحوه إذا لم يكن لوجه الله لم يكن له منزله عند الله سبحانه على ما يدل عليه قوله تعالى فيما سبق من الآيات: «مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْآيَةَ وَغَيْرِهِ.

ويدل على ما ذكرناه قوله تعالى: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ»: العنكبوت-٦٩، فإن هذا الجهاد هو بذل الجهد ولا يكون إلا- فيما يخالف هوى النفس ومقتضى الطبع، ولا يكون إلا إذا كان عندهم إيمان بأمور يقتضى الجرى على مقتضاها، والثبات عليها مقاومه بإزاء ما يحبه طبع الإنسان وتشتهيه نفسه، ولازمه بحسب القول والاعتقاد أن يكونوا قائلين ربنا الله وهم مستقيمون عليه، وبحسب العمل أن يقيموا هذا القول بالجهاد في عبادة الله فيما بينهم وبين الله، وبالإنفاق وحسن العشرة فيما بينهم وبين الناس، فتحصل مما ذكرنا أن الإحسان إتيان الأعمال على وجه الحسن من جهة الاستقامه والثبات على الإيمان بالله سبحانه.

قوله تعالى: «الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» إلى قوله: «وَنِعَمَ

الفاحشه ما تتضمن الفحش و القبيح من الأفعال، و شاع استعماله فى الزنا، فالمراد بالظلم بقريته المقابله سائر المعاصي الكبيره و الصغيره، أو خصوص الصغائر على تقدير أن يراد بالفاحشه المنكر من المعاصى و هى الكبائر، و فى قوله: ذَكُرُوا اللَّهَ إِخْلًا دلاله على أن الملاك فى الاستغفار أن يدعو إليه ذكر الله تعالى دون مجرد التلفظ باعتياد و نحوه، و قوله: وَ مَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ تشويق و إيقاظ لقريحه اللواذ و الالتجاء فى الإنسان.

و قوله: وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلَيَّ مَا فَعَلُوا وَ هُمْ يَغْلُمُونَ، إنما قيد به الاستغفار لأنه يورث فى النفس هيئه لا ينفع معه ذكر مقام الرب تعالى و هى الاستهانه بأمر الله، و عدم المبالاه بهتك حرمانه، و الاستكبار عليه تعالى، و لا تبقى معه عبوديه و لا ينفع معه ذكر، و لذلك بعينه قيده بقوله: وَ هُمْ يَغْلُمُونَ، و هذه قريته على كون الظلم فى صدر الآيه يشمل الصغائر أيضا، و ذلك أن الإصرار على الذنب يستوجب الاستهانه بأمر الله و التحقير لمقامه سواء كان الذنب المذكور من الصغائر أو الكبائر، فقوله: مَا فَعَلُوا أَعْمَ مِنَ الْكَبِيرَةِ، و المراد بما فعلوا هو الذى ذكر فى صدر الآيه، و إذ ليست الصغيره فاحشه فهو ظلم النفس لا محاله.

و قوله: أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ مَغْفِرَةٌ بَيَانٌ لِّأَجْرِهِمْ الْجَزِيلِ، و ما ذكره تعالى فى هذه الآيه هو عين ما أمر بالمسارعه إليه فى قوله: وَ سَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ إِخْلًا وَ مِنْ ذَلِكَ يَعْلَمُ أَنَّ الْأَمْرَ إِنَّمَا كَانَ بِالْمَسَارِعَةِ إِلَىٰ الْإِنْفَاقِ وَ كَظْمِ الْغِيظِ وَ الْعَفْوِ عَنِ النَّاسِ وَ الْاسْتِغْفَارِ.

قوله تعالى: «قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسَتَبْرُوا»، السنن جمع سنه و هى الطريقه المسلوكه فى المجتمع، و الأمر بالسير فى الأرض لمكان الاعتبار بآثار الماضين من الأمم الغابره، و الملوك و الفراعنه الطاغيه حيث لم ينفعهم شواهد قصورهم، و لا ذخائر كنوزهم، و لا عروشهم و لا جموعهم، و قد جعلهم الله أحاديث يعتبر بها المعتبرون، و يتفكك بها المغفلون.

و أما حفظ آثارهم و كلاءه تماثيلهم و الجهد فى الكشف عن عظمتهم و مجدهم الظاهر الدنيوى الذى فى أيامهم فمما لا يعتنى به القرآن، فإنما هى الوثنيه التى لا تزال تظهر كل حين فى لباس، و سنبحث إن شاء الله فى هذا المعنى فى بحث مستقل نحلل فيه معنى الوثنيه.



قوله تعالى: «لِيُبَيِّنَ لِلنَّاسِ» الآية التقسيم باعتبار التأثير فهو بلاغ وإبانه لبعض و هدى و موعظه لآخرين.

## بحث روائى

فى المجمع،: فى قوله تعالى: جَنَّهُ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ،: عن النبى ص\* أنه سئل إذا كانت الجنة عرضها السماوات و الأرض-فأين تكون النار؟ فقال(ص):

سبحان الله إذا جاء النهار فأين الليل؟ أقول: و رواه السيوطى فى الدر المنثور، عن التنوخى "فى كتاب جاء به من هرقل إلى رسول الله ص-يسأله عن هذه الآية فأجاب عنها بذلك ،

و رواه أيضا بطريق آخر عن أبى هريره": أن رجلا سأله عن ذلك فأجاب بذلك.

و ما فسر كلامه(ص) بأن المراد كون النار فى علم الله تعالى-كما أن الليل عند مجيء النهار فى علم الله تعالى-فإن أريد أن النار لا يعزب عن علمه تعالى فمن المعلوم أن هذا الجواب لا يدفع الإشكال فإن السؤال إنما هو عن مكان النار لا عن علم الله تعالى بها،و إن أريد أن من الممكن أن يكون هناك مكان آخر وراء السماوات و الأرض تكون النار متمكنه فيها فهو و إن لم يكن مستبعدا فى نفسه لكن مقايسه الجنة و النار بالنهار و الليل حيث لا تكون فى محلها،فإن الليل لا يخرج عن حيطه السماوات و الأرض عند مجيء النهار فالحق أنه تفسير غير مرضى.

و أظن أن الروايه ناظره إلى معنى آخر و توضيحه: أن الآخرة بنعيمها و جحيمها و إن كانت مشابهه للدنيا و لذائذها و آلامها و كذلك الإنسان الحال فيها و إن كان هو الإنسان الذى فى الدنيا بعينه على ما هو مقتضى ظواهر الكتاب و السنه غير أن النظام الحاكم فى الآخرة غير النظام الحاكم فى الدنيا،فإنما الآخرة دار أبدية و بقاء،و الدنيا دار زوال و فناء،و لذلك كان الإنسان يأكل و يشرب و ينكح و يتمتع فى الجنة فلا يعرضه ما يعرض هذه الأفعال فى الدنيا،و كذلك الإنسان يحترق بنار الجحيم،و يقاسى الآلام و المصائب فى مأكله و مشربه و مسكنه و قرينه فى النار و لا يطرأ عليه ما يطرأ عليه معها و هو فى الدنيا،و يعمر عمر الأبد و لا يؤثر فيه ذلك كهوله أو شيبا أو هرما

و هكذا، وليس إلا- أن العوارض و الطوارئ المذكوره من لوازم النظام الدنيوى دون مطلق النظام الأعم منه و من النظام الأخرى، فالدنيا دار التراحم و التمانع دون الآخرة.

و مما يدل عليه أن الذى نجده فى ظرف مشاهدتنا من الحوادث الواقعه يغيب عنا إذا شاهدنا غيره ثانيا كحوادث الأمس و حوادث اليوم، و الليل و النهار و غير ذلك، و أما الله سبحانه فلا يغيب عنه هذا الذى نشاهده أولا و يغيب عنا ثانيا و لا الذى نجده بعده و لا- مزاحمه بينهما، فالليل و النهار و كذا الحوادث المقارنه لهما متراحمات متمانعات بحسب نظام المادة و الحركه، و هى بعينها لا- تتراحم و لا تتمانع بحسب نظام آخر، و يستفاد ذلك من قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَ لَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا: «الفرقان: -٤٦».

و إذا أمكن ذلك فى مثل الليل و النهار و هما متراحمان جاز فى السماوات و الأرض أن تسع ما يساويهما سعه، و تسع مع ذلك شيئا آخر يساويه مقدارا كالجنه و النار مثلا لكن لا بحسب نظام هذه الدار بل بحسب نظام الآخرة، و لهذا نظائر فى الأخبار

كما ورد: أن القبر روضه من رياض الجنه أو حفره من حفر النار ،

و ما ورد: أن المؤمن يوسع له فى قبره مد بصره.

فعلى هذا ينبغى أن يحمل قوله (ص): سبحانه الله إذا جاء النهار فأين الليل؟ لظهور أن لو كان المراد أن الله سبحانه لا يجهل الليل إذا علم بالنهار لم يرتبط بالسؤال، و كذا لو كان المراد أن الليل يبقى فى الخارج مع مجيء النهار اعترض عليه السائل بأن الليل يبطل مع وجود النهار إذا قيسا إلى محل واحد من مناطق الأرض، و إن اعتبرا من حيث نفسيهما فالليل بحسب الحقيقه ظل مخروط حادث من إناره الشمس، و هو يدور حول الكره الأرضيه بحسب الحركه اليوميه فالليل و النهار سائران حول الأرض دائما من غير بطلان و لا عينيه.

و للروايه نظائر بين الروايات كما ورد فى تفسير قوله تعالى: لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، :الأنفال-٣٧ من قوله (ع): إذا غابت الشمس فأين يصير هذا الشعاع المنبسط على الأرض؟ الحديث، و سيجىء البحث عنها.

و فى الدر المثور: فى قوله تعالى: وَ الْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَ الْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ الْآيَه:

أخرج البيهقي عن علي بن الحسين\* أن جاريه جعلت تسكب عليه الماء يتهياً للصلاه- فسقط الإبريق من يدها على وجهه- فشجه  
فرفع رأسه إليها، فقالت: إن الله يقول:

وَ الْكَاطِمِينَ الْعَيْظَ

قال: قد كظمت غيظي، قالت: وَ الْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ، قال: قد عفا الله عنك، قالت: وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ، قال: اذهبي فأنت حرة.

أقول: وهو مروى من طرق الشيعة أيضاً، و ظاهر الرواية أنه (ع) يفسر الإحسان بما يزيد على هذه الصفات و هو كذلك بحسب  
إطلاق مفهومه غير أن الصفات المذكوره قبله من لوازم معناه فمن الممكن أن يعرف بها الإحسان.

و اعلم أن هناك روايات كثيره جدا فى حسن الخلق و سائر الأخلاق الفاضله كالإنفاق و الكظم و العفو و نحوها و ارده عن النبى  
ص و أئمه أهل البيت (ع) أخرنا إيرادها إلى محل آخر أنسب لها.

و فى المجالس، عن عبد الرحمن بن غنم الدوسى: " أن قوله تعالى: وَ الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً «إلخ» نزل فى بهلول النباش، و كان  
ينبش القبور- فنبش قبر واحده من بنات الأنصار- فأخرجها و نزع أكفانها- و كانت بيضاء جميله- فسول له الشيطان فزنى بها ثم  
ندم- فجاء إلى النبى ص فرده، ثم اعتزل الناس و انقطع عنهم يتعبد- و يتبتل فى بعض جبال المدينه حتى قبل الله توبته- و نزل فيه  
القرآن.

أقول: و الروايه مفصله نقلناها ملخصه، و لو صحت الروايه لكانت سببا آخر لنزول الآيه غير السبب الواحد الشامل لمجموع آيات  
القصه.

و فى تفسير العياشى، عن الباقر (ع): فى قوله تعالى: وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلَيَّ مَا فَعَلُوا الْآيَه- قال: الإصرار أن يذنب المذنب فلا يستغفر الله-  
و لا يحدث نفسه بتوبه فذلك الإصرار.

و فى الدر المنثور، أخرج أحمد عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ص قال: قال إبليس: يا رب و عزتك لا أزال أغوى بنى آدم- ما  
كانت أرواحهم فى أجسادهم، فقال الله: و عزتى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى.

و فى الكافى، عن الصادق (ع): لا صغيره مع الإصرار، و لا كبيره مع الاستغفار.

و فى تفسير العياشى، عن الصادق (ع) فى حديث قال\* و فى كتاب الله نجاه من

الردى، و بصيره من العمى، و شفاء لما فى الصدور- فيما أمركم الله به من الاستغفار و التوبه- قال الله: وَ الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ وَاللَّهُ وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ، وَ قَالَ: وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا، فهذا ما أمر الله به من الاستغفار، و اشترط معه التوبه و الإقلاع عما حرم الله- فإنه يقول: إِلَيْهِ يَصِيرُ عَدُوُّ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ يَرْفَعُهُ، و بهذه الآيه يستدل أن الاستغفار لا يرفعه إلى الله- إلا العمل الصالح و التوبه.

أقول: قد استفاد(ع) الإقلاع و عدم العود بعد التوبه من نفى الإصرار، و كذا احتياج التوبه و الاستغفار إلى صالح العمل بعده من عموم الكلم الطيب فى قوله:

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ الْآيَه.

و فى المجالس، عن الصادق(ع) قال \*لما نزلت هذه الآيه: وَ الَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً، صعد إبليس جبلا بمكه يقال له ثور- فصرخ بأعلى صوته بعفاريته فاجتمعوا إليه- فقالوا له: يا سيدنا لم تدعونا؟ قال: نزلت هذه الآيه فمن لها؟ فقام عفريت من الشياطين فقال: أنا لها بكذا و كذا- فقال: لست لها، فقام آخر فقال مثل ذاك- فقال:

لست لها، فقال الوسواس الخناس: أنا لها- قال: بما ذا؟ قال أعدهم و أمنهم حتى يواقعوا الخطيئه- فإذا واقعوها أنسيتهم الاستغفار، فقال: أنت لها، فوكله بها إلى يوم القيامة.

أقول: و الروايه مرويه من طرق أهل السنه أيضا.

[سوره آل عمران (٣): الآيات ١٣٩ الى ١٤٨]

إشاره

وَ لَا تَهِنُوا وَ لَا تَحْزِنُوا وَ أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمَسُّنَّكُمْ فَوْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَوْحٌ مِثْلُهُ وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَ لِيَمَحَّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَ يَعْلَمِ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَ أَنْتُمْ تُنظَرُونَ (١٤٣) وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَ مَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَ مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَ مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَ سَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَ كَذَابُ مَنْ نَبِيٌّ قَاتِلَ مَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ مَا ضَعُفُوا وَ مَا اسْتَكَنُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَ مَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَ إِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَ تَبَّتْ أَعْقَابُنَا وَ أُنصِرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَاتَّأَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَ حُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)

الآيات كما ترى تتمه للآيات السابقة المبتدئه بقوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، كما أن الآيات السابقة بأوامرها و نواهيها توطئه لهذه الآيات التي تشتمل على أصل المقصود من أمر و نهى و ثناء و توبيخ.

قوله تعالى: « وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الَّتِي كَفَرْتُمْ بِهَا وَلَا تَكُونُوا مِمَّنْ يَسْتَكْبِرُونَ » الوهن :

هو الضعف في خلق أو خلق على ما ذكره الراغب، والمراد به هنا ضعفهم من حيث

العزيمه و الاهتمام على إقامه الدين و قتال أعدائه، و الحزن خلاف الفرح و إنما يعرض الإنسان بفقدته شيئاً يملكه مما يحبه أو أمراً يقدر نفسه مالمكه له.

و فى قوله تعالى: وَ أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ، دلالة على أن سبب و هههم و حزنهم ما شاهدوه من إصابه القرح إياهم، و استعلاء الكفار عليهم، فإن المشركين و إن لم ينالوا كل الغلبه و الظفر على المؤمنين و لم تحتتم الوقعه على الانهزام التام من المؤمنين لكن الذى أصاب المؤمنين كان أشد و أوجع و هو شهادة سبعين من سراتهم و شجعانهم، و وقوع ما وقع فى عقر دارهم فكان هذا سبب و هههم و حزنهم، و وقوع قوله: وَ أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ «إلخ» موقع التعليل هو الوجه فى كون هذين النهيين نهياً عن وهن و حزن واقعين لا مقدرين و لا متوقعين.

و قد أطلق قوله: الْأَعْلَوْنَ من غير تقييد و لكن اشترط بالإيمان فمحصل المعنى:

لا ينبغي لكم أن تهنوا فى عزمكم، و لا أن تحزنوا لما فاتكم من الظفر على أعدائكم، و الانتصار منهم إن كان فيكم الإيمان، فإن الإيمان أمر يستصحب علاءكم البته إذ هو يلازم التقوى و الصبر و فيهما ملاك الفتح و الظفر، و أما القرح الذى أصابكم فليست بمتفردين فيه بل القوم- و هم المشركون- قد أصابهم مثله فلم يسبقوكم فى شىء حتى يوجب ذلك و هههم و حزنكم.

و اشتراط علوهم بالإيمان مع كون الخطاب للمؤمنين إنما هو للإشارة إلى أن الجماعة و إن كانوا لا يفقدون الإيمان إلا أنهم غير عاملين بما يقتضيه من الصفات كالصبر و التقوى و إلا لأثر أثره.

و هذا حال كل جماعه مختلفه الحال فى الإيمان فيهم المؤمن حقا و الضعيف إيمانا و المريض قلبا، و يكون مثل هذا الكلام تنشيطاً لنفس مؤمنهم، و عظه لضعيفهم و عتاباً و تأنيباً لمريضهم.

قوله تعالى: «إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ» القرح -بفتح القاف- الأثر من الجراحه من شىء يصيبه من خارج، و القرح -بالضم- أثرها من داخل كالبثره و نحوها- قاله الراغب- و كأنه كناية عما أصابهم يوم أحد بفرض مجموع المسلمين شخصاً واحداً أصابه جراحه من عدوه و هو قتل من قتل منهم، و جراحه من جرح

منهم، و فوت النصر و الفتح بعد ما أطلا عليهم.

و هذه الجملة أعنى قوله: **إِنْ يَمْسَسِيكُمْ «إِلخ»** و ما بعدها من الجمل المتسقه إلى قوله: **وَ يَمَحَقَ الْكَافِرِينَ** في موضع التعليل كما مر-لقوله: **وَ لَا تَهْنُوا وَ لَا تَحْزَنُوا** اه كما أن قوله: **وَ أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ** تعليل آخر.

و الفرق بين النوعين من التعليل أن الأول أعنى قوله: **وَ أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ** إلخ، تعليل من طريق التخطئه لظنهم، فإنهم إنما وهنوا و حزنوا لما ظنوا علاء المشركين عليهم فخطاهم الله بأن ملاك العلاء معكم إن كنتم مؤمنين لا مع المشركين، و قد قال تعالى: **وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**: «الروم: ٤٧».

و أما الثانى فمن طريق بيان حال الفريقين-المؤمنين و المشركين-أو بيان الحكم و المصالح التى ترجع إلى أصل واحد و هو السنه الإلهيه الجاريه بمداوله الأيام بين الناس.

قوله تعالى: **« وَ تِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ »** اليوم هو المقصدار المعتد به من الزمان اللازم لحدوث الحوادث فيختلف باختلاف الحوادث، و قد شاع استعماله فيما بين طلوع الشمس و غروبها، و ربما استعمل فى الملك و السلطنه و القهر و نحوها بعلاقه الظرف و المظروف، فيقال يوم جماعه كذا و يوم آل فلان أى تقدمهم و حكومتهم على غيرهم، و قد يقال لنفس الزمان الذى وقع فيه ذلك، و المراد بالأيام فى الآيه هو هذا المعنى. و المداوله جعل الشىء يتناوله واحد بعد آخر. فالمعنى: أن السنه الإلهيه جرت على مداوله الأيام بين الناس من غير أن توقف على قوم و يذب عنها قوم لمصالح عامه تتبع هذه السنه لا تحيط أفهامكم إلا ببعضها دون جميعها.

قوله تعالى: **« وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ »** إلخ عطف على محذوف حذف للتلويح على أنه مما لا تحيط به الأفهام و لا- تدركه العقول إلا- من بعض جهاتها، و الذى ينفع المؤمنين العلم به هو ما ذكره بقوله: **وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ** إلخ و بقوله: **وَ لِيَمَحَّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمَحَقَ الْكَافِرِينَ**.

أما قوله: **وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا**، فالمراد به ظهور إيمان المؤمنين بعد بطونه و خفائه، فإن علمه تعالى بالحوادث و الأشياء فى الخارج عين وجودها فيه فإن الأشياء

معلومه له تعالى بنفس وجودها لا- بصورة مأخوذة منها نظير علومنا و إدراكاتنا و هو ظاهر، و لازم ذلك أن يكون إرادته تعالى العلم بشيء هي إرادته تحققه و ظهوره و حيث قال: وَ لِيُعَلِّمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا، فأخذ وجودهم محققا أفاد ذلك إرادته ظهور إيمانهم، و إذا كان ذلك على سنه الأسباب و المسببات لم يكن بد من وقوع أمور توجب ظهور إيمان المؤمن بعد خفائه فافهم ذلك.

و أما قوله: وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ، فالشهداء شهداء الأعمال و أما الشهداء بمعنى المقتولين في معركة القتال فلا يعهد استعماله في القرآن، و إنما هو من الألفاظ المستحدثة الإسلاميه، كما مر في قوله تعالى: وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ: البقره- ١٤٣ على أن قوله: وَ يَتَّخِذَ، أيضا لا يلائم الشهداء بمعنى المقتولين في المعركة كثير ملاءمه، فلا يقال: اتخذ الله فلانا مقتولا في سبيله و شهيدا كما يقال:

اتخذ الله إبراهيم خليلا، و اتخذ الله موسى كليما، و اتخذ الله النبي شهيدا يشهد على أمته يوم القيامة.

و قد غير السياق فقال: و يتخذ منكم شهداء، و لم يقل: و يتخذهم شهداء لأن الشهاده و إن أضيفت إلى الأمه في قوله: وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ: البقره- ١٤٣ إلا- أنها من قبيل وصف البعض المضاف إلى الكل، و الشهداء بعض الأمه دون كلهم، و قد مر بيان ذلك في سورة البقره، و يمكن أن يتأيد هذا الذي ذكرناه بقوله بعده: وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ .

و أما قوله: «وَ لِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَمْحَقَ الْكَافِرِينَ» فالتمحيص هو تخليص الشيء من الشوائب الخارجه، و المحق إنفاد الشيء تدريجا و إزالته شيئا فشيئا، و هذا التمحيص من حكم مداوله الأيام و مصالحها، و هو غير العلم بالذين آمنوا الذي هو أيضا من حكم مداوله الأيام، فإن تمييز المؤمن من غير المؤمن أمر و تخليص إيمانه بعد التمييز من شوائب الكفر و النفاق و الفسوق أمر آخر، و لذلك قوبل بالمحق للكافرين، فالله سبحانه يزيل أجزاء الكفر و نحوه من المؤمن شيئا فشيئا حتى لا- يبقى إلا إيمانه، فيكون خالصا لله، و يبىد أجزاء الكفر و الشرك و الكيد من الكافر شيئا فشيئا حتى لا يبقى شيء.

فهذه وجوه من الحكمه في مداولته تعالى الأيام بين الناس، و عدم استمرار الدوله بين قوم خاص، و لله الأمر كله يفعل ما يشاء، و لا يفعل إلا الأصلاح الأنفع كما



قال: كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ رعد-١٧ و قال الله تعالى  
قبيل هذه الآيات: لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَبَتُهُمْ فَيُنْقَلِبُوا خَائِبِينَ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ  
فَأِنَّهُمْ ظَالِمُونَ فنفي أن يكون لنبيه من الأمر شيء، وقصر الأمر في نفسه يحكم في خلقه كيف يشاء.

و هذا الكلام أعنى ما يبين أن الأيام مقسومه بين الناس لغرض الامتحان و تمييز المؤمن من الكافر و تمحيص المؤمنين و محق الكافرين مع ما مر من نفي رجوع الأمر إلى النبي ص يكشف عن أن المؤمنين كان يظن أكثرهم أن كونهم على دين الحق سبب تام في غلبتهم أينما غزوا و ظهورهم على الباطل كيفما كانوا، فهم يملكون الأمر لا يدفعون عن ذلك، و قد أجرأهم على هذا الحساب ما شاهدوه يوم بدر من ظهورهم العجيب على عدوهم و نزول ملائكة النصر، و هذا ظن فاسد يوجب بطلان نظام الامتحان و التمحيص و في ذلك بطلان مصلحه الأمر و النهي و الثواب و العقاب، و يؤدي ذلك إلى انهدام أساس الدين فإنما الدين دين الفطره غير مبنى على خرق العاده الجارويه و السنه الإلهيه القائمه في الوجود بابتناء الغلبه و الهزيمه على أسبابهما العاديه.

شرح سبحانه- بعد بيان أن الأيام دول متداوله لغرض الامتحان و الابتلاء- في ملامتهم في حسابان هذا النظر الباطل و بيان حقيقه الحال فقال: أَمْ حَسِبْتُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِ.

قوله تعالى: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ» إلى آخر الآيتين و هذا أعنى ظنهم أن يدخلوا الجنة من غير أن يمتحنوا  
لازم الظن المذكور آنفا، و هو أنهم لما كانوا على الحق و الحق لا- يغلب عليه فأمر الظفر و الغلبه إليهم، لن ينهزموا و لن يغلبوا أبدا، و من المعلوم أن لازم هذا الظن أن يكون كل من آمن بالنبي و لحق بجماعه المؤمنين سعيدا في دنياه بالغلبه و الغنيمه، و سعيدا في آخرته بالمغفره و الجنة، و يبطل الفرق بين ظاهر الإيمان و حقيقته و يرتفع التمايز بين الدرجات، فإيمان المجاهد و إيمان المجاهد الصابر واحد، و من تمنى خيرا ففعله إذا حان حينه كان كمن تمنى خيرا ثم تولى إذا أصابه.

و على هذا فقوله: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا «إِلْح» من قبيل وضع المسبب موضع السبب أي حسبتم أن الدوله مكتوبه لكم فأنتم لا تبتلون بل تدخلون الجنة من غير أن يتميز

المستحق لها منكم من غير المستحق، و صاحب الدرجة الرفيعة منكم من غيره؟.

و أما قوله تعالى: وَ لَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ الْآئِيَةَ فِيهِ تَثَبَّتْ أَنْ ظَنَّهُمْ ذَاكَ كَانَ فَاسِدًا فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَتَمَنُّونَ الْمَوْتَ قَبْلَ حُضُورِ الْغَزْوَةِ حَتَّى إِذَا حَضَرَتْ وَ رَأَوْهُ رَأَى الْعَيْنَ لَمْ يَقْدَمُوا وَ لَمْ يَتَنَاوَلُوا مَا كَانُوا يَتَمَنُّونَهُ، بَلْ فَشَلُوا وَ تَوَلَّوْا عَنِ الْقِتَالِ، فَهَلْ كَانَ مِنَ الْجَائِزِ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَجْرَدِ هَذَا التَّمَنَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يَمْتَحِنُوا أَوْ يَمْحَصُوا؟ أَوْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ يَخْتَبِرُوا.

و بهذا يظهر أن فى الكلام تقديرا، و المعنى: فقد رأيتموه و أنتم تنظرون فلم تقدموا عليه، و يمكن أن يكون قوله: تنظرون كناية عن عدم إقدامهم أى تكتفون بمجرد النظر من غير إقدام، و فيه عتاب و توبيخ.

### كلام فى الامتحان و حقيقته

لا ريب أن القرآن الكريم يخص أمر الهدايه بالله سبحانه غير أن الهدايه فيه لا تنحصر فى الهدايه الاختياريه إلى سعادته الآخره أو الدنيا فقد قال تعالى فيما قال:

الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى، طه: -٥٠، فعمم الهدايه لكل شىء من ذوى الشعور و العقل و غيرهم، و أطلقها أيضا من جهة الغايه، و قال أيضا: الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَ الَّذِي قَدَّرَ فْهَدَى، الأعلى: -٣، و الآيه من جهة الإطلاق كسابقتها.

و من هنا يظهر أن هذه الهدايه غير الهدايه الخاصه التى تقابل الإضلال فإن الله سبحانه نفاها و أثبت مكانها الضلال فى طوائف و الهدايه العامه لا تنفى عن شىء من خلقه، قال تعالى: وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ: الجمعة-٥، و قال: وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ: الصف-٥، إلى غير ذلك من الآيات الكثيره.

و كذا يظهر أيضا أن الهدايه المذكوره غير الهدايه بمعنى إراءه الطريق العامه للمؤمن و الكافر كما فى قوله تعالى: إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَ إِمَّا كَفُورًا: الدهر-٣، و قوله: وَ أَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى: حم السجده-١٧، فإن ما فى هاتين الآيتين و نظائرها من الهدايه لا يعم غير أرباب الشعور و العقل و قد عرفت أن ما فى قوله: ثُمَّ هَدَى و قوله: وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى عام من حيث المورد و الغايه جميعا،

على أن الآيه الثانيه تفرع الهدايه على التقدير، و الهدايه الخاصه لا تلائم التقدير الذى هو تهيئه الأسباب و العلل لسوق الشىء إلى غايه خلقته، و إن كانت تلك الهدايه أيضا من جهه النظام العام فى العالم داخله فى حيطه التقدير لكن النظر غير النظر فافهم ذلك.

و كيف كان فهذه الهدايه العامه هى هدايته تعالى كل شىء إلى كمال وجوده، و إيصاله إلى غايه خلقته، و هى التى بها نزوع كل شىء إلى ما يقتضيه قوام ذاته من نشوء و استكمال و أفعال و حركات و غير ذلك، و للكلام ذيل طويل سنشرحه إن ساعدنا التوفيق إن شاء الله العزيز.

و الغرض أن كلامه تعالى يدل على أن الأشياء إنما تنساق إلى غاياتها و آجالها بهدايه عامه إلهيه لا يشذ عنها شاذ، و قد جعلها الله تعالى حقا لها على نفسه و هو لا يخلف الميعاد، كما قال تعالى: **إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ** :الليل-١٣، و الآيه كما ترى تعم بإطلاقها الهدايه الاجتماعيه للمجتمعات و الهدايه الفرديه مضافه إلى ما تدل عليه الآيتان السابقتان.

فمن حق الأشياء على الله تعالى هدايتها تكوينا إلى كمالها المقدر لها و هدايتها إلى كمالها المشرع لها، و قد عرفت فيما مر من مباحث النبوه أن التشريع كيف يدخل فى التكوين و كيف يحيط به القضاء و القدر فإن النوع الإنسانى له نوع وجود لا يتم أمره إلا- بسلسله من الأفعال الاختياريه الإراديه التى لا- تقع إلا- عن اعتقادات نظريه و عمليه فلا بد أن يعيش تحت قوانين حقه أو باطله، جيده أو رديه، فلا- بد لسائق التكوين أن يهيئ له سلسله من الأوامر و النواهي (الشريعه) و سلسله أخرى من الحوادث الاجتماعيه و الفرديه حتى يخرج بتلاقيه معهما ما فى قوته إلى الفعل فيسعد أو يشقى و يظهر ما فى مكن وجوده، و عند ذلك ينطبق على هذه الحوادث و هذا التشريع اسم المحنه و البلاء و نحوهما.

توضيح ذلك أن من لم يتبع الدعوه الإلهيه و استوجب لنفسه الشقاء فقد حقت عليه كلمه العذاب إن بقى على تلك الحال، فكل ما يستقبله من الحوادث المتعلقة بها الأوامر و النواهي الإلهيه و يخرج بها من القوه إلى الفعل تتم له بذلك فعليه جديده من الشقاء و إن كان راضيا بما عنده مغرورا بما يجده، فليس ذلك إلا مكر إلهيا فإنه

يشقيهم بعين ما يحسبونه سعادته لأنفسهم و يخيب سعيهم في ما يظنونه فوزا لأنفسهم، قال تعالى: وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ آل عمران-٥٤، وقال: وَ لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ، فاطر-٤٣، وقال: لِيَمَكُرُوا فِيهَا وَ مَا يَمَكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ، الأنعام-١٢٣، وقال: سَنَسِدْ تَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ، الأعراف-١٨٣، فما يتبجح به المغرور الجاهل بأمر الله أنه سبق ربه في ما أراده منه بالمخالفه و التمرد فإنه يعينه على نفسه فيما أراده، قال تعالى:

«أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» العنكبوت-٤، و من أعجب الآيات في هذا الباب قوله تعالى «فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا» الرعد-٤٢.

فجميع هذه المماكرات و المخالفات و المظالم و التعديات التي تظهر من هؤلاء بالنسبه إلى الوظائف الدينيه، و كل ما يستقبلهم من حوادث الأيام و يظهر بها منهم ما أضمره في قلوبهم و دعتهم إلى ذلك أهواؤهم، مكر إلهي و إملاء و استدراج فإن من حقهم على الله أن يهديهم إلى عاقبه أمرهم و خاتمه و قد فعل، و الله غالب على أمره.

و هذه الأمور بعينها إذا نسبت إلى الشيطان كانت أقسام الكفر و المعاصي إغواء منه لهم، و النزوع إليها دعوه و وسوسه و نزعه و حيا و إضلالا، و الحوادث الداعيه و ما يجرى مجراها زينه له و وسائل و حبال و شبكات منه على ما سيجيء بيانه في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى.

و أما المؤمن الذي رسخ في قلبه الإيمان فما تظهر منه من الطاعات و العبادات و كذا الحوادث التي تستقبله فيظهر منه عندها ذلك، ينطبق عليها مفهوم التوفيق و الولاية الإلهيه و الهدايه بالمعنى الأخص نوع انطباق، قال تعالى: «وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصِيرِهِ مَنْ يَشَاءُ» آل عمران-١٣، وقال: «وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» آل عمران-٦٨، وقال:

«اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» البقره-٢٥٧، وقال: «يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ» يونس-٩، وقال: «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ» الأنعام-١٢٢، هذا إذا نسبت هذه الأمور إلى الله سبحانه، و أما إذا نسبت إلى الملائكه فتسمى تأييدا و تسديدا منهم، قال تعالى: «أُولَئِكَ كَتَبَ فِي

ثم إنه كما أن الهدايه العامه تصاحب الأشياء من بدء كونها إلى آخر أحيان وجودها ما دامت سالكه سبيل الرجوع إلى الله سبحانه كذلك المقادير تدفعها من ورائها كما هو ظاهر قوله تعالى: «وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى»: الأعلى-٣، فإن المقادير التي تحملها العلل و الأسباب المحتفه بوجود الشيء هي التي تحول الشيء من حال أولى إلى حال ثانيه و هلم جرا فهي لا تزال تدفع الأشياء من ورائها.

و كما أن المقادير تدفعها من ورائها كذلك الآجال (و هي آخر ما ينتهى إليه وجود الأشياء) تجذبها من أمامها كما يدل عليه قوله تعالى: «مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ»: الأحقاف-٣، فإن الآيه تربط الأشياء بغاياتها و هي الآجال، و الشيطان المرتبطان إذا قوى أحدهما على الآخر كان حاله بالنسبه إلى قرينه هو المسمى جذبا و الآجال المسماه أمور ثابتة غير متغيره فهي تجذب الأشياء من أمامها و هو ظاهر.

فالأشياء محاطه بقوى إلهيه: قوه تدفعها، و قوه تجذبها، و قوه تصاحبها و ترببها و هي القوى الأصلية التي تثبتها القرآن الكريم غير القوى الحافظه و الرقباء و القرناء كالملائكه و الشياطين و غير ذلك.

ثم إنا نسمى نوع التصرفات فى الشيء إذا قصد به مقصد لا يظهر حاله بالنسبه إليه:

هل له صلوحه أو ليس له؟ بالامتحان و الاختبار، فإنك إذا جهلت حال الشيء أنه هل يصلح لأمر كذا أو لا يصلح؟ أو علمت باطن أمره و لكن أردت أن يظهر منه ذلك أوردت عليه أشياء مما يلائم المقصد المذكور حتى يظهر حاله بذلك هل يقبلها لنفسه أو يدفعها عن نفسه؟ و تسمى ذلك امتحانا و اختبارا و استعلاما لحاله، أو ما يقاربها من الألفاظ.

و هذا المعنى بعينه ينطبق على التصرف الإلهى بما يورده من الشرائع و الحوادث الجاربه على أولى الشعور و العقل من الأشياء كالإنسان، فإن هذه الأمور يظهر بها حال الإنسان بالنسبه إلى المقصد الذى يدعى إليه الإنسان بالدعوه الدينيه فهي امتحانات إلهيه.

و إنما الفرق بين الامتحان الإلهى و ما عندنا من الامتحان أنا لا نخلو غالبا عن

الجهل بما فى باطن الأشياء فزيرد بالامتحان استعلام حالها المجهول لنا، و الله سبحانه يمتنع عليه الجهل و عنده مفاتيح الغيب، فالتربية العامه للإلهيه للإنسان من جهه دعوته إلى حسن العاقبه و السعاده امتحان لأنه يظهر و يتعين بها حال الشىء أنه من أهل أى الدارين دار الثواب أو دار العقاب؟.

و لذلك سمي الله تعالى هذا التصرف الإلهي من نفسه أعنى التشريع و توجيه الحوادث بلاء و ابتلاء و فتنه فقال بوجه عام: «إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى الْمَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» :الكهف-٧، و قال: «إِذَا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا» :الذهر-٢، و قال: «وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً» :الأنبياء-٣٥، و كأنه يريد به ما يفصله قوله: «فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي وَ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ» :الفجر-١٦، و قال: «إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ» :التغابن-١٥، و قال: «وَ لَكِنْ لِنَبْلُوا بِعِضِّكُمْ بَعْضًا» :محمد-٤، و قال: «كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» :الأعراف-١٦٣، و قال: «وَ لِيَبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا» :الأنفال-١٧، و قال: «أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ» :العنكبوت-٣.

و قال فى مثل إبراهيم: «وَ إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ» البقره-١٢٤، و قال فى قصه ذبح إسماعيل: «إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ» :الصافات-١٠٦، و قال فى موسى: «وَ فَتَنَّاكَ فَتُونًا» :طه-٤٠، إلى غير ذلك من الآيات.

و الآيات كما ترى تعمم المحنه و البلاء لجميع ما يرتبط به الإنسان من وجوده و أجزاء وجوده كالسمع و البصر و الحياه، و الخارج من وجوده المرتبط به بنحو كالأولاد و الأزواج و العشيره و الأصدقاء و المال و الجاه و جميع ما ينتفع به نوع انتفاع، و كذا مقابلات هذه الأمور كالموت و سائر المصائب المتوجهه إليه، و بالجملة الآيات تعد كل ما يرتبط به الإنسان من أجزاء العالم و أحوالها فتنه و بلاء من الله سبحانه بالنسبه إليه.

و فيها تعميم آخر من حيث الأفراد فالكل مفتنون مبتلون من مؤمن أو كافر، و صالح أو طالح، و نبي أو من دونه، فهى سنه جاريه لا يستثنى منها أحد.

فقد بان أن سنه الامتحان سنه إلهيه جاريه، و هي سنه عمليه متكنه على سنه أخرى تكوينيه و هي سنه الهدايه العامه الإلهيه من حيث تعلقها بالمكلفين كالإنسان و ما يتقدمها و ما يتأخر عنها أعنى القدر و الأجل كما مر بيانه.

و من هنا يظهر أنها غير قابله للنسخ فإن انتساخها عين فساد التكوين و هو محال، و يشير إلى ذلك ما يدل من الآيات على كون الخلقه على الحق، و ما يدل على كون البعث حقا كقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الأحقاف-٣، و قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَهِنَا لَا تَرْجِعُونَ﴾ المؤمنون-١١٥، و قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا لَاعْبَادِنَا مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: الدخان-٣٩، و قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾: العنكبوت-٥، إلى غيرها فإن جميعها تدل على أن الخلقه بالحق و ليست باطله مقطوعه عن الغايه، و إذا كانت أمام الأشياء غايات و آجال حقه و من ورائها مقادير حقه و معها هدايه حقه فلا مناص عن تصادمها عامه، و ابتلاء أرباب التكليف منها خاصه بأمور يخرج بالاتصال بها ما فى قوتها من الكمال و النقص و السعاده و الشقاء إلى الفعل، و هذا المعنى فى الإنسان المكلف بتكليف الدين امتحان و ابتلاء فافهم ذلك.

و يظهر مما ذكرناه معنى المحق و التمحيص أيضا، فإن الامتحان إذا ورد على المؤمن فأوجب امتياز فضائله الكامنه من الرذائل، أو ورد على الجماعه فاقتضى امتياز المؤمنين من المنافقين و الذين فى قلوبهم مرض صدق عليه اسم التمحيص و هو التمييز و كذا إذا تواتر الامتحانات الإلهيه على الكافر و المنافق و فى ظاهرهما صفات و أحوال حسنه مغبوطه فأوجبت تدريجا ظهور ما فى باطنهما من الخباثت، و كلما ظهرت خبيثه أزالتم فضيله ظاهريه كان ذلك محقلا له أى إنفادا تدريجيا لمحاسنها، قال تعالى:

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾

:آل عمران-١٤١.

و للكافرين محق آخر من جهه ما يخبره تعالى أن الكون ينساق إلى صلاح البشر و خلوص الدين لله، قال تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ طه-١٣٢، و قال: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِيهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾: الأنبياء-١٠٥.

ص: ٣٦

قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ الموت زهاق الروح و بطلان حياه البدن، و القتل هو الموت إذا كان مستندا إلى سبب عمدي أو نحوه، و الموت و القتل إذا افترقا كان الموت أعم من القتل، و إذا اجتمعا كان الموت هو ما يحتف الأنف و القتل خلافه.

و انقلب على عقبيه أى رجع قال الراغب: و رجع على عقبيه إذا اثنى راجعا، و انقلب على عقبيه نحو رجع على حافرته، و نحو ارتدا على آثارهما قصصا، و قولهم رجع عوده إلى بدئه، انتهى.

و حيث جعل الانقلاب على الأعقاب جزاء للشرط الذى هو موت الرسول أو قتله أفاد ذلك أن المراد به الرجوع عن الدين دون التولى عن القتال إذ لا- ارتباط للفرار من الزحف بموت النبى ص أو قتله، و إنما النسبه و الرابطه بين موته أو قتله و بين الرجوع إلى الكفر بعد الإيمان.

و يدل على أن المراد به الرجوع عن الدين ما ذكره تعالى فى قوله: ﴿وَ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَى آخِرِ آيَاتٍ﴾، على أن نظير ما وقع فى أحد من فرارهم من الزحف و توليهم عن القتال تحقق فى غيره كغزوه حنين و خيبر و غيرهما و لم يخاطبهم الله بمثل هذا الخطاب و لا عبر عن توليهم عن القتال بمثل هذه الكلمه قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَاثَرْتُمْكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَ ضَاعَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدَبِّرِينَ﴾: البراءه- ٢٥، فالحق أن المراد بالانقلاب على الأعقاب الرجوع إلى الكفر السابق.

فمحصل معنى الآيه على ما فيها من سياق العتاب و التوبيخ: أن محمدا ص ليس إلا رسولا من الله مثل سائر الرسل، ليس شأنه إلا تبليغ رساله ربه لا- يملك من الأمر شيئا، و إنما الأمر لله و الدين دينه باق ببقائه، فما معنى اتكاء إيمانكم على حياته حيث يظهر منكم أن لو مات أو قتل تركتم القيام بالدين، و رجعتم إلى أعقابكم القهقرى و اتخذتم الغوايه بعد الهدايه؟.

و هذا السياق أقوى شاهد على أنهم ظنوا يوم أحد بعد حمى الوطيس أن النبى ص قد قتل فانسلوا عند ذلك و تولوا عن القتال، فيتأيد بذلك ما ورد فى الروايه و التاريخ



- كما في ما رواه ابن هشام في السيره-\*: أن أنس بن النضر- عم أنس بن مالك- انتهى إلى عمر بن الخطاب و طلحه بن عبيد الله في رجال من المهاجرين و الأنصار -و قد ألقوا بأيديهم- فقال: ما يحبسكم؟ قالوا: قتل رسول الله قال: فما ذا تصنعون بالحياه بعده؟ فموتوا على ما مات عليه رسول الله، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل.

و بالجملة فمعنى هذا الانسلال و الإلقاء بالأيدى: أن إيمانهم إنما كان قائما بالنبى ص يبقى ببقائه و يزول بموته، و هو إرادته ثواب الدنيا بالإيمان و هذا هو الذى عاتبهم الله عليه، و يؤيد هذا المعنى قوله بعده: وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ، فإن الله سبحانه كرر هذه الجملة فى الآيه التاليه بعد قوله: وَ مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَ مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا، فافهم ذلك.

و قوله: وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ، بمنزله الاستثناء مما قبله على ما يعطيه السياق، و هو الدليل على أن القوم كان فيهم من لم يظهر منه هذا الانقلاب أو ما يشعر به كالانسلال و التولى و هم الشاكرون.

و حقيقه الشكر إظهار النعمه كما أن الكفر الذى يقابله هو إخفاؤها و الستر عليها، و إظهار النعمه هو استعمالها فى محلها الذى أرادته منعها و ذكر المنعم بها لسانا و هو الثناء و قلبا من غير نسيان، فشكره تعالى على نعمه من نعمه أن يذكر عند استعمالها و يوضع النعمه فى الموضع الذى أرادته منها و لا- يتعدى ذلك، و إن من شىء إلا و هو نعمه من نعمه تعالى، و لا يريد بنعمه من نعمه إلا أن تستعمل فى سبيل عبادته، قال تعالى:

وَ اتَّأَكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَ إِن تَعِدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ، إبراهيم-٣٤، فشكره على نعمته أن يطاع فيها و يذكر مقام ربوبيته عندها.

و على هذا فشكره المطلق من غير تقييد، ذكره تعالى من غير نسيان، و إطاعته من غير معصيه، فمعنى قوله: «وَ اشْكُرُوا لِي وَ لَا تَكْفُرُونِ»: البقره-١٥٢، اذكرونى ذكرا لا يخالطه نسيان، و أطيعوا أمرى إطاعه لا يشوبها عصيان، و لا يصغى إلى قول من يقول: إنه أمر بما لا يطاق فإنه ناش من قله التدبير فى هذه الحقائق و البعد من ساحه العبوديه.

و قد عرفت فيما تقدم من الكتاب أن إطلاق الفعل لا يدل إلا على تلبس ما،

بخلاف الوصف فإنه يدل على استقرار التلبس و صيروره المعنى الوصفى ملكه لا تفارق الإنسان، ففرق بين قولنا: الذين أشركوا، و الذين صبروا، و الذين ظلموا، و الذين يعتدون، و بين قولنا: المشركين، و الصابرين، و الظالمين، و المعتدين، فالشاكرون هم الذين ثبت فيهم وصف الشكر و استقرت فيهم هذه الفضيله، و قد بان أن الشكر المطلق هو أن لا يذكر العبد شيئاً «و هو نعمه» إلا و ذكر الله معه، و لا يمس شيئاً «و هو نعمه» إلا و يطع الله فيه.

فقد تبين أن الشكر لا يتم إلا مع الإخلاص لله سبحانه علما و عملا، فالشاكرون هم المخلصون لله، الذين لا مطمع للشيطان فيهم.

و يظهر هذه الحقيقه مما حكاه الله تعالى عن إبليس، قال تعالى: «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَصِينَ» - ص ٨٣، و قال تعالى: «قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَصِينَ» الحجر - ٤٠، فلم يستثن من إغوائه أحدا إلا المخلصين، و أمضاه الله سبحانه من غير رد، و قال تعالى:

«قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لأُقْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمَانِهِمْ وَ عَنْ شَمَائِلِهِمْ وَ لَأُتِجِدَنَّ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ» : الأعراف - ١٧، و قوله: و لا تجد إلخ بمنزله الاستثناء فقد بدل المخلصين بالشاكرين، و ليس إلا لأن الشاكرين هم المخلصون الذين لا مطمع للشيطان فيهم، و لا صنع له لديهم، و إنما صنعه و كيده إنساء مقام الربوبيه و الدعوه إلى المعصيه.

و مما يؤيد ذلك من هذه الآيات النازله فى غزوه أحد قوله تعالى فيما سيأتى من الآيات: إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَ لَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ، مع قوله فى هذه الآيه التى نحن فيها: وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ، و قوله فيما بعدها: وَ سَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ، و قد عرفت أنه فى معنى الاستثناء.

فتدبر فيها و اقض عجا بما يقال: إن الآيه أعنى قوله: إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ ناظره إلى ما روى: أن الشيطان نادى يوم أحد: «ألا قد قتل محمد» فأوجب ذلك و هن المؤمنين و تفرقهم عن المعركة! فاعتبر إلى أى مهبط أهبط كتاب الله من أوج حقائقه و مستوى معارفه العالیه؟.

فآليه تدل على وجود عده منهم يوم أحد لم يهنوا و لم يفتروا و لم يفرطوا في جنب الله سبحانه سماهم الله شاكرين، و صدق أنهم لا سبيل للشيطان إليهم و لا مطمع له فيهم، لا في هذه الغزوه فحسب بل هو وصف لهم ثابت فيهم مستقر معهم، و لم يطلق اسم الشاكرين في مورد من القرآن على أحد بعنوان على طريق التوصيف إلا في هاتين الآيتين أعنى قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ الْآيَةَ، و قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ الْآيَةَ، و لم يذكر ما يجازيهم به في شيء من الموردين إشعارا بعظمته و نفاسته.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ إلخ تعريض لهم في قولهم عن إخوانهم المقتولين ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا الْآيَةَ، و قول طائفه منهم: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا الْآيَةَ، و هؤلاء من المؤمنين غير المنافقين الذين تركوا رسول الله ص و قعدوا عن القتال.

فهذا القول منهم لازمه أن لا يكون موت النفوس بإذن من الله و سنه محكمه تصدر عن قضاء مبرم، و لازمه بطلان الملك الإلهي و التدبير المتقن الرباني و سيجيء إن شاء الله الكلام في معنى كتابه الآجال في أول سورة الأنعام.

و لما كان لازم هذا القول ممن قال به إنه آمن لظنه أن الأمر لرسول الله ص و للمؤمنين فقد أراد الدنيا كما مر بيانه و من اجتنب هذا فقد أراد الآخرة فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَ مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا، و إنما قال:

نُؤْتِهِ مِنْهَا

و لم يقل: نُؤْتَهَا لأن الإراده ربما لا توافق تمام الأسباب المؤديه إلى تمام مراده فلا يرزق تمام ما أراد، و لكنها لا تخلو من موافقه ما للأسباب في الجملة دائما فإن وافق الجميع رزق الجميع و إن وافق البعض رزق البعض فحسب، قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَ مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَ سَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا، الإسراء- ١٩ و قال تعالى: ﴿وَ أَنْ لَيْسَ لِلنَّاسِ إِلَّا مَا سَعَى﴾: النجم- ٣٩.

ثم خص الشاكرين بالذكر بإخراجهم من الطائفتين فقال: ﴿وَ سَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ و ليس إلا- لأنهم لا يريدون إلا وجه الله لا يشتغلون بدنيا و لا آخرة كما تقدم.

قوله تعالى: «وَكَأَيُّنَ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيبُونَ كَثِيرٌ» إلى آخر الآيات كآين كلمه تكثير و كلمه «من» بيانیه و الربيون جمع ربي و هو كالرباني من اختص بربه تعالى فلم يشغل بغيره، وقيل: المراد به الألو ف و الربى الألف، و الاستكانه هى التضرع.

و فى الآيه موعظه و اعتبار مشوب بعتاب و تشويق للمؤمنين أن يأتوا بهؤلاء الربيين فيؤتيهم الله ثواب الدنيا و حسن ثواب الآخره كما آتاهم، و يحبهم لإحسانهم كما أحبهم لذلك.

و قد حكى الله من فعلهم و قولهم ما للمؤمنين أن يعتبروا به و يجعلوه شعارا لهم حتى لا يبتلوا بما ابتلوا به يوم أحد من الفعل و القول غير المرضيين لله تعالى و حتى يجمع الله لهم ثواب الدنيا و الآخره كما جمع لأولئك الربيين.

و قد وصف ثواب الآخره بالحسن دون الدنيا إشاره إلى ارتفاع منزلتها و قدرها بالنسبه إليها

### [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٤٩ الى ١٥٥]

#### اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يُرَدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَانقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) يٰلِئَلَّهِ مَوْلَاكُمْ وَ هُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَيَنْقَلِبُ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَ مَا وَاهُمُ النَّارُ وَ بئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَ تَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَ لَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَ لَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ فَأِذَابَكُمْ عَمَّا بَعَثَ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَ لَا مَا أَصَابَكُمْ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنْكُمْ وَ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤) إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَ لَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥)

من تتمه الآيات النازله فى خصوص غزوه أحد، و فيها حث و ترغيب للمؤمنين أن لا يطيعوا غير ربهم فإنه هو مولاهم و ناصرهم، و إشهد لهم على صدق وعده و أن الهزيمة و الخذلان لم يكن يوم أحد إلا من قبل أنفسهم، و تعديهم حدود ما أمرهم الله به و دعاهم رسوله إليه و أن الله سبحانه مع ذلك عفا عن جرائمهم لأنه غفور حلیم.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخر الآيتين لا يبعد أن يستفاد من السياق أن الكفار كانوا أيام نزول الآيات بعد غزوه أحد يلقون إلى المؤمنين- فى صورته النصيح- ما يشبطهم عن القتال: و يلقى التنازع و التفرقه

و تشتت الكلمه و اختلافها بينهم، و ربما أیده ما فی آخر هذه الآيات من قوله الَّذِي قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ X «إلى أن قال» X ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَ خَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ X الآيات X آل عمران «١٧٣-١٧٥».

و ربما قيل: إن الآيه إشاره إلى قول اليهود و المنافقين يوم أحد: «إن محمدا قد قتل فارجعوا إلى عشائركم»، و ليس بشيء.

ثم لما بين أن إطاعتهم للذين كفروا و الميل إلى ولايتهم يهديهم إلى الخسران الذى هو رجوعهم إلى أعقابهم كافرين أضرب عنه بقوله: بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَ هُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ .

قوله تعالى: «سَيُنْفِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ» «إلخ» وعد جميل للمؤمنين بأنهم سينصرون بالرعب، و لقد كان رسول الله ص يذكره فيما حباه الله تعالى و خصه به من بين الأنبياء على ما رواه الفريقان.

و قوله: بِمَا أَشْرَكُوا، معناه: اتخذوا له ما ليس معه برهان شريكا، و مما يكرره القرآن أن ليس لإثبات الشريك لله سلطان، و من إثبات الشريك نفى الصانع و إسناد التأثير و التدبير إلى غيره كالدهر و المادة.

قوله تعالى: «وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ» إلى آخر الآيه الحس -بالفتح-: القتل على وجه الاستيصال.

و لقد اتفقت الروايات و ضبطه التاريخ فى قصه غزوه أحد أن المؤمنين غلبوهم و ظهوروا عليهم فى أول الأمر و وضعوا فيهم السيوف و شرعوا فى نهب أموالهم حتى إذا خلى الرماه مكانهم فى المكنن حمل خالد بن الوليد فيمن معه على عبد الله بن جبير و من بقى معه من الرماه فقتلوهم، و حملوا على المؤمنين من ورائهم، و تراجع المشركون عن هزيمتهم و وضعوا السيوف فى أصحاب رسول الله ص و قتلوا منهم سبعين ثم هزموهم أشد هزيمة.

فقوله تعالى: وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ، تثبيت صدق وعده بالنصر بشرط التقوى و الصبر، و قوله: إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ، يقبل الانطباق على ما رزقهم فى أول الأمر من الظهور على عدوهم يوم أحد، و قوله: حَتَّى إِذَا فَيَّسَلْتُمْ وَ تَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ، ينطبق على ما صنعه الرماه حيث تنازعوا فيما بينهم فى ترك

مراكزهم و اللقوق بمن مع رسول الله ص لنيل الغنيمه ففشلوا و تنازعوا فى الأمر و عصوا أمر النبى بأن لا يتركوا مراكزهم على أى حال، و على هذا فلا بد من تفسير الفشل بضعف الرأى، و أما كونه بمعنى الجبن فلا ينطبق عليهم إذ لم يكن ذلك منهم جينا بل طمعا فى الغنيمه، و لو كان الفشل بمعنى الجبن كان منطبقا على حال جميع القوم و يكون على هذا «ثُمَّ» فى قوله: ثُمَّ صَيَّرَفَكُم مَفِيدَه لِلتراخى الرتبى دون الزمانى.

و يدل لفظ التنازع على أن الكل لم يكونوا مجمعين على الفشل و المعصيه بل كان بعضهم يصر على الإطاعه و البقاء على الائتمار و لذا قال تعالى بعده: مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ .

قوله تعالى: «ثُمَّ صَيَّرَفَكُم عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ»، أى كفكم عن المشركين بعد ظهور الفشل و التنازع و المعصيه، و بالجمله بعد وقوع الاختلاف بينكم ليمتحنكم و يختبر إيمانكم و صبركم فى الله إذ الاختلاف فى القلوب هو أقوى العوامل المقتضيه لبسط الابتلاء ليميز المؤمن من المنافق، و المؤمن الراسخ فى إيمانه الثابت على عزيمته من المتلون السريع الزوال، و مع ذلك فإن الله سبحانه عفا عنهم بفضله كما قال: وَ لَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ .

قوله تعالى: «إِذْ تُصْعِدُونَ وَ لَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِى أُخْرَاكُمْ» الإصعاد هو الذهاب و الإبعاد فى الأرض بخلاف الصعود فهو الارتقاء إلى مكان عال يقال: أصعد فى جانب البر أى ذهب فيه بعيدا، و صعد فى السلم أى ارتقى، و قيل: إن الإصعاد ربما استعمل بمعنى الصعود.

و الظرف متعلق بمقدر أى اذكروا إذ تصعدون، أو بقوله: صَيَّرَفَكُم، أو بقوله لِيَبْتَلِيَكُمْ، -على ما قيل- و قوله: وَ لَا تَلْوُونَ، من اللى بمعنى الالتفات و الميل قال فى المجمع: و لا يستعمل إلا فى النفى لا يقال: لويت على كذا، انتهى.

و قوله: وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِى أُخْرَاكُمْ، الأخرى مقابل الأولى و كون الرسول يدعو و هو فى أخراهم يدل على أنهم تفرقوا عنه (ص) و هم سواد ممتد على طوائف أولاهم مبتعدون عنه (ص) و أخراهم بقرب منه، و هو يدعوهم من غير أن يلتفت إليه لا أولاهم و لا أخراهم فتركوه- (ص)- بين جموع المشركين و هم يصعدون فرارا من القتل.

نعم قوله تعالى قبيلا هذا: وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ - وقد مر تفسيره - يدل على أن منهم من لم يتزلزل في عزمته و لم ينهزم لا في أول الانهزام، ولا بعد شيوخ خبر قتل النبي ص على ما يدل عليه قوله: أ فَانِ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ الْآيَةَ.

و مما يدل عليه قوله: وَ لَا تَلُؤُونَ عَلَيَّ أَحَدٍ وَ الرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ إِنْ خَبَرَ قَتَلَ النَّبِيَّ ص إِنَّمَا انْتَشَرَ بَيْنَهُمْ بَعْدَ انْهِزَامِهِمْ وَ إِصْعَادِهِمْ.

قوله تعالى: «فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمِّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَيَّ مَا فَاتَكُمْ وَ لَا مَا أَصَابَكُمْ إِنْ خَبَرَ قَتَلَ النَّبِيَّ ص إِنَّمَا انْتَشَرَ بَيْنَهُمْ بَعْدَ انْهِزَامِهِمْ وَ إِصْعَادِهِمْ.» كذا، و هذا الغم الذي أثيروا به كيفما كان هو نعمه منه تعالى بدليل قوله: لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَيَّ مَا فَاتَكُمْ وَ لَا مَا أَصَابَكُمْ، فإن الله تعالى ذم في كتابه هذا الحزن كما قال: لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَيَّ مَا فَاتَكُمْ: «الحديد-٢٣» فهذا الغم الذي يصرفهم عن ذاك الحزن المذموم نعمه و موهبه فيكون هو الغم الطارئ عليهم من جهة الندامة على ما وقع منهم و التحسر على ما فاتهم من النصر بسبب الفشل، و يكون حينئذ الغم الثاني في قوله: بِغَمِّ، الغم الآتي من قبل الحزن المذكور، و الباء للبدليه، و المعنى: جازاكم غما بالندامة و الحسرة على فوت النصر بدل غم بالحزن على ما فاتكم و ما أصابكم.

و من الجائز أن يكون قوله: فَأَثَابَكُمْ مضمنا معنى الإبدال فيكون المعنى:

فأبدلكم غم الحزن من غم الندامة و الحسرة مثيبا لكم، فيعكس المعنى في الغمين بالنسبة إلى المعنى السابق.

و على كل من المعنيين يكون قوله: فَأَثَابَكُمْ، تفريعا على قوله: وَ لَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ، و يتصل به ما بعده أعنى قوله: ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ، أحسن اتصال، و الترتيب: أنه عفا عنكم فأثابكم غما بغم ليصونكم عن الحزن الذي لا يرتضيه لكم ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمناه نعاسا.

و هاهنا وجه آخر يساعده ظهور السياق في تفريع قوله: فَأَثَابَكُمْ، على ما يتصل به بمعنى أن يكون الغم هو ما يتضمنه قوله: إِذْ تُصَيِّدُونَ، و المراد بقوله: بِغَمِّ هو ما أدى إليه التنازع و المعصية و هو إشراف المشركين عليهم من ورائهم، و الباء للسببية و هذا معنى حسن، و على هذا يكون المراد بقوله: لِكَيْلَا تَحْزَنُوا «إلخ»:



نبين لكم حقيقه الأمر لثلا تحزنوا، كما فى قوله تعالى: **مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ** X الآية X: «الحديد-٢٣».

فهذا ما يستقيم به نظم الآية و اتساق الجمل المتعاقبه، و للمفسرين احتمالات كثيره فى الآية من حيث ما عطف عليه قوله: **فَأَتَابَكُمْ**، و من حيث معنى الغم الأول و الثانى و معنى الباء و معنى قوله: **لِكَيْلًا**، ليست من الاستقامه على شىء و لا جدوى فى نقلها و البحث عنها.

و على ما احتملناه من أحد معنيين يكون المراد مما فات فى قوله: **لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ** هو الغلبه و الغنيمه، و مما أصاب ما أصاب القوم من القتل و الجرح.

قوله تعالى: **«ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنًا نَعَسًا يَغْشَىٰ طَائِفَهُ مِنْكُمْ»** الأمنه بالتحريك الأمن، و النعاس ما يتقدم النوم من الفتور و هو نوم خفيف، و نعاسا بدل من أمنه للملازمه عاده، و ربما احتمل أن يكون أمنه جمع آمن كطالب و طلبه، و هو حينئذ حال من ضمير عليكم، و نعاسا مفعول قوله: أنزل، و-الغشيان-: الإحاطه.

و الآية تدل على أن هذا النعاس النازل إنما غشى طائفه من القوم، و لم يعم الجميع بدليل قوله: **طَائِفَهُ مِنْكُمْ**، و هؤلاء هم الذين رجعوا إلى رسول الله ص بعد الانهزام و الإصعاد لما ندموا و تحسروا، و حاشا أن يعفو الله عنهم عفو رحمه و هم فى حال الفرار عن الزحف و هو من كبائر المعاصى و الآثام و قد قال: **وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**، و حاشا أن تشمل عنايته تعالى على مقترف الفحشاء و المنكر حين يقترف من قبل أن يتوب و قد عنى فى حقهم حين أتابهم غما بغم لكيلا- يحزنوا فيتقدر قلوبهم بما لا يرتضيه الله سبحانه على ما مر بيانه.

فهؤلاء بعض القوم و هم النادمون على ما فعلوا الراجعون إلى النبى ص المحتفون به، و كان ذلك إنما كان حين فارق(ص) جموع المشركين و عاد إلى الشعب، و إن كان عودهم إليه تدريجا بعد العلم بأنه لم يقتل.

و أما البعض الآخر من القوم فهم الذين يذكروهم الله بقوله: **وَ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ** .

قوله تعالى: «وَ طَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ» هذه طائفة أخرى من المؤمنين و نعى بكونهم من المؤمنين أنهم غير المنافقين الذين ذكرهم الله أخيرا بقوله: وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ فِتْنًا لَا تَبْغَاكُمْ الْآيَةَ وَ هُم الَّذِينَ فارقوا جماعه المؤمنين فى أول الأمر قبل القتال و انخذلوا فهؤلاء المنافقون لهم شأن آخر سينبئ الله بذلك.

و هؤلاء الطائفة الثانية الموصوفون بأنهم قد أهمتهم أنفسهم لم يكرمهم الله بما أكرم به الطائفة الأولى من العفو و إثابه الغم ثم الأمانة و النعاس بل وكلهم إلى أنفسهم فأهمتهم أنفسهم و نسوا كل شىء دونها.

و قد ذكر الله تعالى من أوصافهم وصفين اثنين و إن كان أحدهما من لوازم الآخر و فروعه، فذكر أنهم أهمتهم أنفسهم، و ليس معناه أنهم يريدون سعادته أنفسهم بمعناها الحقيقية فإن المؤمنين أيضا لا يريدون إلا سعادته أنفسهم فالإنسان بل كل ذى همه و إرادته لا يريد إلا نفسه البته، بل المراد: أن ليس لهم هم إلا حفظ حياتهم الدنيا و عدم الوقوع فى شبكه القتل فهم لا يريدون بدين أو غيره إلا إمتاع أنفسهم فى الدنيا و إنما ينتحلون بالدين ظنا منهم أنه عامل غير مغلوب، و أن الله لا يرضى بظهور أعدائه عليه، و إن كانت الأسباب الظاهرية لهم فهؤلاء يستدرون الدين ما در لهم، و إن انقلب الأمر و لم يسعدهم الجد انقلبوا على أعقابهم القهقرى.

قوله تعالى: «يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ» إلى قوله: «بِاللَّهِ» أى ظنوا بالله أمرا ليس بحق بل هو من ظنون الجاهلية فهم يصفونه بوصف ليس بحق بل من الأوصاف التى كان يصفه بها أهل الجاهلية، و هذا الظن أيا ما كان هو شىء يناسبه و يلازمه قولهم: هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ، و يكشف عنه ما أمر النبى ص أن يجيبهم به، و هو قوله: قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ فظاهر هذا الجواب أنهم كانوا يظنون أن بعض الأمر لهم و لذا لما غلبوا و فشا فيهم القتل تشككوا فقالوا: هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ .

و بذلك يظهر أن الأمر الذى كانوا يرونه لأنفسهم هو الظهور و الغلبة، و إنما كانوا يظنونه لأنفسهم من جهة إسلامهم فهم قد كانوا يظنون أن الدين الحق لا يغلب و لا يغلب المتدين به لما أن على الله أن ينصره من غير قيد و شرط و قد وعدهم به.

و هذا هو الظن بغير الحق، الذى هو ظن الجاهليه فإن وثنيه الجاهليه كانت تعتقد أن الله تعالى خالق كل شىء و أن لكل صنف من أصناف الحوادث كالرزق و الحياه و الموت و العشق و الحرب و غيرها، و كذا لكل نوع من الأنواع الكونيه كالإنسان و الأرض و البحار و غيرها ربا يدبر أمرها لا- يغلب على إرادته، و كانوا يعبدون هؤلاء الأرباب ليدروا لهم الرزق، و يجلبوا لهم السعاده، و يقوهم من الشرور و البلايا، و الله سبحانه كالمملك العظيم يفوض كل صنف من أصناف رعيته و كل شطر من أقطار ملكه إلى وال تام الاختيار له أن يفعل ما يشاؤه فى منطقته نفوذه و حوزة ولايته.

و إذا ظن الظان أن الدين الحق لا يصير مغلوبا فى ظاهر تقدمه و النبى ص -و هو أول من يتحملة من ربه و يحمل أثقاله- لا يقهر فى ظاهر دعوته أو أنه لا يقتل أو لا يموت فقد ظن بالله غير الحق ظن الجاهليه فاتخذ الله أندادا، و جعل النبى ص ربا وثنيا مفوضا إليه أمر الغلبه و الغنيمه، مع أن الله سبحانه واحد لا شريك له، إليه يرجع الأمر كله و ليس لأحد من الأمر شىء، و لذلك لما قال تعالى فيما تقدم من الآيات:

لَيَقْطَعَنَّ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ، قطع الكلام بالاعتراض فقال -يخاطب نبيه-: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ لِّئَلَّا يَتَّوَعَّبُوا أَن لَّهُ (ص) دخلا فى قطع أو كبت، و الله سبحانه هو الذى وضع سنه الأسباب و المسببات، فما كان سببه أقوى كان وقوعه أرجح سواء فى ذلك الحق و الباطل، و الخير و الشر، و الهدايه و الضلاله، و العدل و الظلم، و لا فرق فيه بين المؤمن و الكافر، و المحبوب و المبعوض، و محمد و أبى سفيان.

نعم لله سبحانه عنايه خاصه بدينه و بأوليائه يجرى نظام الكون بسببها جريا ينجر إلى ظهور الدين و تمهد الأرض لأوليائه و العاقبه للمتقين.

و أمر النبوه و الدعوه ليس بمسئتي من هذه السنه الجارويه، و لذلك كلما توافقت الأسباب العاديه على تقدم هذا الدين و ظهور المؤمنين كبعض غزوات النبى ص كان ذلك، و حيث لم يتوافق الأسباب كتتحقق نفاق أو معصيه لأمر النبى ص أو فشل أو جزع كانت الغلبه و الظهور للمشركين على المؤمنين، و كذلك الحال فى أمر سائر الأنبياء مع الناس فإن أعداء الأنبياء لكونهم أهل الدنيا، و قصرهم مساعيهم فى عماره الدنيا، و بسط القدره، و تشديد القوه، و جمع الجموع كانت الغلبه الظاهرية و الظهور لهم

على الأنبياء، فمن مقتول كزكريا، ومذبح كيجي، ومشرّد كعيسى إلى غير ذلك.

نعم إذا توقف ظهور الحق بحقانيته على انتقاض نظام العاده دون السنه الواقعيه و بعباره أخرى دار أمر الحق بين الحياه و الموت كان على الله سبحانه أن يقيم صلب الدين و لا يدهه تدحض حجته، و قد مر شطر من هذا البحث في القول على الإعجاز في الجزء الأول من الكتاب، و في الكلام على أحكام الأعمال في الجزء الثاني منه.

و لارجع إلى ما كنا فيه: فقول هؤلاء الطائفه الذين أهمتهم أنفسهم: هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ، تشكك في حقيه الدين و قد أدرجوا في هيكله روح الوثنيه على ما مر بيانه، فأمر سبحانه نبيه ص أن يجيبهم فقال: قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ، و قد خاطب نبيه قبل ذلك بقوله: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ فبين بذلك أن مله الفطره و دين التوحيد هو الذى لا يملك فيه الأمر إلا الله جل شأنه، و باقى الأشياء و منها النبى ص ليست بمؤثره شيئاً بل هي في حيطه الأسباب و المسببات و السنه الإلهيه التي تؤدى إلى جريان ناموس الابتلاء و الامتحان.

قوله تعالى: «يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ «إِلخ»، و هذا توصيف لهم بما هو أشد من قولهم: هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ، فإنه كان تشكيكا في صورته السؤال، و هذا أعنى قولهم: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ترجيح في هيئته الاستدلال، و لذلك أبدوا قولهم الأول للنبي ص و أخفوا قولهم الثاني لاشتماله على ترجيح الكفر على الإسلام.

فأمر الله تعالى نبيه ص أن يجيبهم فقال: قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيَمْحُصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ، فبين لهم:

أولاً: أن قتل من قتل منكم في المعركه ليس لعدم كونكم على الحق، و عدم كون الأمر لكم على ما تزعمون بل لأن القضاء الإلهي و هو الذى لا مناص من نفوذه و مضيه جرى على أن يضطجع هؤلاء المقتولون في هذه المضاجع، فلو لم تكونوا خرجتم إلى القتال لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم، فلا مفر من الأجل المسمى الذى

لا تستأخرون عنه ساعه ولا تستقدمون.

و ثانياً: أن سنه الله جرت على عموم الابتلاء و التمحيص و هى واقعه بهم و بكم لا محاله، فلم يكن بد من خروجكم و وقوع هذا القتال حتى يحل المقتولون محلهم و ينالوا درجاتهم، و تحلوا أنتم محلكم فيتعين لكم أحد جانبي السعاده و الشقاوه بامتحان ما فى صدوركم من الأفكار، و تخليص ما فى قلوبكم من الإيمان و الشرك.

و من عجيب ما ذكر فى هذه الآيه قول عده من المفسرين إن المراد بهذه الطائفه التى تشرح الآيه حالها هم المنافقون مع ظهور سياق الآيات فى أنها تصف حال المؤمنين، و أما المنافقون أعنى أصحاب عبد الله بن أبى المنخزلين فى أول الوقعه قبل وقوع القتال فإنما يتعرض لحالهم فيما سياتى.

اللهم إلا أن يريدوا بالمنافقين الضعفاء الإيمان الذين يعود عقائدهم المتناقضه بحسب اللازم إلى إنكار الحق قلبا و الاعتراف به لسانا و هم الذين يسميهم الله بالذين فى قلوبهم مرض قال تعالى: إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ - الأنفال - ٤٩، و قال: وَ فِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ: التوبه ٤٧، أو يريدوا أن جميع المنافقين لم يرجعوا مع أصحاب عبد الله بن أبى إلى المدينه.

و أعجب منه قول بعض آخر إن هذه الطائفه كانوا مؤمنين، و أنهم كانوا يظنون أن أمر النصر و الغلبه إليهم لكونهم على دين الله الحق لما رأوا من الفتح و الظفر و نزول الملائكه يوم بدر فقولهم: هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ، و قولهم: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ «إلخ» اعتراف منهم بأن الأمر إلى الله لا إليهم و إلا لم يستأصلهم القتل.

و يرد عليه عدم استقامه الجواب حينئذ و هو قوله تعالى: قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ، و قوله: قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ «إلخ»، و قد أحس بعض هؤلاء بهذا الإشكال فأجاب عنه بما هو أردأ من أصل كلامه و قد عرفت ما هو الحق من المعنى.

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا» استرلال الشيطان إياهم إرادته وقوعهم فى الزله، و لم يرد ذلك منهم إلا بسبب بعض ما كسبوا فى نفوسهم و من أعمالهم فإن السيئات يهدى بعضها إلى بعض فإنها مبنيه على متابعه هوى النفس، و هوى النفس للشئ هوى لما يشاكلة.

و أما احتمال كون الباء للآله و كون ما كسبوا عين توليهم يوم الالتقاء فيعيد من ظاهر اللفظ فإن ظاهر «مَا كَسَبُوا» تقدم الكسب على التولى و الاستزلال.

و كيف كان فظاهر الآيه أن بعض ما قدموا من الذنوب و الآثام مكن الشيطان أن أغواهم بالتولى و الفرار، و من هنا يظهر أن احتمال كون الآيه ناظره إلى نداء الشيطان يوم أحد بقتل النبي ص على ما فى بعض الروايات ليس بشيء إذ لا دلالة عليه من جهة اللفظ.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ» هذا العفو هو عن الذين تولوا، المذكورين فى صدر الآيه، و الآيه مطلقه تشمل جميع من تولى يومئذ فتعم الطائفتين جميعا أعنى الطائفة التى غشيهم النعاس و الطائفة التى أهتمهم أنفسهم، و الطائفتان مختلفتان بالتكريم بإكرام الله و عدمه، و لكونهما مختلفتين لم يذكر مع هذا العفو الشامل لهما معا جهات الإكرام التى اشتمل عليها العفو المتعلقة بالطائفة الأولى على ما تقدم بيانه.

و من هنا يظهر أن هذا العفو المذكور فى هذه الآيه غير العفو المذكور فى قوله:

وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ

و من الدليل على اختلاف العفوين ما فى الآيتين من اختلاف اللحن ففرق واضح بين قوله تعالى: «وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» حيث إنه كلام مشعر بالفضل و الرأفة و قد سماهم مؤمنين ثم ذكر إثابتهم غما بغم لكيلا يحزنوا ثم إنزاله عليهم أمنه نعاسا، و بين قوله تعالى: «وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ» حيث ذكر العفو و سكت عن جميع ما أكرم الطائفة الأولى به ثم ختم الكلام بذكر حلمه و هو أن لا يعجل فى العقوبه و العفو الذى مع الحلم إغماض مع استبطان سخط فإن قلت: إنما سوى بين الطائفتين من سوى بينهما لمكان ورود العفو عنهما جميعا.

قلت: معنى العفو مختلف فى الموردین بحسب المصداق و إن صدق على الجميع مفهوم العفو على حد سواء، و لا دليل على كون العفو و المغفرة و ما يشابههما فى جميع الموارد سنخا واحدا، و قد بينا وجه الاختلاف.

### معنى العفو و المغفرة فى القرآن

العفو على ما ذكره الراغب - و هو المعنى المتحصل من موارد استعماله - هو القصد لتناول الشىء، يقال: عفاه و اعتفاه أى قصده متناولاً ما عنده، و عفت الريح الدار

قصدها تناولها، انتهى و كان قولهم: عفت الدار إذ بليت مبنى على عناية لطيفه و هى أن الدار كأنها قصدت آثار نفسها و ظواهر زينتها فأخذته فغابت عن أعين الناظرين، و بهذه العناية ينسب العفو إليه تعالى كأنه تعالى يعنى بالعبد يأخذ ما عنده من الذنب و يتركه بلا ذنب.

و من هنا يظهر أن المغفرة -و هو الستر- متفرع عليه بحسب الاعتبار فإن الشيء كالذنب مثلا يؤخذ و يتناول أولا ثم يستر عليه فلا يظهر ذنب المذنب لا- عند نفسه و لا- عند غيره، قال تعالى: وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا، «البقرة: ٢٨٦»، و قال: وَكَانَ اللَّهُ عَافِيًا غُفُورًا «النساء: ٩٩».

و قد تبين بذلك أن العفو و المغفرة و إن كانا مختلفين متفرعا أحدهما على الآخر بحسب العناية الذهنية لكنهما بحسب المصداق واحد، و أن معناه ليس من المعانى المختصة به تعالى بل يصح إطلاقهما على غيره تعالى بما لهما من المعنى كما قال تعالى: إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ «البقرة: ٢٣٧»، و قال تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ «الجمعة: ١٤»، و قال تعالى: فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ الْآيَةَ فَأَمْرٌ نَبِيهِ ص أَنْ يَعْفُوا عَنْهُمْ فَلَا يَرْتَبِ الْأَثْرَ عَلَى مَعْصِيَتِهِمْ مِنَ الْمُؤَاخَذَةِ وَ الْعِتَابِ وَ الْإِعْرَاضِ وَ نَحْوِ ذَلِكَ، و أن يستغفر فيسأل الله أن يغفر لهم -و هو تعالى فاعله لا محاله- فيما يرجع إليه من آثار الذنب.

و قد تبين أيضا أن معنى العفو و المغفرة يمكن أن يتعلق بالآثار التكوينية و التشريعية و الدنيوية و الآخروية جميعا، قال تعالى: وَ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ «الشورى: ٣٠»، و الآية شامله للآثار و العواقب الدنيوية قطعاً، و مثله قوله تعالى: وَ الْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ «الشورى: ٥»، على ظاهر معناه، و كذا قول آدم و زوجته فيما حكاها الله عنهما:

رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَ إِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ «الأعراف: ٢٣» بناء على أن ظلمهما كان معصية لنهى إرشادى لا مولوى.

و الآيات الكثيره القرآنيه داله على أن القرب و الزلفى من الله، و التمتع بنعم الجنه يتوقف على سبق المغفرة الإلهيه و إزاله رين الشرك و الذنوب بتوبه و نحوها كما قال تعالى: كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ «المطففين: ١٤» و قال تعالى: وَ مَنْ

يُؤْمِنُ بِاللَّهِ يَهْدِي قَلْبَهُ: «التغابن: ١١».

و بالجمله العفو و المغفره من قبيل ازاله المانع و رفع المنافى المضاد، و قد عد الله سبحانه الايمان و الدار الآخره حياه، و آثار الايمان و أفعال أهل الآخره و سيرهم الحيوى نورا كما قال: «أ وَ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا: «الأنعام: ١٢٢»، و قال تعالى: وَ إِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ: «العنكبوت: ٦٤»، فالشرك موت و المعاصى ظلمات، قال تعالى: أَوْ كظلماتٍ في بحرٍ لججٍ يعشاها موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحابٌ، ظلماتٌ بعضها فوق بعضٍ إذا أخرج يده لم يكد يراها و مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ: «النور: ٤٠»، فالمغفره ازاله الموت و الظلمه و إنما تكون بحياه و هو الايمان، و نور و هو الرحمه الإلهيه.

فالكافر لا- حياه له و لا- نور، و المؤمن المغفور له له حياه و نور، و المؤمن إذا كان معه سيئات حتى لم يتم له نوره و إنما يتم بالمغفره، قال تعالى: نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ بَأْيَمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَ اغْفِرْ لَنَا: «التحریم-٨».

فظهر من جميع ما تقدم أن مصداق العفو و المغفره إذا نسب إليه تعالى فى الأمور التكوينية كان ازاله المانع بإيراد سبب يدفعه، و فى الأمور التشريعيه ازاله السبب المانع عن الإرفاق و نحوه، و فى مورد السعاده و الشقاوه ازاله المانع عن السعاده.

### [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٥٦ الى ١٦٤]

#### اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحِبُّ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَ لئن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَ لئن مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِيَالِي اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) فَبِمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لئنِ لَهِمْ وَ لَوْ كُنْتُمْ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَ عَلَى اللَّهِ فليتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَ مَنْ يَغْلُ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوْفَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَ فَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانِ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخِطِ مِنَ اللَّهِ وَ مَاوَاهُ جَهَنَّمَ وَ بئسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤)



الآيات من تتمه الآيات النازله فى خصوص غزوه أحد أيضا، وهى تتضمن التعرض لأمر آخر عرض لهم، وهو الأسف و الحسره الوارده فى قلوبهم من قتل رجالاتهم و سراه قومهم، و معظم المقتولين كانوا من الأنصار فما قتل من المهاجرين -على ما قيل - إلا أربعه، و هذا يقوى الحدس أن معظم المقاومه كانت من ناحيه الأنصار، و أن الهزيمه أسرعت إلى المهاجرين قبلهم.

و بالجمله الآيات تبين ما فى هذا الأسف و الحسره من الخطأ و الخبط، و تعطف على

أمر آخر يستتبعه هذا الأسف و التحسر و هو سوء ظنهم برسول الله ص، و أنه هو الذى أوردهم هذا المورد و ألقاهم فى هذه التهلكه كما يشير إليه قولهم على ما تلوح إليه هذه الآيات: لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا الْآيَه، و قول المنافقين فيما سيجىء: لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا الْآيَه، أى أطاعونا و لم يطيعوا رسول الله ص فهو الذى أهلكهم، فهى تبين أنه(ص) ليس له أن يخون أحدا بل هو رسول منه تعالى شريف النفس كريم المحتد عظيم الخلق يلين لهم برحمه من الله، و يعفو عنهم و يستغفر لهم و يشاورهم فى الأمر منه تعالى، و أن الله من به عليهم ليخرجهم من الضلال إلى الهدى.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ «إلخ» المراد بهؤلاء الذين كفروا ما هو ظاهر اللفظ أعنى الكافرين دون المنافقين- كما قيل- لأن النفاق بما هو نفاق ليس منشأ لهذا القول- و إن كان المنافقون يقولون ذلك- و إنما منشؤه الكفر فيجب أن ينسب إلى الكافرين.

و الضرب فى الأرض كناية عن المسافره، و غزى جمع غاز كطالب و طلب و ضارب و ضرب، و قوله: لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً ، أى ليعذبهم بها فهو من قبيل وضع المغيا موضع الغايه، و قوله: وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ، بيان لحقيقه الأمر التى أخطأ فيها الكافرون القائلون: لو كانوا، و هذا الموت يشمل الموت حتف الأنف و القتل كما هو مقتضى إطلاق الموت وحده على ما تقدم، و قوله: وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ فى موضع التعليل للنهى فى قوله: لَا تَكُونُوا «إلخ».

و قوله: ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ ، قدم فيه الموت على القتل ليكون النشر على ترتيب اللف فى قوله: إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى ، و لأن الموت أمر جار على الطبع و العاده المألوفه بخلاف القتل فإنه أمر استثنائى فقدم ما هو المألوف على غيره.

و محصل الآيه نهى المؤمنين أن يكونوا كالكافرين فيقولوا لمن مات منهم فى خارج بلده أو قومه، و فيمن قتل منهم فى غزاه: لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا فَإِنْ هَذَا الْقَوْلُ يَسُوقُ الْإِنْسَانَ إِلَى عَذَابِ قَلْبِي وَ نَقْمِهِ إِلَهِيهِ وَ هُوَ الْحَسْرَةُ الْمَلْقَاهُ فِي قُلُوبِهِمْ، مع أنه من الجهل فإن القرب و البعد منهم ليس بمحيى و مميت بل الإحياء و الإماتة من الشئون المختصه بالله وحده لا شريك له فليتقوا الله و لا يكونوا مثلهم فإن الله بما يعملون بصير.

قوله تعالى: **وَ لَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ** الظاهر أن المراد مما يجمعون هو المال و ما يلحق به الذى هو عمده البغية فى الحياه الدنيا.

و قد قدم القتل هاهنا على الموت لأن القتل فى سبيل الله أقرب من المغفرة بالنسبه إلى الموت فهذه النكته هى الموجه لتقديم القتل على الموت، و لذلك عاد فى الآيه التاليه:

**وَ لَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ**

إلى الترتيب الطبعى بتقديم الموت على القتل لفقد هذه النكته الزائده.

قوله تعالى: **«فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ»** إلى آخر الآيه، اللفظ هو الجافى القاسى، و غلظ القلب كناية عن عدم رفته و رأفته، و الانفضاض التفرق.

و فى الآيه التفات عن خطابهم إلى خطاب رسول الله ص، و أصل المعنى:

فقد لان لكم رسولنا برحمه منا، و لذلك أمرناه أن يعفو عنكم و يستغفر لكم و يشاوركم فى الأمر و أن يتوكل علينا إذا عزم.

و نكته الالتفات ما تقدم فى أول آيات الغزوه أن الكلام فيه شوب عتاب و توبيخ، و لذلك اشتمل على بعض الأعراض فى ما يناسبه من الموارد و منها هذا المورد الذى يتعرض فيه لبيان حال من أحوالهم لها مساس بالاعتراض على النبى ص فإن تحزنهم لقتل من قتل منهم ربما دلهم على المناقشه فى فعل النبى ص، و رميه بأنه أوردتهم مورد القتل و الاستيصال، فأعرض الله تعالى عن مخاطبتهم و التفت إلى نبيه ص فخاطبه بقوله: **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ**.

و الكلام متفرع على كلام آخر يدل عليه السياق، و التقدير: و إذا كان حالهم ما تراه من التشبه بالذين كفروا و التحسر على قتالهم فبرحمه منا لنت لهم و إلا لانفضوا من حولك. و الله أعلم.

و قوله: **«فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ»** إنما سيق ليكون إمضاء لسيرته (ص) فإنه كذلك كان يفعل، و قد شاورهم فى أمر القتال قبيل يوم أحد، و فيه إشعار بأنه إنما يفعل ما يؤمر و الله سبحانه عن فعله راض.

و قد أمر الله تعالى نبيه ص أن يعفو عنهم فلا يرتب على فعالهم أثر المعصيه، و أن يستغفر فيسأل الله أن يغفر لهم—و هو تعالى فاعله لا محاله—و اللفظ و إن كان

مطلقا لا يختص بال مورد غير أنه لا يشمل موارد الحدود الشرعيه و ما يناظرها و إلا لغا التشريع، على أن تعقيبه بقوله: وَ شَاوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ لَا يَخْلُو عَنِ الْإِشْعَارِ بَأَن هَذِينَ الْأَمْرِينَ إِنَّمَا هُمَا فِي ظَرْفِ الْوَلَايَةِ وَ تَدْبِيرِ الْأُمُورِ الْعَامَةِ مِمَّا يَجْرِي فِيهِ الْمَشَاوِرَةُ مَعَهُمْ.

و قوله: «فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ»، و إذا أُجِبَكَ كَانَ وَلِيًّا وَ نَاصِرًا لَكَ غَيْرَ خَازِلِكَ، و لذا عقب الآية بهذا المعنى و دعا المؤمنين أيضا إلى التوكل فقال: إِنَّ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَ إِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ثُمَّ امْرَهُم بِالْتَوَكُّلِ بَوْضِعِ سَبَبِهِ مَوْضِعَهُ فَقَالَ: وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ أَي لِإِيمَانِهِمْ بِاللَّهِ الَّذِي لَا نَاصِرَ وَ لَا مَعِينَ إِلَّا هُوَ.

قوله تعالى: «وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغَلَّ» ، الغل هو الخيانه، قد مر في قوله تعالى:

«مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغَلَّ» الْكُتَابَ: آل عمران-٧٩، إن هذا السياق معناه تنزيه ساحه النبي عن السوء و الفحشاء بطهارته، و المعنى: حاشا أن يغل و يخون النبي ربه أو الناس (و هو أيضا من الخيانه لله) و الحال أن الخائن يلقى ربه بخيانه ثم توفي نفسه ما كسبت.

ثم ذكر أن رمى النبي بالخيانه قياس جائر مع الفارق فإنه متبع رضوان الله لا يعدو رضا ربه، و الخائن باء بسخط عظيم من الله و مأواه جهنم و بشس المصير، و هذا هو المراد بقوله: أَمْ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ الْآيَةَ.

و يمكن أن يكون المراد به التعريض للمؤمنين بأن هذه الأحوال من التعرض لسخط الله، و الله يدعوكم بهذه المواعظ إلى رضوانه، و ما هما سواء.

ثم ذكر أن هذه الطوائف من المتبعين لرضوان الله و البائين بسخط من الله درجات مختلفه، و الله بصير بالأعمال فلا تزعموا أنه يفوته الحقيير من خير أو شرف تسامحوا في اتباع رضوانه أو البوء بسخطه.

قوله تعالى: «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ»، في الآية التفات آخر من خطاب المؤمنين إلى تنزيلهم منزله الغيبه، و قد مر الوجه العام في هذه الموارد من الالتفات و الوجه الخاص بما هاهنا أن الآية مسوقه سوق الامتتان و المن على المؤمنين لصفه إيمانهم و لذا قيل: على المؤمنين، و لا يفيد غير الوصف حتى لو قيل: الذين آمنوا، لأن المشعر

بالعليه-على ما قيل-هو الوصف أو أنه الكامل في هذا الإشعار، والمعنى ظاهر.

و في الآيه أبحاث أخر سيأتى شطر منها فى المواضع المناسبه لها إن شاء الله العزيز.

### [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٦٥ الى ١٧١]

#### إشاره

أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّنْفِ الْجُمُعَاتِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَ لِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِهِمْ وَقَعِدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨) وَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلِ وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)

#### بيان

الآيات من تتمه الآيات النازله فى خصوص غزوه أحد، و فيه تعرض لحال عده من المنافقين خذلوا جماعه المؤمنين عند خروجهم من المدينة إلى أحد، و فيها جواب ما

قالوه فى المقتولين، و وصف حال المستشهدين بعد القتل و أنهم منعمون فى حضره القرب يستبشرون ياخوانهم من خلفهم.

قوله تعالى: «أَوَلَمْ أَصَابْتُكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا» لما نهاهم أن يكونوا كالذين كفروا فى التحزن لقتلاهم و التحسر عليهم بيان أن أمر الحياه و الموت إلى الله وحده لا إليهم حتى يدورا مدار قربهم و بعدهم و خروجهم إلى القتال أو قعودهم عنه رجوع ثانيا إلى بيان سببه القريب على ما جرت عليه سنه الأسباب، فبين أن سببه إنما هو المعصيه الواقعه يوم أحد منهم و هو معصيه الرماه بتخليه مراكزهم، و معصيه من تولى منهم عن القتال بعد ذلك، و بالجملة سببه معصيتهم الرسول- و هو قائدهم- و فشلهم و تنازعهم فى الأمر و ذلك سبب للانهازم بحسب سنه الطبيعه و العاده.

فالآيه فى معنى قوله: أ تدررون من أين أصابتكم مصيبه قد أصبتم مثلها؟ إنما أصابتكم من عند أنفسكم و هو إفسادكم سبب الفتح و الظفر بأيديكم و مخالفتكم قائدكم و فشلكم و اختلاف كلمتكم.

و قد وصفت المصيبه بقوله: قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا و هو إشاره إلى مقايسه ما أصابهم الكفار يوم أحد، و هو قتل سبعين رجلا منهم بما أصابوا الكفار يوم بدر و هو مثلا السبعين فإنهم قتلوا منهم يوم بدر سبعين رجلا و أسروا سبعين رجلا.

و فى هذا التوصيف تسكين لطيش قلوبهم و تحقير للمصيبه فإنهم أصيبوا من أعدائهم بنصف ما أصابوهم فلا ينبغى لهم أن يحزنوا أو يجزعوا.

و قيل: إن معنى الآيه: أنكم أنفسكم اخترتم هذه المصيبه، و ذلك أنهم اختاروا الفداء من الأسرى يوم بدر، و كان الحكم فيهم القتل، و شرط عليهم أنكم إن قبلتم الفداء قتل منكم فى القابل بعدتهم فقالوا: رضينا فإننا نأخذ الفداء و ننتفع به، و إذا قتل منا فيما بعد كنا شهداء.

و يؤيد هذا الوجه بل يدل عليه ما ذيل به الآيه أعنى قوله: إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إذ لا تلائم هذه الفقره الوجه السابق البته إلا بتعسف، و سيجىء روايته عن أئمه أهل البيت (ع) فى البحث الروائى الآتى.

قوله تعالى: «وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَى الْجَمْعَانِ» إلى آخر الآيتين، الآيه الأولى

تؤيد ما تقدم أن المراد بقوله: قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ، اختيارهم الفداء من أسرى يوم بدر، و شرطهم على أنفسهم لله ما شرطوا فأصابه هذه المصيبة بإذن الله، و أما الوجه الأول المذكور و هو أن المعنى أن سبب إصابه المصيبة القريب هو مخالفتكم فلا تلاؤم ظاهرا بينه و بين نسبة المصيبة إلى إذن الله و هو ظاهر.

فعلى ما ذكرنا يكون ذكر استناد إصابه المصيبة إلى إذن الله بمنزله البيان لقوله:

هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ

، و ليكون توطئه لانضمام قوله: وَ لِيُعَلِّمَ الْمُؤْمِنِينَ، و بانضمامه يتمهد الطريق للتعرض لحال المنافقين و ما تكلموا به و جوابه و بيان حقيقه هذا الموت الذى هو القتل فى سبيل الله.

و قوله: أو ادفعوا أى لو لم تقاتلوا فى سبيل الله فادفعوا عن حريمكم و أنفسكم و قوله: هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان، اللام بمعنى إلى فهذا حالهم بالنسبه إلى الكفر الصريح، و أما النفاق فقد واقعه بفعلهم ذلك.

و قوله: «يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ»، ذكر الأفواه للتأكيد و للتقابل بينها و بين القلوب.

قوله تعالى: «الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا»، المراد بإخوانهم إخوانهم فى النسب و هم القتلى، و إنما ذكر إخوانهم لهم ليكون مع انضمام قوله: و قعدوا أوقع تعبير و تأنيب عليهم فإنهم قعدوا عن إمداد إخوانهم حتى أصابهم ما أصابهم من القتل الذريع، و قوله: قل فادعوا جواب عن قولهم ذاك، و الدرء: الدفع.

قوله تعالى: «وَلَا تَحْزَبَنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا» الآية، و فى الآية التفات عن خطاب المؤمنين إلى خطاب رسول الله ص، و الوجه فيه ما تكرر ذكره فى تضاعيف هذه الآيات، و يحتمل أن يكون الخطاب تتمه الخطاب فى قوله:

قُلْ فَادْرؤْا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

و المراد بالموت بطلان الشعور و الفعل، و لذا ذكرهما فى قوله: بَلْ أَحْيَاءٌ «إلخ» حيث ذكر الارتزاق و هو فعل، و الفرح الاستبشار و معهما شعور.

قوله تعالى: فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ الْآيَةَ، الفرح ضد الحزن و، البشاره و البشرى ما يسرك من الخبر و الاستبشار طلب السرور بالبشرى، و المعنى: أنهم فرحون بما

وجدوه من الفضل الإلهي الحاضر المشهود عندهم، و يطلبون السرور بما يأتيهم من البشرى بحسن حال من لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

و من ذلك يظهر أولاً أن هؤلاء المقتولين في سبيل الله يأتيهم و يتصل بهم أخبار خيار المؤمنين الباقين بعدهم في الدنيا.

و ثانياً أن هذه البشرى هي ثواب أعمال المؤمنين و هو أن لا خوف عليهم و لا هم يحزنون و ليس ذلك إلا بمشاهدتهم هذا الثواب في دارهم التي هم فيها مقيمون فإنما شأنهم المشاهدة دون الاستدلال ففي الآية دلالة على بقاء الإنسان بعد الموت ما بينه و بين يوم القيامة، و قد فصلنا القول فيه في الكلام على نشأه البرزخ في ذيل قوله تعالى: **وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۗ أَلَا يَهُدَىٰ** X: «البقرة: ١٥٤».

قوله تعالى: **﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾** الآية، هذا الاستبشار أعم من الاستبشار بحال غيرهم و بحال أنفسهم و الدليل عليه قوله: **وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ**، فإنه بإطلاقه شامل للجميع، و لعل هذه هي النكته في تكرار الاستبشار و كذا تكرار الفضل فتدبر في الآية.

و قد نكر الفضل و النعمة و أبهم الرزق في الآيات ليذهب ذهن السامع فيها كل مذهب ممكن، و لذا أبهم الخوف و الحزن ليدل في سياق النفي على العموم.

و التدبر في الآيات يعطى أنها في صدد بيان أجر المؤمنين أولاً، و أن هذا الأجر رزقهم عند الله سبحانه ثانياً، و أن هذا الرزق نعمه من الله و فضل ثالثاً، و أن الذي يشخص هذه النعمة و الفضل هو أنهم لا خوف عليهم و لا هم يحزنون رابعاً.

و هذه الجملة أعنى قوله: أن لا خوف عليهم و لا هم يحزنون كلمه عجيبه كلما أمعنت في تدبرها زاد في اتساع معناها على لطف و رقه و سهوله بيان، و أول ما يلوح من معناها أن الخوف و الحزن مرفوعان عنهم، و الخوف إنما يكون من أمر ممكن محتمل يوجب انتفاء شيء من سعادة الإنسان التي يقدر نفسه واجده لها، و كذا الحزن إنما يكون من جهة أمر واقع يوجب ذلك، فالبليه أو كل محذور إنما يخاف منها إذا لم يقع بعد فإذا وقعت زال الخوف و عرض الحزن فلا خوف بعد الوقوع و لا حزن قبله.

فارتفاع مطلق الخوف عن الإنسان إنما يكون إذا لم يكن ما عنده من وجوه



النعمة في معرض الزوال، وارتفاع مطلق الحزن إنما يتيسر له إذا لم يفقد شيئاً من أنواع سعادته لا ابتداء ولا بعد الوجدان، فرفعه تعالى مطلق الخوف والحزن عن الإنسان معناه أن يفيض عليه كل ما يمكنه أن يتنعم به ويستلذه، وأن لا يكون ذلك في معرض الزوال، وهذا هو خلود السعادة للإنسان وخلوده فيها.

□ □  
و من هنا يتضح أن نفى الخوف والحزن هو بعينه ارتزاق الإنسان عند الله فهو سبحانه يقول: وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ: «آل عمران: ١٩٨»، ويقول: وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بِأَقْيَسٌ: «النحل: ٩٦» فالآيتان تدلان على أن ما عند الله نعمه باقيه لا يشوبها نغمة ولا يعرضها فناء.

□ □  
ويتضح أيضاً أن نفيهما هو بعينه إثبات النعمة والفضل وهو العطيء لكن تقدم في أوائل الكتاب وسيجيء في قوله تعالى: مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ: «النساء: ٦٩»، أن النعمة إذا أطلقت في عرف القرآن فهي الولاية الإلهية، وعلى ذلك فالمعنى: أن الله يتولى أمرهم ويخصهم بعطيء منه.

□ □  
و أما احتمال أن يكون المراد بالفضل الموهبة الزائده على استحقاقهم بالعمل، والنعمة ما بحذائه فلا يلائمه قوله: وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ الْأَجْرَ يُؤْتَى بِالْإِسْتِحْقَاقِ، وقد عرفت أن هذه الفقرات أعنى قوله: عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ وقوله:

فَرِحِينَ بِمَا

□ □  
إلخ وقوله: يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمِهِ إِيخ، وقوله: وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ مآلها إلى حقيقة واحده.

□ □  
و في الآيات أبحاث آخر تقدم بعضها في تفسير قوله: وَ لَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ: «البقرة: ١٥٤»، ولعل الله يوفقنا لاستيفاء ما يسعنا من البحث فيها في ما سيجيء من الموارد المناسبه إن شاء الله تعالى.

### [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٧٢ الى ١٧٥]

#### اشاره

□ □  
الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالُوا لَكُمْ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمِهِ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ لَمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ وَ اتَّبَعُوا رِضْوَانَهُ وَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذِكْرُ الشَّيْطَانِ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَ خَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٥)

الآيات مرتبطة بآيات غزوه أحد، ويشعر بذلك قوله: مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ و قد قال فيها: إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِثْلُهُ .

قوله تعالى: «الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ» الآية الاستجابة و الإجابة بمعنى واحد- كما قيل- و هي أن تسأل شيئاً فتجاب بالقبول.

و لعل ذكر الله و الرسول مع جواز الاكتفاء فى المقام بذكر أحد اللفظين إنما هو لكونهم فى وقعه أحد عصوا الله و الرسول، فأما هو تعالى فقد عصوه بالفرار و التولى و قد نهاهم الله عنه و أمر بالجهاد، و أما الرسول فقد عصوه بمخالفه أمره الذى أصدره على الرماة بلزوم مراكزهم و حين كانوا يصعدون و هو يدعوهم فى أخراهم فلم يجيبوا دعوته، فلما استجابوا فى هذه الوقعه وضع فيها بحذاء تلك الوقعه استجابتهم لله و الرسول و قوله: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ»، قصر الوعد على بعض أفراد المستجيبين لأن الاستجابة فعل ظاهرى لا يلازم حقيقه الإحسان و التقوى اللذين عليهما مدار الأجر العظيم، و هذا من عجيب مراقبه القرآن فى بيانه حيث لا يشغله شأن عن شأن، و من هنا يتبين أن هؤلاء الجماعه ما كانوا خالصين لله فى أمره بل كان فيهم من لم يكن محسناً متقياً يستحق عظيم الأجر من الله سبحانه، و ربما يقال: إن «من» فى قوله: «مِنْهُمْ» بيانيه كما قيل مثله فى قوله تعالى: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ X- إلى أن قال X: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً

وَ أَجْرًا عَظِيمًا: «الفتح: ٢٩»، وهو تأول بما يدفعه السياق.

و يتبين أيضا أن ما يمدحهم به الله سبحانه في قوله: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ الْآيَاتِ من قبيل وصف البعض المنسوب إلى الكل بعنايه لفظيه.

قوله تعالى: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ الْآيَةَ، الناس هو الأفراد من الإنسان من حيث عدم أخذ ما يتميز به بعضهم من بعض، والناس الأول غير الثاني، فإن الثاني هو العدو الذي كان يجمع الجموع، و أما الأول فهم الخاذلون المشبوتون الذين كانوا يقولون ما يقولون ليخذلوا المؤمنين عن الخروج إلى قتال المشركين، فالناس الثاني أريد به المشركون، والناس الأول أيديهم على المؤمنين و عيونهم فيهم، و ظاهر الآية كونهم عدو و جماعه لا واحدا، و هذا يؤيد كون الآيات نازله في قصه خروج النبي ص فيمن بقي من أصحابه بعد أحد في أثر المشركين دون قصه بدر الصغرى، و سيجيء القصتان في البحث الروائي الآتي.

و قوله: قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ، أى جمعوا جموعهم لقتالكم ثانيا (و الله أعلم).

و قوله: فَرَادَهُمْ إِيمَانًا، و ذلك لما في طبع الإنسان أنه إذا نهى عما يريد و يعزم عليه، فإن لم يحسن الظن بمن ينهاه كان ذلك إغراء فأوجب انتباه قواه و اشتدت بذلك عزمته، و كلما أصر عليه بالمنع أصر على المضى على ما يريد و يقصده، و هذا إذا كان الممنوع يرى نفسه محقا معذورا في فعاله أشد تأثيرا من غيره، و لذا كان المؤمنون كلما لامهم فى أمر الله لائم أو منعهم مانع زادوا قوه فى إيمانهم و شده فى عزمهم و بأسهم.

و يمكن أن يكون زياده إيمانهم لتأييد أمثال هذه الأخبار ما عندهم من خبر الوحي أنهم سيؤذون فى جنب الله حتى يتم أمرهم بإذن الله و قد وعدهم النصر و لا يكون نصر إلا فى نزال و قتال.

و قوله: وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ أى كافينا الله و أصل الحسب من الحساب لأن الكفايه بحساب الحاجه، و هذا اكتفاء بالله بحسب الإيمان دون الأسباب الخارجيه الجاريه فى السنه الإلهيه و الوكيل هو الذى يدبر الأمر عن الإنسان، فمضمون الآية يرجع إلى معنى قوله: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ» الطلاق-٣، و لذلك عقب قوله: وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ بقوله: فَأَنْقَلِبُوا بِنِعْمِهِ مِنَ اللَّهِ

«إلخ» ليكون تصديقا لوعده تعالى، ثم حمدهم إذ اتبعوا رضوانه فقال: و اتبعوا رضوان الله و الله ذو فضل عظيم.

## كلام فى التوكّل

و حقيقة الأمر أن مضى الإرادة و الظفر بالمراد فى نشأه المادة يحتاج إلى أسباب طبيعیه و أخرى روحیه و الإنسان إذا أراد الورد فى أمر يهمله و هيا من الأسباب الطبيعیه ما يحتاج إليه لم يحل بينه و بين ما يبتغيه إلا اختلال الأسباب الروحیه كوهن الإرادة و الخوف و الحزن و الطيش و الشره و السفه و سوء الظن و غير ذلك و هى أمور هامه عامه، و إذا توكل على الله سبحانه و فيه اتصال بسبب غير مغلوب البته و هو السبب الذى فوق كل سبب قويت إرادته قوه لا- يغلبها شىء من الأسباب الروحیه المضاده المنافیه فكان نيلا و سعاده.

و فى التوكّل على الله جهه أخرى يلحقه أثرا بخوارق العاده كما هو ظاهر قوله:

«وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ» الآية، و قد تقدم شرط من البحث المتعلق بالمقام فى الكلام على الإعجاز.

قوله تعالى: «ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ» الآية، ظاهر الآية أن الإشاره إلى الناس الذين قالوا لهم ما قالوا، فيكون هذا من الموارد التى أطلق فيها القرآن الشيطان على الإنسان كما يظهر ذلك من قوله: «مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ»: الناس- ٦، و يؤيده قوله تعالى بعد ذلك: «فَلَا تَخَافُوهُمْ أَيُّ النَّاسِ الْقَائِلِينَ لَكُمْ مَا قَالُوا لِأَنَّ ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ، و سنبحث فى هذا المعنى بما يكشف القناع عن وجه حقيقته إن شاء الله تعالى.

## بحث روائى

الروايات الواردة فى غزوه أحد كثيره فى الغايه، و هى مختلفه اختلافا شديدا فى جهات القصه ربما أدت إلى سوء الظن بها، و أكثرها اختلافا ما ورد منها فى أسباب

نزول كثير من آيات القصة و هي تقرب من ستين آيه فإن أمرها عجيب، و لا- يلبث الناظر المتأمل فيها دون أن يقضى بأن المذاهب المختلفه أودعت فيها أرواحها لتتطرق بلسانها بما تنتفع به، و هذا هو العذر في تركنا إيرادها في هذا البحث فمن أرادها فعليه بجوامع الحديث و مطولات التفاسير.

و

في الدر المنثور، "أخرج ابن أبي حاتم عن أبي الضحى قال: نزلت «وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ» فقتل منهم يومئذ سبعون منهم أربعة من المهاجرين-منهم حمزه بن عبد المطلب، و مصعب بن عمير أخو بنى عبد الدار، و الشماس بن عثمان المخزومي، و عبد الله بن جحش الأسدي، و سائرهم من الأنصار.

أقول: و ظاهر الروايه أن أبا الضحى أخذ الشهداء في الآيه بمعنى المقتولين في المعركه، و على ذلك جرى جمهور المفسرين، و قد مر في البيان السابق أن لا دليل عليه من ظاهر الكتاب بل الظاهر أن المراد بالشهداء شهداء الأعمال.

)

و في تفسير العياشى: في قوله تعالى: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ» الآيه، عن الصادق (ع) قال: \*إن الله علم بما هو مكونه قبل أن يكونه-و هم ذر و علم من يجاهد ممن لا- يجاهد-كما علم أنه يميت خلقه قبل أن يميتهم، و لم ير موتهم و هم أحياء.

أقول: إشاره إلى ما تقدم أنه فرق بين العلم قبل الإيجاد و العلم الفعلى الذى هو الفعل و أن المراد ليس هو العلم قبل الإيجاد.

و في تفسير القمى، عن الصادق (ع) \*في قوله تعالى: «وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ» الآيه: أن المؤمنين لما أخبرهم الله تعالى-بالذى فعل بشهائهم يوم بدر في منازلهم في الجنه رغبوا في ذلك-فقالوا: اللهم أرنا قتالا نستشهد فيه-فأراهم الله يوم أحد إياه فلم يثبتوا إلا من شاء الله منهم-فذلك قوله: «وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ» الآيه:

أقول: و روى هذا المعنى في الدر المنثور عن ابن عباس و مجاهد و قتاده و الحسن و السدى.

و في تفسير القمى، قال (ع) \*إن رسول الله ص خرج يوم أحد، و عهد العاهد به على تلك الحال فجعل الرجل يقول لمن لقيه: إن رسول الله قد قتل، النجا،

فلما رجعوا إلى المدينة أنزل الله: **وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ إِلَى قَوْلِهِ:**

**إِنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ يَقُولُ: إِلَى الْكُفْرِ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا .**

و في الدر المنثور، "أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عن الربيع في الآية-قال: ذلك يوم أحد حين أصابهم ما أصابهم من القتل و القرح-و تداعوا نبي الله قالوا: قد قتل- و قال أناس منهم: لو كان نبيا ما قتل، و قال أناس من عليه أصحاب النبي ص:

قاتلوا على ما قاتل عليه نبيكم-حتى يفتح الله عليكم أو تلحقوا به، و ذكر لنا أن رجلا من المهاجرين-مر على رجل من الأنصار و هو يتشحط في دمه-فقال: يا فلان أشعرت أن محمدا قد قتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمدا قد قتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم، فأنزل الله: **وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ - أَلَمْ يَأْتِ الْكُفْرَ بَلَاغًا بَلِغًا قَدْ بَلَغْتَ أَلَمْ يَكُنْ عَلَىٰ سُنْبُلِكَ مِغْزَاةٌ يَكْفُرُونَ** -يقول: ارتددتم كفارا بعد إيمانكم.

و فيه أخرج ابن جرير عن السدي قال " \*: فشا في الناس يوم أحد أن رسول الله ص قد قتل-فقال بعض أصحاب الصخره: ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي-فياخذ لنا أمانا من أبي سفيان-يا قوم إن محمدا قتل فارجعوا إلى قومكم-قبل أن يأتوكم فيقتلوكم- قال أنس بن النضر: يا قوم إن كان محمدا قد قتل فإن رب محمدا لم يقتل-فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد، اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، و أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء- فشد بسيفه فقاتل حتى قتل-فأنزل الله: **وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ** الآية:

أقول: و روى هذه المعاني بطرق أخر كثيره.

و في الكافي عن الباقر (ع) \*: أنه أصاب عليا يوم أحد ستون جراحه-و أن النبي ص أمر أم سليم و أم عطية أن تداوياه-فقاتلنا إنا لا نعالج منه مكانا إلا انفتق مكان- و قد خفنا عليه، و دخل رسول الله ص و المسلمون يعودونه و هو قرحه واحده، و جعل يمسحه بيده و يقول: إن رجلا لقي هذا في الله فقد أبلى و أعذر، فكان القرحة الذي يمسحه رسول الله ص يلتئم-فقال علي: الحمد لله إذ لم أفر و لم أول الدبر-فشكر الله له ذلك في موضعين من القرآن-و هو قوله: **وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ، و **سَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ** .

أقول: يعني شكر الله له ثباته لا قوله: الحمد لله الذي.

و فى تفسير العياشى، عن الصادق (ع) \*أنه قرأ: أو كآين من نبى قتل معه ربيون كثير، قال: ألوف و ألوف ثم قال: إى و الله يقتلون.

أقول: و روى هذه القراءه و المعنى فى الدر المنثور عن ابن مسعود و غيره،

و روى عن ابن عباس " \*أنه سئل عن قوله ربيون قال: جموع.

و فى الدر المنثور، " \*أخرج عبد بن حميد و ابن أبى حاتم عن مجاهد «مِنْ بَعْدِ مَا أَرَأَيْتُمْ مَا تُحِبُّونَ» قال: نصر الله المؤمنين على المشركين - حتى ركب نساء المشركين على كل صعب و ذلول - ثم أديل عليهم المشركون بمعصيتهم للنبي ص.

و فيه أخرج ابن إسحاق و ابن راهويه و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الدلائل عن الزبير قال " \*لقد رأيتنى مع رسول الله ص - حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم - فما منا من رجل إلا ذقنه فى صدره - فوالله إنى لأسمع قول معتب بن قشير - ما أسمعته إلا كالحلم - لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا فحفظتها منه، و فى ذلك أنزل الله: «ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنًا نُبُوءًا» - إلى قوله: «مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا» لقول معتب بن قشير:

أقول: و قد روى هذا المعنى عن الزبير بن العوام بطرق كثيره.

و فيه أخرج ابن منده فى معرفه الصحابه عن ابن عباس " \*فى قوله: إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ الْآيَةَ، قال: نزلت فى عثمان و رافع بن المعلى و حارثه بن زيد ":

أقول: و روى ما يقرب منه فى عده طرق عن عبد الرحمن بن عوف و عكرمه و ابن إسحاق و أضيف إليهم فى بعضها أبو حذيفه بن عقبه و الوليد بن عقبه و سعد بن عثمان و عقبه بن عثمان.

و على أى حال ذكر عثمان و من عد منهم بأسمائهم من باب ذكر المصداق و إلا فالآيه نزلت فى جميع من تولى من الأصحاب و عصى رسول الله ص، و الذى يخص عثمان هو أنه و من معه فروا حتى بلغوا الجلعب (جبل بناحية المدينه مما يلى الأغوص) فأقاموا به ثلاثا ثم رجعوا إلى رسول الله ص فقال لهم: لقد ذهبتم فيها عريضه.

و أما أصحابه عامه فقد تكاثرت الروايات أنهم تولوا عن آخرهم، و لم يبق مع

رسول الله منهم إلا رجلا من المهاجرين و سبعة من الأنصار ثم إن المشركين هجموا على رسول الله ص فقتل دون الدفاع عنه الأنصار واحدا بعد واحد حتى لم يبق معه منهم أحد.

و روى أن الذين ثبتوا معه أحد عشر، و روى ثمانية عشر حتى روى ثلاثون، و هو أضعف الروايات.

و لعل هذا الاختلاف بحسب اختلاف اطلاعات الرواه و غير ذلك، و الذى تدل عليه روايات دفاع نسيبه المازنيه عنه (ص) أنه لم يكن عنده ساعتئذ أحد، و كان من ثبت منهم و لم ينهزم مشغولا بالقتال، و لم يتفق كلمه الرواه فى ذلك على أحد إلا على (ع) و لعل أبا دجانه الأنصارى سماك بن خرشه كذلك إلا أنه قاتل بسيف رسول الله ص أولا ثم وقى بنفسه رسول الله ص حين جلى عنه أصحابه يدفع عنه النبال بمجنه و بظهره حتى أثخن رضى الله عنه.

و أما بقيه أصحابه فمن ملحق به حين ما عرف (ص) و علم أنه لم يقتل، و ملحق به بعد حين، و هؤلاء هم الذين أنزل الله عليهم النعاس غير أن الله تعالى عفا عن الجميع و قد عرفت فيما تقدم من البيان معنى العفو، و ذكر بعض المفسرين أن معنى العفو فى هذه الآيه صرفه تعالى المشركين عنهم حيث لم يبيدوهم و لم يقتلوهم عن آخرهم.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن عدى و البيهقى فى الشعب بسند حسن عن ابن عباس قال: \* لما نزلت: <sup>□</sup> وَ شَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ص: \* أما إن الله و رسوله لغنيان عنها - لكن جعلها الله رحمه لأمتى فمن استشار منهم لم يعدم رشدا، و من تركها لم يعدم غيا.

و فيه أخرج الطبرانى فى الأوسط، عن أنس قال: \* قال رسول الله ص: \* ما خاب من استخار، و لا ندم من استشار.

و فى نهج البلاغه، \* من استبد برأيه هلك، و من شاور الرجال شاركها فى عقولها.

و فيه، \* الاستشاره عين الهدايه، و قد خاطر من استبد برأيه.

و فى الصافى، عن النبى ص: \* لا وحده أو حش من العجب، و لا مظاهره أوثق من المشاوره.



أقول: و الروايات في المشاوره كثيره جدا، و موردها ما يجوز للمستشير فعله و تركه بحسب المرجحات، و أما الأحكام الإلهيه الثابته فلا مورد للاستشاره فيها كما لا رخصه في تغييرها لأحد و إلا كان اختلاف الحوادث الجاريه ناسخا لكلام الله تعالى.

و في المجالس، عن الصادق (ع): \* أن رضا الناس لا يملك، و ألسنتهم لا تضبط - ألم ينسبوه يوم بدر أنه أخذ لنفسه من المغنم قطيفه حمراء؟ حتى أظهره الله على القطيفه، و برأ نبيه من الخيانه، و أنزل في كتابه: **وَ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغَلَّ**، الآية.

أقول: و ذكر ذلك القمي في تفسيره، و فيه\*: فجاء رجل إلى رسول الله (ع) فقال: إن فلانا غل قطيفه حمراء فاحفرها هنالك - فأمر رسول الله (ع) بحفر ذلك الموضع فأخرج القطيفه:

و قد روى هذا المعنى و ما يقرب منه في الدر المنثور بطرق كثيره و لعل المراد بكون الآية نزلت فيها كون الآية مشيره إليها و إلا فسياق الآيات أنها نزلت بعد غزوه أحد كما تقدم بيانه.

و في تفسير القمي، عن الباقر (ع): \* من غل شيئا رآه يوم القيامة في النار - ثم يكلف أن يدخل إليه فيخرجه من النار.

أقول: و هو استفاده لطيفه من قوله تعالى: **وَ مَنْ يُغْلُ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**.

و في تفسير العياشي،\*: في قوله تعالى: **هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ** - عن الصادق (ع): الذين اتبعوا رضوان الله هم الأئمه، و هم و الله درجات عند الله للمؤمنين، و بولايتهم و مودتهم إيانا يضاعف الله لهم أعمالهم، و يرفع الله لهم الدرجات العلى، و الذين باءوا بسخط من الله - هم الذين جحدوا حق على و حق الأئمه منا أهل البيت - فباءوا لذلك بسخط من الله.

أقول: و هو من الجرى و الانطباق.

و فيه، عن الرضا (ع): الدرجه ما بين السماء و الأرض.

و في تفسير العياشي، أيضا\*: في قوله تعالى: **أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا** - عن الصادق (ع): كان المسلمون قد أصابوا ببدر مائه و أربعين رجلا: قتلوا سبعين رجلا و أسروا سبعين - فلما كان يوم أحد أصيب من المسلمين سبعون رجلا - فاغتموا

بذلك فنزلت.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن أبى شيبه و الترمذى - و حسنه - و ابن جرير و ابن مردويه عن على قال\*: جاء جبرئيل إلى النبى ص فقال: يا محمد إن الله قد كره ما صنع قومك فى أخذهم الأسارى، و قد أمرك أن تخيرهم بين أمرين: إما أن يقدموا فتضرب أعناقهم - و بين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عدتهم، فدعا رسول الله ص الناس فذكر ذلك لهم - فقالوا: يا رسول الله عشائرننا و أقوامنا نأخذ فداءهم - فنقوى به على قتال عدونا، و يستشهد منا بعدتهم فليس فى ذلك ما نكره - فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلا عده أسارى أهل بدر:

أقول: و رواه فى المجمع عن على (ع)، و أورده القمى فى تفسيره.

و فى المجمع، فى قوله تعالى: **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْآيَاتِ** - عن الباقر (ع) نزلت فى شهداء بدر و أحد معا.

أقول: و على ذلك روايات كثيرة رواها فى الدر المنثور و غيره و قد عرفت أن معنى الآيات عام شامل لكل من قتل فى سبيل الله حقيقه أو حكما و ربما قيل: إن الآيات نازله فى شهداء بئر معونه، و هم سبعون رجلا أو أربعون من أصحاب النبى ص أرسلهم لدعوه عامر بن الطفيل و قومه و كانوا على ذلك الماء فقدموا أبا ملحان الأنصارى إليهم بالرسالة فقتلوه أولا ثم تتابعوا على أصحاب النبى ص فقاتلوهم فقتلوهم جميعا رضى الله عنهم.

و فى تفسير العياشى، عن الصادق قال\*: هم و الله شيعتنا حين صارت أرواحهم فى الجنة، و استقبلوا الكرامه من الله عز و جل - علموا و استيقنوا أنهم كانوا على الحق و على دين الله عز و جل - فاستبشروا بمن لم يلحقوا بهم - من إخوانهم من خلفهم من المؤمنين.

أقول: و هو من الجرى، و معنى علمهم و استيقانهم بأنهم كانوا على الحق أنهم ينالون ذلك بعين اليقين بعد ما نالوه فى الدنيا بعلم اليقين لا أنهم كانوا فى الدنيا شاكين مرتابين.

و فى الدر المنثور، أخرج أحمد و هناد و عبد بن حميد و أبو داود و ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم - و صححه - و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال\*: قال رسول الله ص\*: لما أصيب إخوانكم بأحد - جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر - ترد أنهار

الجنة، و تأكل من ثمارها-و تأوى إلى قناديل من ذهب معلقه فى ظل العرش-.

فلما وجدوا طيب مأكلهم و مشربهم و حسن مقيلهم-قالوا:يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا،و فى لفظ:قالوا:إنا أحياء فى الجنة-نرزق لثلا يزهدوا فى الجهاد و لا ينكلوا عن الحرب-فقال الله:أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله هؤلاء-الآيات:

وَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا بَعْدَهُمْ.

أقول:و فى هذا المعنى روايات كثيره رووها عن أبى سعيد الخدرى و عبد الله بن مسعود و أبى العالىه و ابن عباس و غيرهم،و فى بعضها:فى صور طير خضر كروايه أبى العالىه،و فى بعضها:فى طير خضر كروايه أبى سعيد،و فى بعضها:كطير خضر كروايه ابن مسعود،و الألفاظ متقاربه.

و قد ورد من طرق أئمه أهل البيت: أن الروايه عرضت عليهم فأنكروها عن النبى ص ،و فى بعضها:أنهم أولوها،و لا شك-بالنظر إلى الأصول الثابته المسلمه- فى لزوم تأويل الروايه لو لم تطرح.

و الروايات مع ذلك ليست فى مقام بيان حالهم فى جنه الآخره بل المراد بها جنه البرزخ و الدليل عليه ما فى روايه ابن جرير عن مجاهد قال\*:يرزقون من ثمر الجنة و يجدون ريحها و ليسوا فيها،و ما فى روايه ابن جرير عن السدى\*:أن أرواح الشهداء فى أجواف طير خضر فى قناديل من ذهب معلقه بالعرش فهى ترعى بكره و عشيّه فى الجنة،و تببت فى القناديل.

و قد عرفت فيما تقدم من البحث فى البرزخ أن مضمون هاتين الروايتين إنما يستقيم فى جنه الدنيا و هى البرزخ لا- فى جنه الآخره.

و فى الدر المنثور،\*: فى قوله تعالى: الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ الْآيَةِ-أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و البيهقى فى الدلائل-عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم-قال\*:خرج رسول الله ص لحمراء الأسد-و قد أجمع أبو سفيان بالرجعه إلى رسول الله ص و أصحابه،و قالوا:رجعنا قبل أن نستأصلهم لنكرن على بقيتهم،فبلغه أن النبى ص خرج فى أصحاب يطلبهم-فثنى ذلك أبا سفيان و أصحابه،و مر ركب من عبد القيس فقال لهم أبو سفيان:بلغوا محمدا أنا قد أجمعنا الرجعه إلى أصحابه لنستأصلهم،

فلما مر الركب برسول الله ص بحمراء الأسد-أخبروه بالذى قال أبو سفيان، فقال رسول الله و المؤمنون معه: حسبنا الله و نعم الوكيل، فأنزل الله فى ذلك: الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ الْآيَاتِ.

أقول: و رواه القمى فى تفسيره مفصلاً\* و فيه أنه (ص) أخرج معه إلى حمراء الأسد-من أصحابه من كان به جراحه، و فى بعض الروايات أنه إنما أخرج معه من كان فى أحد، و المآل واحد.

و فيه أخرج موسى بن عقبه فى مغازيه و البيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب قال:\*

إن رسول الله ص استنفر المسلمين لموعده أبى سفيان بدر-فاحتمل الشيطان أولياءه من الناس فمشوا فى الناس يخوفونهم، و قالوا: قد أخبرنا أن قد جمعوا لكم من الناس مثل الليل-يرجون أن يواقعوكم فينتهبوكم فالحذر الحذر، فعصم الله المسلمين من تخويف الشيطان فاستجابوا لله و رسوله، و خرجوا ببضائع لهم، و قالوا: إن لقينا أبى سفيان فهو الذى خرجنا له، و إن لم نلقه ابتعنا بضائعنا، و كان بدر متجراً يوافى كل عام فانطلقوا- حتى أتوا موسم بدر فقضوا منه حاجتهم، و أخلف أبو سفيان الموعد فلم يخرج هو و لا- أصحابه، و مر عليهم ابن حمام فقال: من هؤلاء؟ قالوا: رسول الله و أصحابه ينتظرون أبى سفيان- و من معه من قريش، فقدم على قريش فأخبرهم فأرعب أبو سفيان- و رجع إلى مكة، و انصرف رسول الله ص إلى المدينة بنعمه من الله و فضل، فكانت تلك الغزوة تعد غزوة جيش السويق- و كانت فى شعبان سنة ثلاث:

أقول: و رواه من غير هذا الطريق، و رواه فى المجمع مفصلاً عن الباقر(ع).

و فيها: أن الآيات نزلت فى غزوة بدر الصغرى، و المراد بجيش السويق جيش أبى سفيان فإنه خرج من مكة فى جيش من قريش و قد حملوا معهم أحمالاً- من سويق فنزلوا خارج مكة فاقتاتوا بالسويق ثم رجعوا إلى مكة لما أخذهم الرعب من لقاء المسلمين ببدر، فسامهم الناس جيش السويق تهكماً و استهزاء.

و فيه أيضاً أخرج النسائى و ابن أبى حاتم و الطبرانى بسند صحيح عن عكرمة عن ابن عباس قال: "لما رجع المشركون عن أحد قالوا: لا محمداً قتلتم و لا الكواعب أردفتنم بئس ما صنعتنم ارجعوا، فسمع رسول الله ص بذلك فندب المسلمين فانتدبوا- حتى بلغ حمراء الأسد أو بئر أبى عتبة- شك سفيان- فقال المشركون نرجع قابل

فرجع رسول الله ص فكانت تعد غزوه-فأنزل الله: الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ الْآيَةَ، وقد كان أبو سفيان قال للنبي ص: موعداكم موسم بدر حيث قتلتم أصحابنا-فأما الجبان فرجع، وأما الشجاع فأخذ أهبه القتال و التجاره-فأتوه فلم يجدوا به أحدا و تسوقوا فأنزل الله: فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِ الْآيَةِ.

أقول: وإنما أوردنا هذه الروايه مع مخالفته للاختصار و التلخيص المؤثر في المباحث الروائيه بإيراد أنموذج جامع من كل باب ليتبصر الباحث المتأمل أن ما ذكروه من أسباب النزول كلها أو جلها نظريه بمعنى أنهم يروون غالبا الحوادث التاريخيه ثم يشفعونها بما يقبل الانطباق عليها من الآيات الكريمه فيعدونها أسباب النزول و ربما أدى ذلك إلى تجزئه آيه واحده أو آيات ذات سياق واحد ثم نسبه كل جزء إلى تنزيل واحد مستقل و إن أوجب ذلك اختلال نظم الآيات و بطلان سياقها، و هذا أحد أسباب الوهن في نوع الروايات الوارده في أسباب النزول.

و أضف إلى ذلك ما ذكرناه في أول هذا البحث أن لاختلاف المذاهب تأثيرا في لحن هذه الروايات و سوقها إلى ما يوجه به المذاهب الخاصه.

على أن للأجواء السياسيه و البيئات الحاكمه في كل زمان أثرا قويا في الحقائق من حيث إخفاؤها أو إبهامها فيجب على الباحث المتأمل أن لا يهمل أمر هذه الأسباب الدخيله في فهم الحقائق و الله الهادي.

### بحث تاريخي [فهرس أسامي شهداء أحد.]

شهداء المسلمين يوم أحد سبعون رجلا و هاك فهرس أسمائهم:

١- حمزه بن عبد المطلب بن هاشم.

٢- عبد الله بن جحش.

٣- مصعب بن عمير.

٤- شماس بن عثمان و هؤلاء الأربعة هم الشهداء من المهاجرين.

٥- عمرو بن معاذ بن النعمان.

٦- الحارث بن أنس بن رافع.

- ٧-عماره بن زياد بن السكن.
- ٨-سلمه بن ثابت بن وقش.
- ٩-عمرو بن ثابت بن وقش.
- ١٠-ثابت بن وقش.
- ١١-رفاعه بن وقش.
- ١٢-حسيل بن جابر أبو حذيفه اليمان.
- ١٣-صيفى بن قيطى.
- ١٤-حباب بن قيطى.
- ١٥-عباد بن سهل.
- ١٦-الحارث بن أوس بن معاذ.
- ١٧-إياس بن أوس.
- ١٨-عبيد بن التيهان.
- ١٩-حبيب بن يزيد بن تيم.
- ٢٠-يزيد بن حاطب بن أميه بن رافع.
- ٢١-أبو سفيان بن الحارث بن قيس بن زيد.
- ٢٢-حنظله بن أبى عامر و هو غسيل الملائكه.
- ٢٣-أنيس بن قتاده.
- ٢٤-أبو حبه بن عمر بن ثابت.
- ٢٥-عبد الله بن جبير بن النعمان و هو أمير الرماه.
- ٢٦-أبو سعد خيثمه بن خيثمه.

٢٧- عبد الله بن سلمه.

٢٨- سبيع بن حاطب بن الحارث.

٢٩- عمرو بن قيس.

٣٠- قيس بن عمرو بن قيس.

٣١- ثابت بن عمرو بن يزيد.

٣٢- عامر بن مخلد.

٣٣- أبو هبيرة بن الحارث بن علقمه بن عمرو.

ص: ٧٥

٣٤- عمرو بن مطرف بن علقمه بن عمرو.

٣٥- أوس بن ثابت بن المنذر أخو حسان بن ثابت.

٣٦- أنس بن النضر عم أنس بن مالك خادم رسول الله ص.

٣٧- قيس بن مخلد.

٣٨- كيسان عبد لبني النجار.

٣٩- سليم بن الحارث.

٤٠- نعمان بن عبد عمرو.

٤١- خارجة بن زيد بن أبي زهير.

٤٢- سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير.

٤٣- أوس بن الأرقم.

٤٤- مالك بن سنان من بني خدره و هو والد أبي سعيد الخدري.

٤٥- سعيد بن سويد.

٤٦- عتبة بن ربيع.

٤٧- ثعلبة بن سعد بن مالك.

٤٨- سقف بن فروه بن البدى.

٤٩- عبد الله بن عمرو بن وهب.

٥٠- ضميره حليف لبني طريف.

٥١- نوفل بن عبد الله.

٥٢- عباس بن عباده.

٥٣- نعمان بن مالك بن ثعلبة.



٥٤-المجدر بن زياد.

٥٥-عباده بن الحساس و قد دفن نعمان و المجدر و عباده فى قبر واحد.

٥٦-رفاعه بن عمرو.

٥٧-عبد الله بن عمرو من بنى حرام.

٥٨-عمرو بن الجموح من بنى حرام دفنا فى قبر واحد.

٥٩-خلاد بن عمرو بن الجموح.

٦٠-أبو أيمن مولى عمرو بن الجموح.

ص: ٧٦

٦١-سليم بن عمرو بن حديه.

٦٢-عنتره مولى سليم.

٦٣-سهل بن قيس بن ابي كعب.

٦٤-ذكوان بن عبد قيس.

٦٥-عبيد بن المعلى.

٦٦-مالك بن تميله.

٦٧-حارث بن عدى بن خرشه.

٦٨-مالك بن اياس.

٦٩-اياس بن عدى.

٧٠-عمرو بن اياس.

فهؤلاء سبعون رجلا على ما ذكره ابن هشام فى سيره النبى ص

### [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٧٦ الى ١٨٠]

#### اشاره

وَلَا يَخْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنُضَرُّوا بِاللَّهِ شَرِيئًا يُرِيدُ اللَّهُ الْآلَافَ بِمِثْلِ مَا يَفْعَلُ لَهُمْ خَطَا فِي الْآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ  
(١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنُضَرُّوا بِاللَّهِ شَرِيئًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّكُمُ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّئُهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٧٨) مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمُونَا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ وَ إِن تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)

الآيات مرتبطة بما تقدم من الآيات النازلة في غزوه أحد فكأنها و خاصة الآيات الأربع الأول منها تتمه لها لأن أهم ما تتعرض لها تلك الآيات قضيه الابتلاء و الامتحان الإلهي لعباده، و على ذلك فهذه الآيات بمنزله الفذلکه لآيات أحد يبين الله سبحانه فيها أن سنه الابتلاء و الامتحان سنه جاربه لا- مناص عنها في كافر و لا مؤمن، فالله سبحانه مبتليهما ليخرج ما في باطن كل منهما إلى ساحه الظهور فيتمحض الكافر للنار و يتميز الخبيث من الطيب في المؤمن.

قوله تعالى: «وَلَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ» إلى آخر الآيه تسليه و رفع للحزن ببيان حقيقه الأمر فإن مسارعهم في الكفر و تظاهروهم على إطفاء نور الله و غلبتهم الظاهره أحيانا ربما أوجبت أن يحزن المؤمن كأنهم غلبوا الله سبحانه في إرادته إعلاء كلمه الحق لكنه إذا تدبر في قضيه الامتحان العام استيقن أن الله هو الغالب و أنهم جميعا واقعون في سبيل الغايات يوجهون إليها ليم لهم الهدايه التكوينية و التشريعيه إلى غايات أمرهم فالكافر يوجه به بواسطه إشباعه بالعافيه و النعمه و القدره -و هو الاستدراج و المكر الإلهي- إلى آخر ما يمكنه أن يركبه من الطغيان و المعصيه، و المؤمن لا- يزال يحك به محك الامتحان ليخلص ما في باطنه من الإيمان المشوب بغيره، فيخلص الله أو يخلص شركه فيهبط في مهبط غيره من أولياء الطاغوت و أئمه الكفر.

فمعنى الآيه: لا يحزنك الذين يسرعون و لا يزال يشتد سرعتهم في الكفر فإنك إن تحزن فإنما تحزن لما تظن أنهم يضررون الله بذلك و ليس كذلك فهم لا يضررون الله شيئا لأنهم مسخرون لله يسلك بهم في سير حياتهم إلى حيث لا يبقى لهم حظ في الآخرة (و هو آخر حدهم في الكفر) و لهم عذاب أليم فقوله: لَا يَحْزُنُكَ، أمر إرشادي، و قوله:

إِنَّهُمْ

«إلخ» تعليل للنهي، و قوله: يُرِيدُ اللَّهُ «إلخ» تعليل و بيان لعدم ضررهم.

ثم ذكر تعالى نفى ضرر جميع الكافرين بالنسبه إليه أعم من المسارعين في الكفر و غيرهم، وهو كاليان الكلى بعد البيان الجزئى يصح أن يعلل به النهى (لا يحزنك) و أن يعلل به علتة (أنهم لن يضرُوا) «إلخ» لأنه أعم يعلل به الأخص، و المعنى:

و إنما قلنا إن هؤلاء المسارعين لا يضرُونَ الله شيئاً لأن الكافرين جميعاً لا يضرُونه شيئاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، لما طيب نفس نبيه في مسارعه الكفار في كفرهم إن ذلك في الحقيقة تسخير إلهي لهم لينساقوا إلى حيث لا يبقى لهم حظ في الآخرة عطف الكلام إلى الكفار أنفسهم، فيبين أنه لا ينبغي لهم أن يفرحوا بما يجدونه من الإملاء و الإمهال الإلهي فإن ذلك سوق لهم بالاستدراج إلى زياده الإثم، و وراء ذلك عذاب مهيمن ليس معه إلا الهوان، كل ذلك بمقتضى سنه التكميل.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ «إلخ» ثم عطف الكلام إلى المؤمنين فيبين أن سنه الابتلاء جاريه فيهم ليتم تكميلهم أيضاً فيخلص المؤمن الخالص من غيره، و يتميز الخبيث من الطيب.

و لما أمكن أن يتوهم أن هناك طريقاً آخر إلى تمييز الخبيث من الطيب و هو أن يطلعهم على الخبثاء حتى يتميزوا منهم فلا يقاسوا جميع هذه المحن و البلايا التي يقاسونها بسبب اختلاط المنافقين و الذين في قلوبهم مرض بهم فدفع هذا الوهم بأن علم الغيب مما استأثر الله به نفسه فلا يطلع عليه أحداً إلا من اجتبى من رسله فإنه ربما أطلعه عليه بالوحي، و ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

ثم ذكر أنه لما لم يكن من الابتلاء و التكميل محيد فآمنوا بالله و رسله حتى تنسلخوا في سلك الطيبين دون الخبثاء، غير أن الإيمان وحده لا يكفي في بقاء طيب الحياه حتى يتم الأجر إلا بعمل صالح يرفع الإيمان إلى الله و يحفظ طيبه، و لذلك قال أولاً: ﴿فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ثُمَّ تَمَمْنَا ثَانِيًا بِقَوْلِهِ: وَ إِنْ تُوْمِنُوا وَ تَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

و قد ظهر من الآيه أولاً: أن قضيه تكميل النفوس و إيصالها إلى غايتها و مقصدها من السعاده و الشقاء مما لا محيص عنه.

و ثانياً: أن الطيب و الخبثاء في عين أنهما منسوبان إلى ذوات الأشخاص يدوران

مدار الإيمان و الكفر اللذين هما أمران اختياريان لهم، وهذا من لطائف الحقائق القرآنية التي تنشعب منها كثير من أسرار التوحيد، و يدل عليها قوله تعالى: **وَ لِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوَّلِيهَا فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ**: البقره ١٤٨، إذا انضم إلى قوله: **وَ لِكِنْ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ**: المائده ٤٨، و سيجيء إشباع الكلام فيها في قوله تعالى: **لِيَمِيزَ اللَّهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ الآيه X الأنفال ٣٧**.

و ثالثا: أن الإيمان بالله و رسله ماده لطيب الحياه و هو طيب الذات، و أما الأجر فيتوقف على التقوى و العمل الصالح، و لذلك ذكر تعالى أولا- حديث الميز بين الطيب و الخبيث ثم فرع عليه قوله: **فَمَا تُمْنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ**، ثم لما أراد ذكر الأجر أضاف التقوى إلى الإيمان فقال: **وَ إِنْ تُؤْمِنُوا وَ تَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ**.

و بذلك يتبين في قوله تعالى: **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**: «النحل: ٩٧»، إن الإحياء المذكور ثمره الإيمان متفرع عليه، و الجزاء بالأجر متفرع على العمل الصالح فالإيمان روح الحياه الطيبه، و أما بقاؤها حتى يترتب عليها آثارها فيحتاج إلى العمل الصالح كالحياه الطبيعیه التي تحتاج في تكونها و تحققها إلى روح حيوانی، و بقاؤها يحتاج إلى استعمال القوى و الأعضاء، و لو سكنت الجميع بطلت و أبطلت الحياه.

و قد كرر لفظ الجلاله مرات في الآيه ، و الثلاثه الأواخر من وضع الظاهر موضع المضمرة و ليس إلا للدلاله على مصدر الجلال و الجمال في أمور لا يتصف بها إلا هو بألوهيته و هو الامتحان، و الاطلاع على الغيب، و اجتناء الرسل، و أهليه الإيمان به.

قوله تعالى: **«وَ لَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» الآيه**، لما بين حال إملاء الكافرين و كان الحال في البخل بالمال و عدم إنفاقه في سبيل الله مثله، فإن البخيل فرح فخور بما يجمعه من المال عطف تعالى الكلام إليهم و بين أنه شر لهم، و في التعبير عن المال بقوله: **بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ** إشعار بوجه لومهم و ذمهم، و قوله:

سَيُطَوَّقُونَ

إلخ في مقام التعليل لكون البخل شرا لهم، و قوله: **وَ لِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَاوَاتِ** ، الظاهر أنه حال من يوم القيامة، و كذا قوله: **وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**.

و يحتمل على بعد أن يكون قوله: وَ لِلَّهِ مِيرَاثٌ حَالًا مِنْ فَاعِلٍ قَوْلُهُ يَبْخُلُونَ، وَقَوْلُهُ: وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ حَالًا مِنْهُ أَيْضًا أَوْ جَمَلُهُ مُسْتَأْنَفُهُ.

## بحث روائى

فى تفسیر العیاشی، عن الباقر (ع) \* أنه سئل عن الكافر الموت خير له أم الحياه؟ فقال: الموت خير للمؤمن و الكافر- لأن الله يقول: وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ، و يقول:

لَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُضِلِّي لَهُمْ خَيْرٌ

، الآية.

أقول: الاستدلال المذكور فى الروايه لا يوافق مذاق أئمه أهل البيت كل الموافقه فإن الأبرار طائفه خاصه من المؤمنين لا جميعهم إلا- أن يقال: إن المراد بالأبرار جميع المؤمنين بما فى كل منهم من شىء من البر، و روى هذا المعنى فى الدر المشهور عن ابن مسعود.

## [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٨١ الى ١٨٩]

### اشاره

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَ قَتَلَهُمُ الْآيَاتُ بَغَيْرِ حَقٍّ وَ نَهَوُا ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آلا- تَوْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بَقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَ بِالذِّى قُتِلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَ الزُّبُرِ وَ الْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَ إِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْرِحَ عَنِ النَّارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُزُورِ (١٨٥) لِكَيْتَلُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ وَ لَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أذىً كَثِيراً وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٨٦) وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لَآ- تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَ اشْتَرَوْا بِهِ تَمَنًّا قَلِيلاً- فَبَشِّرْ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧) لَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُتُوا وَ يُجِبُونَ أَنْ يُحَمِّدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْ بَنَّهُمْ بِمَفَازِهِ مِنْ الْعَذَابِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨٨) وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)

الآيات مرتبط بما قبلها، فقد كانت عامه الآيات السابقة في استنهاض الناس و ترغيبهم على الجهاد في سبيل الله بأموالهم و أنفسهم، و تحذيرهم عن الوهن و الفشل و البخل فيرتبط بها قول اليهود: إن الله فقير و نحن أغنياء، و تقليبهم الأمر على المسلمين، و تكذيبهم آيات الرساله، و كتمانهم ما أخذ منهم الميثاق لبيانه، و هذه هي التي تتعرض الآيات لبيانها مع ما فيها من تقويه قلوب المؤمنين على الاستقامه و الصبر و الثبات، و التحريض على الإنفاق في سبيل الله.

قوله تعالى: «لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِيَاءُ» القائلون هم اليهود بقريته ما في ذيل الكلام من حديث قتلهم الأنبياء و غير ذلك.

و إنما قالوا ذلك لما سمعوا أمثال قوله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا X الآية X: «البقره: ٢٤٥» و يشهد بذلك بعض الشهاده اتصاله بالآيه السابقه: وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ، الْآيَةَ.

أو أنهم قالوا ذلك لما رأوا فقر عامه المؤمنين و فاقتهم، فقالوا ذلك تعريضا بأن ربهم لو كان غنيا لغار لهم و أغناهم فليس إلا فقيرا و نحن أغنياء.

قوله تعالى: «سَيَنْكُتُبُ مَّا قَالُوا وَ قَتَلَهُمُ الْآيَاتُ بِغَيْرِ حَقٍّ» الآية، المراد بالكتابة الحفظ و التثبيت أو الكتابة فى صحائف أعمالهم، و المآل واحد، و المراد بقتل الأنبياء بغير حق القتل على العرفان و العمد دون السهو و الخطأ و الجهاله، و قد قارن الله قولهم هذا بقتلهم الأنبياء لكونه قولا عظيما، و قوله: عَذَابَ الْحَرِيقِ، الحريق النار أو اللهب و قيل: هو بمعنى المحرق.

قوله تعالى: «ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ» الآية، أى بما قدمتم أمامكم من العمل و نسب إلى الأيدى لأنها آله التقديم غالبا، و قوله: وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ عطف على قوله: بِمَا قَدَّمْتُمْ، و تعليل للكتابة و العذاب، فلو لم يكن ذلك الحفظ و الجزاء لكان إهمالا لأمر نظام الأعمال و فى ذلك ظلم كثير بكثره الأعمال فيكون ظلما لعباده تعالى عن ذلك.

قوله تعالى: «الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا» الآية، نعت للذين قبله و العهد هو الأمر، و القربان ما يتقرب به من النعم و غيره، و أكل النار كناية عن إحراقها، و المراد بقوله: قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِى، أمثال زكريا و يحيى من أنبياء بنى إسرائيل المقتولين بأيديهم.

قوله تعالى: «فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ» الآية، تسليه للنبي ص فى تكذيبهم له، و الزبر جمع زبور و هو كتاب الحكم و المواعظ، و قد أريد بالزبر و الكتاب المنير مثل كتاب نوح و صحف إبراهيم و التوراه و الإنجيل.

قوله تعالى: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ»، الآية تتضمن الوعد للمصدق و الوعيد للمكذب و قد بدأ فيها بالحكم العام المقضى فى حق كل ذى نفس، و التوفيه هو الإعطاء الكامل، و قد استدل بعضهم بالآيه على ثبوت البرزخ لدالاتها على سبق بعض الإعطاء



و أن الذى فى يوم القيامه هو الإعطاء الكامل، و هو استدلال حسن، و الزحزحه هو الإبعاد، و أصله تكرار الجذب بعجله، و الفوز الظفر بالبعيه، و الغرور مصدر غر أو هو جمع غار.

قوله تعالى: «لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ» الآية، الإبلاء الاختبار، بعد ما ذكر سبحانه جريان البلاء و الإبلاء على المؤمنين، ثم ذكر قول اليهود و هو مما من شأنه أن يوهن عزم المؤمنين أخبرهم بأن هذا الإبلاء الإلهى و الأفاويل المؤذيه من أهل الكتاب و المشركين ستكرر على المؤمنين، و يكثر استقبالها إياهم و قرعها سمعهم فعليهم أن يصبروا و يتقوا حتى يعصمهم ربهم من الزلل و الفشل، و يكونوا أرباب عزم و إرادته، و هذا إخبار قبل الوقوع ليستعدوا لذلك استعدادهم، و يوطنوا عليه أنفسهم.

و قد وضع فى قوله: «وَلَتَسْمَعَنَّ إِلَى قَوْلِهِ: أَذَى كَثِيرًا»، الأذى الكثير موضع القول و هو من قبيل وضع الأثر موضع المؤثر مجازا.

قوله تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ» ، النبذ الطرح، و نبذه وراء ظهره كالمثل يراد به الترك و عدم الاعتناء كما أن قولهم: جعله نصب عينيه كالمثل يراد به الأخذ و اللزوم.

قوله تعالى: «لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ، أَى بما أنعم عليهم من المال و لازمه حب المال و البخل به، و المفازة النجاه و إنما هلك هؤلاء لأن قلوبهم تعلقت بالباطل فلا ولايه للحق عليهم.

ثم ذكر تعالى حديث ملكه للسموات و الأرض، و قدرته على كل شىء، و هذان الوصفان يصلحان لتعليل مضامين جميع ما تقدم من الآيات.

## بحث روائى

فى الدر المنثور، أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن قتاده \* : فى قوله: لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ الْآيَةَ، قال: ذكر لنا أنها نزلت فى حى بن أخطب لما نزل: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً، قال: يستقرضنا ربنا إنما يستقرض الفقير الغنى.

و فى تفسير العياشى،\*: فى الآيه عن الصادق(ع)قال\*:و الله ما رأوا الله حتى يعلموا أنه فقير،و لكنهم رأوا أولياء الله فقراء فقالوا:لو كان غنيا لأغنى أولياءه ففخروا على الله بالغنى.

و فى المناقب،عن الباقر(ع)\*: هم الذين يزعمون أن الإمام يحتاج إلى ما يحملونه إليه.

أقول:أما الروايتان الأوليان فقد تقدم انطباق مضمونهما على الآيه، و أما الثالثه فهى من الجرى.

و فى الكافى،عن الصادق(ع)قال\*: كان بين القائلين و القاتلين خمسمائه عام- فألزمهم الله القتل برضاهم بما فعلوا.

أقول:ما ذكر من السنين لا يوافق التاريخ الميلادى الموجود فارجع إلى ما تقدم من البحث التاريخى.

و فى الدر المنثور،"فى قوله تعالى: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ الْآيَه،أخرج ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب-قال\*:لما توفى النبى ص و جاءت التعزیه-جاءهم آت يسمعون حسه و لا يرون شخصه-فقال:السلام عليكم يا أهل البيت و رحمه الله و بركاته- كل نفس ذائقه الموت-و إنما توفون أجوركم يوم القيامة-إن فى الله عزاء من كل مصيبه و خلفا من كل هالك،و دركا من كل ما فات فبالله فثقوا،و إياه فارجوا فإن المصاب من حرم الثواب،فقال على:هذا الخضر.

و فيه أخرج ابن مردويه عن سهل بن سعد قال\*:قال رسول الله ص\*: لموضع سوط أحدكم فى الجنة خير من الدنيا و ما فيها-ثم تلا هذه الآيه: فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .

أقول:و رواه فيه بعض طرق آخر عن غيره،و اعلم أن هنا روايات كثيره فى أسباب نزول هذه الآيات تركنا إيرادها لظهور كونها من التطبيق النظرى.

## [سوره آل عمران (٣): الآيات ١٩٠ الى ١٩٩]

### اشاره

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَ قُعُودًا وَ عَلَى جُنُوبِهِمْ وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّا سَجِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَ كَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَ تَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَ آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَ لَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجِبْ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْشِيَ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَ أُودُوا فِي سَبِيلِي وَ قَاتَلُوا وَ قُتِلُوا لَمَّا كَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ لَمَّا دَخَلْتَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥) لَا يُعْرَضُ عَلَيْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمُ وَ بَسَّ الْمَهَادُ (١٩٧) لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨) وَ إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩)





الآيات بمنزله تلخيص ما تقدم من بيان حال المؤمنين و المشركين و أهل الكتاب فى هذه السوره، بيان أن حال أبرار المؤمنين هو ذكر الله سبحانه، و التفكير فى آياته و الاستجاره بالله من عذاب النار، و سؤال المغفره و الجنه، و أن الله استجاب لهم و سيرزقهم ما سألوه- هذه عامه حالهم- و أن الذين كفروا حالهم أنهم يتقلبون فى متاع قليل ثم لهم مهاد النار فلا يقاس حال المؤمنين بحالهم، و قد استثنى منهم المتبعين للحق من أهل الكتاب فهم مع المؤمنين.

قوله تعالى: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»، كان المراد بالخلق كيفية وجودها و آثارها و أفعالها من حركه و سكون و تغير و تحول فيكون خلق السموات و الأرض و اختلاف الليل و النهار مشتملا على معظم الآيات المحسوسه و قد تقدم بيانها فى سوره البقره (١). و تقدم أيضا معنى أولى الألباب (٢).

قوله تعالى: «الَّذِينَ يَذُكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا»، أى يذكرون الله فى جميع حالاتهم من القيام و القعود و الاضطجاع، و قد مر البحث فى معنى الذكر و التفكير، و محصل معنى الآيتين أن النظر فى آيات السموات و الأرض و اختلاف الليل و النهار أورثهم ذكرا دائما لله فلا ينسونه فى حال، و تفكروا فى خلق السموات و الأرض يتذكرون به أن الله سيبعثهم للجزاء فيسألون عندئذ رحمته و يستنجزون وعده.

قوله تعالى: «رَبِّمَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا»، إنما قيل «هذا» مع كون المشار إليه جمعا و مؤنثا إذ الغرض لا يتعلق بتمييز أشخاصها و أسمائها، و الجميع فى أنها خلق واحد، و هذا نظير ما حكى الله تعالى من قول إبراهيم: «فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ: (الأنعام: ٧٨)»، لعدم علمه بعد بحقيقتها و اسمها سوى أنها شىء.

و الباطل ما ليس له غايه يتعلق به الغرض قال تعالى: «فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَ أَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ: (الرعد: ١٧)» و لذلك لما نفوا البطلان عن

١-١) تفسير آيه: ١٦ من سوره البقره

٢-٢) فى تفسير الآيه السابعه من هذه السوره.

الخلق لا يح لهم أن الله سيحشر الناس للجزاء، وأنه تعالى سيجزي هناك الظالمين جزاء خزي و هو النار، ولا راد يرد مصلحه العقاب و إلا لبطل الخلقه، و هذا معنى قولهم:

فقنا عذاب النار ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيتة و ما للظالمين من أنصار.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾، المراد بالمنادى رسول الله ص، و قوله: ﴿أَنْ آمَنُوا﴾. بيان للنداء و أن تفسيريه، و لما ذكروا إيمانهم بالمنادى و هو الرسول و هو يخبرهم بأمر عن الله تعالى يحذرهم من بعضها كالذنوب و السيئات و الموت على الكفر و الذنب، و يرغبهم فى بعضها كالمغفرة و الرحمة و تفاصيل الجنة التى وعد الله عباده المؤمنين الأبرار بها سألو ربهم أن يغفر لهم و يكفر عن سيئاتهم و يتوفاهم مع الأبرار و سألوه أن ينجزهم ما وعدهم من الجنة و الرحمة على ما ضمنه لهم الرسل بإذن الله فقالوا: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ «إلخ» فقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ أَى حَمَلْتَهُ عَلَىٰ رَسْلِكَ و ضمنه عليك الرسل، و قوله: ﴿وَلَا تُخْزِنَا، أَى بإخلاف الوعد، و لذا عقبه بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ .

و قد تبين من الآيات أنهم إنما حصلوا الاعتقاد بالله و اليوم الآخر و بأن لله رسلا بالنظر فى الآيات و أما تفاصيل ما جاء به النبى فمن طريق الإيمان بالرسول فهم على الفطره فيما يحكم به الفطره، و على السمع و الطاعه فيما فيه ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجِبْ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ «إلخ» التعبير بالرب و إضافته إليهم يدل على ثوران الرحمة الإلهيه و يدل عليه أيضا التعميم الذى فى قوله: ﴿أَنَّى لَا أَضِيعَ عَمَلًا عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾، فلا فرق عنده تعالى بين عمل و عمل، و لا بين عامل و عامل.

و على هذا فقوله تعالى فى مقام التفریع: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَ أُوذُوا﴾ «إلخ» فى مقام تفصيل صالحات الأعمال لتثبيت ثوابها، و الواو للتفصيل دون الجمع حتى يكون لبيان ثواب المستشهدين من المهاجرين فقط.

و الآيه مع ذلك لا تفصل إلا الأعمال التى تنسب إليها هذه السوره و تبلغ فى التحريض و الترغيب فيها، و هو إثارة الدين على الوطن و تحمل الأذى فى سبيل الله و الجهاد.

و الظاهر أن المراد بالمهاجره ما يشمل المهاجره عن الشرك و العشيره و الوطن لإطلاق اللفظ، و لمقابلته قوله: ﴿وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾، و هو هجره خاصه، و لقوله

بعده: لَمَّا كَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ، فإن ظاهر السيئات فى القرآن صغائر المعاصى فهم هاجروا الكبائر بالاجتناب و التوبه، فالمهاجره المذكوره أعم فافهم ذلك.

قوله تعالى: «لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ» إلخ، هذا بمنزله دفع الدخل و التقدير: هذا حال أبرار المؤمنين و هذا أجرهم، و أما ما ترى فيه الكفار من رفاه الحال و ترف الحياه و در المعاش فلا يغرنك ذلك (الخطاب للنبي و المقصود به الناس) لأنه متاع قليل لا دوام له.

قوله تعالى: لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إلخ، النزول ما يعدل للنازل من طعام و شراب و غيرهما، و المراد بهم الأبرار بدليل ما فى آخر الآيه، و هذا يؤيد ما ذكرناه من أن الآيه السابقه دفع دخل.

قوله تعالى: وَ إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إلخ، المراد أنهم مشاركون للمؤمنين فى حسن الثواب، و الغرض منه أن السعاده الأخرويه ليست جنسيه حتى يمنع منها أهل الكتاب و إن آمنوا بل الأمر دائر مدار الإيمان بالله و برسله فلو آمنوا كانوا هم و المؤمنون سواء.

و قد نفى عن هؤلاء الممدوحين من أهل الكتاب ما ذمهم الله به فى سوابق الآيات و هو التفريق بين رسل الله، و كتمان ما أخذ ميثاقهم لبيانه اشتراء بآيات الله ثمنا قليلا.

### بحث فلسفى و مقايسه [بين القرآن و التوراه فى أمر النساء]

المشاهده و التجربه تقضيان أن الرجل و المرأه فردان من نوع جوهرى واحد، و هو الإنسان فإن جميع الآثار المشهوده فى صنف الرجل مشهوده فى صنف المرأه من غير فرق، و بروز آثار النوع يوجب تحقق موضوعه بلا شك، نعم يختلف الصنف بشده و ضعف فى بعض الآثار المشتركه و هو لا يوجب بطلان وجود النوعيه فى الفرد، و بذلك يظهر أن الاستكاملات النوعيه الميسوره لأحد الصنفين ميسوره فى الآخر، و منها الاستكاملات المعنويه الحاصله بالإيمان و الطاعات و القربات، و بذلك يظهر عليك أن أحسن كلمه و أجمعها فى إفاده هذا المعنى قوله سبحانه: «أَنْتَى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ» .

و إذا قايست ذلك إلى ما ورد فى التوراه بان لك الفرق بين موقعى الكتابين

ففى سفر الجامعه من التوراه،": «درت أنا و قلبى لأعلم و لأبحث و لأطلب حكمه و عقلا، و لأعرف الشر أنه جهاله، و الحماقه أنها جنون، فوجدت أمر من الموت المرأه التى هى شباك، و قلبها أشراك، و يداها قيود، إلى أن قال: رجلا- واحدا بين ألف- وجدت إما امرأه فبين كل أولئك لم أجد» و قد كانت أكثر الأمم القديمه لا ترى قبول عملها عند الله سبحانه، و كانت تسمى فى اليونان رجسا من عمل الشيطان، و كانت ترى الروم و بعض اليونان أن ليس لها نفس مع كون الرجل ذا نفس مجردة إنسانيه، و قرر مجمع فرنسا سنه ٥٨٦ م بعد البحث الكثير فى أمرها أنها إنسان لكنها مخلوقه لخدمه الرجل، و كانت فى إنجلترا قبل مائه سنه تقريبا لا تعد جزء المجتمع الإنسانى، فارجع فى ذلك إلى كتب الآراء و العقائد و آداب الملل تجد فيها عجائب من آرائهم.

## بحث روائى

فى الدر المنثور، أخرج أبو نعيم فى الحليه عن ابن عباس قال\*: قال رسول الله ص\*: تفكروا فى خلق الله و لا تفكروا فى الله:

أقول: و روى هذا المعنى أيضا بطرق أخرى عن عده من الصحابه كعبد الله بن سلام و ابن عمر عنه (ص) و الروايه مرويه من طرق الشيعة أيضا و المراد بالتفكر فى الله أو فى ذات الله على اختلاف الروايات التفكر فى كنهه و قد قال تعالى: «وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا» طه- ١١٠، و أما صفاته تعالى فالقرآن أعدل شاهد على أنه تعالى يعرف بها، و قد ندب إلى معرفته بها فى آيات كثيره.

و فيه، أخرج أبو الشيخ فى العظمه عن أبى هريره قال\*: قال رسول الله ص\*:

فكره ساعه خير من عباده ستين سنه.

أقول: و فى بعض الروايات: من عباده ليله، و فى بعضها: من عباده سنه، و هو مروى من طرق الشيعة أيضا.

و قد ورد من طرق أهل السنه": أن قوله تعالى: فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ، الآيه نزلت فى أم سلمه- لما قالت للنبي ص- يا رسول الله لا أسمع الله ذكر النساء فى الهجره بشىء- فأنزل الله: فَاسْتَجَابَ لَهُمْ، الآيه.



و ورد من طرق الشيعة " : أن قوله: فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَ أخرجوا الآيه، نزلت في علي (ع) لما هاجر و معه الفواطم: فاطمه بنت أسد، و فاطمه بنت محمد ص، و فاطمه بنت الزبير، ثم لحق بهم في ضجنان أم أيمن و نفر من ضعفاء المؤمنين - فساروا و هم يذكرون الله في جميع أحوالهم - حتى لحقوا بالنبى ص و قد نزلت الآيات.

و ورد من طرق أهل السنه " : أنها نزلت في المهاجرين ، و

ورد أيضا أن قوله:

□  
لَا يَغْرَبُكَ تَقَلُّبُ

الآيات، نزل حين تمنى بعض المؤمنين ما عليه الكفار من حسن الحال و

ورد أيضا أن قوله: وَ إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْآيَه، نزل في النجاشى و نفر من أصحابه لما مات هو فصلى عليه رسول الله ص و هو في المدينة فطعن فيه بعض المنافقين أنه صلى على من ليس في دينه فأنزل الله: وَ إِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْآيَه.

فهذه جميعا روايات تطبق الآيات على القصص، و ليست بأسباب للنزول حقيقه.

### [سوره آل عمران (٣): آيه ٢٠٠]

#### اشاره

□  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَ صَابِرُوا وَ رَابِطُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)

#### بيان

الآيه بمنزله الفذلکه لتفصيل البيان الوارد في السوره، و فيه تخلص منه بأخذ النتيجة و إعطائها.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَ صَابِرُوا وَ رَابِطُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (٢٠٠)، الأوامر مطلقه فالصبر يراد به الصبر على الشدائد، و الصبر في طاعه الله، و الصبر عن معصيته، و على أى حال هو الصبر من الفرد بقريته ما يقابله.

و المصابره هي التصبر و تحمل الأذى جماعه باعتماد صبر البعض على صبر آخرين فيتقوى الحال و يشتد الوصف و يتضاعف تأثيره، و هذا أمر محسوس في تأثير الفرد إذا اعتبرت شخصيته في حال الانفراد، و في حال الاجتماع و التعاون بإيصال القوى بعضها ببعض و سنبحث فيه إن شاء الله بحثا مستوفى في محله.

قوله تعالى: وَرَابِطُوا أَعْمَ مَعْنَى مِنَ الْمَصَابِرِ وَ هِيَ إِجَادَةُ الْجَمَاعَةِ، الْارْتِبَاطُ بَيْنَ قَوَاهِمِ وَأَفْعَالِهِمْ فِي جَمِيعِ شُؤْنِ حَيَاتِهِمُ الدِّينِيَّةِ أَعْمَ مِنَ حَالِ الشَّدَةِ وَ حَالِ الرِّخَاءِ وَ لَمَّا كَانَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ نَيْلَ حَقِيقَةِ السَّعَادَةِ الْمَقْصُودَةَ لِلدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ-وَ إِلَّا فَلَا يَتَمُّ بِهَا إِلَّا بَعْضُ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَ لَيْسَتْ بِحَقِيقَةِ السَّعَادَةِ-عَقِبَ هَذِهِ الْأَمْرَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ يَعْنِي الْفَلَاحَ التَّامَ الْحَقِيقِيَّ.

## كلام في المرابطه في المجتمع الإسلامي

### ١- الإنسان و الاجتماع:

كون النوع الإنساني نوعا اجتماعيا لا يحتاج في إثباته إلى كثير بحث فكل فرد من هذا النوع مفطور على ذلك، و لم يزل الإنسان يعيش في حال الاجتماع على ما يحكيه التاريخ و الآثار المشهوده الحاكيه لأقدم العهود التي كان هذا النوع يعيش فيها و يحكم على هذه الأرض.

و قد أنبأ عنه القرآن أحسن إنباء في آيات كثيرة كقوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، Xالآية X:«الحجرات:١٣» و قال تعالى: نَحْنُ قَسَمٌ مِّنَّا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ رَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا :«الزخرف:٣٢»، و قال تعالى: بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ :«آل عمران:١٩٥»، و قال تعالى: وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَ صِهْرًا :«الفرقان:٥٤»، إلى غير ذلك. (١)

### ٢- الإنسان و نموه في اجتماعه:

الاجتماع الإنساني كسائر الخواص الروحيه الإنسانيه و ما يرتبط بها لم يوجد حين وجد تاما كاملا لا يقبل النماء و الزيادة بل هو كسائر الأمور الروحيه الإدراكيه الإنسانيه لم يزل يتكامل بتكامل الإنسان في كمالته الماديه و المعنويه و على الحقيقه لم يكن من المتوقع أن يستثنى هذه الخاصه من بين جميع الخواص الإنسانيه فتظهر أول ظهورها تامه كامله أتم ما يكون و أكمله بل هي كسائر الخواص الإنسانيه التي لها ارتباط بقوتى العلم و الإراده تدريجي الكمال في الإنسان و الذي يظهر من التأمل في حال هذا النوع أن أول ما ظهر من الاجتماع فيه

ص: ٩٢

(١- ١) و ليرجع في دلالة كل واحده من الآيات إلى المحل المختص بها من هذا التفسير

الاجتماع المنزلى بالازدواج لكون عامله الطبيعي و هو جهاز التناسل أقوى عوامل الاجتماع لعدم تحققه إلا بأزيد من فرد واحد أصلا بخلاف مثل التغذى و غيره ثم ظهرت منه الخاصه التي سميها في المباحث المتقدمه من هذا الكتاب بالاستخدام و هو توسط الإنسان غيره في سبيل رفع حوائجه بيسط سلطته و تحميل إرادته عليه ثم برز ذلك في صورته الرئاسه كرئيس المنزل و رئيس العشيره و رئيس القبيله و رئيس الأمه و بالطبع كان المقدم المتعين من بين العده أولا أقواهم و أشجعهم ثم أشجعهم، و أكثرهم مالا و ولدا و هكذا حتى ينتهى إلى أعلمهم بفنون الحكومه و السياسه و هذا هو السبب الابتدائي لظهور الوثنيه و قيامها على ساقها حتى اليوم و سنستوفى البحث عنها فيما سيأتى إن شاء الله العزيز.

و خاصه الاجتماع بتمام أنواعها(المنزلى و غيره)و إن لم تفارق الإنسانيه في هذه الأدوار و لو برهه إلا أنها كانت غير مشعور بها للإنسان تفصيلا بل كانت تعيش و تنمو بتبع الخواص الأخرى المعنى بها للإنسان كالاستخدام و الدفاع و نحو ذلك.

و القرآن الكريم يخبر أن أول ما نبه الإنسان بالاجتماع تفصيلا و اعتنى بحفظه استقلالاً نهته به النبوه قال تعالى: **وَ مَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا**: «يونس: ١٩»، و قال: **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ**: «البقره: ٢١٣»، حيث ينبى أن الإنسان فى أقدم عهوده كان أمه واحده ساذجه لا اختلاف بينهم حتى ظهرت الاختلافات و بانت المشاجرات فبعث الله الأنبياء و أنزل معهم الكتاب ليرفع به الاختلاف، و يردهم إلى وحده الاجتماع محفوظه بالقوانين المشرعه.

و قال تعالى: **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**: «الشورى: ١٣»، فأنبأ أن رفع الاختلاف من بين الناس و إيجاد الاتحاد فى كلمتهم إنما كان فى صورته الدعوه إلى إقامة الدين و عدم التفرق فيه فالدين كان يضمن اجتماعهم الصالح.

و الآيه - كما ترى - تحكى هذه الدعوه (دعوه الاجتماع و الاتحاد) عن نوح(ع) و هو أقدم الأنبياء أولى الشريعة و الكتاب ثم عن إبراهيم ثم عن موسى ثم عيسى(ع)

وقد كان في شريعته نوح وإبراهيم النزر اليسير من الأحكام، وأوسع هؤلاء الأربعة شريعته موسى واتباعه شريعته عيسى علي ما يخبر به القرآن و هو ظاهر الأناجيل و ليس في شريعته موسى -علي ما قيل- إلا استمائه حكم تقريبا.

فلم تبدأ الدعوه إلى الاجتماع دعوه مستقلة صريحه إلا من ناحيه النبوه في قالب الدين كما يصرح به القرآن، و التاريخ يصدقه علي ما سيجي.

### ٣- الإسلام و عنايته بالاجتماع:

لا ريب أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي أسس بنيانه علي الاجتماع صريحا و لم يهمل أمر الاجتماع في شأن من شئونه فانظر- إن أردت زياده تبصر في ذلك- إلى سعه الأعمال الإنسانيه التي تعجز عن إحصائها الفكره و إلى تشعبها إلى أجناسها و أنواعها و أصنافها ثم انظر إلى إحصاء هذه الشريعته الإلهيه لها و إحاطتها بها و بسط أحكامها عليها ترى عجا ثم انظر إلى تقليبه ذلك كله في قالب الاجتماع ترى أنه أنفذ روح الاجتماع فيها غايه ما يمكن من الإنفاذ.

ثم خذ في مقايسه ما وجدته بسائر الشرائع الحقه التي يعتنى بها القرآن و هي شرائع نوح و إبراهيم و موسى و عيسى حتى تعين النسبه و تعرف المنزله.

و أما ما لا يعتنى به القرآن الكريم من الشرائع كأديان الوثنيه و الصابئه و المانويه و الثنويه و غيرها فالأمر فيها أظهر و أجلى.

و أما الأمم المتمدنه و غيرها فالتاريخ لا يذكر من أمرها إلا أنها كانت تتبع ما ورثته من أقدم عهود الإنسانيه من استتباع الاجتماع بالاستخدام، و اجتماع الأفراد تحت جامع حكومه الاستبداد و السلطه الملوكيه فكان الاجتماع القومي و الوطني و الإقليمي يعيش تحت رايه الملك و الرئاسه، و يهتدى بهدايه عوامل الوراثه و المكان و غيرهما من غير أن يعتنى أمه من هذه الأمم عنايه مستقلة بأمره، و تجعله موردا للبحث و العمل، حتى الأمم المعظمه التي كانت لها سياده الدنيا حينما شرقت شارقه الدين و أخذت في إشراقها و إنارتها أعنى إمبراطوريه الروم و الفرس فإنها لم تكن إلا قيصرية و كسرويه تجتمع أممها تحت لواء الملك و السلطنه و يتبعها الاجتماع في رشد و نموه و يمكث بمكثها.

نعم يوجد فيما ورثه أبحاث اجتماعيه في مسفورات حكمائهم من أمثال سقراط

و أفلاطون و أرسطو و غيرهم إلا أنها كانت أوراقا و صحائف لا ترد مورد العمل، و مثلا ذهنيه لا تنزل مرحله العين و الخارج، و التاريخ الموروث أعدل شاهد على صدق ما ذكرناه.

فأول نداء قرع سمع النوع الإنساني و دعى به هذا النوع إلى الاعتناء بأمر الاجتماع بجعله موضوعا مستقلا خارجا عن زاويه الإهمال و حكم التبعية هو الذى نادى به صادع الإسلام عليه أفضل الصلاه و السلام، فدعا الناس بما نزل عليه من آيات ربه إلى سعادته الحياه و طيب العيش مجتمعين، قال تعالى: وَ أَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ: «الأنعام: ١٥٣» ، و قال: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَ لَا تَفَرَّقُوا، X إلى أن قال: X وَ لَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يُأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ X (يشير إلى حفظ المجتمع عن التفرق و الانشعاب) X وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اختلفوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ: «آل عمران: ١٠٥»، و قال: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيَعًا لَسَيِّئٌ مِنْهُمْ فِى شَيْءٍ: «الأنعام: ١٥٩»، إلى غير ذلك من الآيات المطلقة الداعيه إلى أصل الاجتماع و الاتحاد.

و قال تعالى: إِنَّمَّا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ: «الحجرات: ١٠»، و قال: وَ لَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ: «الأنفال: ٤٦»، و قال: وَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوَى: «المائدة: ٢»، و قال: وَ لَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يُأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ: «آل عمران: ١٠٤» إلى غير ذلك من الآيات الآمره ببناء المجتمع الإسلامى على الاتفاق و الاتحاد فى حيازه منافعها و مزاياها المعنويه و الماديه و الدفاع عنه على ما سنوضحه بعض الإيضاح.

#### ٤ اعتبار الإسلام رابطته الفرد و المجتمع:

الصنع و الإيجاد يجعل أولا أجزاء ابتدائيه لها آثار و خواص ثم يركبها و يؤلف بينها على ما فيها من جهات البينونه فيستفيد منها فوائد جديده مضافه إلى ما للأجزاء من الفوائد المشهوده فالإنسان مثلا له أجزاء و أبعاض و أعضاء و قوى لها فوائد متفرقه ماديه و روحيه ربما اختلفت فقويت و عظمت كثقل كل واحد من الأجزاء و ثقل المجموع و التمكن و الانصراف من جهه إلى جهه و غير ذلك، و ربما لم تأتلف و بقيت على حال التباين و التفرق كالسمع و البصر و الذوق و الإراده و الحركه إلا أنها جميعا من جهه الوحده فى التركيب تحت سيطره

الواحد الحادث الذى هو الإنسان-، و عند ذلك يوجد من الفوائد ما لا يوجد عند كل واحد من أجزائه و هى فوائد جمه من قبيل الفعل و الانفعال و الفوائد الروحيه و الماديه، و من فوائده حصول كثره عجيبيه فى تلك الفوائد فى عين الوحده فإن الماده الإنسانيه كالنطفه مثلا إذا استكملت نشأتها قدرت على إفراز شىء من الماده من نفسها و تربيتها إنسانا تاما آخر يفعل نظائر ما كان يفعله أصله و محتده من الأفعال الماديه و الروحيه فأفراد الإنسان على كثرتها إنسان و هو واحد، و أفعالها كثيره عددا واحده نوعا و هى تجتمع و تأتلف بمنزله الماء يقسم إلى آنيه فهى مياه كثيره ذو نوع واحد و هى ذات خواص كثيره نوعها واحد و كلما جمعت المياه فى مكان واحد قويت الخاصه و عظم الأثر.

و قد اعتبر الإسلام فى تربيته أفراد هذا النوع و هدايتها إلى سعادتها الحقيقه هذا المعنى الحقيقى فيها و لا مناص من اعتباره، قال تعالى: وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَ صِهْرًا ۗ وَالْفِرْقَانِ: ٥٤»، و قال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِذَا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ: «الحجرات: ١٣»، و قال: بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ: «آل عمران: ١٩٥».

و هذه الرابطه الحقيقه بين الشخص و المجتمع لا محاله تؤدى إلى كينونه أخرى فى المجتمع حسب ما يمدده الأشخاص من وجودهم و قواهم و خواصهم و آثارهم فيتكون فى المجتمع سنخ ما للفرد من الوجود و خواص الوجود و هو ظاهر مشهود، و لذلك اعتبر القرآن للأمه وجودا و أجلا و كتابا و شعورا و فهما و عملا و طاعه و معصيه فقال:

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَجِدُّونَ ۗ وَالْأَعْرَافِ: ٣٤»، و قال: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْمَسْئَلَةُ عَلَىٰ أَن تَقُولُوا بِالْحَقِّ كَمَا جَاءَ بِكُمُ الْبَيِّنَاتُ، «الجاثيه: ٢٨» و قال: زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ «الأنعام: ١٠٨»، و قال: مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۗ «المائدة: ٦٦»، و قال: أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ: «آل عمران: ١١٣»، و قال: وَ هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَ جَاءُوا بِالباطِلِ لِيُذِخُوا بِهِ الْحَقَّ فَآخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ: «غافر: ٥»، و قال:

وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ: «يونس: ٤٧».

و من هنا ما نرى أن القرآن يعنى بتواريخ الأمم كاعتناؤه بقصص الأشخاص بل أكثر حينما لم يتداول فى التواريخ إلا ضبط أحوال المشاهير من الملوك و العظماء، و لم يشتغل المؤرخون بتواريخ الأمم و المجتمعات إلا بعد نزول القرآن فاشتغل بها بعض الاشتغال آحاد منهم كالمسعودى و ابن خلدون حتى ظهر التحول الأخير فى التاريخ النقلى

بتبديل الأشخاص أمتا، و أول من سنه على ما يقال: «أغوست كنت الفرنسى المتوفى سنه ١٨٥٧ ميلاديه».

و بالجمله لازم ذلك على ما مرت الإشاره إليه تكون قوى و خواص اجتماعيه قويه تقهر القوى و الخواص الفرديه عند التعارض و التضاد، على أن الحس و تجربه يشهدان بذلك فى القوى و الخواص الفاعله و المنفعله معا، فهمه الجماعه و إرادتها فى أمر كما فى موارد الغوغاءات و فى الهجمات الاجتماعيه لا تقوم لها إرادته معارضه و لا مضاده من واحد من أشخاصها و أجزاءها، فلا مفر للجزء من أن يتبع كله و يجرى على ما يجرى عليه حتى أنه يسلب الشعور و الفكر من أفرادها و أجزاءها، و كذا الخوف العام و الدهشه العامه كما فى موارد الانهزام و انسلاب الأمن و الزلزله و القحط و الوباء أو ما هو دونها كالرسومات المتعارفه و الأرياء القوميه و نحوهما تضطر الفرد على الاتباع و تسلب عنه قوه الإدراك و الفكر.

و هذا هو الملاك فى اهتمام الإسلام بشأن الاجتماع ذلك الاهتمام الذى لا نجد و لن نجد ما يماثله فى واحد من الأديان الأخرى و لا- فى سنن الملل المتمدنه (و لعلك لا- تكاد تصدق ذلك)، فإن تربيته الأخلاق و الغرائز فى الفرد و هو الأصل فى وجود المجتمع لا- تكاد تنجح مع كينونه الأخلاق و الغرائز المعارضه و المضاده القويه القاهره فى المجتمع إلا يسيرا لا قدر له عند القياس و التقدير.

فوضع أهم أحكامه و شرائعه كالحج و الصلاه و الجهاد و الإنفاق و بالجمله التقوى الدينى على أساس الاجتماع، و حافظ على ذلك مضافا إلى قوى الحكومه الإسلاميه الحافظه لشعائر الدين العامه و حدودها، و مضافا إلى فريضه الدعوه إلى الخير و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر العامه لجميع الأمه بجعل غرض المجتمع الإسلامى- و كل مجتمع لا يستغنى عن غرض مشترك- هى السعاده الحقيقيه و القرب و المنزل عند الله، و هذا رقيب باطنى لا يخفى عليه ما فى سريره الإنسان و سره- فضلا عما فى ظاهره- و إن خفى على طائفه الدعاه و جماعه الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، و هذا هو الذى ذكرنا أن الإسلام تفوق سنه اهتمامه بشأن الاجتماع سائر السنن و الطرائق.

؟ و لعلك تقول لو كان ما ذكر من كون نظر الإسلام فى تكوين المجتمع الصالح أرقى بناء و أتقن أساسا حتى من المجتمعات التى كونتها الملل المتمدنه المترقيه حقا فما باله لم يقبل الإجراء إلا برهه يسيره ثم لم يملك نفسه دون أن تبدل قيصره و كسرويه- و تحول إمبراطوريه أفجع و أشنع أعمالا مما كان قبله بخلاف المدنيه الغربيه التى تستديم البقاء.

و هذا هو الدليل على كون مدنيتهم أرقى و سنتهم فى الاجتماع أتقن و أشد استحكاما، و قد وضعوا سنتهم الاجتماعيه و قوانينهم الدائره على أساس إرادته الأيمه و اقتراح الطباع و الميول ثم اعتبروا فيها إرادته الأكثر و اقتراحهم، لاستحاله اجتماع الكل بحسب العاده إرادته، و غلبه الأكثر سنه جاريه فى طبيعه مشهوده فإننا نجد كلا من العلل الماديه و الأسباب الطبيعيه مؤثره على الأكثر لا على الدوام، و كذا العوامل المختلفه المتنازعه إنما يؤثر منها الأكثر دون الكل و دون الأقل فمن الحرى أن يبنى هيكل الاجتماع بحسب الغرض و بحسب السنن و القوانين الجاريه فيه على إرادته الأكثر و أما فرضيه الدين فليست فى الدنيا الحاضره إلا أمنيته لا تتجاوز مرحله الفرض و مثالا عقليا غير جائز النيل.

و قد ضمنتم المدنيه الحاضره فيما ظهرت فيه من الممالك قوه المجتمع و سعادتها و تهذب الأفراد و طهارتهم من الرذائل و هى الأمور التى لا يرتضيها المجتمع كالكذب و الخيانه و الظلم و الجفاء و الجفاف و نحو ذلك.

و هذا الذى أوردناه محصل ما يختلج فى صدور جمع من باحثينا معاصر الشرقين و خاصه المحصلين من فضلائنا المتفكرين فى المباحث الاجتماعيه و النفسيه غير أنهم وردوا هذا البحث من غير مورده فاختلط عليهم حق النظر، و لتوضيح ذلك نقول:

أما قولهم: إن السنه الاجتماعيه الإسلاميه غير قابله الجريان فى الدنيا على خلاف سنن المدنيه الحاضره فى جو الشرائط الموجوده، و معناه أن الأوضاع الحاضره فى الدنيا لا تلائم الأحكام المشرعه فى الإسلام فهو مسلم لكنه لا ينتج شيئا فإن جميع السنن الدائره فى الجامعه الإنسانيه إنما حدثت بعد ما لم تكن و ظهرت فى حين لم تكن عامه الأوضاع و الشرائط الموجوده إلا مناقضه له طارده إياه، فانتهضت و نازعت السنن السابقه المستمره المتعرقه و ربما اضطهدت و انهزمت فى أول نهضتها ثم عادت ثانيا و ثالثا



حتى غلبت و تمكنت و ملكت سيطرتها و ربما بادت و انقرضت إذ لم يساعدها العوامل و الشروط بعد، و التاريخ يشهد (١) بذلك في جميع السنن الدينيه و الدينويه حتى في مثل الديمقراطيه و الاشتراك، و إلى مثله يشير قوله تعالى: «قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ» -آل عمران: ١٣٧، يشير إلى أن السنه التي تصاحب تكذيب آيات الله لا تنتهي إلى عاقبه حسنه محموده.

فمجرد عدم انطباق سنه من السنن على الوضع الإنساني الحاضر ليس يكشف عن بطلانه و فساده بل هو من جمله السنن الطبيعيه الجاربه في العالم لتتميم كينونه الحوادث الجديده إثر الفعل و الانفعال و تنازع العوامل المختلفه.

و الإسلام كسائر السنن من جهه النظر الطبيعى و الاجتماعى و ليس بمستثنى من هذه الكليه، فحاله من حيث التقدم و التأخر و الاستظهار بالعوامل و الشروط حال سائر السنن و ليس حال الإسلام اليوم- و قد تمكن في نفوس ما يزيد على أربعمائه مليون من أفراد البشر و نشب في قلوبهم- بأضعف من حاله في الدنيا زمان دعوه نوح و إبراهيم و محمد ص و قد قامت دعوه كل منهم بنفس واحده و لم تكن تعرف الدنيا وقتئذ غير الفساد ثم انبسطت و تعرقت و عاشت و اتصل بعضها ببعض فلم ينقطع حتى اليوم.

و قد قام رسول الله ص بالدعوه و لم يكن معه من يستظهر به يومئذ إلا رجل و امرأه ثم لم يزل يلحق بهم واحد بعد واحد و اليوم يوم العسره كل العسره حتى أتاهم نصر الله فتشكروا مجتمعاً صالحاً ذا أفراد يغلب عليهم الصلاح و التقوى و مكثوا برهه على الصلاح الاجتماعى حتى كان من أمر الفتن بعد رسول الله ص ما كان.

و هذا الأنموذج اليسير على قصر عمره و ضيق نطاقه لم يلبث حتى انبسط في أقل

ص: ٩٩

١- ١) و من أوضح الشواهد أن السنه الديمقراطيه بعد الحرب العالميه الأولى (و هى اليوم السنه العالميه المرضيه الوحيد) تحولت في روسيا إلى الشيوعيه و الحكومه الاشتراكيه ثم لحق لها بعد الحرب العالميه الثانيه ممالك أوروبا الشرقيه و مملكه الصين فخسرت بذلك صفقه الديمقراطيه فيما يقرب من نصف المجتمع البشرى. و قد أعلنت المجتمعات الشيوعيه قبل سنه تقريباً أن قائدها الفقيد «ستالين» كان قد حرف مدى حكومته و هو ثلاثون سنه تقريباً بعد حكومه لينين الحكومه الاشتراكيه إلى الحكومه الفرديه الاستبداديه و حتى اليوم لا تزال تؤمن به طائفه بعد الكفر، و تتردد عنها طائفه بعد الإيمان، و هى تطوى و تبسط، و هناك نماذج و أمثله أخرى كثيره فى التاريخ.

من نصف قرن على مشارق الأرض و مغاربها، و حول التاريخ تحويلا جوهريا يشاهد آثاره الهامه إلى يومنا و ستدوم ثم تدوم.

و لا يستطيع أن يستنكف الأبحاث الاجتماعيه و النفسيه فى التاريخ النظرى عن الاعتراف بأن المنشأ القريب و العامل التام للتحول المعاصر المشهود فى الدنيا هو ظهور السنه الإسلاميه و طلوعها و لم يهمل جل الباحثين من أوروبا استيفاء البحث عن تأثيرها فى جامعه الإنسان إلا لعصبيه دينيه أو علل سياسيه و كيف يسع لباحث خبير-لو أنصف النظر- أن يسمي النهضه المدنيه الحديثه نهضه مسيحيه و يعد المسيح(ع) قائدها و حامل لوائها و المسيح يصرح (1) بأنه إنما يهتم بأمر الروح و لا يشتغل بأمر الجسم و لا يتعرض لشأن الدوله و السياسه؟ و هو ذا الإسلام يدعو إلى الاجتماع و التآلف و يتصرف فى جميع شئون المجتمع الإنسانى و أفراده من غير استثناء فهل هذا الصفح و الإغماض منهم إلا لإطفاء نور الإسلام (وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ) و إخماد ناره عن القلوب بغيا و عدوا حتى يعود جنسيه لا أثر لها إلا أثر الأنسال المنشعبه.

و بالجمله قد أثبت الإسلام صلوحه لهدايه الناس إلى سعادتهم و طيب حياتهم، و ما هذا شأنه لا يسمي فرضيه غير قابله للانطباق على الحياه الإنسانيه، و لا مأیوسا من ولايه أمر الدنيا يوما(مع كون مقصده سعادته الإنسان الحقيقيه) و قد تقدم فى تفسير قوله: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً: «البقره: ٢١٣» أن البحث العميق فى أحوال الموجودات الكونيه يؤدى إلى أن النوع الإنسانى سيبلى غايته و ينال بغيته و هى كمال ظهور الإسلام بحقيقته فى الدنيا و توليه التام أمر المجتمع الإنسانى، و قد وعده الله تعالى طبق هذه النظرية فى كتابه العزيز قال: فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ: «المائد: ٥٤» و قال: وَعِدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسِّرَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعِيدٍ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا Xالآيه X: «النور: ٥٥»، و قال: أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ: «الأنبياء:

١٠٥»، إلى غير ذلك من الآيات.

ص: ١٠٠

١-١) راجع الجزء الثالث فى تفسير آيه ٧٩-٨٠ من سوره آل عمران.

و هنا وجه أخرى أغفلها هؤلاء فى بحثهم و هى أن الاجتماع الإسلامى شعاره الوحيد هو اتباع الحق فى النظر و العمل، و الاجتماع المدنى الحاضر شعاره اتباع ما يراه و يريده الأكثر، و هذان الشعاران يوجبان اختلاف الغايه فى المجتمع المتكون فغايه الاجتماع الإسلامى السعاده الحقيقيه العقلية بمعنى أن يأخذ الإنسان بالاعتدال فى مقتضيات قواه فيعطى للجسم مشتبهاته مقدار ما لا يعوقه عن معرفه الله من طريق العبوديه بل يكون مقدمه توصل إليها و فيه سعاده الإنسان بسعاده جميع قواه، و هى الراحة الكبرى (و إن كنا لا ندرکها اليوم حق الإدراک لاختلال الترييه الإسلاميه فينا) و لذلك وضع الإسلام قوانينه على أساس مراعاة جانب العقل المجبول على اتباع الحق، و شدد فى المنع عما يفسد العقل السليم و ألقى ضمان إجراء الجميع من الأعمال و الأخلاق و المعارف الأصلية إلى عهده المجتمع مضافا إلى ما تحتفظ عليه الحكومه و الولايه الإسلاميه من إجراء السياسات و الحدود و غيرها، و هذا على أى حال لا يوافق طباع العامه من الناس و يدفعه هذا الانغمار العجيب فى الأهواء و الأمانى الذى نشاهده من كافه المترفين و المعدمين و يسلب حريتهم فى الاستلذاذ و التلهى و السبعيه و الافتراس إلا بعد مجاهده شديده فى نشر الدعوه و بسط الترييه على حد سائر الأمور الرقيه التى يحتاج الإنسان فى التلبس بها إلى همه قاطعه و تدرج كاف و تحفظ على ذلك مستدام.

و أما غايه الاجتماع المدنى الحاضر فهى التمتع من ماده و من الواضح أن هذه تستتبع حياه إحساسيه تتبع ما يميل إليه الطبع سواء وافق ما هو الحق عند العقل أو لم يوافق بل إنما يتبع العقل فيما لا يخالف غايته و غرضه.

و لذلك كانت القوانين تتبع فى وضعها و إجراءاتها ما يستدعيه هوى أكثرية المجتمع و ميول طباعهم، و ينحصر ضمان الإجراء فى مواد القانون المتعلقة بالأعمال، و أما الأخلاق و المعارف الأصلية فلا ضمان لإجرائها بل الناس فى التلبس بها و تبعيتها و عدمه إلا أن تراحم القانون فى مسيره فتمنع حينئذ.

و لازم ذلك أن يعتاد المجتمع الذى شأنه ذلك بما يوافق هواه من رذائل الشهوه و الغضب فيستحسن كثيرا مما كان يستقبحه الدين، و أن يسترسل باللعب بفضائل الأخلاق و المعارف العاليه مستظها بالحريه القانونيه.

و لازم هذا اللازم أن يتحول نوع الفكره عن المجرى العقلى إلى المجرى الإحساسى

العاطفى فربما كان الفجور و الفسق فى مجرى العقل تقوى فى مجرى الميول و الإحساسات و سمي فتوه و بشرا و حسن خلق كمعظم ما يجرى فى أوربا بين الشبان، و بين الرجال و النساء المحصنات أو الأبكار، و بين النساء و الكلاب، و بين الرجال و أولادهم و محارمهم، و ما يجرى فى الاحتفالات و مجالس الرقص و غير ذلك مما ينقبض عن ذكره لسان المتأدب بأدب الدين.

و ربما كان عاديات الطريق الدينى غرائب و عجائب مضحكه عندهم و بالعكس كل ذلك لاختلاف نوع الفكره و الإدراك باختلاف الطريق و لا يستفاد فى هذه السنن الإحساسيه من التعقل - كما عرفت - إلا بمقدار ما يسوى به الطريق إلى التمتع و التلذذ فهو الغايه الوحيده التى لا يعارضها شىء و لا يمنع منها شىء إلا فى صورته المعارضه بمثلها حتى إنك تجد بين مشروعات القوانين الدائره أمثال «الانتحار» و «دئل» و غيرهما، فللنفس ما تريده و تهواه إلا أن يزاحم ما يريده و يهواه المجتمع!.

إذا تأملت هذا الاختلاف تبين لك وجه أوفقيه سنه المجتمع الغربى لمذاق الجامعه البشرىه دون سنه المجتمع الدينى غير أنه يجب أن يتذكر أن سنه المدينه الغربيه وحدها ليست هى الموافقه لطباع الناس حتى تترجح بذلك وحدها بل جميع السنن المعموله الدائره فى الدنيا بين أهلها من أقدم أعصار الإنسانيه إلى عصرنا هذا من سنن البداوه و الحضاره تشترك فى أن الناس يرجحونها على الدين الداعى إلى الحق فى أول ما يعرض عليهم لخضوعهم للوثنيه الماديه.

و لو تأملت حق التأمل وجدت هذه الحضاره الحاضره ليست إلا مؤلفه من سنن الوثنيه الأولى غير أنها تحولت من حال الفرديه إلى حال الاجتماع، و من مرحله السذاجه إلى مرحله الدقه الفنيه.

و الذى ذكرناه من بناء السنه الإسلاميه على اتباع الحق دون موافقه الطبع من أوضح الواضحات فى بيانات القرآن قال تعالى: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَ دِينِ الْحَقِّ: «التوبه: ٣٣» و قال تعالى: وَ اللَّهُ يَفْضِلُ بِالْحَقِّ: «المؤمن: ٢٠» و قال فى وصف المؤمنين: وَ تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ: «العصر: ٣» و قال: لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَ لَكِنَّا أَكْثَرُكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ: «الزخرف: ٧٨» فاعترف بأن الحق لا يوافق طباع الأكثرين و أهواءهم، ثم رد لزوم موافقه أهواء الأكثريه بأنه يثول إلى الفساد فقال: بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ

وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ، وَ لَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِعَذَابِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ: «المؤمنون: ٧١» و لقد صدق جريان الحوادث و تراكم الفساد يوما فيوما ما بينه تعالى في هذه الآيه. و قال تعالى: فَمَا ذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصِرُّونَ: «يونس: ٣٢» و الآيات في هذا المعنى و ما يقرب منه كثيره جدا و إن شئت زياده تبصر فيه فراجع سوره يونس فقد كرر فيه ذكر الحق بضعا و عشرين مره.

و أما قولهم: إن اتباع الأ- كثر سنه جاريه في الطبيعه، فلا- ريب أن الطبيعه تتبع الأ- كثر في آثارها إلا- أنها ليست بحيث تبطل أو تعارض و جوب اتباع الحق فإنها نفسها بعض مصاديق الحق فكيف تبطل نفسها توضيح ذلك يحتاج إلى بيان أمور: أحدها أن الأمور الخارجيه التي هي أصول عقائد الإنسان العلميه و العمليه تتبع في تكوينها و أقسام تحولها نظام العليه و المعلوليه و هو نظام دائم ثابت لا- يقبل الاستثناء أطبق على ذلك المحصلون من أهل العلم و النظر و شهد به القرآن على ما مر (١)، فالجريان الخارجى لا- يتخلف عن الدوام و الثبات حتى أن الحوادث الأكثرية الوقوع التي هي قياسيةه هي في أنها أكثرية دائمه ثابتة، مثلا النار التي تفعل السخونه غالبا بالقياس إلى جميع مواردنا «سخونتها الغالبية» أثر دائم لها و هكذا، و هذا هو الحق.

و الثانى: أن الإنسان بحسب الفطره يتبع ما وجده أمرا واقعا خارجيا بنحو فهو يتبع الحق بحسب الفطره حتى أن من ينكر وجود العلم الجازم إذا ألقى إليه قول لا يجد من نفسه التردد فيه خضع له بالقبول.

و الثالث: أن الحق كما عرفت هو الأمر الخارجى الذى يخضع له الإنسان فى اعتقاده أو يتبعه فى عمله، و أما نظر الإنسان و إدراكه فإنما هو وسيله يتوسل بها إليه كالمراه بالنسبه إلى المرئى.

إذا عرفت هذه الأمور تبين لك أن الحقيه و هى دوام الوقوع أو أكثرية الوقوع

ص: ١٠٣

١- ١) فى الكلام على الإعجاز فى الجزء الأول من الكتاب

فى الطبعه الراجعه إلى الدوام و الثبات أيضا إنما هى صفه الخارج الواقع وقوعا دائما أو أكثرىا دون العلم و الإدراك، و بعباره أخرى هى صفه الأمر المعلوم لا- صفه العلم، فالوقوع الدائمى و الأكثرى أيضا بوجه من الحق، و أما آراء الأكثرين و أنظارهم و اعتقاداتهم فى مقابل الأقلين فليست بحق دائما بل ربما كانت حقا إذا طابقت الواقع و ربما لم تكن إذا لم تطابق و حينئذ فلا ينبغى أن يخضع لها الإنسان و لا أنه يخضع لها لو تنبه للواقع فإنك إذا أيقنت بأمر ثم خالفك جميع الناس فيه لم تخضع بالطبع لنظرهم و إن اتبعتهم فيه ظاهرا فإنما تتبعهم لخوف أو حياء أو عامل آخر لا لأنه حق واجب الاتباع فى نفسه، و من أحسن البيان فى أن رأى الأ-كثر و نظرهم لا- يجب أن يكون حقا واجب الاتباع قوله تعالى: **يَلِجُ جَمَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** «المؤمنون: ٧٠» فلو كان كل ما يراه الأكثر حقا لم يمكن أن يكرهوا الحق و يعارضوه.

و بهذا البيان يظهر فساد بناء اتباع الأكثرية على سنه الطبعه فإن هذه السنه جاربه فى الخارج الذى يتعلق به العلم دون نفس العلم و الفكر و الذى يتبعه الإنسان من هذه السنه فى إرادته و حركاته إنما هو ما فى الخارج من أكثرية الوقوع لا ما اعتقده الأكثرون أعنى أنه يبنى أفعاله و أعماله على الصلاح الأكثرى و عليه جرى القرآن فى حكم تشريعاته و مصالحها، قال تعالى: **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُنِيبَكُمْ وَ لِيَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** «المائدة: ٦»، و قال تعالى: **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ** **كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** «البقره: ١٨٣» إلى غير ذلك من الآيات المشتمله على ملاكات غالبية الوقوع للأحكام المشرعه.

و أما قولهم: إن المدنيه الحاضره سمحت للممالك المترقيه سعادته المجتمع و هذب الأفراد طهرهم عن الرذائل التى لا يرتضيها المجتمع فكلام غير خال من الخلط و الاشتباه و كان مرادهم من السعاده الاجتماعيه تفوق المجتمع فى عدتها و قوتها و تعاليتها فى استفادتها من المنابع الماديه و قد عرفت كرارا أن الإسلام لا يعد ذلك سعاده و البحث البرهانى أيضا يؤيده بل السعاده الإنسانيه أمر مؤلف من سعاده الروح و البدن و هى تنعم الإنسان من النعم الماديه و تحليه بفضائل الأخلاق و المعارف الحقه الإلهيه و هى التى تضمن سعاده فى الحياه الدنيا و الحياه الأخرى و أما الانغمار فى لذائذ الماده مع إهمال سعاده الروح فليس عنده إلا شقاء.

و أما استعجابهم بما يرون من الصدق و الصفاء و الأمانه و البشر و غير ذلك فيما بين أفراد الملل المترقيه فقد اختلط عليهم حقيقه الأمر فيه ، و ذلك أن جل المتفكرين من باحثينا معاشر الشرقيين لا يقدرّون على التفكير الاجتماعى و إنما يتفكرون تفكرا فرديا فالذى يراه الواحد منا نصب العين أنه موجود إنسانى مستقل عن كل الأشياء غير مرتبط بها ارتباطا تبطل استقلاله الوجودى (مع أن الحق خلافه) ثم لا يتفكر فى حياته إلا لجلب المنافع إلى نفسه و دفع المضار عن نفسه فلا يشتغل إلا بشأن نفسه و هو التفكير الفردى، و يستتبع ذلك أن يقيس غيره على نفسه فيقضى فيه بما يقضى على هذا النحو من الاستقلال.

و هذا القضاء إن صح فإنما يصح فيمن يجرى فى تفكره هذا المجرى و أما من يتفكر تفكرا اجتماعيا ليس نصب عينيه إلا أنه جزء غير منفك و لا مستقل عن المجتمع و أن منافعه جزء من منافع مجتمعه يرى خير المجتمع خير نفسه و شره شر نفسه و كل وصف و حال له و صفا و حالا لنفسه فهذا الإنسان يتفكر نحو آخر من التفكير و لا يشتغل فى الارتباط بغيره إلا بمن هو خارج عن مجتمعه و أما اشتغاله بأجزاء مجتمعه فلا يهتم به و لا يقدره شيئا.

و استوضح ذلك بما نوردّه من المثال: الإنسان مجموع مؤلف من أعضاء و قوى عديده تجتمع الجميع نوع اجتماع يعطيها وحده حقيقه نسميها الإنسانيه يوجب ذلك استهلاك الجميع ذاتا و فعلا تحت استقلاله فالعين و الأذن و اليد و الرجل تبصر و تسمع و تبطش و تمشى للإنسان، و إنما يلتذ كل بفعله فى ضمن التذاذ الإنسان به، و كل واحده من هذه الأعضاء و القوى همها أن ترتبط بالخارج الذى يريد الإنسان الواحد الارتباط به بخير أو شر فالعين أو الأذن أو اليد أو الرجل إنما تريد الإحسان أو الإساءه إلى من يريد الإنسان الإحسان أو الإساءه إليه من الناس مثلا، و أما معامله بعضها مع بعض و الجميع تحت لواء الإنسانيه الواحده فقلما يتفق أن يسىء بعضها إلى بعض أو يتضرر بعضها ببعض.

فهذا حال أجزاء الإنسان و هى تسير سيرا واحدا اجتماعيا، و فى حكمه حال أفراد مجتمع إنسانى إذا تفكروا تفكرا اجتماعيا فصلاحهم و تقواهم أو فسادهم و إجرامهم و إحسانهم و إساءتهم إنما هى ما لمجتمعهم من هذه الأوصاف إذا أخذ ذا شخصيه واحده و هكذا صنع القرآن فى قضائه على الأمم و الأقوام التى ألجأتهم التعصبات المذهبيه

أو القوميه أن يتفكروا تفكرا اجتماعيا كاليهود و الأعراب و عده من الأمم السالفه فتراه يؤاخذ اللا-حقين بذنوب السابقين، و يعاتب الحاضرين و يوبخهم بأعمال الغائبين و الماضين كل ذلك لأنه القضاء الحق فيمن يتفكر فكرا اجتماعيا، و فى القرآن الكريم من هذا الباب آيات كثيره لا حازه إلى نقلها.

نعم مقتضى الأخذ بالنصفه أن لا يضطهد حق الصالحين من الأفراد بذلك إن وجدوا فى مجتمع واحد فإنهم و إن عاشوا بينهم و اختلطوا بهم إلا- أن قلوبهم غير متقدره بالفكر الفاسد و المرض المتبطن الفاشى فى مثل هذا المجتمع، و أشخاصهم كالأجزاء الزائده فى هيكله و بنيته، و هكذا فعل القرآن فى آيات العتاب العام فاستثنى الصلحاء و الأبرار.

و يتبين مما ذكرنا أن القضاء بالصلاح و الطلاح على أفراد المجتمعات المتمدنه الرقيه على خلاف أفراد الأمم الأخرى لا ينبغى أن يبنى على ما يظهر من معاشرتهم و مخالطتهم فيما بينهم و عيشتهم الداخليه بل بالبناء على شخصيتهم الاجتماعيه البارزه فى مماساتها و مصاكتها سائر الأمم الضعيفه و مخالطتها الحيويه سائر الشخصيات الاجتماعيه فى العالم.

فهذه هى التى يجب أن تراعى و تعتبر فى القضاء بصلاح المجتمع و طلاحه و سعادته و شقائه و على هذا المجرى يجب أن يجرى باحثونا ثم إن شاءوا فليستعجبوا و إن شاءوا فليتعجبوا.

و لعمرى لو طالع المطالع المتأمل تاريخ حياتهم الاجتماعيه من لدن النهضه الحديثه الأوربيه و تعمق فيما عاملوا به غيرهم من الأمم و الأجيال المسكينه الضعيفه لم يلبث دون أن يرى أن هذه المجتمعات التى يظهر أنهم امتلأوا رافه و نصحا للبشر يفدون بالدماء و الأموال فى سبيل الخدمه لهذا النوع و إعطاء الحريه و الأخذ بيد المظلوم المهضوم حقا و إلغاء سنه الاسترقاق و الأسر يرى أنهم لا هم لهم إلا استعباد الأمم الضعيفه مساكين الأرض ما وجدوا إليه سبيلا بما وجدوا إليه من سبيل فيوما بالقهر، و يوما بالاستعمار، و يوما بالاستملاك، و يوما بالقيومه، و يوما باسم حفظ المنافع المشتركه، و يوما باسم الإعانه على حفظ الاستقلال، و يوما باسم حفظ الصلح و دفع ما يهدده، و يوما باسم الدفاع عن حقوق الطبقات المستأصله المحرومه و يوما... و يوما....



و المجتمعات التي هذا شأنها لا ترتضى الفطره الإنسانيه السليمه أن تصفها بالصلاح أو تدعن لها بالسعاده و إن أغمضت النظر عما يشخصه قضاء الدين و حكم الوحي و النبوه من معنى السعاده.

و كيف ترضى الطبيعه الإنسانيه أن تجهز أفرادها بما تجهزها على السواء ثم تناقض نفسها فتعطى بعضا منهم عهدا أن يملكوا الآخريين تملكا يبيح لهم دماءهم و أعراضهم و أموالهم، و يسوى لهم الطريق إلى اللعب بمجامع حياتهم و وجودهم و التصرف فى إدراكهم و إرادتهم بما لم يلقه و لا- قاساه إنسان القرون الأولى، و المعول فى جميع ما نذكره تواريخ حياه هؤلاء الأمم و ما يقاسيه الجيل الحاضر من أيديهم فإن سمى ما عندهم سعاده و صلاحا فلتكن بمعنى التحكم و إطلاق المشيه.

## ٦- بما ذا يتكون و يعيش الاجتماع الإسلامى

؟ لا ريب أن الاجتماع أى اجتماع كان إنما يتحقق و يحصل بوجود غايه واحده مشتركه بين أفراده المتشتمته و هو الروح الواحد الساريه فى جميع أطرافه التى تتحد بها نوع اتحاد، و هذه الغايه و الغرض فى نوع الاجتماعات المتكونه غير الدينيه إنما هى غايه الحياه الدنيويه للإنسان لكن على نحو الاشتراك بين الأفراد لا على نحو الانفراد و هى التمتع من مزايا الحياه الماديه على نحو الاجتماع.

و الفرق بين التمتع الاجتماعى و الانفرادى من حيث الخاصيه أن الإنسان لو استطاع أن يعيش وحده كان مطلق العنان فى كل واحد من تمتعاته حيث لا معارض له و لا رقيب إلا ما قيد به بعض جهازاته بعضا فإنه لا يقدر أن يستنشق كل الهواء فإن الرئه لا تسعه و إن اشتهاه، و لا يسعه أن يأكل من المواد الغذائيه لا إلى حد فإن جهاز الهاضمه لا يتحملة فهذا حاله بقياس بعض قواه و أعضائه إلى بعض، و أما بالنسبه إلى إنسان آخر مثله فإذا كان لا شريك له فى ما يستفيد منه من الماده على الفرض فلا سبب هناك يقتضى تضيق ميدان عمله، و لا تحديد فعل من أفعاله و عمل من أعماله.

و هذا بخلاف الإنسان الواقع فى ظرف الاجتماع و ساحته فإنه لو كان مطلق العنان فى إرادته و أعماله لأدى ذلك إلى التمانع و التزاحم الذى فيه فساد العيش و هلاك النوع و قد بينا ذلك فى مباحث النبوه السابقه أوفى بيان.

و هذا هو السبب الوحيد الذى يدعو إلى حكومه القانون الجارى فى المجتمع غير أن المجتمعات الهمجيه لا تتنبه لوضعها عن فكر و رؤيه و إنما يكون الآداب و السنن فيها المشاجرات و المنازعات المتوفره بين أفرادها فتضطر الجميع إلى رعايه أمور تحفظ مجتمعهم بعض الحفظ، و لما لم تكن مبنيه على أساس مستحكم كانت فى معرض النقص و الإبطال تتغير سريعاً و تنقرض، و لكن المجتمعات المتمدنه تبنيه على أساس قويم بحسب درجاتهم فى المدنيه و الحضاره فيرفعون به التضاد و التمانع الواقع بين الإرادات و أعمال المجتمع بتعديلها بوضع حدود و قيود لها ثم ركز القدره و القوه فى مركز عليه ضمان إجراء ما ينطق به القانون.

و من هنا يظهر أولاً: أن القانون حقيقه هو ما تعدل به إرادات الناس و أعمالهم برفع التراحم و التمانع من بينهما بتحديددها.

و ثانياً: أن أفراد المجتمع الذى يحكم فيه القانون أحرار فيما وراءه كما هو مقتضى تجهز الإنسان بالشعور و الإراده بعد التعديل، و لذا كانت القوانين الحاضره لا- تتعرض لأمر المعارف الإلهيه و الأخلاق، و صار هذان المهمان يتصوران بصورة يصورهما بها القانون فيتصالحان و يتوافقان معه على ما هو حكم التبعية فيعودان عاجلاً أو آجلاً رسوماً ظاهريه فاقده للصفاء المعنوى، و لذلك السبب أيضاً ما نشاهده من لعب السياسه بالدين فيوماً تقضى عليه و تدحضه، و يوماً تميل إليه فتبالغ فى إعلاء كلمته، و يوماً تطوى عنه كشفاً فتخليه و شأنه.

و ثالثاً: أن هذه الطريقه لا تخلو عن نقص فإن القانون و إن حمل ضمان إجرائه على القدره التى ركزها فى فرد أو أفراد لكن لا ضمان على إجرائه بالآخره بمعنى أن منيع القدره و السلطان لو مال عن الحق و حول سلطه النوع على النوع إلى سلطه شخصه على النوع و انقلبت الدائره على القانون لم يكن هناك ما يقهر هذا القاهر فيحوله إلى مجراه العدل، و على هذا القول شواهد كثيره مما شاهدناه فى زماننا هذا و هو زمان الثقافه و المدنيه فضلاً عما لا يحصى من الشواهد التاريخيه، و أضف إلى هذا النقص نقصاً آخر و هو خفاء نقض القانون على القوه المجريه أحياناً أو خروجه عن حومه قدرته، (و لنرجع إلى أول الكلام).

و بالجملة الاجتماعات المدنيه توحدنا الغايه الواحده التى هى التمتع من مزايا الحياه.

الدنيا و هي السعاده عندهم، لكن الإسلام لما كان يرى أن الحياه الإنسانيه أوسع مدارا من الحياه الدنيا الماديه بل فى مدار حياته الحياه الأخرويه التى هى الحياه، و يرى أن هذه الحياه لا تنفع فيها إلا المعارف الإلهيه التى تنحل بجملتها إلى التوحيد، و يرى أن هذه المعارف لا تنحفظ إلا بمكارم الأخلاق و طهاره النفس من كل رذيله، و يرى أن هذه الأخلاق لا تتم و لا تكمل إلا بحياه اجتماعيه صالحه معتمده على عباد الله سبحانه و الخضوع لما تقتضيه ربوبيته و معامله الناس على أساس العدل الاجتماعى أخذ (أعنى الإسلام) الغايه التى يتكون عليها المجتمع البشرى و يتوحد بها دين التوحيد ثم وضع القانون الذى وضعه على أساس التوحيد، و لم يكتف فيه على تعديل الإيرادات و الأفعال فقط بل تممه بالعباديات و أضاف إليها المعارف الحقه و الأخلاق الفاضله.

ثم جعل ضمان إجرائها فى عهده الحكومه الإسلاميه أولا، ثم فى عهده المجتمع ثانيا، و ذلك بالتربيه الصالحه علما و عملا و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر.

و من أهم ما يشاهد فى هذا الدين ارتباط جميع أجزائه ارتباطا يودى إلى الوحده التامه بينها بمعنى أن روح التوحيد ساريه فى الأخلاق الكريمه التى يندب إليها هذا الدين، و روح الأخلاق منتشره فى الأعمال التى يكلف بها أفراد المجتمع، فالجميع من أجزاء الدين الإسلامى ترجع بالتحليل إلى التوحيد، و التوحيد بالتركيب يصير هو الأخلاق و الأعمال، فلو نزل لكان هى و لو صعدت لكانت هو، إليه يصعد الكلم الطيب و العمل الصالح يرفعه.

فإن قلت: ما أورد من النقص على القوانين المدنيه فيما إذا عصت القوه المجريه عن إجرائها أو فيما يخفى عليها من الخلاف مثلا وارد بعينه على الإسلام و أوضح الدليل عليه ما نشاهده من ضعف الدين و زوال سيطرته على المجتمع الإسلامى، و ليس إلا لفقدانه من يحمل نواميسه على الناس يوما!.

قلت: حقيقه القوانين العامه سواء كانت إلهيه أو بشريه ليست إلا صورا ذهنيه فى أذهان الناس و علوما تحفظها الصدور و إنما ترد مورد العمل و تقع موقع الحس بالإرادات الإنسانيه تتعلق بها، فمن الواضح أن لو عصت الإيرادات لم توجد فى الخارج ما تنطبق عليه القوانين، و إنما الشأن فيما يحفظ به تعلق هذه الإيرادات بالوقوع

حتى تقوم القوانين على ساقها و القوانين المدنيه لا تهتم بأزيد من تعليق الأفعال بالإرادات أعني إرادته الأكثرية ثم لم يهتموا بما تحفظ هذه الإرادة، فمهما كانت الإرادة حيه شاعره فاعله جرى بها القانون و إذا ماتت من جهه انحطاط يعرض لنفوس الناس و هرم يطرأ على بنيه المجتمع، أو كانت حيه لكنها فقدت صفه الشعور و الإدراك لانغمار المجتمع فى الملاهى و توسعه فى الإتراف و التمتع، أو كانت حيه شاعره لكنها فقدت التأثير لظهور قوه مستبده فائقه غالبه تقهر إرادتها الأكثرية. و كذا فى الحوادث التى لا- سبيل للقوه المجريه على الوقوف عليها كالجنايات السريه أو لا سبيل لها إلى بسط سيطرتها عليها كالحوادث الخارجه عن منطقته نفوذها فى جميع هذه الموارد لا- تنال الأمه أمنيته من جريان القانون و انحفاظ المجتمع عن التفساد و التلاشى، و عمدته الانشعابات الواقعه فى الأمم الأوربيه بعد الحرب العالميه الكبرى الأولى و الثانيه من أحسن الأمثله فى هذا الباب.

و ليس ذلك(أعني انتقاص القوانين و تفساد المجتمع و تلاشيه)إلا- لأن المجتمع لم يهتم بالسبب الحافظ لإرادات الأمه على قوتها و سيطرتها و هى الأخلاق العاليه إذ لا تستمد الإراده فى بقائها و استدامه حياتها إلا من الخلق المناسب لها كما بين ذلك فى علم النفس فلو لا- استقرار السنه القائمه فى المجتمع و اعتماد القانون الجارى فيه على أساس قويم من الأخلاق العاليه كانت كشجره اجثتت من فوق الأرض ما لها من قرار.

و اعتبر فى ذلك ظهور الشيوعيه فليست إلا- من مواليد الديمقراطيه أنتجها إتراف طبقه من طبقات المجتمع و حرمان آخرين فكان بعدا شاسعا بين نقطتى القساوه و فقد النصفه، و السخط و تراكم الغيظ و الحنق، و كذا فى الحرب العالميه التى وقعت مره بعد مره و هى تهدد الإنسانيه ثالثه و قد أفسدت الأرض و أهلكت الحرث و النسل و لا عامل لها إلا غريزه الاستكبار و الشره و الطمع، هذا.

و لكن الإسلام بنى سنته الجاريه و قوانينه الموضوعه على أساس الأخلاق و بالغ فى تربيته الناس عليها لكون القوانين الجاريه فى الأعمال فى ضمانها و على عهدتها فهى مع الإنسان فى سره و علانيته و خلوته و جلوته تؤدى وظيفتها و تعمل عملها أحسن مما يؤديه شرطى مراقب أو أى قوه تبذل عنايتها فى حفظ النظم.

نعم تعتنى المعارف العموميه فى هذه الممالك بتربيته الناس على الأخلاق المحموده

و تبذل جهودها فى حض الناس و ترغيبهم إليها لكن لا ينفعم ذلك شيئاً.

أما أولاً- فلأن المنشأ الوحيد لردائل الأخلاق ليس إلا الإسراف و الإفراط فى التمتع المادى و الحرمان البالغ فيه، و قد أعطت القوانين للناس الحريه التامه فيه فأمتعت بعضا و حرمت آخرين فهل الدعوه إلى فضائل الأخلاق و الترغيب عليها إلا دعوه إلى المتناقضين أو طلبا للجمع بين الضدين؟.

على أن هؤلاء كما عرفت يفكرون تفكرا اجتماعيا، و لا- تزال مجتمعاتهم تبالغ فى اضطهاد المجتمعات الضعيفه و دحض حقوقهم، و التمتع بما فى أيديهم، و استرقاق نفوسهم، و التوسع فى التحكم عليهم ما قدروا، و الدعوه إلى الصلاح و التقوى مع هذه الخصيصة ليست إلا دعوه متناقضه لا تزال عقيمه.

و أما ثانيا: فلأن الأخلاق الفاضله أيضا تحتاج فى ثباتها و استقرارها إلى ضامن يضمن حفظها و كلاءتها و ليس إلا التوحيد أعنى القول بأن للعالم إلها واحدا ذا أسماء حسنى خلق الخلق لغايه تكميلهم و سعادتهم و هو يحب الخير و الصلاح، و يبغض الشر و الفساد و سيجمع الجميع لفصل القضاء و توفيه الجزاء فيجازى المحسن بإحسانه و المسىء بإساءته، و من الواضح أن لو لا الاعتقاد بالمعاد لم يكن هناك سبب أصيل رادع عن اتباع الهوى و الكف عن حظوظ النفس الطبيعیه فإنما الطبيعه الإنسانيه تريد و تشتهى مشتهايات نفسها لا ما ينتفع به غيرها كطبيعته الفرد الآخر إلا إذا رجع بنحو إلى مشتهاى نفسها (أحسن التأمل فيه).

ففيما كان للإنسان مثلا تمتع فى إماته حق من حقوق الغير و لا رادع يردعه و لا مجازى يجازيه و لا لائم معاتب يلومه و يعاتبه فأى مانع يمنعه من اقتراف الخطيئه و ارتكاب المظلمه و إن عظمت ما عظمت؟ و أما ما يتوهم -و كثيرا ما يخطئ فيه الباحث- من الروادع المختلفه كالتعلق بالوطن و حب النوع و الثناء الجميل و نحو ذلك فإنما هى عواطف قلبيه و نزوعات باطنيه لا سبب حافظا عليها إلا- التعليم و التربيه من غير استنادها إلى السبب الموجب فهى إذن أوصاف اتفاقيه و أمور عاديه لا مانع معها يمنع من زوالها فلما ذا يجب على الإنسان أن يفدى بنفسه غيره ليتمتع بالعيش بعده و هو يرى أن الموت فناء و بطلان؟ و الثناء الجميل إنما هو فى لسان آخرين و لا لذه يلتذ به الفادى بعد بطلان ذاته.

و بالجمله لا يرتاب المتفكر البصير في أن الإنسان لا يقدم على حرمان لا يرجع إليه فيه جزاء و لا يعود إليه منه نفع، و الذي يعده و يمينه في هذه الموارد ببقاء الذكر الحسن و الثناء الجميل الخالد و الفخر الباقي ببقاء الدهر فإنما هو غرور يغتر به و خدعه ينخدع بها بهيجان إحساساته و عواطفه فيخيل إليه أنه بعد موته و بطلان ذاته حاله كحاله قبل موته فيشعر بذكره الجميل فيلتذ به و ليس ذلك إلا من غلط الوهم كالسكران يتسخر بهيجان إحساساته فيعفو و يبذل من نفسه و عرضه و ماله أو كل كرامه له ما لا يقدم عليه لو صحا و عقل، و هو سكران لا يعقل و يعد ذلك فتوه و هو سفه و جنون.

فهذه العثرات و أمثالها مما لا حصن للإنسان يتحصن فيه منها غير التوحيد الذي ذكرناه و لذلك وضع الإسلام الأخلاق الكريمة التي جعلها جزءا من طريقته الجارية على أساس التوحيد الذي من شئونه القول بالمعاد، و لازمه أن يلتزم الإنسان بالإحسان و يجتنب الإساءة أينما كان و متى ما كان سواء علم به أو لم يعلم، و سواء حمده حامداً أو لم يحمده، و سواء كان معه من يحمله عليه أو يردعه عنه أو لم يكن فإن معه الله العليم الحفيظ القائم على كل نفس بما كسبت و وراءه يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا و ما عملت من سوء، و فيه تجزى كل نفس بما كسبت.

## ٧- منطقتان منطق التعقل و منطق الإحساس:

أما منطق الإحساس فهو يدعو إلى النفع الدنيوي و يبعث إليه فإذا قارن الفعل نفع و أحس به الإنسان فالإحساس متوقد شديد التوقان في بعثه و تحريكه، و إذا لم يحس الإنسان بالنفع فهو خامد هامد، و أما منطق التعقل فإنما يبعث إلى اتباع الحق و يرى أنه أحسن ما ينتفع به الإنسان أحس مع الفعل بنفع مادي أو لم يحس فإن ما عند الله خير و أبقى، و قس في ذلك بين قول عنتره و هو على منطق الإحساس:

و قولى كلما جشأت و جاشت

مكانك تحمدى أو تستريحي

يريد أنى استثبت نفسى كلما تزلزلت فى الهزاهز و المواقف المهوله من القتال بقولى لها: اثبتى فإن قتلت يحمذك الناس على الثبات و عدم الانهزام، إن قتلت العدو استرحت و نلت بغيتك فالثبات خير على أى حال، و بين قوله تعالى - و هو على منطق التعقل - : قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَ عَلَى اللَّهِ فُلَيْتَوَكُلِّ الْمُؤْمِنُونَ

قُلْ هَيْلٌ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسِيِّينَ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِذَا مَعَكُمْ مُتَرَبَّصُونَ: «التوبة: ٥٢»، يريد أن أمر ولايتنا وانتصارنا إلى الله سبحانه لا نريد في شيء مما يصيبنا من خير أو شر إلا ما وعدنا من الثواب على الإسلام له والالتزام لدينه كما قال تعالى: لَا يُصِيبُ يَهُودًا وَلَا نَصَبًا وَلَا مَخْمَصَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطُؤُنَّ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَهُ صَخِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ: «التوبة: ١٢١».

و إذا كان كذلك فإن قتلتمونا أو أصابنا منكم شيء كان لنا عظيم الأجر و العاقبه الحسنی عند ربنا و إن قتلناكم أو أصابنا منكم شيئاً كان لنا عظيم الثواب و العاقبه الحسنی و التمكن في الدنيا من عدونا، فنحن على أى حال سعداء مغبوطون و لا تتحفون لنا في قتلنا و لا تتربصون بنا في أمرنا إلا إحدى الحسنين فنحن على الحسنی و السعاده على أى حال و أنتم على السعاده و نيل البغيه بعقيدتكم على أحد التقديرين، و في إحدى الحالين و هو كون الدائره لكم علينا فنحن نتربص بكم ما يسوؤكم و أنتم لا تتربصون بنا إلا ما يسرنا و يسعدنا.

فهذان منطقتان أحدهما يعنى الثبات و عدم الزوال على مبنى إحساسى و هو أن للثابت أحد نفعين: إما حمد الناس و أما الراحه من العدو، هذا إذا كان هناك نفع عائد إلى الإنسان المقاتل الذى يلقى بنفسه إلى التهلكه، أما إذا لم يكن هناك نفع عائد كما لو لم يحمده الناس لعدم تقديرهم قدر الجهاد و تساوى عندهم الخدمه و الخيانه، أو كانت الخدمه مما ليس من شأنه أن يظهر لهم البتة أو لا هى و لا الخيانه، أو لم يسترح الإحساس بفناء العدو بل إنما يستريح به الحق فليس لهذا المنطق إلا العى و اللكنه.

و هذه الموارد المعدوده هى الأسباب العامه فى كل بغى و خيانه و جنايه يقول الخائن المساهل فى أمر القانون: أن خدمته لا تقدر عند الناس بما يعدلها و إن الخادم و الخائن عندهم سواء بل الخائن أحسن حالا و أنعم عيشاً، و يرى كل باغ و جان أنه سيتخلص من قهر القانون و أن القوى المراقبه لا يقدرتون على الحصول عليه فيخفى أمره و يلتبس

على الناس شخصه، و يعتذر كل من يتشبث و يتناقل فى إقامه الحق و الثوره على أعدائه و يداهنهم بأن القيام على الحق يذلله بين الناس، و يضحك منه الدنيا الحاضره، و يعدونه من بقايا القرون الوسطى أو أعصار الأساطير فإن ذكرته بشرافه النفس و طهاره الباطن رد عليك قائلاً: ما أصنع بشرافه النفس إذا جرت إلى نكد العيش و ذله الحياه هذا.

و أما المنطق الآخر و هو منطق الإسلام فهو يبنى أساسه على اتباع الحق و ابتغاء الأجر و الجزاء من الله سبحانه و إنما يتعلق الغرض بالغايات و المقاصد الدينويه فى المرتبه التاليه و بالقصد الثانى، و من المعلوم أنه لا يشذ عن شموله مورد من الموارد، و لا يسقط كليته من العموم و الاطراد، فالعمل -أعم من الفعل و الترك- إنما يقع لوجهه تعالى و إسلاماً له و اتباعاً للحق الذى أراده و هو الحفيظ العليم الذى لا تأخذه سنه و لا نوم، و لا عاصم منه و لا يخفى عليه شىء فى الأرض و لا فى السماء و الله بما تعملون خبير.

فعلى كل نفس فيما وردت مورد عمل أو صدرت، رقيب شهيد قائم بما كسبت، سواء شهدته الناس أو لا، حمدوه أو لا، قدروا فيه على شىء أو لا.

و قد بلغ من حسن تأثير التربيه الإسلاميه أن الناس كانوا يأتون رسول الله ص فيعترفون عنده بجرائمهم و جنائياتهم بالتوبه و يذوقون مر الحدود التى تقام عليهم (القتل فما دونه) ابتغاء رضوان الله و تطهيراً لأنفسهم من قذاره الذنوب و درن السيئات، و بالتأمل فى هذه النوادر الواقعه يمكن للباحث أن ينتقل إلى عجيب تأثير البيان الدينى فى نفوس الناس و تعويده لهم السماح فى ألد الأشياء و أعزها عندهم و هى الحياه و ما فى تلوها و لو لا أن البحث قرآنى لأوردنا طرفاً من الأمثله التاريخيه فيه.

## ٨- ما معنى ابتغاء الأجر عند الله و الإعراض عن غيره

ربما يتوهم المتوهم أن جعل الأجر الأخرى و هو الغرض العام فى حياه الإنسان الاجتماعيه يوجب سقوط الأغراض الحيويه التى تدعو إليه البنيه الطبيعيه الإنسانيه و فيه فساد نظام الاجتماع، و الانحطاط إلى منحط الرهبانيه، و كيف يمكن الانقطاع إلى مقصد من المقاصد مع التحفظ على المقاصد المهمه الأخرى؟ و هل هذا إلا تناقض؟.

لكنه توهم ناش من الجهل بالحكمه الإلهيه و الأسرار التى تكشف عنها المعارف القرآنيه فإن الإسلام يبنى تشريعه على أصل التكوين كما مر ذكره مراراً فى المباحث



السابقه من هذا الكتاب، قال تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ: الروم: ٣٠.

و حاصله: أن سلسله الأسباب الواقعيه التكوينيّه تعاضدت على إيجاد النوع الإنساني في ذيلها و توفرت على سوقه نحو الغايه الحيويه التي هيئت له فيجب له أن يبنى حياته في ظرف الكدح و الاختيار على موافقه الأسباب فيما تريد منه و تسوقه إليه حتى لا تناقضها حياته فيؤديه ذلك إلى الهلاك و الشقاء و هذا(لو تفهمه المتوهم) هو الدين الإسلامي بعينه و لما كان هناك فوق الأسباب سبب و حيد هو الموجد لها المدبر لأمرها فيما دق و جل و هو الله سبحانه الذي هو السبب التام فوق كل سبب بتمام معنى الكلمه كان الواجب على الإنسان الإسلام له و الخضوع لأمره و هذا معنى كون التوحيد هو الأساس الوحيد للدين الإسلامي.

و من هنا يظهر أن حفظ كلمه التوحيد و الإسلام لله و ابتغاء وجهه في الحياه جرى على موافقه الأسباب طرا و إعطاء كل ذي حق منها حقه من غير شرك و لا غفله فعند المرء المسلم غايات و أغراض دنيويه و أخرى أخرويّه و له مقاصد ماديّه و أخرى معنويّه لكنه لا يعتنى في أمرها بأزيد مما ينبغى من الاعتناء و الاهتمام و لذلك بعينه نرى أن الإسلام يندب إلى توحيد الله سبحانه و الانقطاع إليه و الإخلاص له و الإعراض عن كل سبب دونه و مبتغى غيره و مع ذلك يأمر الناس باتباع نواميس الحياه و الجرى على المجارى الطبيعيه.

و من هنا يظهر أن أفراد المجتمع الإسلامي هم السعداء بحقيقه السعاده في الدنيا و في الآخره و أن غايتهم و هو ابتغاء وجه الله في الأعمال لا تراحم سائر الغايات الحيويه إذا ظهرت و استوثرت.

و من هنا يظهر أيضا فساد توهم آخر و هو الذي ذكره جمع من علماء الاجتماع من الباحثين أن حقيقه الدين و الغرض الأصلي منه هو إقامة العدله الاجتماعيه و العباديات فروع متفرعه عليها فالذي يقيمها فهو على الدين و لو لم يتلبس بعقيده و لا عبوديه.

و الباحث المتدبر في الكتاب و السنه و خاصه في السيره النبويه لا يحتاج في الوقوف على بطلان هذا التوهم إلى مؤونه زائده و تكلف استدلال على أن هذا الكلام الذي

يتضمن إسقاط التوحيد و كرائم الأخلاق من مجموعته النواميس الدينيه فيه إرجاع للغايه الدينيه التي هي كلمه التوحيد إلى الغايه المدنيه التي هي التمتع، وقد عرفت أنهما غايتان مختلفتان لا ترجع إحداهما إلى الأخرى لا فى أصلها و لا فى فروعها و ثمراتها.

## ٩- ما معنى الحره فى الإسلام

؟ كلمه الحره على ما يراد بها من المعنى لا- يتجاوز عمرها فى دورانها على الألسن عده قرون و لعل السبب المبتدع لها هي النهضه المدنيه الأوربيه قبل بضعه قرون لكن معناها كان جائيا فى الأذهان و أمنيته من أمانى القلوب منذ أعصار قديمه.

و الأصل الطبيعى التكويني الذى ينتشى منه هذا المعنى هو ما تجهز به الإنسان فى وجوده من الإراده الباعثه إياه على العمل فإنها حاله نفسيه فى إبطالها إبطال الحس و الشعور المنجر إلى إبطال الإنسانيه.

غير أن الإنسان لما كان موجودا اجتماعيا تسوقه طبيعته إلى الحياه فى المجتمع و إلقاء دلوه فى الدلاء بإدخال إرادته فى الإيرادات و فعله فى الأفعال المنجر إلى الخضوع لقانون يعدل الإيرادات و الأعمال بوضع حدود لها فالطبيعه التي أعطته إطلاق الإيراده و العمل هي بعينها تحدد الإيراده و العمل و تقيد ذلك الإطلاق الابتدائي و الحره الأوليه.

و القوانين المدنيه الحاضره لما وضعت بناء أحكامها على أساس التمتع المادى كما عرفت أنتج ذلك حره الأمه فى أمر المعارف الأصلية الدينيه من حيث الامتزام بها و بلوازمها، و فى أمر الأخلاق و فى ما وراء القوانين من كل ما يريده و يختاره الإنسان من الإيرادات و الأعمال فهذا هو المراد بالحره عندهم.

و أما الإسلام فقد وضع قانونه على أساس التوحيد كما عرفت ثم فى المرتبه التاليه على أساس الأخلاق الفاضله ثم تعرضت لكل يسير و خطير من الأعمال الفرديه و الاجتماعيه كائنه ما كانت فلا- شىء مما يتعلق بالإنسان أو يتعلق به الإنسان إلا و للشرع الإسلامى فيه قدم أو أثر قدم فلا مجال و لا مظهر للحره بالمعنى المتقدم فيه.

نعم للإنسان فيه الحره عن قيد عبوديه غير الله سبحانه و هذا و إن كان لا يزيد على كلمه واحده غير أنه وسيع المعنى عند من بحث بحث تعمق فى السنه الإسلاميه

و السيره العمليه التي تندب إليها و تقرها بين أفراد المجتمع و طبقاته ثم قاس ذلك إلى ما يشاهد من سنن السؤدد و السيادة و التحكمات في المجتمعات المتمدنه بين طبقاتها و أفرادها أنفسها و بين كل أمه قويه و ضعيفه.

و أما من حيث الأحكام فالتوسعه فيما أباحه الله من طيبات الرزق و مزايا الحياه المعتدله من غير إفراط أو تفريط قال تعالى: قُلْ مِزْنِ حَرَمَ زِينَةِ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ X الآية X: «الأعراف: ٣٢»، و قال تعالى: خَلَقَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً: «البقره:

٢٩»، و قال تعالى: وَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ: «الجاثيه: ١٣».

و من عجيب الأمر ما رامه بعض الباحثين و المفسرين و تكلف فيه من إثبات حريه العقيده في الإسلام بقوله تعالى: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ: «البقره: ٢٥٦»، و ما يشابهه من الآيات الكريمه.

و قد مر البحث التفسيري عن معنى الآية في سوره البقره و الذى نضيف إليها هاهنا أنك عرفت أن التوحيد أساس جميع النواميس الإسلاميه و مع ذلك كيف يمكن أن يشرع حريه العقائد؟ و هل ذلك إلا التناقض الصريح؟ فليس القول بحريه العقيده إلا كقول بالحريه عن حكومه القانون في القوانين المدنيه بعينه.

و بعبارة أخرى العقيده بمعنى حصول إدراك تصديقي ينعقد في ذهن الإنسان ليس عملاً اختيارياً للإنسان حتى يتعلق به منع أو تجويز أو استبعاد أو تحرير، و إنما الذى يقبل الحظر و الإباحه هو الالتزام بما تستوجه العقيده من الأعمال كالدعوه إلى العقيده و إقناع الناس بها و كتابتها و نشرها و إفساد ما عند الناس من العقيده و العمل المخالفين لها، فهذه هى التى تقبل المنع و الجواز، و من المعلوم أنها إذا خالفت مواد قانون دائر في المجتمع أو الأصل الذى يتكى عليه القانون لم يكن مناص من منعها من قبل القانون و لم يتك الإسلام في تشريعه على غير دين التوحيد (التوحيد و النبوه و المعاد) و هو الذى يجتمع عليه المسلمون و اليهود و النصرارى و المجوس (أهل الكتاب) فليست الحريه إلا- فيها و ليست فيما عداها إلا هدماً لأصل الدين، نعم هاهنا حريه أخرى و هى الحريه من حيث إظهار العقيده في مجرى البحث و سنبحث عنها في الفصل ١٤ الآتى.

## ١٠- ما هو الطريق إلى التحول و التكامل في المجتمع الإسلامى

؟ربما أمكن

ص: ١١٧

أن يقال: هب أن السنه الإسلاميه سنه جامعه للوازم الحياه السعيده، و المجتمع الإسلامى مجتمع سعيد مغبوط لكن هذه السنه لجامعيته و انتفاء حريه العقيدته فيها تستوجب ركود المجتمع و وقوفه عن التحول و التكامل و هو من عيوب المجتمع الكامل كما قيل فإن السير التكاملى يحتاج إلى تحقق القوى المتضاده فى الشىء و تفاعلها حتى تولد بالكسر و الانكسار مولودا جديدا خاليا من نواقص العوامل المولده التى زالت بالتفاعل فإذا فرض أن الإسلام يرفع الأضداد و النواقص و خاصه العقائد المتضاده من أصلها فلازمه أن يتوقف المجتمع الذى يكونه عن السير التكاملى.

أقول: و هو من إشكالات الماديه التحوليه (ماترياليسم دياكتيك) و فيه خلط عجيب فإن العقائد و المعارف الإنسانيه على نوعين نوع يقبل التحول و التكامل و هو العلوم الصناعيه التى تستخدم فى طريق ترفيع قواعد الحياه الماديه و تذليل طبيعته العاصيه للإنسان كالعلوم الرياضيه و الطبيعيه و غيرهما، و هذه العلوم و الصناعات و ما فى عدادها كلما تحولت من النقص إلى الكمال أو جب ذلك تحول الحياه الاجتماعيه لذلك.

و نوع آخر لا يقبل التحول و إن كان يقبل التكامل بمعنى آخر و هو العلوم و المعارف العامه الإلهيه التى تقضى فى المبدأ و المعاد و السعاده و الشقاء و غير ذلك قضاء قاطعا واقفا غير متغير و لا متحول و إن قبلت الارتقاء و الكمال من حيث الدقه و التعمق و هذه العلوم و المعارف لا تؤثر فى الاجتماعات و سنن الحياه إلا بنحو كلى فوقوف هذه المعارف و الآراء و ثبوتها على حال واحد لا يوجب وقوف الاجتماعات عن سيرها الارتقائى كما نشاهد أن عندنا آراء كثيره كليه ثابتة على حال واحد من غير أن يقف اجتماعنا لذلك عن سيره كقولنا: إن الإنسان يجب أن ينبعث إلى العمل لحفظ حياته، و إن العمل يجب أن يكون لنفع عائد إلى الإنسان، و إن الإنسان يجب أن يعيش فى حال الاجتماع، و قولنا: إن العالم موجود حقيقه لا وهما و إن الإنسان جزء من العالم، و إن الإنسان جزء من العالم الأرضى و إن الإنسان ذو أعضاء و أدوات و قوى إلى غير ذلك من الآراء و المعلومات الثابته التى لا يوجب ثبوتها و وقوفها وقوف الاجتماعات و ركودها و من هذا القبيل القول بأن للعالم إليها واحدا شرع للناس شرعا جامعا لطرق السعاده من طريق النبوه و سيجمع الجميع إلى يوم يوفيههم فيه جزاء أعمالهم، و هذه هى الكلمه الوحيدته التى بنى عليها الإسلام مجتمعه و تحفظ عليها كل التحفظ و من المعلوم أنه مما لا يوجب

باصطكاك ثبوته و نفيه و إنتاج رأى آخر فيه إلا- انحطاط المجتمع كما بين مرارا و هذا شأن جميع الحقائق الحقه المتعلقة بما وراء الطبيعه فإنكارها بأى وجه لا يفيد للمجتمع إلا انحطاطا و خسه.

و الحاصل أن المجتمع البشرى لا- يحتاج فى سيره الارتقائى إلا إلى التحول و التكامل يوما فيوما فى طرق الاستفاده من مزايا الطبيعه، و هذا إنما يتحقق بالبحث الصناعى المداوم و تطبيق العمل على العلم دائما و الإسلام لا يمنع من ذلك شيئا.

و أما تغير طريق إداره المجتمعات و سنن الاجتماع الجارىه كالاستبداد الملوكى و الديمقراطيه و الكمونيزم و نحوها فليس بلازم إلا- من جهه نقصها و قصورها عن إيفاء الكمال الإنسانى الاجتماعى المطلوب لا من جهه سيرها من النقص إلى الكمال فالفرق بينها لو كان فإنما هو فرق الغلط و الصواب لا- فرق الناقص و الكمال فإذا استقر أمر السنه الاجتماعيه على ما يقصده الإنسان بفطرته و هو العداله الاجتماعيه و استظل الناس تحت التريه الجيده بالعلم النافع و العمل الصالح ثم أخذوا يسيرون مرتاحين ناشطين نحو سعادتهم بالارتقاء فى مدارج العلم و العمل و لا يزالون يتكاملون و يزيدون تمكنا و اتساعا فى السعاده فما حاجتهم إلى تحول السنه الاجتماعيه زائدا على ذلك؟ و مجرد وجوب التحول على الإنسان من كل جهه حتى فيما لا- يحتاج فيه إلى التحول مما لا ينبغى أن يقضى به ذو نظر و بصيره.

فإن قلت: لا- مناص من عروض التحول فى جميع ما ذكرت أنه مستغن عنه كالاتقادات و الأخلاق الكليه و نحوها فإنها جميعا تتغير بتغير الأوضاع الاجتماعيه و المحيطات المختلفه و مرور الأزمنه فلا يجوز أن ينكر أن الإنسان الجديد تغاير أفكاره أفكار الإنسان القديم، و كذا الإنسان يختلف نحو تفكره بحسب اختلاف مناطق حياته كالأراضى الإستوائيه و القطبيه و النقاط المعتدله، و كذا بتفاوت أوضاع حياته من خادم و مخدوم و بدوى و حضرى و مثر و معدم و فقير و غنى و نحو ذلك، فالأفكار و الآراء تختلف باختلاف العوامل و تتحول بتحول الأعصار بلا شك كائنه ما كانت.

قلت: الإشكال مبنى على نظريه نسبيه العلوم و الآراء الإنسانيه و لازمها كون الحق و الباطل و الخير و الشر أمورا نسبيه إضافيه فالمعارف الكليه النظرية المتعلقة بالمبدإ و المعاد و كذا الآراء الكليه العمليه كالحكم بكون الاجتماع خيرا للإنسان و كون

العدل خيرا (حكما كليا لا من حيث انطباقه على المورد) تكون أحكاما نسبية متغيره بتغير الأزمنه و الأوضاع و الأحوال، و قد بينا فى محله فساد هذه النظرية من حيث كليتها.

و حاصل ما ذكرناه هناك أن النظرية غير شامله للقضايا الكلية النظرية و قسم من الآراء الكلية العمليه.

و كفى فى بطلان كليتها أنها لو صحت (أى كانت كليه مطلقه ثابتة) أثبتت قضيه مطلقه غير نسبيه و هى نفسها، و لو لم تكن كليه مطلقه بل قضيه جزئيه أثبتت بالاستلزام قضيه كليه مطلقه فكليتها باطله على أى حال، و بعبارة أخرى لو صح أن «كل رأى و اعتقاد يجب أن يتغير يوما» و يجب أن يتغير نفس هذا الرأى يوما أى لا يتغير بعض الاعتقادات أبدا فافهم ذلك.

### ١١- هل الإسلام بشريته يفى بإسعاد هذه الحياه الحاضره

؟ربما يقال: هب أن الإسلام لتعرضه لجميع شئون الإنسانيه الموجوده فى عصر نزول القرآن كان يكفى فى إيصاله مجتمع ذاك العصر إلى سعادتهم الحقيقيه و جميع أمانهم فى الحياه لكن مرور الزمان غير طرق الحياه الإنسانيه فالحياه الثقافيه و العيشه الصناعيه فى حضاره اليوم لا تشبه الحياه الساذجه قبل أربعه عشر قرنا المقتصره على الوسائل الطبيعيه الابتدائيه فقد بلغ الإنسان إثر مجاهداته الطويله الشاقه مبلغا من الارتقاء و التكامل المدنى لو قيس إلى ما كان عليه قبل عده قرون كان كالمقاييس بين نوعين متباينين فكيف تفى القوانين الموضوعه لتنظيم الحياه فى ذلك العصر للحياه المتشكله العبقريه اليوم؟ و كيف يمكن أن تحمل كل من الحياتين أثقال الأخرى.

و الجواب: أن الاختلاف بين العصرين من حيث صورته الحياه لا يرجع إلى كليات شئونها، و إنما هو من حيث المصاديق و الموارد و بعبارة أخرى يحتاج الإنسان فى حياته إلى غذاء يتغذى به، و لباس يلبسه، و دار يقطن فيه و يسكنه، و وسائل تحمله و تحمل أثقاله و تنقلها من مكان إلى مكان، و مجتمع يعيش بين أفراده، و روابط تناسليه و تجاريه و صناعيه و عمليه و غير ذلك، و هذه حاجه كليه غير متغيره ما دام الإنسان إنسانا ذا هذه الفطره و البنيه و ما دام حياته هذه الحياه الإنسانيه، و الإنسان الأولى و إنسان هذا اليوم فى ذلك على حد سواء.

و إنما الاختلاف بينهما من حيث مصاديق الوسائل التى يرفع الإنسان بها حوائجه الماديه و من حيث مصاديق الحوائج حسب ما يتنبه لها و بوسائل رفعها.

فقد كان الإنسان الأولى مثلاً يتغذى بما يجده من الفواكه و النباتات و لحم الصيد على وجه بسيط ساذج، و هو اليوم يهيئ منها ببراغته و ابتداعه ألوان الطعام و الشراب ذات خواص تستفيد منها طبيعته، و ألوان يستلذ منها بصره، و طعوم يستطيبها ذوقه، و كفيات يتنعم بها لمسها، و أوضاع و أحوال أخرى يصعب إحصاؤها و هذا الاختلاف الفاحش لا يفرق الثاني من الأول من حيث إن الجميع غذاء يتغذى به الإنسان لسد جوعه و إطفاء نائره شهوته.

و كما أن هذه الاعتقادات الكليه التي كانت عند الإنسان أولاً لم تبطل بعد تحوله من عصر إلى عصر بل انطبق الأول على الآخر انطباقاً، كذلك القوانين الكليه الموضوعه فى الإسلام طبق دعوه الفطره و استدعاء السعاده لا تبطل بظهور وسيله مكان وسيله ما دام الوفاق مع أصل الفطره محفوظاً من غير تغيير و انحراف و أما مع المخالفه فالسنه الإسلاميه لا توافقه سواء فى ذلك العصر القديم و العصر الحديث.

و أما الأحكام الجزئيه المتعلقة بالحوادث الجاربه التي تحدث زماناً و زماناً و تتغير سريعاً بالطبع كالأحكام المالىه و الانتظاميه المتعلقة بالدفاع و طرق تسهيل الارتباطات و المواصلات و الانتظامات البلديه و نحوها فهى مفوضه إلى اختيار الوالى و متصدى أمر الحكومه فإن الوالى نسبته إلى ساحه ولايته كنسبه الرجل إلى بيته فله أن يعزم و يجرى فيها ما لرب البيت أن يتصرف به فى بيته و فيما أمره إليه، فلولى الأمر أن يعزم على أمور من شئون المجتمع فى داخله أو خارجه مما يتعلق بالحرب أو السلم مالىه أو غير مالىه يراعى فيها صلاح حال المجتمع بعد المشاوره مع المسلمين كما قال تعالى: **وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**: «آل عمران: ١٥٩»، كل ذلك فى الأمور العامه.

و هذه أحكام و عزمات جزئيه تتغير بتغير المصالح و الأسباب التي لا تزال يحدث منها شىء و يزول منها شىء غير الأحكام الإلهيه التي يشتمل عليها الكتاب و السنه و لا سبيل للنسخ إليها و لبيان التفصيلى محل آخر.

## ١٢ من الذى يتقلد ولايه المجتمع فى الإسلام و ما سيرته

؟ كان ولايه أمر المجتمع الإسلامى إلى رسول الله ص، و افتراض طاعته (ص) على الناس و اتباعه صريح القرآن الكريم.

قال تعالى: وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ: «التغابن: ١٢»، و قال تعالى:

لِتَحْكُمَ بَيْنَ الَّذِينَ يَأْتِيكَ اللَّهُ: «النساء: ١٠٥»، و قال تعالى: أَلَيْسَ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ: «الأحزاب: ٤»، و قال تعالى: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ: «آل عمران: ٣١»، إلى غير ذلك من الآيات الكثيره التي يتضمن كل منها بعض شئون ولايته العامه في المجتمع الإسلامى أو جميعها.

و الوجه الوافى لغرض الباحث فى هذا الباب أن يطالع سيرته (ص) و يمتلى منه نظرا ثم يعود إلى مجموع ما نزلت من الآيات فى الأخلاق و القوانين المشرعه فى الأحكام العباديه و المعاملات و السياسات و سائر المرابطات و المعاشرات، فإن هذا الدليل المتخذ بنحو الانتزاع من ذوق التنزيل الإلهى له من اللسان الكافى و البيان الوافى ما لا يوجد فى الجملة و الجملتين من الكلام البتة.

و هاهنا نكتة أخرى يجب على الباحث الاعتناء بأمرها، و هو أن عامه الآيات المتضمنه لإقامه العبادات و القيام بأمر الجهاد و إجراء الحدود و القصاص و غير ذلك توجه خطاباتها إلى عامه المؤمنين دون النبى ص خاصة، كقوله تعالى: وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ: «النساء: ٧٧»، و قوله: وَ أَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ: «البقره: ١٩٥»، و قوله: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ: «البقره: ١٨٣»، و قوله: وَ لَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يُأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ: «آل عمران: ١٠٤»، و قوله: وَ جَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ: «المائدة: ٣٥»، و قوله: وَ جَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ: «الحج: ٧٨»، و قوله: أَلَزَانِيَهُ وَ الزَّانِيَةَ فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: «النور: ٢»، و قوله: وَ السَّارِقُ وَ السَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا: «المائدة: ٣٨»، و قوله: وَ لَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ: «البقره: ١٧٩»، و قوله:

وَ أَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ: «الطلاق: ٢»، و قوله: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لَا تَفَرَّقُوا: «آل عمران: ١٠٣»، و قوله: أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ: «الشورى: ١٣»، و قوله:

وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ: «آل عمران: ١٤٤» إلى غير ذلك من الآيات الكثيره.

و يستفاد من الجميع أن الدين صبغه اجتماعيه حمله الله على الناس و لا- يرضى لعباده الكفر، و لم يرد إقامته إلا- منهم بأجمعهم، فالمجتمع المتكون منهم أمره إليهم من غير



مزيه فى ذلك لبعضهم ولا- اختصاص منهم ببعضهم، و النبى و من دونه فى ذلك سواء، قال تعالى: أَنَّى لَأُضَيِّعَ عَمَلَ الْعَامِلِ مِنْكُمْ مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أُنْشِيَ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ «آل عمران: ١٩٥»، فإطلاق الآيه يدل على أن التأثير الطبيعى الذى لأجزاء المجتمع الإسلامى فى مجتمعهم مراعى عند الله سبحانه تشريعا كما راعاه تكوينا و أنه تعالى لا يضيعه، و قال تعالى: إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ «الأعراف: ١٢٨».

نعم لرسول الله ص الدعوه و الهدايه و التربيه، قال تعالى: يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ «الجمعه: ٢»، فهو (ص) المتعين من عند الله للقيام على شأن الأمة و ولايه أمورهم فى الدنيا و الآخره و للإمامه لهم ما دام حيا.

لكن الذى يجب أن لا- يغفل عنه الباحث أن هذه الطريقه غير طريقه السلطه الملوكيه التى تجعل مال الله فيئا لصاحب العرش و عباد الله أرقاء له يفعل بهم ما يشاء و يحكم فيهم ما يريد و ليست هى من الطرق الاجتماعيه التى وضعت على أساس التمتع المادى من الديمقراطيه و غيرها فإن بينها و بين الإسلام فروقا بينه مانعه من التشابه و التماثل.

و من أعظمها أن هذه المجتمعات لما بنيت على أساس التمتع المادى نفخت فى قلبها روح الاستخدام و الاستثمار و هو الاستكبار الإنسانى الذى يجعل كل شىء تحت إرادته الإنسان و عمله حتى الإنسان بالنسبه إلى الإنسان، و يبيح له طريق الوصول إليه و التسلط على ما يهواه و يأمله منه لنفسه، و هذا بعينه هو الاستبداد الملوكى فى الأعصار السالفه و قد ظهرت فى زى الاجتماع المدنى على ما هو نصب أعيننا اليوم من مظالم الملل القويه و إجحافاتهم و تحكوماتهم بالنسبه إلى الأمم الضعيفه و على ما هو فى ذكرنا من أعمالهم المضبوطه فى التواريخ.

فقد كان الواحد من الفراعنه و القياصره و الأكاسره يجرى فى ضعفاء عهده بتحكمه و لعبه كل ما يريده و يهواه. و يعتذر- لو اعتذر- إن ذلك من شئون السلطنه و لصالح المملكه و تحكيم أساس الدوله، و يعتقد أن ذلك حق نبوغه و سيادته، و يستدل عليه بسيفه، كذلك إذا تعمقت فى المرابطات السياسيه الدائره بين أقوياء

الأمم و ضعفائهم اليوم وجدت أن التاريخ و حوادثه كرت علينا و لن تزال تكرر غير أنها أبدلت الشكل السابق الفردى بالشكل الحاضر الاجتماعى و الروح هى الروح و الهوى هو الهوى و أما الإسلام فطريقته بريئه من هذه الأهواء و دليله السيره النبويه فى فتوحاته و عهوده.

و منها أن أقسام الاجتماعات على ما هو مشهود و مضبوط فى تاريخ هذا النوع لا تخلو عن وجود تفاضل بين أفرادها مؤد إلى الفساد فإن اختلاف الطبقات بالثروه أو الجاه و المقام المؤدى بالآخره إلى بروز الفساد فى المجتمع من لوازمها لكن المجتمع الإسلامى مجتمع متشابه الأجزاء لا- تقدم فيها للبعض على البعض و لا- تفاضل و لا- تفاخر و لا- كرامه و إنما التفاوت الذى تستدعيه القريحه الإنسانيه و لا- تسكت عنه إنما هو فى التقوى و أمره إلى الله سبحانه لا إلى الناس قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ «الحجرات:

١٣»، و قال تعالى: فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ «البقره: ١٤٨» فالحاكم و المحكوم و الأمير و المأمور و الرئيس و المرءوس و الحر و العبد و الرجل و المرأه و الغنى و الفقير و الصغير و الكبير فى الإسلام فى موقف سواء من حيث جريان القانون الدينى فى حقهم و من حيث انتفاء فواصل الطبقات بينهم فى الشؤون الاجتماعيه على ما تدل عليه السيره النبويه على سائرهما السلام و التحيه.

و منها أن القوه المجريه فى الإسلام ليست هى طائفه متميزه فى المجتمع بل تعم جميع أفراد المجتمع فعلى كل فرد أن يدعو إلى الخير و يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر و هناك فروق آخر لا يخفى على الباحث المتتبع.

هذا كله فى حياه النبى ص، و أما بعده فالجمهور من المسلمين على أن انتخاب الخليفه الحاكم فى المجتمع إلى المسلمين و الشيعه من المسلمين على أن الخليفه منصوص من جانب الله و رسوله و هم اثنا عشر إماما على التفصيل المودوع فى كتب الكلام.

و لكن على أى حال أمر الحكومه الإسلاميه بعد النبى ص و بعد غيبه الإمام كما فى زماننا الحاضر إلى المسلمين من غير إشكال، و الذى يمكن أن يستفاد من الكتاب فى ذلك أن عليهم تعيين الحاكم فى المجتمع على سيره رسول الله ص و هى سنه الإمامه دون الملوكيه و الإمبراطوريه و السير فيهم بحفاظه الأحكام من غير تغيير،

والتولى بالشور فى غير الأحكام من حوادث الوقت و المحل كما تقدم و الدليل على ذلك كله جميع ما تقدم من الآيات فى ولايه النبى ص مضافه إلى قوله تعالى: لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ: «الأحزاب: ٢١».

### ١٣- نغز المملكة الإسلاميه هو الاعتقاد دون الحدود الطبيعیه أو الاصطلاحیه

ألغى الإسلام أصل الانشعاب القومى من أن يؤثر فى تكون المجتمع أثره ذاك الانشعاب الذى عامله الأصلى البدويه و العيش بعيشه القبائل و البطون أو اختلاف منطقه الحياه و الوطن الأرضى، و هذان أعنى البدويه و اختلاف مناطق الأرض فى طبائعها الثانويه من حراره و بروده و جذب و خصب و غيرهما هما العاملان الأصليان لانشعاب النوع الإنسانى شعوبا و قبائل و اختلاف ألسنتهم و ألوانهم على ما بين فى محله.

ثم صاروا عاملين لحيازه كل قوم قطعه من قطعات الأرض على حسب مساعيهم فى الحياه و بأسهم و شدتهم و تخصيصها بأنفسهم و تسميتها و طنا يألّفونه و يذبون عنه بكل مساعيهم.

و هذا و إن كان أمرا ساقهم إلى ذلك الحوائج الطبيعیه التى تدفعهم الفطره إلى رفعها غير أن فيه خاصه تنافى ما يستدعيه أصل الفطره الإنسانيه من حياه النوع فى مجتمع واحد، فإن من الضرورى أن الطبيعیه تدعو إلى اجتماع القوى المتشتمته و تألفها و تقويها بالتراكم و التوحد لتنال ما تطلبه من غايتها الصالحه بوجه أتم و أصلح، و هذا أمر مشهود من حال الماده الأصلية حتى تصير عنصرا ثم... ثم نباتا ثم حيوانا ثم إنسانا.

و الانشعابات بحسب الأوطان تسوق الأمة إلى توحد فى مجتمعهم يفصله عن المجتمعات الوطنيه الأخرى فيصير واحدا منفصل الروح و الجسم عن الآحاد الوطنيه الأخرى فتتغزل الإنسانيه عن التوحد و التجمع و تبتلى من التفرق و التشتت بما كانت تفر منه و يأخذ الواحد الحديث يعامل سائر الآحاد الحديثه (أعنى الآحاد الاجتماعيه) بما يعامل به الإنسان سائر الأشياء الكونيه من استخدام و استثمار و غير ذلك، و التجريب الممتد بامتداد الأعصار منذ أول الدنيا إلى يومنا هذا يشهد بذلك و ما نقلناه من الآيات فى مطاوى الأبحاث السابقه يكفى فى استفاده ذلك من القرآن الكريم.

و هذا هو السبب فى أن ألغى الإسلام هذه الانشعابات و التشتتات و التميزات،

و بنى الاجتماع على العقيدة دون الجنسيه و القوميه و الوطن و نحو ذلك،حتى فى مثل الزوجيه و القرابه فى الاستمتاع و الميراث،فإن المدار فيهما على الاشتراك فى التوحيد لا المنزل و الوطن مثلا.

و من أحسن الشواهد على هذا ما نراه عند البحث عن شرائع هذا الدين أنه لم يهمل أمره فى حال من الأحوال،فعلى المجتمع الإسلامى عند أوج عظمته و اهتزاز لواء غلبته أن يقيموا الدين و لا يتفرقوا فيه،و عليه عند الاضطهاد و المغلوبه ما يستطيعه من إحياء الدين و إعلاء كلمته و على هذا القياس حتى أن المسلم الواحد عليه أن يأخذ به و يعمل منه ما يستطيعه و لو كان بعقد القلب فى الاعتقادات و الإشاره فى الأعمال المفروضه عليه.

و من هنا يظهر أن المجتمع الإسلامى قد جعل جعلًا- يمكنه أن يعيش فى جميع الأحوال و على كل التقادير من حاكميه و محكوميه و غاليه و مغلوبيه و تقدم و تأخر و ظهور و خفاء و قوه و ضعف.و يدل عليه من القرآن آيات التقيه بالخصوص قال تعالى:

مِنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ X الآية X: «النحل: ١٠٦» و قوله: إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً: «آل عمران: ٢٨» و قوله: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتِطَعْتُمْ (١) و قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَ لَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ: «آل عمران: ١٠٢».

#### ١٤- الإسلام اجتماعى بجميع شؤنه:

يدل على ذلك قوله تعالى: وَ صَابِرُوا وَ رَبُّوا بِطُورًا (وَ اتَّقُوا اللَّهَ) لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ الآية على ما مر بيانه و آيات أخر كثيره.

و صفه الاجتماع مرعيه مأخوذه فى الإسلام فى جميع ما يمكن أن يؤدى بصفه الاجتماع من أنواع النواميس و الأحكام بحسب ما يليق بكل منها من نوع الاجتماع و بحسب ما يمكن فيه من الأمر و الحث الموصول إلى الغرض فينبغى للباحث أن يعتبر الجهتين معا فى بحثه:

فالجهد الأولى من الاختلاف ما نرى أن الشارع شرع الاجتماع مستقيما فى الجهاد إلى حد يكفى لنجاح الدفاع و هذا نوع،و شرع وجوب الصوم و الحج مثلا للمستطيع غير المعذور و لازمه اجتماع الناس للصيام و الحج و تتم ذلك بالعيدين: الفطر و الأضحى،

ص: ١٢٦

و الصلاة المشروعه فيهما، و شرع وجوب الصلوات اليوميه عينيا لكل مكلف من غير أن يوجب فيها جماعه و تدارك ذلك بوجوب الجماعه في صلاة الجمعة في كل أسبوع مره صلاه جماعه واحده في كل أربعة فراسخ. و هذا نوع آخر.

و الجبهه الثانيه ما نرى أن الشارع شرع وجوب الاجتماع في أشياء بلا واسطه كما عرفت و ألزم على الاجتماع في أمور أخرى غير واجبه لم يوجب الاجتماع فيها مستقيما كصلاه الفريضة مع الجماعه فإنها مسنونه مستحبه غير أن السنه جرت على أدائها جماعه و على الناس أن يقيموا السنه (1).

و قد قال رسول الله ص: في قوم من المسلمين تركوا الحضور في الجماعه: ليوشك قوم يدعون الصلاه في المسجد أن نأمر بحطب- فيوضع على أبوابهم فتوقد عليهم نار فتحرق عليهم بيوتهم. و هذا هو السبيل في جميع ما سنه رسول الله ص فيجب حفظ سنته على المسلمين بأى وسيله أمكنت لهم و بأى قيمه حصلت.

و هذه أمور سبيل البحث فيها الاستنباط الفقهي من الكتاب و السنه و المتصدى لبيانها الفقه الإسلامى.

و أهم ما يجب هاهنا هو عطف عنان البحث إلى جهه أخرى و هى اجتماعيه الإسلام في معارفه الأساسيه بعد الوقوف على أنه يراعى الاجتماع في جميع ما يدعو الناس إليه من قوانين الأعمال (العباديه و المعاملية و السياسيه) و من الأخلاق الكريمة و من المعارف الأصلية.

نرى الإسلام يدعو الناس إلى دين الفطره بدعوى أنه الحق الصريح الذى لا- مريه فيه و الآيات القرآنيه الناطقه بذلك كثيره مستغنيه عن الإيراد، و هذا أول التآلف و التانس مع مختلف الأفهام فإن الأفهام على اختلافها و تعلقها بقيود الأخلاق و الغرائز لا تختلف في أن «الحق يجب اتباعه».

ثم نراه يعذر من لم تقم عليه بينه و لم تتضح له المحجه و إن قرعت سمعه الحجه قال تعالى: لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يُحْيِيَ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ: (الأنفال: ٤٢) و قال تعالى: إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسُدُّونَ حِيلَهُ وَ لَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كَانَ اللَّهُ عَفُورًا غَفُورًا: (النساء: ٩٩) انظر إلى إطلاق الآيه و مكان قوله: لَا يَسُدُّونَ حِيلَهُ وَ لَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا، و هذا يعطى الحريره

ص: ١٢٧

التامه لكل متفكر يرى نفسه صالحه للتفكر مستعده للبحث و التنقير أن يتفكر فيما يتعلق بمعارف الدين و يتعمق فى تفهمها و النظر فيها.على أن الآيات القرآنيه مشحونه بالحث و الترغيب فى التفكير و التعقل و التذكر.

و من المعلوم أن اختلاف العوامل الذهنيه و الخارجيه مؤثره فى اختلاف الأفهام من حيث تصورها و تصديقها و نيلها و قضائها و هذا يؤدى إلى الاختلاف فى الأصول التى بنى على أساسها المجتمع الإسلامى كما تقدم.

إلا أن الاختلاف بين إنسانين فى الفهم على ما يقضى به فن معرفه النفس و فن الأخلاق و فن الاجتماع يرجع إلى أحد أمور إما إلى اختلاف الأخلاق النفسانيه و الصفات الباطنه من الملكات الفاضله و الرديه فإن لها تأثيرا و افرا فى العلوم و المعارف الإنسانيه من حيث الاستعدادات المختلفه التى تودعها فى الذهن فما إدراك الإنسان المنصف و قضاؤه الذهني كإدراك الشموس المتعسف، و لا نيل المعتدل الوقور للمعارف كنييل العجول و المتعصب و صاحب الهوى و الهمجى الذى يتبع كل ناعق و الغوى الذى لا يدرى أين يريد؟ و لا- أنى يراد به، و التربيه الدينيه تكفى مئونه هذا الاختلاف فإنها موضوعه على نحو يلائم الأصول الدينيه من المعارف و العلوم، و تستولد من الأخلاق ما يناسب تلك الأصول و هى مكارم الأخلاق قال تعالى: **كِتَابًا أَنْزَلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ: «الأحقاف: ٣٠»** و قال تعالى: **يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ: «المائد: ١٦»** و قال تعالى: **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ: «العنكبوت: ٦٩»** و انطباق الآيات على مورد الكلام ظاهر.

و إما أن يرجع إلى اختلاف الأفعال فإن الفعل المخالف للحق كالمعاصى و أقسام التهوسات الإنسانيه و من هذا القبيل أقسام الإغواء و الوسوس يلقن الإنسان و خاصه العامى الساذج الأفكار الفاسده و يعد ذهنه لديب الشبهات و تسرب الآراء الباطله فيه و تختلف إذ ذاك الأفهام و تتخلف عن اتباع الحق! و قد كفى مئونه هذا أيضا الإسلام حيث أمر المجتمع بإقامه الدعوه الدينيه دائما أولا، و كلف المجتمع بالأمر بالمعروف و النهى عن المنكر ثانيا، و أمر بهجره أرباب الزيغ و الشبهات ثالثا. قال تعالى:

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ **X** الآيه **X**: «آل عمران: ١٠٤» فالدعوة إلى الخير تستثبت الاعتقاد الحق وقرها في القلوب بالتلقين والتذكير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمنعان من ظهور الموانع من رسوخ الاعتقادات الحقه في النفوس، وقال تعالى: **وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِئَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىَ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَعَرَاهُمْ الْكِسَافَةَ الدُّيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبَسَّ لَ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ **X** الآيات **X**: «الأنعام: ٧٠»، ينهى الله تعالى عن المشاركة في الحديث الذى فيه خوض فى شىء من المعارف الإلهيه والحقائق الدينيه بشبهه أو اعتراض أو استهزاء أو لو بنحو الاستلزام أو التلويح، ويذكر أن ذلك من فقدان الإنسان أمر الجد فى معارفه، وأخذه بالهزل واللعب واللهو، وأن منشأه الاغترار بالحياه الدنيا، وأن علاجه الترييه الصالحه والتذكير بمقامه تعالى.**

و إما أن يكون الاختلاف من جهه العوامل الخارجيه كبعد الدار و عدم بلوغ المعارف الدينيه إلا يسيره أو محرفه أو قصور فهم الإنسان عن تعقل الحقائق الدينيه تعقلا صحيحا كالجرزبه و البلاده المستندتين إلى خصوصيه المزاج و علاجه تعميم التبليغ و الإرفاق فى الدعوه و الترييه، و هذان من خصائص السلوك التبليغى فى الإسلام، قال تعالى: **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**: «يوسف: ١٠٨»، و من المعلوم أن البصير بالأمر يعرف مبلغ وقوعه فى القلوب و أنحاء تأثيراته المختلفه باختلاف المتلقين و المستمعين فلا يبذل أحد إلا مقدار ما يعيه منه،

و قد قال رسول الله ص على ما رواه الفريقان: **إنا معاشر الأنبياء نكلم الناس على قدر عقولهم**، و قال تعالى: **فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**: «التوبه: ١٢٢»، فهذه جمل ما يتقى به وقوع الاختلاف فى العقائد أو يعالج به إذا وقع.

و قد قرر الإسلام لمجتمعه دستورا اجتماعيا فوق ذلك يقيه عن ديبب الاختلاف المؤدى إلى الفساد و الانحلال فقد قال تعالى: **وَ أَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَ لَا**

تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ: «الأنعام: ١٥٣» فبين أن اجتماعهم على اتباع الصراط المستقيم و تحذرهم عن اتباع سائر السبل يحفظهم عن التفرق و يحفظ لهم الاتحاد و الاتفاق، ثم قال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا: «آل عمران: ١٠٣» و قد مر أن المراد بحبل الله هو القرآن المبين لحقائق معارف الدين، أو هو و الرسول ص على ما يظهر من قوله تعالى قبله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ وَ مَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ: «آل عمران: ١٠١».

تدل الآيات على لزوم أن يجتمعوا على معارف الدين و يرابطوا أفكارهم و يمتزجوا في التعليم و التعلم فيستريحوا في كل حادث فكري أو شبهه ملقباه إلى الآيات المتلوه عليهم و التدبر فيها لحسم ماده الاختلاف و قد قال تعالى: أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا: «النساء: ٨٢»، و قال: وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنُضْرِبِهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ: «العنكبوت: ٤٣» و قال: فَسَيُؤَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ: «النحل: ٤٣» فأفاد أن التدبر في القرآن أو الرجوع إلى من يتدبر فيه يرفع الاختلاف من البين.

و تدل على أن الإرجاع إلى الرسول و هو الحامل لثقل الدين يرفع من بينهم الاختلاف و يبين لهم الحق الذي يجب عليهم أن يتبعوه، قال تعالى: وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ: «النحل: ٤٤»، و قريب منه قوله تعالى: وَ لَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَ إِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ: «النساء: ٨٣»، و قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا: «النساء: ٥٩»، فهذه صورته التفكير الاجتماعي في الإسلام.

و منه يظهر أن هذا الدين كما يعتمد أساسه على التحفظ على معارفه الخاصه الإلهيه كذلك يسمح للناس بالحرية التامه في الفكر، و يرجع محصله إلى أن من الواجب على المسلمين أن يتفكروا في حقائق الدين و يجتهدوا في معارفه تفكرا و اجتهادا بالاجتماع و المرابطه، و إن حصلت لهم شبهه في شيء من حقائقه و معارفه أو لاح لهم ما يخالفها



فلا بأس به و إنما يجب على صاحب الشبهه أو النظر المخالف أن يعرض ما عنده على كتاب الله بالتدبر فى بحث اجتماعى، فإن لم يداو داءه عرضه على الرسول أو من أقامه مقامه حتى تنحل شبهته أو يظهر بطلان ما لاح له إن كان باطلا، قال تعالى الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ: «الزمر: ١٨».

و الحرية فى العقيدة و الفكر على النحو الذى بيناه غير الدعوه إلى هذا النظر و إشاعته بين الناس قبل العرض فإنه مفض إلى الاختلاف المفسد لأساس المجتمع القويم.

هذا أحسن ما يمكن أن يدبر به أمر المجتمع فى فتح باب الارتقاء الفكرى على وجهه مع الحفاظ على حياته الشخصيه، و أما تحميل الاعتقاد على النفوس و الختم على القلوب و إماته غريزه الفكره فى الإنسان عنوه و قهرا و التوسل فى ذلك بالسوط أو السيف أو بالتكفير و الهجره و ترك المخالطه فحاشا ساحة الحق و الدين القويم أن يرضى به أو يشرع ما يؤيده، و إنما هو خصيصه نصرانيه و قد امتلأ تاريخ الكنيسه من أعمالها و تحكوماتها فى هذا الباب- و خاصه فيما بين القرن الخامس و بين القرن السادس عشر الميلاديين- بما لا يوجد نظائره فى أشنع ما عملته أيدي الجبابره و الطواغيت و أقساه.

و لكن من الأسف أنا معاشر المسلمين سلبنا هذه النعمه و ما لزمها (الاجتماع الفكرى و حربه العقيدة) كما سلبنا كثيرا من النعم العظام التى كان الله سبحانه أنعم علينا بها لما فرطنا فى جنب الله (و إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) فحكمت فىنا سيره الكنيسه و استتبع ذلك أن تفرقت القلوب و ظهر الفتور و تشتت المذاهب و المسالك يغفر الله لنا و يوفقنا لمرضاته و يهدينا إلى صراطه المستقيم.

## ١٥- الدين الحق هو الغالب على الدنيا بالآخره

و العاقبه للتقوى فإن النوع الإنسانى بالفطره المودوعه فيه تطلب سعاداته الحقيقيه و هو استواؤه على عرش حياته الروحيه و الجسميه مع حياه اجتماعيه بإعطاء نفسه حظه من السلوك الدينوى و الأخرى و قد عرفت أن هذا هو الإسلام و دين التوحيد.

و أما الانحرافات الواقعه فى سير الإنسانيه نحو غايته و فى ارتقائه إلى أوج كماله فإنما هو من جهه الخطأ فى التطبيق لا من جهه بطلان حكم الفطره، و الغايه التى يعقبها

الصنع و الإيجاد لا بد أن تقع يوما معجلا أو علي مهل، قال تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ X (يريد أنهم لا يعلمون ذلك علما تفصيليا و إن علمته فطرتهم إجمالا)، «إلى أن قال» X: لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ X، «إلى أن قال»: X ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ: «الروم: ٣٠ ٤١»، وقال تعالى: فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ: «المائدة: ٥٤»، وقال تعالى: وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ: «الأنبياء: ١٠٥» وقال تعالى: وَ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى: «طه: ١٣٢» فهذه و أمثالها آيات تخبرنا أن الإسلام سيظهر ظهوره التام فيحكم على الدنيا قاطبه.

و لا تصغ إلى قول من يقول: إن الإسلام و إن ظهر ظهورا ما و كانت أيامه حلقه من سلسله التاريخ فأثرت أثرها العام في الحلقات التاليه و اعتمدت عليها المدنيه الحاضره شاعره بها أو غير شاعره لكن ظهوره التام أعنى حكومه ما في فرضيه الدين بجميع موادها و صورها و غاياتها مما لا يقبله طبع النوع الإنساني و لن يقبله أبدا و لم يقع عليه بهذه الصفه تجربه حتى يوثق بصحه وقوعه خارجا و حكومته على النوع تامه.

و ذلك أنك عرفت أن الإسلام بالمعنى الذى نبحث فيه غايه النوع الإنساني و كماله الذى هو بغيريته متوجه إليه شعر به تفصيلا أو لم يشعر و التجارب القطعيه الحاصله فى أنواع المكونات يدل على أنها متوجهه إلى غايات مناسبة لوجوداتها يسوقها إليها نظام الخلقه، و الإنسان غير مستثنى من هذه الكليه.

على أن شيئا من السنن و الطرائق الدائره فى الدنيا الجاربه بين المجتمعات الإنسانيه لم يتك فى حدوثه و بقائه و حكومته على سبق تجربه قاطعه فهذه شرائع نوح و إبراهيم و موسى و عيسى ظهرت حينما ظهرت ثم جرت بين الناس، و كذا ما أتى به برهما و بوذا و مانى و غيرهم، و تلك سنن المدنيه الماديه كالديمقراطيه و الكمونيسم و غيرهما كل ذلك جرى فى المجتمعات الإنسانيه المختلفه بجرياناتها المختلفه من غير سبق تجربه.

و إنما تحتاج السنن الاجتماعيه فى ظهورها و رسوخها فى المجتمع إلى عزائم قاطعه و همم عاليه من نفوس قويه لا يأخذها فى سبيل البلوغ إلى مآربها عى و لا نصب، و لا

تذعن بأن الدهر قد لا يسمح بالمراد و المسعى قد يخيب، و لا فرق في ذلك بين الغايات و المآرب الرحمانيه و الشيطانيه.

## بحث روائى

فى المعانى، عن الصادق (ع) \* : فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا آيِهِ: اصبروا على المصائب، و صابروهم على الفتنه. و رابطوا على من تقتدون به.

و فى تفسير العياشى، عنه (ع) \* : اصبروا على دينكم، و صابروا عدوكم، و رابطوا إمامكم.

أقول: و روى ما يقرب منه من طرق أهل السنه عن النبى ص.

و فى الكافى، عنه (ع) \* : اصبروا على الفرائض، و صابروا على المصائب و رابطوا على الأئمه.

و فى المجمع، عن على (ع) \* : رابطوا الصلوات - قال أى انتظروها لأن المرابطه لم تكن حينئذ.

أقول: اختلاف الروايات مستند إلى ما تقدم من إطلاق الأوامر.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن جرير و ابن حبان عن جابر بن عبد الله قال \* : قال رسول الله ص: أ لا - أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، و يكفر به الذنوب؟ قلنا بلى يا رسول الله - قال: إسباغ الوضوء على المكاره، و كثرة الخطى إلى المساجد، و انتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط:

أقول: و رواه بطرق أخرى عنه (ص) و الأخبار فى فضيله المرابطه أكثر من أن تحصى

## (٤) سورة النساء مدنيه و هى مائه و ست و سبعون آيه (١٧٦)

[سورة النساء (٤): آيه ١]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)

بيان

غرض السوره كما يلوح إليه هذا الصدر بيان أحكام الزواج كعدد الزوجات و محرمات النكاح و غير ذلك، و أحكام المواريث، و فيها أمور أخرى من أحكام الصلاه و الجهاد و الشهادات و التجاره و غيرها، و تعرض لحال أهل الكتاب.

و مضامين آياتها تشهد أنها مدنيه نزلت بعد الهجره، و ظاهرها أنها نزلت نجوما لا دفعه واحده و إن كانت أغلب آياتها غير فاقده للارتباط فيما بينها.

و أما هذه الآيه فى نفسها فهى و عده من الآيات التاليه لها المتعرضه لحال اليتامى و النساء كالتوطئه لما سيبين من أمر المواريث و المحارم و أما عدد الزوجات الواقعه فى الآيه الثالثه فإنه و إن كان من مهمات السوره إلا أنه ذكر فى صورته التطفل بالاستفاده من الكلام المقدمى الذى وقع فى الآيه كما سيجىء بيانه.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ» إلى قوله: «وَنِسَاءً» يريد دعوتهم إلى تقوى ربهم فى أمر أنفسهم و هم ناس متحدون فى الحقيقه الإنسانيه من غير اختلاف فيها بين الرجل منهم و المرأه و الصغير و الكبير و العاجز و القوى حتى لا يجحف الرجل منهم بالمرأه و لا يظلم كبيرهم الصغير فى مجتمعهم الذى هداهم الله إليه لتتميم سعادتهم و الأحكام و القوانين المعموله بينهم التى ألهمهم إياها لتسهيل طريق حياتهم، و حفظ

ص: ١٣٤

وجودهم و بقائهم فرادى و مجتمعين.

□  
و من هناك تظهر نكته توجيه الخطاب إلى الناس دون المؤمنين خاصة و كذا تعليق التقوى بربهم دون أن يقال: اتَّقُوا اللَّهَ و نحوه فإن الوصف الذى ذكروا به أعنى قوله: الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ «إِلخ» يعم جميع الناس من غير أن يختص بالمؤمنين، و هو من أوصاف الربوبية التى تتكفل أمر التدبير و التكميل لا من شئون الألوهية.

و أما قوله تعالى: «الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ» «إِلخ» فالنفس على ما يستفاد من اللغه عين الشىء يقال: جاءنى فلان نفسه و عينه و إن كان منشأ تعين الكلمتين - النفس و العين - لهذا المعنى (ما به الشىء شىء) مختلفا، و نفس الإنسان هو ما به الإنسان إنسان، و هو مجموع روح الإنسان و جسمه فى هذه الحياه الدنيا و الروح وحدها فى الحياه البرزخيه على ما تحقق فيما تقدم من البحث فى قوله تعالى: وَ لَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ X لآيه X: «البقره: ١٥٤».

و ظاهر السياق أن المراد بالنفس الواحده آدم(ع)، و من زوجها زوجته، و هما أبوا هذا النسل الموجود الذى نحن منه و إليهما تنتهى جميعا على ما هو ظاهر القرآن الكريم كما فى قوله تعالى: خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، «الزمر: ٦» و قوله تعالى: يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ: «الأعراف:

□  
٢٧»، و قوله تعالى: حكاية عن إبليس: لئن أخرجتني إلى يوم القيامة لأحتبكن ذريته إلا قليلا: «إسراء: ٦٢».

و أما ما احتمله بعض المفسرين أن المراد بالنفس الواحده و زوجها فى الآيه مطلق الذكور و الإناث من الإنسان الزوجين اللذين عليهما مدار النسل فيقول المعنى إلى نحو قولنا: خلق كل واحد منكم من أب و أم بشرين من غير فرق فى ذلك بينكم فيناظر قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِذْ أَخْلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَى وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ «الحجرات: ١٣»، حيث إن ظاهره نفى الفرق بين الأفراد من جهة تولد كل واحد منهم من زوجين من نوعه: ذكر و أنثى.

ففيه فساد ظاهر و قد فاته أن بين الآيتين أعنى آيه النساء و آيه الحجرات فرقا بينا فإن آيه الحجرات فى مقام بيان اتحاد أفراد الإنسان من حيث الحقيقه الإنسانيه،

و نفى الفرق بينهم من جهة انتهاء تكون كل واحد منهم إلى أب و أم إنسانين فلا- ينبغي أن يتكبر أحدهم على الآخرين و لا يتكرم إلا- بالتقوى، و أما آية النساء فهي فى مقام بيان اتحاد أفراد الإنسان من حيث الحقيقة، و أنهم على كثرتهم رجالا و نساء إنما اشتقوا من أصل واحد و تشعبوا من منشأ واحد فصاروا كثيرا على ما هو ظاهر قوله:

وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَ نِسَاءً

، و هذا المعنى كما ترى لا يناسب كون المراد من النفس الواحده و زوجها مطلق الذكر و الأنثى الناسلين من الإنسان على أنه لا يناسب غرض السوره أيضا كما تقدم بيانه.

و أما قوله: وَ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا فَقَدْ قَالَ الراغب: يقال لكل واحد من القرينين من الذكر و الأنثى فى الحيوانات المتزاوج: زوج ، و لكل قرينين فيها و فى غيرها:

زوج كالخف و النعل، و لكل ما يقترن بآخر مماثلا له أو مضادا: زوج، إلى أن قال:

و زوجه لغه رديئه، انتهى.

و ظاهر الجمله أعنى قوله: وَ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا أنها بيان لكون زوجها من نوعها بالتمائل و أن هؤلاء الأفراد المبتوثين مرجعهم جميعا إلى فردين متمثلين متشابهين فلفظه من نشوئيه و الآيه فى مساق قوله تعالى: وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً: الروم ٢١، و قوله تعالى: وَ اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَ حَفْصَةً: النحل ٧٢، و قوله تعالى: فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَ مِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ: الشورى ١١، و نظيرها قوله: وَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ: الذاريات ٤٩، فما فى بعض التفاسير: أن المراد بالآيه كون زوج هذه النفس مشتقه منها و خلقها من بعضها وفاقا لما فى بعض الأخبار: أن الله خلق زوجة آدم من ضلع من أضلاعه مما لا دليل عليه من الآيه.

و أما قوله: وَ بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَ نِسَاءً ، البث هو التفريق بالإثارة و نحوها قال تعالى: فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا: الواقعة ٦، و منه بث الغم و لذلك ربما يطلق البث و يراد به الغم لأنه مبثوث بيئه الإنسان بالطبع، قال تعالى: قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَ حُزْنِي إِلَى اللَّهِ: يوسف ٨٦، أى غمى و حزنى.

و ظاهر الآيه أن النسل الموجود من الإنسان ينتهى إلى آدم و زوجته من غير

أن يشاركهما فيه غيرهما حيث قال: و بث منهما رجالا كثيرا و نساء، و لم يقل: منهما و من غيرهما، و يتفرع عليه أمران:

أحدهما: أن المراد بقوله: رَجَالًا كَثِيرًا وَ نِسَاءً أفراد البشر من ذريتهما بلا واسطه أو مع واسطه فكأنه قيل: و بثكم منهما أيها الناس.

و ثانيهما: أن الأزواج في الطبقة الأولى بعد آدم و زوجته أعنى في أولادهما بلا واسطه إنما وقع بين الإخوه و الأخوات (ازدواج البنين بالبنات) إذ الذكور و الإناث كانا منحصرين فيهم يومئذ، و لا ضير فيه فإنه حكم تشريعي راجع إلى الله سبحانه فله أن يبيحه يوما و يحرمه آخر، قال تعالى: وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ: الرعد ٤١، و قال: إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ: -يوسف ٤٠، و قال: وَ لَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا: -الكهف ٢٦، و قال: وَ هُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ: -القصص ٧٠.

قوله تعالى: «وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحَامَ» المراد بالتساؤل سؤال بعض الناس بعضا بالله، يقول أحدهم لصاحبه: أسألك بالله أن تفعل كذا و كذا هو إقسام به تعالى، و التساؤل بالله كناية عن كونه تعالى معظما عندهم محبوبا لديهم فإن الإنسان إنما يقسم بشيء يعظمه و يحبه.

و أما قوله: وَ الْأَرْحَامَ فظاهره أنه معطوف على لفظ الجلاله، و المعنى: و اتقوا الأرحام، و ربما قيل: إنه معطوف على محل الضمير في قوله: به و هو النصب يقال:

مررت بزيد و عمرا، و ربما أيدته قراءه حمزه: و الأرحام بالجر عطفا على الضمير المتصل المجرور- و إن ضعفه النحاه- فيصير المعنى: و اتقوا الله الذي تساءلون به و بالأرحام يقول أحدكم لصاحبه: أسألك بالله و أسألك بالرحم، هذا ما قيل، لكن السياق و دأب القرآن في بياناته لا يلائمونه فإن قوله: وَ الْأَرْحَامَ إن جعل صله مستقلة للذي، و كان تقدير الكلام: و اتقوا الله الذي تساءلون بالأرحام كان خاليا من الضمير و هو غير جائز، و إن كان المجموع منه و مما قبله صله واحده للذي كان فيه تسويه بين الله عز اسمه و بين الأرحام في أمر العظمه و العزه و هي تنافي أدب القرآن.

و أما نسبة التقوى إلى الأرحام كنسبته إليه تعالى فلا ضير فيها بعد انتهاء

الأرحام إلى صنعه و خلقه تعالى، وقد نسب التقوى في كلامه تعالى إلى غيره كما في قوله: وَ اتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ  
:البقرة: ٢٨١»، وقوله: وَ اتَّقُوا الذَّارِئَاتِ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ: «آل عمران: ١٣١»، وقوله: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ  
خَاصَّةً: «الأنفال: ٢٥».

و كيف كان فهذا الشطر من الكلام بمنزله التقييد بعد الإطلاق و التضييق بعد التوسعة بالنسبة إلى الشطر السابق عليه أعنى قوله:  
يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا إِلَى قَوْلِهِ: وَ نِسَاءً ، فإن محصل معنى الشطر الأول: أن اتقوا الله من جهة ربوبيته لكم، و من جهة خلقه و جعله  
إياكم -معاشر أفراد الإنسان- من سنخ واحد محفوظ فيكم و مادته محفوظة متكرره بتكثركم، و ذلك هو النوعية الجوهرية  
الإنسانية، و محصل معنى هذا الشطر: أن اتقوا الله من جهة عظمته و عزته عندكم (و ذلك من شئون الربوبية و فروعها) و اتقوا  
الوحدة الرحمية التي خلقها بينكم (و الرحم شعبه من شعب الوحدة و السنخية السارية بين أفراد الإنسان).

و من هنا يظهر وجه تكرار الأمر بالتقوى و إعادته ثانيا في الجملة الثانية فإن الجملة الثانية في الحقيقة تكرار للجملة الأولى مع  
زيادة فائده و هي إفادة الاهتمام التام بأمر الأرحام.

و الرحم في الأصل رحم المرأة و هي العضو الداخلي منها المعبأ لتربية النطفة وليدا، ثم أستعير للقرابة بعلاقة الظرف و المظروف  
لكون الأقرباء مشتركين في الخروج من رحم واحدة، فالرحم هو القريب و الأرحام الأقرباء، و قد اعتنى القرآن الشريف بأمر  
الرحم كما اعتنى بأمر القوم و الأمه، فإن الرحم مجتمع صغير كما أن القوم مجتمع كبير، و قد اعتنى القرآن بأمر المجتمع و عده  
حقيقه ذات خواص و آثار كما اعتنى بأمر الفرد من الإنسان و عده حقيقه ذات خواص و آثار تستمد من الوجود، قال تعالى: وَ  
هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُورَاتٌ وَ هَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَ جَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَ حِجْراً مَحْجُوراً وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا  
فَجَعَلَهُ نَسَباً وَ صِهْرًا وَ كَانَ رُبُّكَ قَدِيرًا: «الفرقان:

٥٤» و قال تعالى: وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا: «الحجرات: ١٣»، و قال تعالى: وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ  
اللَّهِ: «الأحزاب: ٦»، و قال تعالى: فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ: «سوره محمد: ٢٢»،



وقال تعالى: وَ لِيُخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّهُ ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ X الآيه X:

«النساء: ٩»، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا» الرقيب الحفيظ و المراقبه المحافظه، و كأنه مأخوذ من الرقبه بعنايه أنهم كانوا يحفظون رقاب عبيدهم، أو أن الرقيب كان يتطلع على من كان يرقبه برفع رقبته و مد عنقه، و ليس الرقوب مطلق الحفظ بل هو الحفظ على أعمال المرقوب من حركاته و سكناته لإصلاح موارد الخلل و الفساد أو ضبطها، فكأنه حفظ الشيء مع العنايه به علما و شهودا و لذا يستعمل بمعنى الحراسه و الانتظار و المحاذره و الرصد، و الله سبحانه رقيب لأنه يحفظ على العباد أعمالهم ليجزيهم بها، قال تعالى: وَ رَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ: «سبأ: ٢١»، و قال: اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ: «الشورى: ٦»، و قال: فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبَالِمٌ صَادٍ: «الفجر: ١٤».

و فى تعليل الأمر بالتقوى فى الوحده الإنسانيه الساريه بين أفراده و حفظ آثارها اللازمه لها، بكونه تعالى رقيباً أعظم التحذير و التخويف بالمخالفه، و بالتدبر فيه يظهر ارتباط الآيات المتعرضه لأمر البغى و الظلم و الفساد فى الأرض و الطغيان و غير ذلك، و ما وقع فيها من التهديد و الإنذار، بهذا الغرض الإلهى و هو وقايه الوحده الإنسانيه من الفساد و السقوط.

### كلام فى عمر النوع الإنسانى و الإنسان الأولى

يذكر تاريخ اليهود أن عمر هذا النوع لا يزيد على ما يقرب من سبعة آلاف سنه و الاعتبار يساعده فإننا لو فرضنا ذكرا و أنثى زوجين اثنين من هذا النوع و فرضناهما عاشرين زمانا متوسطا من العمر فى مزاج متوسط فى وضع متوسط من الأمن و الخصب و الرفاهيه و مساعده سائر العوامل و الشرائط المؤثره فى حياه الإنسان ثم فرضناهما و قد تزوجا و تناسلا و توالدا فى أوضاع متوسطه متناسبه ثم جعلنا الفرض بعينه مطردا فيما أولدا من البنين و البنات على ما يعطيه متوسط الحال فى جميع ذلك و وجدنا ما فرضناه من العدد أولا و هو اثنان فقط يتجاوز فى قرن واحد (رأس المائه) الألف أى إن كل نسمة يولد فى المائه سنه ما يقرب من خمس مائه نسمة.

ثم إذا اعتبرنا ما يتصدم به الإنسان من العوامل المضادة له في الوجود و البلايا العامه لنوعه من الحر و البرد و الطوفان و الزلزله و الجذب و الوباء و الطاعون و الخسف و الهدم و المقاتل الذريعه و المصائب الأخرى غير العامه، و أعطيناها حظها من هذا النوع أوفر حظ، و بالغنا في ذلك حتى أخذنا الفناء يعم الأفراد بنسبه تسعمائه و تسعه و تسعين إلى الألف، و أنه لا يبقى في كل مائه سنه من الألف إلا واحد أى إن عامل التناسل في كل مائه سنه يزيد على كل اثنين بواحد و هو واحد من ألف.

ثم إذا صعدنا بالعدد المفروض أولاً بهذا الميزان إلى مده سبعة آلاف سنه (٧٠ قرنا) وجدناه تجاوز بليونين و نصفاء، و هو عدد النفوس الإنسانيه اليوم على ما يذكره الإحصاء العالمى.

فهذه الاعتبار يؤيد ما ذكر من عمر نوع الإنسان في الدنيا لكن علماء الجيولوجى (علم طبقات الأرض) ذكروا أن عمر هذا النوع يزيد على مليونات من السنين، و قد وجدوا من الفسيالات الإنسانيه و الأجساد و الآثار ما يتقدم عهده على خمس مائه ألف سنه على ما استظهروه، فهذا ما عندهم، غير أنه لا دليل معهم يقنع الإنسان و يرضى النفس باتصال النسل بين هذه الأعقاب الخاليه و الأيمم الماضيه من غير انقطاع، فمن الجائز أن يكون هذا النوع ظهر في هذه الأرض ثم كثر و نما و عاش ثم انقرض ثم تكرر الظهور و الانقراض و دار الأمر على ذلك عدة أدوار، على أن يكون نسلنا الحاضر هو آخر هذه الأدوار.

و أما القرآن الكريم فإنه لم يتعرض تصريحاً لبيان أن ظهور هذا النوع هل ينحصر في هذه الدوره التي نحن فيها أو أن له أدواراً متعدده نحن في آخرها؟ و إن كان ربما يستشتم من قوله تعالى: **وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَ تَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَاءَ** X الآيه X: «البقره: ٣٠»، سبق دوره إنسانيه أخرى على هذه الدوره الحاضره، و قد تقدمت الإشارة إليه في تفسير الآيه.

نعم في بعض الروايات الوارده عن أئمه أهل البيت (ع) ما يثبت للإنسانيه أدواراً كثيره قبل هذه الدوره و سيجيء في البحث الروائى.

## كلام فى أن النسل الحاضر ينتهى إلى آدم و زوجته

ربما قيل: إن اختلاف الألوان فى أفراد الإنسان و عمدتها البياض كلون أهل النقاط المعتدله من آسيا و أوربا، و السواد كلون أهل إفريقيا الجنوبيه، و الصفرة كلون أهل الصين و اليابان، و الحمرة كلون الهنود الأمريكيين يقضى بانتهاء النسل فى كل لون إلى غير ما ينتهى إليه نسل اللون الآخر لما فى اختلاف الألوان من اختلاف طبيعه الدماء و على هذا فالمبادئ الأولى لمجموع الأفراد لا ينقصون من أربعة أزواج للألوان الأربعة.

و ربما يستدل عليه بأن قاره أمريكا انكشفت و لها أهل و هم منقطعون عن الإنسان القاطن فى نصف الكره الشرقى بالبعد الشاسع الذى بينهما انقطاعا لا يرجى و لا يحتمل معه أن النسولين يتصلان بانتهاهما إلى أب واحد و أم واحده، و الدليلان - كما ترى - مدخولان:

أما مسأله اختلاف الدماء باختلاف الألوان فلأن الأبحاث الطبيعه اليوم مبنيه على فرضيه التطور فى الأنواع، و مع هذا البناء كيف يطمأن بعدم استناد اختلاف الدماء باختلاف الألوان إلى وقوع التطور فى هذا النوع و قد جزموا بوقوع تطورات فى كثير من الأنواع الحيوانيه كالفرس و الغنم و الفيل و غيرها، و قد ظفر البحث و الفحص بآثار أرضيه كثيره يكشف عن ذلك؟ على أن العلماء اليوم لا يعتنون بهذا الاختلاف ذاك الاعتناء (١).

و أما مسأله وجود الإنسان فى ما وراء البحار فإن العهد الإنسانى على ما يذكره علماء الطبيعه يزهو إلى ملايين من السنين، و الذى يضبطه التاريخ النقلى لا يزيد على سته آلاف سنه، و إذا كان كذلك فما المانع من حدوث حوادث فيما قبل التاريخ تجزى قاره أمريكا عن سائر القارات، و هناك آثار أرضيه كثيره تدل على تغييرات هامه فى سطح الأرض بمرور الدهور من تبدل بحر إلى بر و بالعكس، و سهل إلى جبل و بالعكس، و ما هو أعظم من ذلك كتبدل القطبين و المنطقه على ما يشرحه علوم

ص: ١٤١

١- ١) و قد ورد فى الجرائد فى هذه الأيام: أن جمعا من الأطباء قد اكتشفوا فورمول طبي يغير به لون بشره الإنسان كالسواد إلى البياض مثلا.

طبقات الأرض و الهيئه و الجغرافيا فلا يبقى لهذا المستدل إلا الاستبعاد فقط هذا.

و أما القرآن فظاهره القريب من النص أن هذا النسل الحاضر المشهود من الإنسان ينتهى بالارتقاء إلى ذكر و أنثى هما الأب و الأم لجميع الأفراد أما الأب فقد سماه الله تعالى فى كتابه بآدم، و أما زوجته فلم يسمها فى كتابه و لكن الروايات تسميها حواء كما فى التوراه الموجوده، قال تعالى: وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ: «الم السجده: ٨» و قال تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ: «آل عمران: ٥٩» و قال تعالى: وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا X الآيه X: «البقره: ٣١» و قال تعالى: إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ X الآيات X: «ص: ٧٢» فإن الآيات - كما ترى - تشهد بأن سنه الله فى بقاء هذا النسل أن يتسبب إليه بالنطفه لكنه أظهره حينما أظهره بخلقه من تراب، و أن آدم خلق من تراب و أن الناس بنوه، فظهور الآيات فى انتهاء هذا النسل إلى آدم و زوجته مما لا ريب فيه و إن لم تمتنع من التأويل.

و ربما قيل: إن المراد بآدم فى آيات الخلقه و السجده آدم النوعى دون الشخصى كان مطلق الإنسان من حيث انتهاء خلقه إلى الأرض و من حيث قيامه بأمر النسل و الإيلاد سمي بآدم، و ربما استظهر ذلك من قوله تعالى: وَ لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ: «الأعراف: ١١» فإنه لا يخلو عن إشعار بأن الملائكه إنما أمروا بالسجده لمن هياه الله لها بالخلق و التصوير و قد ذكرت الآيه أنه جميع الأفراد لا شخص إنسانى واحد معين حيث قال: وَ لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ، و هكذا قوله تعالى: قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي X «إلى أن قال» X: قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ X «إلى أن قال» X: قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ: «ص: ٨٣» حيث أبدل ما ذكره مفردا أولا- من الجمع ثانيا.

و يردده مضافا إلى كونه على خلاف ظاهر ما نقلناه من الآيات ظاهر قوله تعالى -بعد سرد قصه آدم و سجدته الملائكه و إباء إبليس فى سوره الأعراف: يَا بَنِي آدَمَ

لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاءتَهُمَا: (الأعراف: ٢٧) فظهور الآية في شخصيه آدم مما لا ينبغي أن يرتاب فيه.

و كذا قوله تعالى: وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَ أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخْرِيتُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا: (إسراء: ٦٢)، و كذا الآية المبحوث عنها: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَ بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَ نِسَاءً الْآيَةَ، بالتقريب الذي مر بيانه.

فالآيات- كما ترى- تأبى أن يسمى الإنسان آدم باعتبار و ابن آدم باعتبار آخر، و كذا تأبى أن تنسب الخلقه إلى التراب باعتبار و إلى النطفه باعتبار آخر و خاصه في مثل قوله تعالى: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» الآية، و إلا- لم يستقم استدلال الآية على كون خلقه عيسى خلقه استثنائه ناقضه للعاده الجاربه. فالقول بآدم النوعى في حد التفريط، و الإفراط الذى يقابله قول بعضهم: إن القول بخلق أزيد من آدم واحد كفر. ذهب إليه زين العرب من علماء أهل السنه.

### كلام فى أن الإنسان نوع مستقل غير متحول من نوع آخر

الآيات السابقه تكفى مئونه هذا البحث فإنها تنهى هذا النسل الجارى بالنطفه إلى آدم و زوجته و تبين أنهما خلقا من تراب فالإنسانيه تنتهى إليهما و هما لا يتصلان بآخر يماثلهما أو يجانسهما و إنما حدثا حدثا.

و الشائع اليوم عند الباحثين عن طبيعه الإنسان أن الإنسان الأول فرد تكامل إنسانا و هذه الفرضيه بخصوصها و إن لم يتسلمها الجميع تسلما يقطع الكلام و اعترضوا عليه بأمر كثيره المذكوره فى الكتب لكن أصل الفرضيه و هى «أن الإنسان حيوان تحول إنسانا» مما تسلموه و بنوا عليه البحث عن طبيعه الإنسان.

فإنهم فرضوا أن الأرض- و هى أحد الكواكب السياره- قطعه من الشمس

مشتقه منها و قد كانت فى حال الاشتعال و الذوبان ثم أخذت فى التبريد من تسلط عوامل البروده،و كانت تنزل عليها أمطار غزيره و تجرى عليها السيول و تتكون فيها البحار ثم حدثت تراكيب مائيه و أرضيه فحدثت النباتات المائيه ثم حدثت بتكامل النبات و اشتغالها على جراثيم الحياه السمك و سائر الحيوان المائى ثم السمك الطائر ذو الحياتين ثم الحيوان البرى ثم الإنسان،كل ذلك بتكامل عارض للتركيب الأرضى الموجود فى المرتبه السابقه يتحول به التركيب فى صورته إلى المرتبه اللاحقه فالنبات ثم الحيوان المائى ثم الحيوان ذو الحياتين ثم الحيوان البرى ثم الإنسان على الترتيب هذا كل ذلك لما يشاهد من الكمال المنظم فى بنيتها نظم المراتب الآخذة من النقص إلى الكمال و لما يعطيه التجريب فى موارد جزئيه التطور.

و هذه فرضيه افترضت لتوجيه ما يلحق بهذه الأنواع من الخواص و الآثار من غير قيام دليل عليها بالخصوص و نفى ما عداها مع إمكان فرض هذه الأنواع متباينه من غير اتصال بينها بالتطور و قصر التطور على حالات هذه الأنواع دون ذواتها و هى التى جرى فيها التجارب فإن التجارب لم يتناول فردا من أفراد هذه الأنواع تحول إلى فرد من نوع آخر كقرده إلى إنسان و إنما يتناول بعض هذه الأنواع من حيث خواصها و لوازمها و أعراضها.

و استقصاء هذا البحث يطلب من غير هذا الموضوع،و إنما المقصود الإشاره إلى أنه فرض افترضوه لتوجيه ما يرتبط به من المسائل من غير أن يقوم عليه دليل قاطع فالحقيقه التى يشير إليها القرآن الكريم من كون الإنسان نوعا مفصولا- عن سائر الأنواع غير معارضه بشىء علمى.

### كلام فى تناسل الطبقة الثانيه من الإنسان

الطبقة الأولى من الإنسان و هى آدم و زوجته تناسلت بالازدواج فأولدت بنين و بنات(إخوه و أخوات)فهل نسل هؤلاء بالازدواج بينهم و هم إخوه و أخوات أو بطريق غير ذلك؟ظاهر إطلاق قوله تعالى: **وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَ نِسَاءً** الآيه على ما تقدم من التقريب أن النسل الموجود من الإنسان إنما ينتهى إلى آدم و زوجته من

غير أن يشاركهما في ذلك غيرهما من ذكر أو أنثى و لم يذكر القرآن للبث إلا إياهما، و لو كان لغيرهما شركه في ذلك لقال: وَ بَثَّ مِنْهُمَا ۗ و من غيرهما، أو ذكر ذلك بما يناسبه من اللفظ، و من المعلوم أن انحصار مبدأ النسل في آدم و زوجته يقضى بازدواج بينهما من بناتهما.

و أما الحكم بحرمة في الإسلام و كذا في الشرائع السابقه عليه على ما يحكى فإنما هو حكم تشريعى يتبع المصالح و المفسد لا تكوينى غير قابل للتغيير، و زمامه بيد الله سبحانه يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد فمن الجائر أن يبيحه يوما لاستدعاء الضروره ذلك ثم يحرمه بعد ذلك لارتفاع الحاجه و استيجابه انتشار الفحشاء في المجتمع.

و القول بأنه على خلاف الفطره و ما شرعه الله لأنبيائه دين فطرى، قال تعالى فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ «الروم: ٣٠»، فاسد فإن الفطره لا تنفيه و لا تدعو إلى خلافه من جهه تنفرها عن هذا النوع من المباشره (مباشره الأخت) و إنما تبغضه و تنفيه من جهه تأديته إلى شيوع الفحشاء و المنكر و بطلان غريزه العفه بذلك و ارتفاعها عن المجتمع الإنسانى، و من المعلوم أن هذا النوع من التماس و المباشره إنما ينطبق عليه عنوان الفجور و الفحشاء في المجتمع العالمى اليوم، و أما المجتمع يوم ليس هناك بحسب ما خلق الله سبحانه إلا الإخوه و الأخوات و المشيه الإلهيه متعلقه بتكثرتهم و انبثايتهم فلا ينطبق عليه هذا العنوان.

و الدليل على أن الفطره لا تنفيه من جهه النفره الغريزيه تداوله بين المجوس أعصارا طويله (على ما يقصه التاريخ) و شيوعه قانونيا في روسيا (على ما يحكى) و كذا شيوعه سفاحا من غير طريق الازدواج القانونى في أوروبا (١).

و ربما يقال: إنه مخالف للقوانين الطبيعيه و هى التى تجرى في الإنسان قبل عقده

ص: ١٤٥

١ - ١) من العادات الرائجه في هذه الأزمنه في الملل المتمدنه من أوروبا و أمريكا: أن الفتيات يزلن بكارتهن قبل الازدواج القانونى و البلوغ إلى سنه و قد أنتج الإحصاء أن بعضها إنما هو من ناحيه آبائهن أو إخوانهن.

المجتمع الصالح لإسعاده فإن الاختلاط و الاستيناس فى المجتمع المنزلى يبطل غريزه التعشق و الميل الغريزى بين الإخوه و الأخوات كما ذكره بعض علماء الحقوق (١).

و فيه أنه ممنوع كما تقدم أولاً، و مقصور فى صورته عدم الحاجه الضروريه ثانياً، و مخصوص بما لا تكون القوانين الوضعيه غير الطبيعیه حافظه للصالح الواجب الحفظ فى المجتمع، و متكفله لسعاده المجتمعين و إلا فمعظم القوانين المعموله و الأصول الدائره فى الحياه اليوم غير طبيعیه.

## بحث روائى

فى التوحيد، عن الصادق (ع) فى حديث قال\*: لعلك ترى أن الله لم يخلق بشرا غيركم؟ بلى و الله لقد خلق ألف ألف آدم أنتم فى آخر أولئك الآدميين.

أقول: و نقل ابن ميثم فى شرح نهج البلاغه عن الباقر (ع) ما فى معناه، و رواه الصدوق فى الخصال أيضا.

و فى الخصال، عن الصادق (ع) قال\*: إن الله تعالى خلق اثنى عشر ألف عالم- كل عالم منهم أكبر من سبع سماوات و سبع أرضين- ما يرى عالم منهم أن الله عز و جل عالما غيرهم.

و فيه، عن أبى جعفر (ع)\*: لقد خلق الله عز و جل فى الأرض منذ خلقها سبعة عالمين- ليس هم من ولد آدم خلقهم من أديم الأرض- فأسكنهم فيها واحدا بعد واحد مع عالمه- ثم خلق الله عز و جل آدم أبا البشر و خلق ذريته منه، الحديث.

و فى نهج البيان، للشيبانى عن عمرو بن أبى المقدام عن أبيه قال\*: سألت أبا جعفر (ع): من أى شىء خلق الله حواء؟ فقال (ع): أى شىء يقولون هذا الخلق؟ قلت يقولون: إن الله خلقها من ضلع من أضلاع آدم- فقال: كذبوا أ كان الله يعجزه أن يخلقها من غير ضلعه؟ فقلت: جعلت فداك من أى شىء خلقها؟ فقال: أخبرنى أبى عن آباءه قال\*: قال رسول الله ص: إن الله تبارك و تعالى قبض قبضه من طين- فخلطها

ص: ١٤٦



بيمينه-و كلتا يديه يمين-فخلق منها آدم،و فضلت فضله من الطين فخلق منها حواء:

أقول:و رواه الصدوق عن عمرو مثله،و هناك روايات أخر تدل على أنها خلقت من خلف آدم و هو أقصر أضلاعه من الجانب الأيسر،و كذا ورد في التوراه في الفصل الثاني من سفر التكوين،و هذا المعنى و إن لم يستلزم في نفسه محالاً- إلا أن الآيات القرآنيه خاليه عن الدلاله عليها كما تقدم.

و في الإحتجاج،عن السجاد(ع) \*في حديث له مع قرشى يصف فيه تزويج هاويل بلوزا أخت قابيل-و تزويج قابيل بإقليما أخت هاويل،قال:فقال له القرشى:فأولداهما؟ قال:نعم،فقال له القرشى:فهذا فعل المجوس اليوم،قال:فقال:إن المجوس فعلوا ذلك بعد التحريم من الله،ثم قال له:لا تنكر هذا إنما هي شرائع الله جرت،أ ليس الله قد خلق زوجه آدم منه ثم أحلها له؟فكان ذلك شريعته من شرائعهم-ثم أنزل الله التحريم بعد ذلك،الحديث.

أقول:و هذا الذى ورد في الحديث هو الموافق لظاهر الكتاب و الاعتبار، و هناك روايات أخر تعارضها و هى تدل على أنهم تزوجوا بمن نزل إليهم من الحور و الجان و قد عرفت الحق في ذلك.

و في المجمع،\*في قوله تعالى: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحَامَ،عن الباقر(ع):و اتقوا الأرحام أن تقطعوها.

أقول:و بناؤه على قراءه النصب.

و في الكافي،و تفسير العياشى،\*:هى أرحام الناس إن الله عز و جل أمر بصلتها و عظمها،أ لا ترى أنه جعلها معه؟ أقول:قوله:أ لا ترى «إلخ»بيان لوجه التعظيم،و المراد بجعلها معه الاقتران الواقع في قوله تعالى: وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحَامَ .

و في الدر المنثور،أخرج عبد بن حميد عن عكرمه \*في قوله: الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحَامَ قال:قال ابن عباس:قال رسول الله ص:يقول الله تعالى:صلوا أرحامكم-فإنه أبقى لكم في الحياه الدنيا و خير لكم في آخرتكم.

أقول: قوله: فإنه أبقى لكم «إلخ»، إشاره إلى ما ورد مستفيضا: أن صله الرحم تزيد في العمر و قطعها بالعكس من ذلك، و يمكن أن يستأنس لوجهه بما سيأتي في تفسير قوله تعالى: **وَلْيُخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ** X الآيه X: «النساء: ٩».

و يمكن أن يكون المراد بكونه أبقى كون الصلة أبقى للحياه من حيث أثرها فإن الصلة تحكم الوحده الساريه بين الأقارب فيتقوى بذلك الإنسان قبال العوامل المخالفه لحياته المضاده لرفاهيه عيشه من البلايا و المصائب و الأعداء.

و في تفسير العياشي، عن الأصبع بن نباته قال: \*سمعت أمير المؤمنين (ع) يقول:

إن أحدكم ليغضب فما يرضى حتى يدخل النار، فأیما رجل منكم غضب على ذی رحمه - فليدن منه فإن الرحم إذا مستها الرحم استقرت، و إنها متعلقه بالعرش تنفضه انتقاض الحديد فتنادى: اللهم صل من وصلني و اقطع من قطعني - و ذلك قول الله في كتابه:

**وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَ الْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**

، و أيما رجل غضب و هو قائم - فليزلم الأرض من فوره فإنه يذهب رجز الشيطان.

أقول: و الرحم كما عرفت هي جهه الوحده الموجوده بين أشخاص الإنسان من حيث اتصال ماده وجودهم في الولاده من أب و أم أو أحدهما، و هي جهه حقيقه سائره بين أولى الأرحام لها آثار حقيقه خلقيه و خلقيه، و روحيه و جسميه غير قابله الإنكار و إن كان ربما توجد معها عوامل مخالفه تضعف أثرها أو تبطله بعض الإبطال حتى يلحق بالعدم و لن يبطل من رأس.

و كيف كان فالرحم من أقوى أسباب الالتيام الطبيعى بين أفراد العشيره، مستعده للتأثير أقوى الاستعداد، و لذلك كان ما ينتجه المعروف بين الأرحام أقوى و أشد مما ينتجه ذلك بين الأجانب، و كذلك الإساءه في مورد الأقارب أشد أثرا منها في مورد الأجانب.

و بذلك يظهر معنى قوله (ع): فأیما رجل منكم غضب على ذی رحمه فليدن منه «إلخ»، فإن الدنو من ذی الرحم رعايه لحكمها و تقويه لجانبها فتنتبه بسببه و تحرك لحكمها و يتجدد أثرها بظهور الرأفه و المحبه.

و كذلك قوله (ع) في ذيل الروايه: و أيما رجل غضب و هو قائم فليزلم الأرض «إلخ»، فإن الغضب إذا كان عن طيش النفس و نزقها كان في ظهوره و غليانه مستندا إلى هواها و إغفال الشيطان إياها و صرفها إلى أسباب واهيه و هميه، و في تغيير الحال من القيام إلى القعود صرف النفس عن شأن إلى شأن جديد يمكنها بذلك أن تشتغل بالسبب الجديد فتصرف عن الغضب بذلك لأن نفس الإنسان بحسب الفطره أميل إلى الرحمه منها إلى الغضب و لذلك بعينه ورد في بعض الروايات مطلق تغيير الحال في حال الغضب

كما في المجالس، عن الصادق عن أبيه (ع):\* أنه ذكر الغضب فقال: إن الرجل ليغضب حتى ما يرضى أبدا، و يدخل بذلك النار، فأيما رجل غضب و هو قائم فليجلس - فإنه سيذهب عنه رجز الشيطان، و إن كان جالسا فليقم، و أيما رجل غضب على ذى رحم فليقم إليه و ليدن منه و ليمسه - فإن الرحم إذا مست الرحم سكنت، أقول:

و تأثيره محسوس مجرب.

قوله (ع): و إنها متعلقه بالعرش تنقضه انتقاض الحديد «إلخ» أى تحدث فيه صوتا مثل ما يحدث في الحديد بالنقر، و في الصحاح: الإنقاض صوت مثل النقر، و قد تقدم في الكلام على الكرسي إشاره إجماليه سيأتى تفصيلها في الكلام على العرش:

أن المراد بالعرش مقام العلم الإجمالى الفعلى بالحوادث و هو من الوجود المرحله التى تجتمع عندها شتات أزمه الحوادث و متفرقات الأسباب و العلل الكونيه فهى تحرك وحدها سلاسل العلل و الأسباب المختلفه المتفرقه أى تتعلق بروحها السارى فيها المحرك لها كما أن أزمه المملكه على اختلاف جهاتها و شئونها و أشكالها تجتمع فى عرش الملك و الكلمه الواحده الصادره منه تحرك سلاسل القوى و المقامات الفعاله فى المملكه و تظهر فى كل مورد بما يناسبه من الشكل و الأثر.

و الرحم كما عرفت حقيقه هى كالروح السالب فى قوالب الأشخاص الذين يجمعهم جامع القرابه فهى من متعلقات العرش فإذا ظلمت و اضطهدت لاذت بما تعلقت به و استنصرت، و هو قوله (ع): تنقضه انتقاض الحديد، و هو من أبداع التمثيلات شبه فيه ما يحدث فى هذا الحال بالنقر الواقع على الحديد الذى يحدث فيه رنينا يستوعب بالارتعاش و الاهتزاز جميع جسامه الحديد كما فى نقر الأجراس و الجامات و غيرها.

قوله (ع): فتنادى اللهم صل من وصلنى و اقطع من قطعنى، حكاية لفحوى التجائها و استنصارها، و فى الروايات الكثيره أن صله الرحم تزيد فى العمر و أن قطعها يقطعها و قد مر فى البحث عن ارتباط الأعمال و الحوادث الخارجيه من أحكام الأعمال فى الجزء الثانى من الكتاب أن مدير هذا النظام الكونى يسوقه نحو الأغراض و الغايات الصالحه، و لن يهمل فى ذلك، و إذا فسد جزء أو أجزاء منه عالج ذلك إما بإصلاح أو بالحذف و الإزالة، و قاطع الرحم يحارب الله فى تكوينه فإن لم يصلح بالاستصلاح بتر الله عمره و قطع دابره، و أما أن الإنسان اليوم لا يحس بهذه الحقيقه و أمثالها فلا غرو لأن الأدواء قد أحاطت بجثمان الإنسانه فاختلطت و تشابهت و أزمنت فالحس لا يجد فراغا يقوى به على إدراك الألم و العذاب.

## [سوره النساء (٤): الآيات ٢ الى ٦]

### إشارة

وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْضَّرِيبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنِي وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣) وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُنَّ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا (٤) وَلَا تَتَّبِعُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالِكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٥) وَابْتُلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦)

الآيات تتمه التمهيد و التوطئه التي وضعت فى أول السوره لبيان أحكام المواريث و عمدته أحكام التزويج كعدد النساء و تعيين المحارم و هذان البابان من أكبر أبواب القوانين الحاكمه فى المجتمع الإنسانى و أعظمها، و لهما أعظم التأثير فى تكون المجتمع و بقائه فإن النكاح يتعين به وضع المواليد من الإنسان الذين هم أجزاء المجتمع و العوامل التي تكونه، و الإرث يتعلق بتقسيم الثروه الموجوده فى الدنيا التي يبتنى عليها بنيه المجتمع فى عيشته و بقائه.

و قد تعرضت الآيات فى ضمن بيانها للنهى عن الزنى و السفاح و النهى عن أكل المال بالباطل إلا أن تكون تجاره عن تراض و عند ذلك تأسس أساسان قيমান لأمر المجتمع فى أهم ما يشكله و هو أمر المواليد و أمر المال.

و من هنا يظهر وجه العناية بالتمهيد المسوق لبيان هذه الأحكام التي تعلقت بالاجتماع الإنسانى و نشبت فى أصوله و جذوره. و صرف الناس عما اعتادت عليه جماعتهم، و التحمت عليه أفكارهم، و نبتت عليه لحومهم، و مات عليه أسلافهم، و نشأ عليه أخلافهم عسير كل العسر.

و هذا شأن ما شرع فى صدر هذه السوره من الأحكام المذكوره، يتضح ذلك بتأمل إجمالى فى وضع العالم الإنسانى يومئذ بالعموم و فى وضع العالم العربى و (دارهم دار نزول القرآن و ظهور الإسلام) بالخصوص، و فى كيفية تدرج القرآن فى نزوله و ظهور الأحكام الإسلاميه فى تشريعها.

### كلام فى الجاهليه الأولى

القرآن يسمى عهد العرب المتصل بظهور الإسلام بالجاهليه، و ليس إلا إشاره منه إلى أن الحاكم فيهم يومئذ الجهل دون العلم، و المسيطر عليهم فى كل شىء الباطل

و سفر الرأى دون الحق، و كذلك كانوا على ما يقصه القرآن من شؤونهم، قال تعالى:

يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ: آل عمران ١٥٤، و قال: أ فَحُكِّمِ الْجَاهِلِيَّةَ يَبْعُونَ: -المائدة ٥٠، و قال: إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ: الفتح ٢٦، و قال: «وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى»: الأحزاب ٣٣.

كانت العرب يومئذ تجاور فى جنوبها الحبشه و هى نصرانيه، و فى مغربها إمبراطوريه الروم و هى نصرانيه، و فى شمالها الفرس و هم مجوس، و فى غير ذلك الهند و مصر و هما وثنيتان و فى أرضهم طوائف من اليهود، و هم أعنى العرب مع ذلك و ثنيون يعيش أغلبهم عيشه القبائل، و هذا كله هو الذى أوجد لهم اجتماعا همجيا بدويا فيه أخلاط من رسوم اليهوديه و النصرانيه و المجوسيه و هم سكارى جهالتهم، قال تعالى:

وَإِنْ تُطِغْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ: الأنعام ١١٦.

و قد كانت العشائر و هم البدو على ما لهم من خساسة العيش و دناءته يعيشون بالغزوات و شن الغارات و اختطاف كل ما فى أيدي آخرين من متاع أو عرض فلا أمن بينهم و لا أمانه، و لا سلم و لا سلامه، و الأمر إلى من غلب و الملك لمن وضع عليه يده.

أما الرجال فالفضيله بينهم سفك الدماء و الحميه الجاهليه و الكبر و الغرور و اتباع الظالمين و هضم حقوق المظلومين و التعادى و التنافس و القمار و شرب الخمر و الزنا و أكل الميتة و الدم و حشف التمر.

و أما النساء فقد كن محرومات من مزايا المجتمع الإنسانى لا يملكن من أنفسهن إرادته و لا من أعمالهن عملا و لا يملكن ميراثا و يتزوج بهن الرجال من غير تحديد بحد كما عند اليهود و بعض الوثنيه و مع ذلك فقد كن يتبرجن بالزينه و يدعون من أحبين إلى أنفسهن و فشا فيهن الزنا و السفاح حتى فى المحصنات المزوجات منهن، و من عجيب بروزهن أنهن ربما كن يأتين بالحج عاريات.

و أما الأولاد فكانوا ينسبون إلى الآباء لكنهم لا يورثون صغارا و يذهب الكبار بالميراث و من الميراث زوجه المتوفى، و يحرم الصغار ذكورا و إناثا و النساء.

غير أن المتوفى لو ترك صغيرا ورثه لكن الأقوياء يتولون أمر اليتيم و يأكلون

ماله، و لو كان اليتيم بنتا تزوجوها و أكلوا مالها ثم طلقوها و خلوا سبيلها فلا مال تقنات به و لا راغب فى نكاحها ينفق عليها و الابتلاء بأمر الأيتام من أكثر الحوادث المبتلى بها بينهم لمكان دوام الحروب و الغزوات و الغارات فبالطبع كان القتل شائعا بينهم.

و كان من شقاء أولادهم أن بلادهم الخربه و أراضيهم القفر البائره كان يسرع الجذب و القحط إليها فكان الرجل يقتل أولاده خشيه الإملاق «الأنعام آيه ١٥١»، و كانوا يئدون البنات «التكوير آيه ٨»، و كان من أبغض الأشياء عند الرجل أن يبشر بالأنثى «الزخرف آيه ١٧».

و أما وضع الحكومه بينهم فأطراف شبه الجزيره و إن كانت ربما ملك فيها ملوك تحت حمايه أقوى الجيران و أقربها كإيران لنواحي الشمال و الروم لنواحي الغرب و الحبشه لنواحي الجنوب إلا- أن قرى الأوساط كمكه و يثرب و الطائف و غيرها كانت تعيش فى وضع أشبه بالجمهوريه و ليس بها، و العشائر فى البدو بل حتى فى داخل القرى كانت تدار بحكومه رؤسائها و شيوخها و ربما تبدل الوضع بالسلطنه.

فهذا هو الهرج العجيب الذى كان يبرز فى كل عده معدوده منهم بلون، و يظهر فى كل ناحيه من أرض شبه الجزيره فى شكل مع الرسوم العجيبه و الاعتقادات الخرافيه الدائره بينهم، و أضف إلى ذلك بلاء الأميه و فقدان التعليم و التعلم فى بلادهم فضلا عن العشائر و القبائل.

و جميع ما ذكرناه من أحوالهم و أعمالهم و العادات و الرسوم الدائره بينهم مما يستفاد من سياق الآيات القرآنيه و الخطابات التى تخاطبهم بها أوضح استفاده، فتدبر فى المقاصد التى ترومها الآيات و البيانات التى تلقيها إليهم بمكه أولا ثم بعد ظهور الإسلام و قوته بالمدينه ثانيا، و فى الأوصاف التى تصفهم بها، و الأمور التى تدمها منهم و تلومهم عليها، و النواهي المتوجهه إليهم فى شدتها و ضعفها، إذا تأملت كل ذلك تجد صحه ما تلوناه عليك. على أن التاريخ يذكر جميع ذلك و يتعرض من تفاصيلها ما لم نذكره لإجمال الآيات الكريمه و إيجازها القول فيه. و أوجز كلمه و أوفاهها لإفاده جمل هذه المعانى ما سمي القرآن هذا العهد بعهد الجاهليه فقد أجمل فى معناها جميع هذه التفاصيل. هذا حال عالم العرب ذلك اليوم.

و أما العالم المحيط بهم ذلك اليوم من الروم و الفرس و الحبشه و الهند و غيرهم فالقرآن يجمل القول فيه. أما أهل الكتاب منهم أعنى اليهود و النصرارى و من يلحق بهم فقد كانت مجتمعاتهم تدار بالأهواء الاستبداديه و التحكيمات الفرديه من الملوک و الرؤساء و الحكام و العمال فكانت مقتصمه طبعا إلى طبقتين طبقه حاكمه فعاله لما تشاء تعبت بالنفس و العرض و المال، و طبقه محكوميه مستعبده مستذله لا أمن لها فى مال و عرض و نفس، و لا حريه إرادته إلا ما وافق من يفوقها، و قد كانت الطبقة الحاكمه استمالت علماء الدين و حمله الشرع و أتلفت بهم، و أخذت مجامع قلوب العامه و أفكارهم بأيديهم فكانت بالحقيقه هى الحاكمه فى دين الناس و دنياهم تحکم فى دين الناس كيفما أرادت بلسان العلماء و أقلامهم و فى دنياهم بالسوط و السيف.

و قد اقتسمت الطبقة المحكوميه أيضا على حسب قوتها فى السطوه و الجده فيما بينهم نظير الاقتسام الأول (و الناس على دين ملوكهم) إلى طبقتى الأغنياء المترفين و الضعفاء و العجزه و العبيد، و كذا إلى رب البيت و مربوبيه من النساء و الأولاد، و كذا إلى الرجال المالکين لحريه الإيراده و العمل فى جميع شئون الحياه و النساء المحرومات من جميع ذلك التابعات للرجال محضا الخادما لهم فى ما أرادوه منهم من غير استقلال و لو يسيرا.

و جوامع هذه الحقائق التاريخيه ظاهره من قوله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ: «آل عمران: ٦٤» و قد أدرجها النبى ص فى كتابه إلى هرقل عظيم الروم، و قد قيل إنه كتب بها أيضا إلى عظيم مصر و عظيم الحبشه و ملك الفرس و إلى نجران.

و كذا قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِذْنَا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أَنْثَى وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَ قَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ: «الحجرات: ١٣»، و قوله فى ما وصى به التزوج بالإماء و الفتيات: بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِأَذْنِ أَهْلِهِنَّ: «النساء: ٢٥»، و قوله فى النساء: أَنَّى لَا أُضِيعَ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ: «آل عمران: ١٩٥»، إلى غير ذلك من الآيات.

و أما غير أهل الكتاب و هم يومئذ الوثنيه و من يلحق بهم فقد كان الوضع فيهم أردأ و أشأم من وضع أهل الكتاب، و الآيات النازله فى الاحتجاج عليهم تكشف عن



خبيـه سعـيهم و خسـران صفقتهم فى جميع شئون الحياه و ضروب السعاده، قال تعالى:

وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ: «الأنبياء: ١٠٩»، و قال تعالى:

وَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ: «الأنعام: ١٩».

### كيف ظهرت الدعوه الإسلاميه؟

كان وضع المجتمع الإنسانى يومئذ(عهد الجاهليه) ما سمعته من إكباب الناس على الباطل و سلطه الفساد و الظلم عليهم فى جميع شئون الحياه، و هو ذا دين التوحيد و هو الدين الحق يريد أن يؤمر الحق و يوليه عليهم توليه مطلقه، و يطهر قلوبهم من ألوات الشرك، و يزكى أعمالهم و يصلح مجتمعهم بعد ما تعرق الفساد فى جذوره و أغصانه و باطنه و ظاهره.

و بالجملة يريد الله ليهدىهم إلى الحق الصريح، و ما يريد ليجعل عليهم من حرج و لكن يريد ليطهرهم و ليتم نعمته عليهم، فما هم عليه من الباطل و ما يريد منهم كلمه الحق فى نقطتين متقابلتين و قطبين متخالفين، فهل كان يجب أن يستمال منهم البعض و يصلح بهم الباقين من أهل الباطل، ثم بالبعض البعض حرصا على ظهور الحق مهما كان و بأى وسيله تيسر كما قيل: إن أهميه الغايه تبيح المقدمه و لو كانت محظوره، و هذا هو السلوك السياسى الذى يستعمله أهل السياسه.

و هذا النحو من السلوك إلى الغرض قلما يتخلف عن الإيصال إلى المقاصد فى أى باب جرى غير أنه لا يجرى فى باب الحق الصريح و هو الذى تؤمه الدعوه الإسلاميه فإن الغايه وليده مقدماتها و وسائلها و كيف يمكن أن يلد الباطل حقا و ينتج السقيم صحيحا و الوليد مجموعته مأخوذه من اللذين يلدانه؟.

و بغيه السياسه و هواها أن تبلغ السلطه و السيطره، و تحوز السبق و تصدر و التعين و التمتع بأى نحو اتفق، و على أى وصف من أوصاف الخير و الشر و الحق و الباطل انطبق، و لا هوى لها فى الحق، و لكن الدعوه الحقه لا تبتغى إلا الغرض

الحق، و لو توسلت إليه بباطل لكان ذلك منها إمضاء و إنفاذا للباطل فتصير دعوه باطله لا دعوه حقه.

و لهذه الحقيقه ظهورات بارزه فى سيره رسول الله ص و الطاهرين من آله (ع).

و بذلك أمره (ص) ربه و نزل به القرآن فى مواطن راودوه فيها للمساهله أو المداهنه (و لو يسيرا) فى أمر الدين، قال تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِي دِينِ: «سوره الكافرون: ٦١» و قال تعالى و فيه لحن التهديد. وَ لَوْ لَا أَنْ تَبْتَنَّاكَ لَقَدْ كِدْتُمْ تَزُكُّنَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذَا لَأَذْفَنَّاكَ ضَعْفَ الْحَيَاةِ وَ ضَعْفَ الْمَمَاتِ: «الإسراء:

٧٥» و قال تعالى: وَ مَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا: «الكهف: ٥١» و قال تعالى - و هو مثل وسيع المعنى - وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ بِنَاتِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ الَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا: «الأعراف: ٥٨».

و إذا كان الحق لا يمازج الباطل و لا يلتئم به فقد أمره الله سبحانه حينما أعبأه ثقل الدعوه بالرفق و التدرج فى أمرها بالنظر إلى نفس الدعوه و المدعو و المدعو إليه من ثلاث جهات.

الأولى: من جهه ما اشتمل عليه الدين من المعارف الحقه و القوانين المشرعه التى من شأنها إصلاح شئون المجتمع الإنسانى، و قطع منابت الفساد فإن من الصعب المستصعب تبديل عقائد الناس و لا سيما إذا كانت ناشبه فى الأخلاق و الأعمال و قد استقرت عليها العادات، و دارت عليها القرون، و سارت عليها الأسلاف، و نشأت عليها الأخلاف و لا سيما إذا عمت كلمه الدين و دعوته جميع شئون الحياه، و استوعبت جميع الحركات الإنسانيه و سكناتها فى ظاهرها و باطنها فى جميع أزمته و لجميع أشخاصها و أفرادها و مجتمعاتها من غير استثناء (كما أنه شأن الإسلام) فإن ذلك مما يدهش الفكره تصوره أو هو محال عادى.

و صعوبه هذا الأمر و مشقته فى الأعمال أزيد منها فى الاعتقادات فإن استيناس الإنسان و اعتياده و مساسه بالعمل أقدم منه بالاعتقاد، و هو أظهر لحسه و أثر عند

شهواته و أهوائه، و لذلك أظهرت الدعوه الاعتقادات الحقه فى أول أمرها جملة لكن القوانين و الشرائع الإلهيه ظهرت بالتدرج  
حكما فحكما.

و بالجملة تدرجت الدعوه فى إلقاء مضممراتها إلى الناس لئلا يشمس عن تلقيها الطباع و لا تتزلزل النفوس فى نضد بعض أجزاء  
الدعوه على بعض، و هذا الذى ذكرناه ظاهر للمتدبر الباحث فى هذه الحقائق فإنه يجد الآيات القرآنيه مختلفه فى إلقاء المعارف  
الإلهيه و القوانين المشرعه فى مكيتها و مدنيتهما. الآيات المكيه تدعو إلى كليات أجمل فيها القول، و المدينه - و نعى بها ما نزلت  
بعد الهجره أينما نزلت - تفصل القول و تأتى بالتفاصيل من الأحكام التى سبقت فى المكيه كلياتها و مجملاتها، قال تعالى: كَلَّا  
إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ  
بِالتَّقْوَىٰ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّىٰ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ: (العلق: ١٤) و الآيات نازله فى أول الرساله بعد النبوه على ما مرت إليه  
الإشاره فى آيات الصوم من الجزء الثانى، و فيها إجمال التوحيد و المعاد، و إجمال أمر التقوى و العباده.

و قال تعالى: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَ رَبِّكَ فَكَنٌ: (المدثر: ٣) و هى أيضا من الآيات النازله فى أول البعته، و قال تعالى: وَ نَفْسٍ وَ  
مَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَ قَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا: (الشمس: ١٠)، و قال تعالى: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ وَ ذَكَرَ  
اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ: (الأعلى: ١٥) و قوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوهُ وَ  
وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ بِالْمَآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ: (حم  
السجده: ٨) و هذه الآيات أيضا من الآيات النازله فى أوائل البعته.

و قال تعالى: قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَ لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ  
نَنْزِلُكُمْ وَ إِبَاهُمْ وَ لَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ وَ لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَ صَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ  
تَعْقِلُونَ وَ لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أُوفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْرَهَا إِذَا  
قُلْتُمْ فَأَعِدُّوا وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَ بَعِّهْدِ اللَّهُ أُوفُوا ذَلِكُمْ وَ صَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَ أَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا  
السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَ صَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ: (الأنعام: ١٥٣)

فانظر إلى سياق الآيات الشريفه كيف أجمل القول فيها فى النواهى الشرعيه أولاً، و فى الأوامر الشرعيه ثانياً، و إنما أجمل بجمع الجميع تحت وصف لا يستنكف حتى العقل العامى من قبوله فإن الفواحش لا يتوقف فى شناعتها و لزوم اجتنابها و الكف عنها ذو مسكه، و كذا الاجتماع على صراط مستقيم يؤمن به التفرق و الضعف و الوقوع فى الهلكه و الردى لا يرتاب فيه أحد بحكم الغريزه فقد استمد فى هذه الدعوه من غرائز المدعويين، و لذلك بعينه ذكر ما ذكر من المحرمات بعنوان التفصيل كعقوق الوالدين و الإساءه إليهما، و قتل الأولاد من إملاق، و قتل النفس المحترمه، و أكل ما اليتيم إلى آخر ما ذكر فإن العواطف الغريزيه من الإنسان تؤيد الدعوه فى أمرها لاشمئزازها فى حالها العادى عن ارتكاب هذه الجرائم و المعاصى، و هناك آيات آخر عشر عليها المتدبر و يرى أن الحال فيها نظير ما ذكرناه فيما نقلنا من الآيات.

و كيف كان فالآيات المكيه شأنها الدعوه إلى مجملات فصلتها بعد ذلك الآيات المدنيه، و مع ذلك فالآيات المدنيه نفسها لا تخلو عن مثل هذا التدرج فما جميع الأحكام و القوانين الدينيه نزلت فى المدنيه دفعه واحده بل تدريجاً و نجومًا.

و يكفيك التدبر فى أنموذج منها قد تقدمت الإشاره إليها و هى آيات حرمه الخمر فقد قال تعالى: **وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سِكْرًا وَ رِزْقًا حَسَنًا**: «النحل: ٦٧»، و الآيه مكيه ذكر فيها أمر الخمر و سكت عنه إلا ما فى قوله: **وَ رِزْقًا حَسَنًا** من الإيماء إلى أن السكر ليس من الرزق الحسن ثم قال: **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ وَ الْإِثْمَ**: «الأعراف: ٣٣» و الآيه أيضا مكيه تحرم الإثم صريحا لكن لم تبين أن شرب الخمر إثم إرفاقا فى الدعوه إلى ترك عادته سيئه اجتذبتهم إليها شهواتهم و نبتت عليها لحومهم و شددت عظامهم، ثم قال: **«يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا**»: البقره- ٢١٩، و الآيه مدنيه تبين أن شرب الخمر من الإثم الذى حرّمته آيه الأعراف، و لسان الآيه- كما ترى- لسان رفق و نصيح، ثم قال تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَ الْأَنْصَابُ وَ الْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** **إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَ الْبُغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ وَ يُصَدِّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ عَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ**: «المائد: ٩١»، و الآيه مدنيه ختم بها أمر التحريم.

و نظيرها الإرث فقد آخى النبي ص أولاً بين أصحابه و ورث أحد الأخوين الآخر في أول الأمر إعداداً لهم لما سيشرعه الله في أمر الوراثة، ثم نزل قوله تعالى:

وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَرِيئِينَ: «الأحزاب: ٦» و على هذا النحو غالب الأحكام المنسوخة و الناسخة.

ففي جميع هذه الموارد و أشباهها تدرجت الدعوه في إظهار الأحكام و إجراءاتها أخذاً بالإرفاق لحكمه الحفظ لسهولة التحميل و حسن التلقى بالقبول، قال تعالى: وَ قُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا: «الإسراء: ١٠٦» و لو كان القرآن نزل عليه (ص) دفعه واحده ثم بين الرسول تفاصيل شرائعه على ما يوظفه عليه قوله تعالى: وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ: «النحل: ٤٤»، فأتى ببيان جميع معارفه الاعتقاديه و الأخلاقيه و كليات الأحكام العباديه و القوانين الجاربه في المعاملات و السياسات و هكذا لم تستطع الأفهام عندئذ تصورها و حملها فضلاً عن قبول الناس لها و عملهم بها و حكومتها على قلوبهم في إرادتها، و على جوارحهم و أبدانهم في فعلها فتزبله على مكث هو الذي هياً للدين إمكان القبول و الوقوع في القلوب و قال تعالى: وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَ رَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا: «الفرقان: ٣٢» و في الآيه دلالة على أنه سبحانه كان يرفق برسوله (ص) في إنزال القرآن نجوماً كما أرفق بأمته فتدبر في ذلك و تأمله و في ذيل الآيه قوله: و رتلناه ترتيلاً.

و من الواجب أن يتذكر أن السلوك من الإجمال إلى التفصيل و التدرج في إلقاء الأحكام إلى الناس من باب الإرفاق و حسن التريه و رعايه المصلحه غير المداهنه و المساهله و هو ظاهر.

الثانيه: السلوك التدريجي من حيث انتخاب المدعويين و أخذ الترتيب فيهم فمن المعلوم أن النبي ص كان مبعوثاً إلى كافة البشر من غير اختصاص دعوته بقوم دون قوم، و لا -بمكان دون مكان، و لا بزمان دون زمان (و مرجع الأخيرين إلى الأول في الحقيقة) البتة قال تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ: «الأعراف: ١٥٨» و قال تعالى: وَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ: «الأنعام: ١٩» و قال تعالى: وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ: «الأنبياء: ١٠٧».

على أن التاريخ يحكى دعوته (ص) اليهود و هم من بنى إسرائيل، و الروم و العجم و الحبشه و مصر و ليسوا من العرب، و قد آمن به من المشاهير سلمان و هو من العجم و مؤذنه بلال و هو من الحبشه و صهيب و هو من الروم، فعموم نبوته (ص) فى زمانه لا ريب فيه، و الآيات السابقه تشمل بعمومها الأزمان و الأمكنه أيضا.

على أن قوله تعالى: **وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**: «حم السجده: ٤٢» و قوله تعالى: **وَ لَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ**: «الأحزاب: ٤٠» تدلان على عموم النبوه و شمولها للأمكنه و الأزمنه أيضا، و البحث التفصيلى عن هذه الآيات يطلب من تفسيرها فى مواردنا.

و كيف كان فالنبوه عامه، و المتأمل فى سعه المعارف و القوانين الإسلاميه و ما كان عليه الدنيا يوم ظهر الإسلام من ظلمه الجهل و قداره الفساد و البغى لا يرتاب فى عدم إمكان مواجهه الدنيا و مكافحه الشرك و الفساد حينئذ دفعه.

بل كان من الواجب فى الحكمه أن تبدأ الدعوه بالبعض و أن يكون ذلك البعض هو قوم رسول الله ص ثم يظهر بركوز الدين فيهم على غيرهم و هكذا كان، قال تعالى:

**وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**: «إبراهيم: ٤» و قال: **وَ لَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ**: «الشعراء: ١٩٩» و الآيات التى تدل على ارتباط الدعوه و الإنذار بالعرب لا تدل على أزيد من كونهم بعض من تعلقت بهم الدعوه و الإنذار، و كذا الآيات النازله فى التحدى بالقرآن لو كان فيها ما ينحصر تحديه بالبلاغه فحسب إنما هى لكون البلاغه إحدى جهات التحدى بالإعجاز، و لا دليل فى ذلك على كون الأمة العربيه هى المقصوده بالدعوه فقط نعم اللسان مقصود بالاستقلال للبيان كما مر من قوله: **وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ**، و قوله:

**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ**: «يوسف: ٣» و قوله: **وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**: «الشعراء: ١٩٥» فاللسان العربى هو المظهر للمعانى و المقاصد الذهنيه أتم إظهار، و لذلك اختاره الله سبحانه لكتابه العزيز من بين الألسن و قال: **إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**: «الزخرف: ٣».

و بالجمله أمره الله تعالى بعد القيام بأصل الدعوه أن يبدأ بعشيرته فقال: **وَ أَنْذِرْ**

عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ: (الشعراء: ٢١٤) فامتثل أمره و جمع عشيرته و دعاهم إلى ما بعث له و وعدهم أن أول من لباه فهو خليفته من بعده فأجابه إلى ذلك على (ع) فشكر له ذلك و استهزأ به الباقون على ما فى صحاح الروايات (١) و كتب التاريخ و السير، ثم لحق به أناس من أهله كخديجه زوجته و عمه حمزه بن عبد المطلب و عبيد و عمه أبى طالب على ما روته الشيعة و فى أشعاره تصريحات و تلويحات بذلك (٢) (و إنما لم يتظاهر بالإيمان ليتمكن من حمايته (ص)).

ثم أمره الله سبحانه أن يوسع الدعوة لقومه على ما يظهر من قوله: وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا (الشورى: ٧) و قوله: لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ: (الم السجده: ٣) و قوله: وَ أَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ، و هذه الآيه من الشواهد على أن الدعوة غير مقصوره عليهم، و إنما بدأ بهم حكمه و مصلحه.

ثم أمره الله سبحانه بتوسعه الدعوة للدينا من جميع المليين و غيرهم كما يدل عليه الآيات السابقه كقوله تعالى: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا» و قوله:

«وَ لَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ» و غيرهما مما تقدم.

الثالثه: الأخذ بالمراتب من حيث الدعوة و الإرشاد و الإجراء، و هى الدعوة بالقول و الدعوة السلبيه و الجهاد.

أما الدعوة بالقول فهى مما يستفاد من جميع القرآن بالبدايه، و قد أمره الله سبحانه برعايه الكرامات الإنسانيه و الأخلاق الحسنه فى ذلك قال تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ: (الكهف: ١١٠) و قال: وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ: (الحجر: ٨٨) و قال: وَ لَا تَسِيْرُوا الْحَسْبَيْنَهُ وَ لَا السَّيِّئَهُ اذْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ: (حم السجده: ٣٤) و قال: وَ لَا تَمُنُّنَّ تَسْتَكْبِرُ: (المدثر: ٦) إلى غير ذلك من الآيات الكثيره.

ص: ١٦١

١- ١) راجع سادس البحار، و سيره ابن هشام و غيرهما.

٢- ٢) راجع ديوان أبى طالب.

و أمره (ص) أن يستعمل جميع فنون البيان على حسب اختلاف الأفهام و استعدادات الأشخاص، قال تعالى: اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ: «النحل: ١٢٥».

و أما الدعوه السلبيه فهو اعتزال المؤمنين الكافرين فى دينهم و أعمالهم و تكوين مجتمع إسلامى لا يمازجه دين غيرهم ممن لا يوحد الله سبحانه و لا أعمال غير المسلمين من المعاصى و سائر الرذائل الأخلاقيه إلا ما أوجبه ضروره الحياه من المخالطه، قال تعالى: لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لى دِينِ: «الكافرون: ٦» و قال: فَاسْتَبِقُوا كَلِمَاتِ الْمَوْتِ وَ مَنْ تَابَ مَعَكُمْ وَ لَا تَطْعَمُوا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَ لَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمَسَّكُمْ الدَّارُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءِ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ: «هود: ١١٣» و قال: فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَبِقْ كَلِمَاتِ الْمَوْتِ وَ لَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَهُمْ وَ قُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَ أُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَ رَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَ لَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ: «الشورى: ١٥» و قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عِدُوِي وَ عِدْوَكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُؤَدَّةِ وَ قَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ إِلَى أَنْ قَالَ: «إلى أن قال» X: لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّهَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَ ظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوْلَوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ: «المتحنه: ٩» و الآيات فى معنى التبرى و الاعتزال عن أعداء الدين كثيره، و هى - كما ترى - تشرح معنى هذا التبرى و كفيته و خصوصيته.

و أما الجهاد فقد تقدم الكلام فيه فى ذيل آيات الجهاد من سوره البقره و هذه المراتب الثلاث من مزايا الدين الإسلامى و مفاخره و المرتبه الأولى لازمه فى الأخيرتين و كذا الثانيه فى الثالثه، فقد كانت من سيرته (ص) الدعوه و المواعظه فى غزواته قبل الشروع فيها على ما أمره به ربه سبحانه فقال: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ» .

و من أخنى القول ما نبذوا به الإسلام: أنه دين السيف دون الدعوه مع أن الكتاب و السيره و التاريخ تشهد به و تنوره و لكن من لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

و هؤلاء المنتقدون بعضهم من أهل الكنيسه التى كانت عقدت منذ قرون فيها محكمه دينيه تقضى على المنحرفين عن الدين بالنار تشبها بالمحكمه الإلهيه يوم القيامه



فكان عمالها يجولون في البلاد فيجلبون إليها من الناس من اتهموه بالرده و لو بالأقوال الحديثه فى الطبيعيات و الرياضيات مما لم يقل به الفيلسوف الإسكولاستيكيه التى كانت الكنيسه تروجها.

فليت شعرى هل بسط التوحيد و قطع منابت الوثنيه و تطهير الدنيا من قذاره الفساد أهم عند العقل السليم أو تخنيق من قال بمثل حركه الأرض أو نفى الفلك البطلميوسى و رد أنفاسه إلى صدره، و الكنيسه هى التى أثارت العالم المسيحي على المسلمين باسم الجهاد مع الوثنيه فأقامت الحروب الصليبيه على ساقها مائتى سنه تقريبا و خربت البلاد و أفنت الملايين من النفوس و أباحت الأعراض.

و بعضهم من غير أهل الكنيسه من المدعين للتمدن و الحريره!! و هؤلاء هم الذين يوقدون نار الحروب العالميه و يقبلون الدنيا ظهر البطن كلما هتفت بهم مزاعمهم توجه خطر يسير على بعض منافعهم الماديه فهل استقرار الشرك فى الدنيا و انحطاط الأخلاق و موت الفضائل و إحاطه الشؤم و الفساد على الأرض و من فيها أضر أم زوال السلطه على أشبار من الأرض أو الخساره فى دريهما يسيره؟! نعم إن الإنسان لربه لكنود.

و يعجبني نقل ما ذكره بعض المحققين الأعظم (1) فى هذا الباب فى بعض رسائله قال رحمه الله: الوسائل المتبعه للإصلاح الاجتماعى و تحقيق العدل و تمزيق الظلم و مقاومه الشر و الفساد تكاد تنحصر فى ثلاثه أنواع:

١- وسائل الدعوه و الإرشاد بالخطب و المقالات و المؤلفات و النشرات، و هذه هى الخطه الشريفه التى أشار إليها الحق جل شأنه بقوله: **أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**، و قوله: **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَمَاذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** و هذه هى الطريقه التى استعملها الإسلام فى أول البعته، إلى أن قال:

٢- وسائل المقاومه السلميه و السليبه كالمظاهرات و الإضرابات و المقاطعه الاقتصاديه و عدم التعاون مع الظالمين، و عدم الاشتراك فى أعمالهم و حكومتهم،

ص: ١٦٣

(١- ١) الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء فى رساله: المثل العليا فى الإسلام لا فى بحمدون.

و أصحاب هذه الطريقه لا- يبيحون اتخاذ طريق الحرب و القتل و العنف، و هي المشار إليها بقوله تعالى: **وَلَا تَزْكُورُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ الذَّارُ، وَلَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ** و في القرآن الكريم كثير من الآيات التي تشير إلى هذه الطريقه، و أشهر من دعا إلى هذه الطريقه و أكد عليها النبي الهندي بوذا، و المسيح (ع)، و الأديب الروسي «تولستوى» و الزعيم الهندي الروحي «غاندى».

### ٣- الحرب و الثوره و القتال.

و الإسلام يتدرج في هذه الأساليب الثلاثه: «الأولى» الموعظه الحسنه و الدعوه السليمه فإن لم ينجح في دفع الظالمين و درء فسادهم و استبدادهم «فالثانيه» المقاطعه السلميه أو السلبيه و عدم التعاون و المشاركه معهم فإن لم تجد و تنفع «فالثالثه» الثوره المسلحه فإن الله لا يرضى بالظلم أبدا بل و الراضى الساكت شريك الظالم.

الإسلام عقيدته، و قد غلط و ركب الشطط من قال: إن الإسلام نشر دعوته بالسيف و القتال فإن الإسلام إيمان و عقيدته، و العقيدته لا تحصل بالجبر و الإكراه و إنما تخضع للحجه و البرهان، و القرآن المجيد ينادى بذلك في عده آيات منها **«لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ»**.

و الإسلام إنما استعمل السيف و شهر السلاح على الظالمين الذين لم يقتنعوا بالآيات و البراهين استعمل القوه في سبيل من وقف حجر عثره في سبيل الدعوه إلى الحق، أجهز السلاح لدفع شر المعاندين لا إلى إدخالهم في حظيره الإسلام يقول جل شأنه:

**قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَالْقِتَالُ إِنَّمَا هُوَ لِدْفَعِ الْفِتْنَةِ لَا لِاعْتِنَاقِ الدِّينِ وَ الْعَقِيدَةِ.**

فالإسلام لا يقاتل عبثه و اختيارا و إنما يجرجه الأعداء فيلتجئ إليه اضطرارا و لا يأخذ منه إلا بالوسائل الشريفه فيحرم في الحرب و السلم التخريب و الإحراق و السم و قطع الماء عن الأعداء كما يحرم قتل النساء و الأطفال و قتل الأسرى و يوصى بالرفق بهم و الإحسان إليهم مهما كانوا من العدا و البغضاء للمسلمين و يحرم الاغتيال في الحرب و السلم و يحرم قتل الشيوخ و العجزه و من لم يبدأ بالحرب و يحرم الهجوم على العدو ليلا «فانبذ إليهم على سواء» و يحرم القتل على الظنه و التهمه و العقاب قبل ارتكاب الجريمة إلى أمثال ذلك من الأعمال التي يأبأها الشرف و المروءه و التي تنبعث من الخسه و القسوه و الدناءه و الوحشيه.

كل تلك الأعمال التي أبقى شرف الإسلام ارتكاب شيء منها مع الأعداء في كل ما كان له من المعارك و الحروب قد ارتكبتها بأفزع صورها و أهول أنواعها الدول المتمدنه في هذا العصر الذي يسمونه عصر النور نعم أباح عصر النور قتل النساء و الأطفال و الشيوخ و المرضى و التبييت ليلا و الهجوم ليلا بالسلاح و القنابل على العزل و المدنيين الآمنين، و أباح القتل بالجملة.

ألم يرسل الألمان في الحرب العالميه الثانيه القنابل الصاروخيه إلى لندن فهدمت المباني و قتلت النساء و الأطفال و السكان الآمنين؟! ألم يقتل الألمان ألوف الأسرى؟! ألم يرسل الحلفاء في الحرب الماضيه ألوف الطائرات إلى ألمانيا لتخريب مدنها؟! ألم يرم الأمريكيان القنابل الذريه على المدن اليابانيه?!.

و بعد اختراع وسائل الدمار الحديثه كالصواريخ و القنابل الذريه و الهيدروجينيه لا يعلم إلا الله ما ذا يحل بالأرض من عذاب و خراب و مآسى و آلام إذا حدثت حرب عالميه ثالثه و لجأت الدول المتحاربه إلى استعمال تلك الوسائل، أرشد الله الإنسان إلى طريق الصواب و هداه الصراط المستقيم، انتهى.

### [بيان]

قوله تعالى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ إلى آخر الآيه، أمر بإيتاء اليتامى أموالهم و هو توطئه للجملتين اللاحقتين: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْإِنح﴾ أو الجملتان كالمفسر لهذه الجملة غير أن التعليل الذي في آخر الآيه لكونه راجعا إلى الجملتين أو الجملة الأخيره يؤيد أن الجملة الأولى موضوعه في الكلام تمهيدا للنهي الذي في الجملتين اللاحقتين.

و أصل النهى عن التصرف المضار في أموال اليتامى كما تقدم بيانه توطئه و تمهيد لما سيذكر من أحكام الإرث، و لما سيذكر في الآيه التاليه من حكم التزوج.

و أما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَيْبَ بِالطَّيِّبِ﴾ أى لا تتبدلوا الخيب من أموالكم من الطيب من أموالهم بأن يكون لهم عندكم مال طيب فتعزلوه لأنفسكم و تردوا إليهم ما يعادله من ردى أموالكم. و يمكن أن يكون المراد: لا تتبدلوا أكل الحرام من أكل الحلال- كما قيل- لكن المعنى الأول أظهر فإن الظاهر أن كلا من الجملتين أعنى قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْإِنح﴾ و قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا الْإِنح﴾ بيان لنوع خاص من التصرف غير الجائز و قوله: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ الْإِنح﴾ تمهيد لبيانهما معا، و أما قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾

قوله تعالى: «وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ» قد مرت الإشارة فيما مر إلى أن أهل الجاهلية من العرب- وكانوا لا- يخلون في غالب الأوقات عن الحروب و المقاتل و الغيلة و الغاره و كان يكثر فيهم حوادث القتل- كان يكثر فيهم الأيتام، و كانت الصناديد و الأقوياء منهم يأخذون إليهم يتامى النساء و أموالهن فيتزوجون بهن و يأكلون أموالهن إلى أموالهم ثم لا يقسطون فيهن و ربما أخرجوهن بعد أكل مالهن فيصرن عاطلات ذوات مسكنه لا مال لهن يرتزقن به و لا راغب فيهن فيتزوج بهن و ينفق عليهن، و قد شدد القرآن الكريم النكير على هذا الدأب الخبيث و الظلم الفاحش، و أكد النهي عن ظلم اليتامى و أكل أموالهم كقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَ سَيَصِيلُونَ سَئِيرًا «النساء: ١٠»، و قوله تعالى: وَ آتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَ لَا تَبَدِّلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ وَ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا Xالآية X: «النساء: ٢» فأعقب ذلك أن المسلمين أشفقوا على أنفسهم- كما قيل- و خافوا خوفا شديدا حتى أخرجوا اليتامى من ديارهم خوفا من الابتلاء بأموالهم و التفريط في حقهم، و من أمسك يتيما عنده أفرز حظه من الطعام و الشراب و كان إذا فضل من غذائهم شيء لم يدنوا منه حتى يبقى و يفسد فأصبحوا متخرجين من ذلك و سألوا رسول الله ص عن ذلك و شكوا إليه فنزل: وَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَ إِنْ تَخَالَطُوهُمْ فَاخْوَانُكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَمَأَعَنْتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ «البقرة: ٢٢٠»، فأجاز لهم أن يأووهم و يمسكوهم إصلاحا لشأنهم و أن يخالطوهم فإنهم إخوانهم فجلى عنهم و فرج همهم.

إذا تأملت في ذلك ثم رجعت إلى قوله تعالى: وَ إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا «إلخ» و هو واقع عقيب قوله: وَ آتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ الْآية اتضح لك أن الآية واقعه موقع الترقى بالنسبة إلى النهي الواقع في الآية السابقة و المعنى- و الله أعلم-: اتقوا أمر اليتامى، و لا- تبدلوا خبيث أموالكم من طيب أموالهم، و لا- تأكلوا أموالهم إلى أموالكم حتى إنكم إن خفتم ألا تقسطوا في اليتيمات منهم و لم تطب نفوسكم أن تنكحوهن و تتزوجوا بهن فدعوهن و انكحوا نساء غيرهن ما

طاب لكم مثني و ثلاث و رباع.

فالشرطيہ أعنى قوله: **إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ**، فى معنى قولنا إن لم تطب لكم اليتامى للخوف من عدم القسط فلا تنكحوهن و انكحوا نساء غيرهن فقوله: فانكحوا ساد مسد الجزاء الحقيقى، و قوله:

**مَا طَابَ لَكُمْ**

، يغنى عن ذكر وصف النساء أعنى لفظ غيرهن، وقد قيل: **مَا طَابَ لَكُمْ** و لم يقل: من طاب لكم إشاره إلى العدد الذى سيفصله بقوله: **مَثْنَىٰ وَ ثَلَاثَ إِخٍ** و وضع قوله: **إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا** موضع عدم طيب النفس من وضع السبب موضع المسبب مع الإشعار بالمسبب فى الجزاء بقوله: **مَا طَابَ لَكُمْ**، هذا.

و قد قيل فى معنى الآية أمور آخر غير ما مر على ما ذكر فى مطولات التفاسير و هى كثيره، منها: أنه كان الرجل منهم يتزوج بالأربع و الخمس و أكثر و يقول: ما يمنعنى أن أتزوج كما تزوج فلان، فإذا فنى ماله مال إلى مال اليتيم الذى فى حجره فنهاهم الله عن أن يتجاوزوا الأربع لثلا يحتاجوا إلى أخذ مال اليتيم ظلما.

و منها: أنهم كانوا يشددون فى أمر اليتامى و لا يشددون فى أمر النساء فيتزوجون منهن عددا كثيرا و لا يعدلون بينهن، فقال تعالى: **إِنْ كُنْتُمْ تَخَافُونَ أَمْرَ الْيَتَامَىٰ فَخَافُوا فِي النِّسَاءِ** فانكحوا منهن واحده إلى أربع.

و منها: أنهم كانوا يتخرجون من ولايه اليتامى و أكل أموالهم فقال سبحانه:

**إِنْ كُنْتُمْ تَحْرِجْتُمْ مِنْ ذَلِكَ فَكَذَلِكَ تَحْرِجُوا مِنَ الزَّانَا فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ** .

و منها: أن المعنى إن خفتم ألا تقسطوا فى اليتيمه المرباه فى حجوركم فانكحوا ما طاب لكم من النساء مما أحل لكم من يتامى قرباتكم **مَثْنَىٰ وَ ثَلَاثَ وَ رُبَاعَ** .

و منها: أن المعنى إن كنتم تتخرجون عن مؤاكلة اليتامى فتخرجوا من الجمع بين النساء و أن لا تعدلوا بينهن و لا تتزوجوا منهن إلا من تأمنون معه الجور، فهذه ذكروها لكنك بصير بأن شيئا منها لا ينطبق على لفظ الآية ذاك الانطباق فالمصير إلى ما قدمناه.

قوله تعالى: **«مَثْنَىٰ وَ ثَلَاثَ وَ رُبَاعَ»** بناء مفعول و فعال فى الأعداد تدلان على تكرار الماده فمعنى مثنى و ثلاث و رباع اثنتين اثنتين و ثلاثا ثلاثا و أربعا أربعا، و لما

كان الخطاب متوجها إلى أفراد الناس و قد جرى بواو التفصيل بين مثنى و ثلاث و رباع الدال على التخيير أفاد الكلام أن لكل واحد من المؤمنين أن يتخذ لنفسه زوجتين أو ثلاثا أو أربعاً فيصيرن بالإضافه إلى الجميع مثنى و ثلاث و رباع.

و بذلك و بقرينه قوله بعده: فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ و كذا آيه المحصنات بجميع ذلك يدفع أن يكون المراد بالآيه أن تنكح الاثنتان بعقد واحد أو الثلاث بعقد واحد مثلاً، أو يكون المراد أن تنكح الاثنتان معاً ثم الاثنتان معاً و هكذا، و كذا في الثلاث و الأربع، أو يكون المراد اشتراك أزيد من رجل واحد في الزوجه الواحده مثلاً فهذه احتمالات لا تحتلمها الآيه.

على أن الضروره قاضيه أن الإسلام لا ينفذ الجمع بين أزيد من أربع نسوه أو اشتراك أزيد من رجل في زوجه واحد.

و كذا يدفع بذلك احتمال أن يكون الواو للجمع فيكون في الكلام تجويز الجمع بين تسع نسوه لأن مجموع الاثنتين و الثلاث و الأربع تسع، و قد ذكر في المجمع: أن الجمع بهذا المعنى غير محتمل البتة فإن من قال: دخل القوم البلد مثنى و ثلاث و رباع لم يلزم منه اجتماع الأعداد فيكون دخولهم تسعه تسعه، و لأن لهذا العدد لفظاً موضوعاً و هو تسع فالعدول عنه إلى مثنى و ثلاث و رباع نوع من العي -جل كلامه عن ذلك و تقدرس-.

قوله تعالى: «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً» أى فانكحوا واحداه لا أزيد، و قد علقه تعالى على الخوف من ذلك دون العلم لأن العلم في هذه الأمور -و لتسويل النفس فيها أثر بين- لا يحصل غالباً فتفوت المصلحه.

قوله تعالى: «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» و هى الإماء فمن خاف ألا يقسط فيهن فعليه أن ينكح واحداه، و إن أحب أن يزيد في العدد فعليه بالإماء إذ لم يشرع القسم في الإماء.

و من هنا يظهر أن ليس المراد التحضيض على الإماء بتجويز الظلم و التعدى عليهن فإن الله لا يحب الظالمين و ليس بظلام للعبيد بل لما لم يشرع القسم فيهن فأمر العدل فيهن أسهل، و لهذه النكته بعينها كان المراد بذكر ملك اليمين الاكتفاء باتخاذهن و إتيانهن بملك اليمين دون نكاحهن بما يبلغ العدد أو يكثر عليه فإن مسأله نكاحهن

سيتعرض لها في ما سيجيء من قوله: وَمَنْ لَمْ يَسْتِطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحِ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ X الآيه X: «النساء: ٢٥».

قوله تعالى: «ذَلِكَ أَذُنِي أَلَّا تَعُولُوا» العول هو الميل أى هذه الطريقه على ما شرعت أقرب من ألا تميلوا عن العدل و لا تتعدوا عليهن في حقوقهن، و ربما قيل:

إن العول بمعنى الثقل و هو بعيد لفظا و معنى.

و في ذكر هذه الجملة التي تتضمن حكمه التشريع دلالة على أن أساس التشريع في أحكام النكاح على القسط و نفى العول و الإجحاف في الحقوق.

قوله تعالى: «وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَهُ» الصدقه بضم الدال و فتحها و الصداق هو المهر، و النحله هي العطيه من غير مئامنه.

و في إضافة الصداقات إلى ضمير هن دلالة على أن الحكم بوجوب الإيتاء مبني على المتداول بين الناس في سنن الازدواج من تخصيص شيء من المال أو أى شيء له قيمه مهرا لهن كأنه يقابل به البضع مقابله الثمن المبيع فإن المتداول بين الناس أن يكون الطالب الداعي للازدواج هو الرجل على ما سيأتى في البحث العلمى التالى، و هو الخطبه كما أن المشتري يذهب بالثمن إلى البائع ليأخذ سلعته، و كيف كان ففي الآيه إمضاء هذه العاده الجاربه عند الناس.

و لعل إمكان توهم عدم جواز تصرف الزوج في المهر أصلا حتى برضا من الزوجه هو الموجب للإتيان بالشرط في قوله: فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا مع ما في اشتراط الأكل بطيب النفس من تأكيد الجملة السابقه المشتمله على الحكم، و الدلالة على أن الحكم وضعى لا تكليفى.

و الهناء سهوله الهضم و قبول الطبع و يستعمل في الطعام، و المرى من الرى و هو فى الشراب كالهنيء فى الطعام غير أن الهناء يستعمل فى الطعام و الشراب معا، فإذا قيل: هنيئا مريئا اختصاص الهناء بالطعام و الرى بالشراب.

قوله تعالى: «وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا» السفه خفه العقل، و كان الأصل فى معناه مطلق الخفه فيما من شأنه أن لا يخف و منه الزمام السفه أى كثير الاضطراب و ثوب سفه أى ردىء النسج ثم غلب فى خفه النفس و اختلف

باختلاف الأغراض و المقاصد فقليل سفيه لخفيف الرأى فى الأمور الدنيويه و سفيه للفاسق غير المبالى فى أمر دينه و هكذا.

و ظاهر ما يترأى من الآيه أنه نهى عن الإكثار فى الإنفاق على السفهاء و إعطائهم من المال أزيد من حاجاتهم الضروريه فى الارتزاق، غير أن وقوع الآيه فى سياق الكلام فى أموال اليتامى التى يتولى أمر إدارتها و إنمائها الأولياء قرينه معينه على كون المراد بالسفهاء هم السفهاء من اليتامى، و أن المراد بقوله: **أَمْوَالِكُمْ**، فى الحقيقه أموالهم أضيف إلى الأولياء بنوع من العنايه كما يشهد به أيضا قوله بعد: **وَ ارزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ**، و إن كان و لا بد من دلالة الآيه على أمر سائر السفهاء غير اليتامى، فالمراد بالسفهاء ما يعم اليتيم و غير اليتيم لكن الأول أرجح.

و كيف كان فلو كان المراد بالسفهاء سفهاء اليتامى، فالمراد بقوله: **أَمْوَالِكُمْ**، أموال اليتامى و إنما أضيفت إلى الأولياء المخاطبين بعنايه أن مجموع المال و الثروه الموجوده فى الدنيا لمجموع أهلها و إنما اختص بعض أفراد المجتمع ببعض منه و آخر بآخر للصالح العام الذى يبتنى عليه أصل الملك و الاختصاص فيجب أن يتحقق الناس بهذه الحقيقه و يعلموا أنهم مجتمع واحد و المال كله لمجتمعهم، و على كل واحد منهم أن يكأله و يتحفظ به و لا يدعه يضيع بتبذير نفوس سفيهه، و تدبير كل من لا يحسن التدبير كالصغير و المجنون، و هذا من حيث الإضافه كقوله تعالى: **وَمَنْ لَمْ يَشِطَّعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيِّاتِكُمْ: «النساء: ٢٥»**، و من المعلوم أن المراد بالفتيات ليس الإماء اللاتى يملكها من يريد النكاح.

ففى الآيه دلالة على حكم عام موجه إلى المجتمع و هو أن المجتمع ذو شخصيه واحده له كل المال الذى أقام الله به صلبه و جعله له معاشا فيلزم على المجتمع أن يدبره و يصلحه و يعرضه معرض النماء و يرتزق به ارتزاقا معتدلا مقتصدا و يحفظه عن الضيعه و الفساد، و من فروع هذا الأصل أنه يجب على الأولياء أن يتولوا أمر السفهاء فلا يؤتوهم أموالهم فيضيعوها بوضعها فى غير ما ينبغى أن توضع فيه بل عليهم أن يحبسوها عنهم و يصلحوا شأنها، و ينموها بالكسب و الاتجار و الاسترباح و يرزقوا أولئك السفهاء من فوائدها و نمائها دون أصلها حتى لا ينفد رويدها و ينتهى إلى مسكنه صاحب المال و شقوته.



و من هنا يظهر أن المراد بقوله: وَ ارزُقُوهُمْ فِيهَا وَ اكسُوهُمْ، أن يرتزق السفية في المال بأن يعيش من نمائه و نتاجه و أرباحه لا من المال بأن يشرع في الأكل من أصله على ركود منه من غير جريان و دوران فينفد عن آخره، و هذه هي النكته في قوله:

﴿فِيهَا﴾

دون أن يقول: «منها» كما ذكره الزمخشري.

و لا يبعد أن يستفاد من الآيه عموم ولايه المحجور عليهم بمعنى أن الله لا يرضى بإهمال أمر هؤلاء بل على المجتمع الإسلامي تولى أمرهم فإن كان هناك واحد من الأولياء الأقربين كالأب و الجد فعليه التولى و المباشرة، و إلا فعلى الحكومه الشرعيه أو على المؤمنين أن يقوموا بالأمر على التفصيل المذكور في الفقه.

### كلام في أن جميع المال لجميع الناس

هذه حقيقه قرآنيه هي أصل لأحكام و قوانين هامه في الإسلام أعني ما تفيده هذه الآيه: أن المال لله ملكا حقيقيا جعله قياما و معاشا للمجتمع الإنساني من غير أن يقفه على شخص دون شخص وقفا لا يتغير و لا يتبدل و هبه تنسلب معها قدره التصرف التشريعي ثم أذن في اختصاصهم بهذا الذي خوله الجميع على طبق نسب مشرعه كالوراثه و الحيازه و التجاره و غير ذلك و شرط لتصرفهم أمورا كالعقل و البلوغ و نحو ذلك.

و الأصل الثابت الذي يراعى حاله و يتقدر به فروعه هو كون الجميع للجميع، فإنما تراعى المصالح الخاصه على تقدير انحفاظ المصلحه العامه التي تعود إلى المجتمع و عدم المزاحمه، و أما مع المزاحمه و المفاوته فالمقدم هو صلاح المجتمع من غير تردد.

و يتفرع على هذا الأصل الأصيل في الإسلام فروع كثيره هامه كأحكام الإنفاق و معظم أحكام المعاملات و غير ذلك، و قد أيدته الله تعالى في موارد من كتابه كقوله تعالى: خَلَقَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً: «البقره: ٢٩»، و قد أوردنا بعض الكلام المتعلق بهذا المقام في البحث عن آيات الإنفاق من سوره البقره فليراجع هناك.

### [بيان]

قوله تعالى: «وَ ارزُقُوهُمْ فِيهَا وَ اكسُوهُمْ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا» قد تقدم استيفاء الكلام في معنى الرزق في قوله تعالى: وَ تَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ: «آل عمران: ٢٧» و قوله: وَ ارزُقُوهُمْ فِيهَا وَ اكسُوهُمْ، كقوله: وَ عَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَ كِسْوَتُهُنَّ:

«البقره: ٢٣٣» فالمراد بالرزق هو الغذاء الذى يغتذى به الإنسان و الكسوه ما يلبسه مما يقيه الحر و البرد(غير أن لفظ الرزق و الكسوه فى عرف القرآن كالكسوه و النفقه فى لساننا) كالكنايه يكنى بها عن مجموع ما ترتفع به حوائج الإنسان الماديه الحيويه فيدخل فيه سائر ما يحتاج إليه الإنسان كالمسكن و نحوه كما أن الأكل ذو معنى خاص بحسب أصله ثم يكنى به عن مطلق التصرفات كقوله: فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا الْآيَه.

و أما قوله: «وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا» فإنما هو كلمه أخلاقيه يصلح بها أمر الولايه فإن هؤلاء و إن كانوا سفهاء محجورين عن التصرف فى أموالهم غير أنهم ليسوا حيوانا أعجم و لا- من الأنعام السائمه بل بشر يجب أن يعامل معهم معاملة الإنسان فيكلموا بما يكلم به الإنسان لا بالمنكر من القول و يعاشروا بما يعاشر به الإنسان.

و من هنا يظهر أن الممكن أن يكون قوله: وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا . كناية عن المعامله الحسنه و المعاشره الممدوحه غير المذمومه كما فى قوله تعالى: «وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا»: «البقره: ٨٣».

قوله تعالى: «وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النُّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ» إلى قوله: «أَمْوَالَهُمْ» الابتلاء الامتحان و المراد من بلوغ النكاح بلوغ أوانه ففيه مجاز عقلى و الإيناس المشاهده و فيه شوب من معنى الألفه فإن مادته الأنس، و الرشد خلاف الغى و هو الاهتداء إلى مقاصد الحياه، و دفع مال اليتيم إليه كناية عن إعطائه إياه و إقباضه له كأن الولي يدفعه إليه و يبعده من نفسه فهو على ابتداله كناية لطيفه.

و قوله: حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النُّكَاحَ ، متعلق بقوله: وَابْتَلُوا ، ففيه دلالة ما على الاستمرار بأن يشرع الولي فى ابتلائه من أول ما يأخذ فى التمييز و يصلح للابتلاء حتى ينتهى إلى أوان النكاح و يبلغ مبلغ الرجال، و من طبع هذا الحكم ذلك فإن إيناس الرشد لا يحصل بابتلاء الصبى فى واقعه أو واقعتين بل يجب تكراره إلى أن يحصل الإيناس و يتمشى بالطبع فى مده مديده حتى يبلغ الرهاق ثم النكاح.

و قوله: فَإِنْ آنَسْتُمْ إِلَخ تفریع على قوله: وَابْتَلُوا و المعنى: و امتحنوهم فإن آنستم منهم الرشد فادفعوا إليهم أموالهم و الكلام يؤذن بأن بلوغ النكاح بمنزله المقتضى لدفع

المال إلى اليتيم و استقلاله بالتصرف في مال نفسه و الرشد شرط لنفوذ التصرف، و قد فصل الإسلام النظر في أمر البلوغ من الإنسان فافتى في أمر العبادات و أمثال الحدود و الديات بمجرد السن الشرعى الذى هو سن النكاح و اشترط في نفوذ التصرفات الماليه و الأقارير و نحوها مما تفصيل بيانه في الفقه مع بلوغ النكاح الرشد، و ذلك من لطائف سلوكه في مرحله التشريع فإن إهمال أمر الرشد و إلغاءه في التصرفات الماليه و نحوها مما يختل به نظام الحياه الاجتماعيه في قبيل الأيتام و يكون نفوذ تصرفاتهم و أقاريرهم مفضيا إلى غرور الأفراد الفاسده إياهم و إخراج جميع وسائل الحياه من أيديهم بأذنى وسيله بالكلمات المزيفه و المواعيد الكاذبه و المعاملات الغريره إلى ذلك فالرشد لا محيص من اشتراطه في هذا النوع من الأمور، و أما أمثال العبادات فعدم الحاجه فيها إلى الاشتراط ظاهر، و كذا أمثال الحدود و الديات فإن إدراك قبح هذه الجنايات و المعاصى و فهم وجوب الكف عنها لا يحتاج فيه إلى الرشد بل الإنسان يقوى على تفهم ذلك قبله و لا يختلف حاله في ذلك قبل الرشد و بعده.

قوله تعالى: «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِسْرَافًا وَ بِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا» اه الإسراف هو التعدى عن الاعتدال فى العمل، و البدار هو المبادره إلى الشىء و قوله وَ بِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا فى معنى حذر أن يكبروا فلا- يدعوكم أن تأكلوا، و حذف النفى أو ما فى معناه قبل أن و أن قياسى على ما ذكره النحاه قال تعالى: يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا: «النساء: ١٧٦» أى لئلا تضلوا أو حذر أن تضلوا.

و التقابل الواقع بين الأكل إسرافا و الأكل بدارا أن يكبروا يعطى أن الأكل إسرافا هو التعدى إلى أموالهم من غير حاجه و لا شائبه استحقاق بل إجحافا من غير مبالاه و الأكل بدارا أن يأكل الولى منها مثل ما يعد أجره لعمله فيها عاده غير أن اليتيم لو كبر أمكن أن يمنعه عن مثل هذا الأكل فالجميع ممنوع إلا أن يكون الولى فقيرا لا محيص له من أن يشتغل بالاكْتِسَاب لسد جوعه أو يعمل لليتيم و يسد حاجته الضروريه من ماله و هذا بالحقيقه يرجع إلى ما يأخذ العامل للتجاره و البنايه و نحوهما و هو الذى ذكره بقوله: مَنْ كَانَ غَنِيًّا أَى لَا- يحتاج فى معاشه إلى الأخذ من مال اليتيم فَلْيَسِّرْ تَعْفُفٌ أَى ليطلب طريق العفه و ليلزمه فلا يأخذ من أموالهم وَ مَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ مِنْهَا بِالْمَعْرُوفِ، و ذكر بعض المفسرين أن المعنى: فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ من مال نفسه لا من

أموالهم و هو لا يلائم التفصيل بين الغنى و الفقير.

و أما قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ فتشريع للاستشهاد عند الدفع تحكيماً للأمر و رفعا لغائله الخلاف و النزاع فمن الممكن أن يدعى اليتيم بعد الرشد و أخذ المال من الولي عليه، ثم ذيل الجميع بقوله تعالى: وَ كَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً ربطاً للحكم بمنشئه الأصلي الأولى أعنى محتد كل حكم من أسمائه و صفاته تعالى فإنه تعالى لما كان حسيباً لم يكن ليخلى أحكام عبادته من غير حساب دقيق و هو تشريعه المحكم، و تميماً للتربيته الإسلاميه فإن الإسلام يأخذ في تربيته الناس على أساس التوحيد إذ الإشهاد و إن كان رافعا غالباً للخلاف و النزاع لكن ربما تخلف عنه لانحراف من الشهود في عدالتهم أو غير ذلك من متفرقات العوامل لكن السبب المعنوي العالى القوى هو تقوى الله الذى كفى به حسيباً فلو جعل الولي و الشهود و اليتيم الذى دفع إليه المال هذا المعنى نصب أعينهم لم يقع هناك اختلاف و لا نزاع البته.

فانظر إلى الآيتين كيف أبدعتا فى البيان فقد بينتا أولاً رءوس مسائل الولاية على أموال اليتامى و المحجور عليهم و مهماتها: من كيفية الأخذ و الحفظ و الإنماء و التصرف و الرد و وقت الأخذ و الدفع و تحكيم مبناه ببيان وجه المصلحة العامه فى ذلك كله و هو أن المال لله جعله قياماً للإنسان على ما تقدم بيانه.

و ثانيا الأصل الأخلاقى الذى يربى الإنسان على وفق هذه الشرائع و هو الذى ذكره تعالى بقوله: وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا .

و ثالثاً ببناء الجميع على أصل التوحيد الحاكم بوحدته فى جميع الأحكام العمليه و الأخلاقية و الباقي على حسن تأثيره فى جميع الموارد لو فرض ضعف الأحكام العمليه و الدستورات الأخلاقية من حيث الأثر، و هو الذى ذكره بقوله: وَ كَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً .

## بحث روائى

فى الدر المنثور، \*فى قوله تعالى: وَ آتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمُ الْآيَةَ-أخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال: \*إن رجلاً من غطفان- كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم- فلما بلغ اليتيم طلب ماله فمنعه عنه- فخاصمه إلى النبى ص فنزلت الآية: وَ آتُوا الْيَتَامَىٰ

، الحديث.

و فى تفسير العياشى، عن الصادق (ع):\* لا يحل لمرء الرجل أن يجرى فى أكثر من أربعة أرحام من الحرائر.

و فى الكافى، عنه (ع):\* إذا جمع الرجل أربعة فطلق إحداهن فلا يتزوج الخامسة - حتى تنقضى عده المرأة التى تطلق.

أقول: و الروايات فى الباب كثيرة.

و فى العلل، بإسناده عن محمد بن سنان\*: أن الرضا (ع) كتب إليه فيما كتب - من جواب مسائله عله تزويج الرجل أربع نسوة - و تحريم أن تتزوج المرأة أكثر من واحد - لأن الرجل إذا تزوج أربع نسوة كان الولد منسوباً إليه، و المرأة لو كان لها زوجان أو أكثر من ذلك لم يعرف الولد لمن هو؟ إذ هم مشتركون فى نكاحها - و فى ذلك فساد الأنساب و المواريث و المعارف، قال محمد بن سنان: و من علل النساء الحرائر - (١) و تحليل أربع نسوة لرجل واحد أنهن أكثر من الرجال - فلما نظر - و الله أعلم - يقول الله عز و جل: فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثَلِيَّ وَ ثَلَاثَ وَ رِبَاعَ، فذلك تقدير قدره الله تعالى ليتسع فيه الغنى و الفقير - فيتزوج الرجل على قدر طاقته، الحديث.

و فى الكافى، عن الصادق (ع):\* فى حديث قال: و الغيره للرجال، و لذلك حرم على المرأة إلا زوجها - و أحل للرجل أربعاً - فإن الله أكرم من أن يتليهن بالغيره - و يحل للرجل معها ثلاثاً.

أقول: و يوضح ذلك أن الغيره هى إحدى الأخلاق الحميدة و الملكات الفاضله و هى تغير الإنسان عن حاله المعتاد، و نزوعه إلى الدفاع و الانتقام عند تعدى الغير إلى بعض ما يحترمه لنفسه من دين أو عرض أو جاه و يعتقد كرامته عليه، و هذه الصفه الغريزيه لا يخلو عنها فى الجملة إنسان أى إنسان فرض فهى من فطريات الإنسان، و الإسلام دين مبنى على الفطره تؤخذ فيه الأمور التى تقضى بها فطره الإنسان فتعدل بقصرها فيما هو صلاح الإنسان فى حياته، و يحذف عنها ما لا حاجة إليه فيها من وجوه الخلل و الفساد كما فى اقتناء المال و المأكول و المشرب و الملبس و المنكح و غير ذلك.

ص: ١٧٥

فإذا فرض أن الله سبحانه أحل للرجل مع المرأة الواحده ثلاثا آخر-و الدين مبنى على رعايه حكم الفطره-كان لازم ذلك أن يكون ما يترأى من حال النساء و تغيرهن على الرجال فى أمر الضرائر حسدا منهن لا غيره و سيتضح مزيد اتضاح فى البحث الآتى عن تعدد الزوجات أن هذا الحال حال عرضى طار عليهن لا غريزى فطرى.

و فى الكافى، بإسناده عن زراره عن الصادق(ع)قال\*: لا يرجع الرجل فيما يهب لامرأته، ولا المرأة فيما تهب لزوجها جيزت أو لم تجز-أليس الله تبارك و تعالى يقول: وَ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا؟ وَ قَالَ: فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِينًا مَرِينًا؟ وَ هَذَا يَدْخُلُ فِي الصَّدَاقِ وَ الْهَبِ.

و فى تفسير العياشى، عن عبد الله بن القداح عن أبى عبد الله عن أبيه(ع) قال\*: جاء رجل إلى أمير المؤمنين(ع)-فقال: يا أمير المؤمنين بى وجع فى بطنى-فقال له أمير المؤمنين(ع)أ لك زوجة؟قال: نعم-قال استوهب منها شيئا طيبه به نفسها من مالها-ثم اشتر به عسلا ثم اسكب عليه من ماء السماء-ثم اشربه فىنى سمعت الله يقول فى كتابه: وَ نَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا، وَ قَالَ: يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ، وَ قَالَ: فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِينًا مَرِينًا، شفيت إن شاء الله تعالى، قال: ففعل ذلك فشفى:

أقول: و رواه أيضا فى الدر المنثور عن عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عنه(ع) و هو نوع من الاستفاده لطيف، و بناؤه على التوسعه فى المعنى و يوجد له نظائر فى الأخبار المأثوره عن أئمه أهل البيت(ع)سنورد بعضها فى الموارد المناسبه له.

و فى الكافى، عن الباقر(ع)\*: إذا حدثتكم بشيء فاسألونى من كتاب الله، ثم قال فى بعض حديثه: إن رسول الله ص نهى عن القيل و القال، و فساد المال، و كثيره السؤال، فقيل له: يا بن رسول الله أين هذا من كتاب الله؟قال: إن الله عز و جل يقول: لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ-إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصِدْقِهِ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ، وَ قَالَ: وَ لَا تَوُتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فِيهَا مَأْوًى، وَ قَالَ: لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ .

و فى تفسير العياشى، عن يونس بن يعقوب قال \* : سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله: **وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ** ، قال: من لا تثق به.

و فيه، عن إبراهيم بن عبد الحميد قال \* : سألت أبا عبد الله (ع) عن هذه الآية - **وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ** قال: كل من يشرب الخمر فهو سفیه.

و فيه، عن على بن أبى حمزه عن أبى عبد الله (ع) قال \* : سألته عن قول الله: **وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ** قال: هم اليتامى لا تعطوهم أموالهم حتى تعرفوا منهم الرشد - فقلت: فكيف يكون أموالهم أموالنا؟ قال: إذا كنت أنت الوارث لهم.

و فى تفسير القمى، عن الباقر (ع) \* : فى الآية: فالسفهاء النساء - و الولد إذا علم الرجل أن امرأته سفیهه مفسده - و ولده سفیهه مفسد - لم ينبغ له أن يسلط واحدا منهما - على ماله الذى جعل الله له قياما يقول: معاشا الحديث.

أقول: و الروايات فى هذه المعانى كثيره، و هى تؤيد ما قدمناه أن للسفه معنى وسيع ذو مراتب كالسفيه المحجور عليه و الصبى قبل أن يرشد و المرأه المتلهيه المتهوسه و شارب الخمر و مطلق من لا - تثق به، و بحسب اختلاف هذه المصاديق يختلف معنى إيتاء المال، و كذا معنى إضافة «أموالكم» و عليك بالتطبيق و الاعتبار.

و قوله فى روايه ابن أبى حمزه: إذا كنت أنت الوارث لهم إشاره إلى ما قدمناه أن المال كله للمجتمع بحسب الأصل ثم لكل من الأشخاص ثانيا و للمصالح الخاصه فإن اشتراك المجتمع فى المال أولا هو الموجب لانتقاله من واحد إلى آخر.

و فى الفقيه، عن الصادق (ع) \* : انقطاع يتم اليتيم الاحتلام و هو أشده، و إن احتلم و لم يؤنس منه رشد و كان سفیها أو ضعيفا - فليمسك عنه وليه ماله.

و فيه، عنه (ع) \* : فى قوله تعالى: **وَ ابْتُلُوا اليتامى** الآية - قال: إيناس الرشد حفظ المال.

أقول: و قد تقدم وجه دلالة الآية عليه.

و فى التهذيب، عنه (ع) \* : فى قول الله: **وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ** قال:

فذاك رجل يحبس نفسه عن المعيشه - فلا بأس أن يأكل بالمعروف إذا كان يصلح لهم - فإن كان المال قليلا فلا يأكل منه شيئا.

و فى الدر المشور، أخرج أحمد و أبو داود و النسائى و ابن ماجه و ابن أبى حاتم

و النحاس فى ناسخه عن ابن عمر\*: أن رجلاً سأل رسول الله ص فقال: ليس لى مال و لى يتيم فقال: كل من مال يتيمك غير مسرف و لا مبذر و لا متأثر مالا- و من غير أن تقى مالك بماله.

أقول: و الروايات فى هذه المعانى كثيره من طرق أهل البيت (ع) و غيرهم، و هناك مباحث فقيهيه و أخبار ناظره إليها من أرادها فعليه بجوامع الحديث و كتب الفقه.

و فى تفسير العياشى، عن رفاعه عنه(ع)\*: فى قوله تعالى: فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ، قال (ع): كان أبى يقول: إنها منسوخه.

و فى الدر المنثور، أخرج أبو داود و النحاس كلاهما فى النسخ و ابن المنذر من طريق عطاء عن ابن عباس ":

وَ مَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ

قال: نسختها: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا الْآيَةَ.

أقول: و كون الآيه منسوخه لا- يلائم ميزان النسخ إذ ليس بين الآيات الكريمة ما نسبتها إلى هذه الآيه نسبة النسخه إلى المنسوخه، و أما قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا الْآيَةَ فهو لا ينافى بمضمونه مضمون هذه الآيه فإن الأكل فى هذه الآيه المجوزه مقيد بالمعروف، و فى تلك الآيه المحرمه بالظلم و لا- تنافى بين تجويز الأكل بالمعروف و تحريم الأكل ظلماً، فالحق أن الآيه غير منسوخه، و الروايتان لا توافقان الكتاب على ما فيهما من الضعف.

و فى تفسير العياشى، عن عبد الله بن المغيرة عن جعفر بن محمد(ع)\*: فى قول الله:

فَإِنْ أَنْسَلْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ

-قال: فقال: إذا رأيتموهم يحبون آل محمد فارفعوهم درجه.

أقول: و هو من الجرى من باطن التنزيل فإن أئمة الدين آباء المؤمنين و المؤمنون أيتام المعارف عند انقطاعهم عنهم فإذا صح انتسابهم إليهم بالحب فليرفعوا درجه بتعليم المعارف الحقه التى هى ميراث آباؤهم.

## بحث علمى فى فصول ثلاثة

### ١- النكاح من مقاصد الطبيعه:

أصل التواصل بين الرجل و المرأة مما تبينه



الطبيعه الإنسانيه بل الحيوانيه بأبلغ بيانها، والإسلام دين الفطره فهو مجوزه لا محاله.

و أمر الإيلاذ و الإفراخ الذى هو بغيه الطبيعه و غرض الخلقه فى هذا الاجتماع هو السبب الوحيد و العامل الأصلى فى تقلب هذا العمل فى قالب الازدواج و إخراجة من مطلق الاختلاط للسفاد و المقاربه إلى شكل النكاح و الملازمه و لهذا ترى أن الحيوان الذى يشترك فى تربيته الوالدان معا كالطيور فى حضانه بيضها و تغذيه أفراخها و تربيتها و كالحيوان الذى يحتاج فى الولاده و التريه إلى وكر تحتاج الإناث منه فى بنائه و حفظه إلى معاونه الذكور يختار لهذا الشأن الازدواج و هو نوع من الملازمه و الاختصاص بين الزوجين الذكور و الإناث منه فيتواصلان عندئذ و يتشاركان فى حفظ بيض الإناث و تدبيرها و إخراج الأفراخ منها و هكذا إلى آخر مده تربيه الأولاد ثم انفصالان إن انفصلا ثم يتجدد الازدواج و هكذا فعامل النكاح و الازدواج هو الإيلاذ و تربيه الأولاد و أما إطفاء نائره الشهوه أو الاشتراك فى الأعمال الحيويه كالكسب و جمع المال و تدبير الأكل و الشرب و الأثاث و إداره البيت فأمور خارجه عن مستوى غرض الطبيعه و الخلقه و إنما هى أمور مقدميه أو فوائد مترتبه.

و من هنا يظهر أن الحريه و الاسترسال من الزوجين بأن يتواصل كل من الزوجين مع غير زوجه أيما أراد و مهما أراد من غير امتناع كالحيوان العجم الذى ينزو الذكور منه على الإناث أيما وجدها على ما يكاد يكون هو السنه الجاربه بين الملل المتمدنه اليوم و كذا الزنا و خاصه زنا المحصنه منه.

و كذا تثبت الازدواج الواقع و تحريم الطلاق و الانفصال بين الزوجين، و ترك الزوج و اتخاذ زوج آخر ما دامت الحياه تجمع بينهما.

و كذا إلغاء التوالد و تربيه الأولاد و بناء الازدواج على أساس الاشتراك فى الحياه المنزليه على ما هو المتداول اليوم بين الملل الراقبه و نظيره إرسال المواليد إلى المعاهد العامه المعده للرضاع و التريه كل ذلك على خلاف سنه الطبيعه و قد جهز الإنسان بما ينافى هذه السنن الحديثه على ما مرت الإشارة إليه.

نعم الحيوان الذى لا حاجه فى ولادته و تربيته إلى أزيد من حمل الأم إياه و إرضاعها له و تربيته بمصاحبها فلا حاجه طبيعه فيه إلى الازدواج و المصاحبه

و الاختصاص فهذا النوع من الحيوان له حريه السفاد بمقدار ما لا يضر بغرض الطبيعه من جهه حفظ النسل.

و إياك أن تتوهم أن الخروج عن سنه الخلقه و ما تستدعيه الطبيعه لا بأس به بعد تدارك النواقص الطارئه بالفكر و الرويه مع ما فيه من لذائذ الحياه و التمتع، فإن ذلك من أعظم الخبط فإن هذه البنيات الطبيعه التي منها البنيه الإنسانيه مركبات مؤلفه من أجزاء كثيره تستوجب بوقوع كل فى موقعه الخاص على شرائطه المخصوصه به وضعا هو الملائم لغرض الطبيعه و الخلقه و هو المناسب لكمال النوع كالمعاجين و المركبات من الأدويه التي تحتاج إلى أجزاء بأوصاف و مقادير و أوزان و شرائط خاصه لو خرج واحد منها عن هيئته الخاصه أدنى خروج و انحراف سقط الأثر.

فالإنسان مثلا- موجود طبيعى تكوينى ذو أجزاء مركبه تركيبا خاصا يستتبع أوصافا داخلية و خواص روحية تستعقب أفعالا- و أعمالا فإذا حول بعض أفعاله و أعماله من مكانته الطبيعه إلى غيرها يستتبع ذلك انحرافا و تغيرا فى صفاته و خواصه الروحيه و انحرف بذلك جميع الخواص و الصفات عن مستوى الطبيعه و صراط الخلقه و بطل بذلك ارتباطه بكماله الطبيعى و الغايه التي يبتغيها بحسب الخلقه.

و إذا بحثنا فى المصائب العامه التي تستوعب اليوم الإنسانيه و تحبط أعمال الناس و مساعيهم لنيل الراحة و الحياه السعيده و تهدد الإنسانيه بالسقوط و الانهدام وجدنا أن أقوى العوامل فيها بطلان فضيله التقوى و تمكن الخرق و القسوه و الشده و الشره من نفوس الجوامع البشرية و أعظم أسبابه و علله الحريه و الاسترسال و الإهمال فى نواميس الطبيعه فى أمر الزوجيه و تربيته الأولاد فإن سنه الاجتماع المنزلى و تربيته الأولاد اليوم تमित قرائح الرأفه و الرحمه و العفه و الحياه و التواضع من الإنسان من أول حين يأخذ فى التمييز إلى آخر ما يعيش.

و أما تدارك هذه النواقص بالفكر و الرويه فهيهات ذلك فإنما الفكر كسائر لوازم الحياه وسيله تكوينيه اتخذتها الطبيعه وسيله لرد ما خرج و انحرف عن صراط الطبيعه و التكوين إليه لا- لإبطال سعى الطبيعه و الخلقه و قتلها بنفس السيف الذي أعطته للإنسان لدفع الشر عنها، و لو استعمل الفكر الذي هو أحد وسائل الطبيعه فى تأييد ما أفسد من شئون الطبيعه عادت هذه الوسيله أيضا فاسده منحرفه كسائر

الوسائل، و لذلك ترى أن الإنسان اليوم كلما أصلح بقوه فكره واحده من المفاسد العامه التي تهدد اجتماعه أنتج ذلك ما هو أمر و أدهى و زاد البلاء و المصيبة شيوعا و شمولاً.

نعم ربما قال القائل من هؤلاء: إن الصفات الروحيه التي تسمى فضائل نفسانيه هي بقايا من عهد الأساطير و التوحش لا تلائم حياه الإنسان الراقي اليوم كالعفه و السخاء و الحياء و الرأفه و الصدق فإن العفه تقييد لطبيعته النفس فيما تشتهيه من غير وجه، و السخاء إبطال لسعى الإنسان في جمعه المال و ما قاساه من المحن في طريق اكتسابه على أنه تعويد للمسكين بالبطاله في الاكتساب و بسط يده لذل السؤال، و الحياء لجام يلجم الإنسان عن مطالبه حقوقه و إظهار ما في ضميره، و الرأفه تضعف القلب، و الصدق لا يلائم الحياه اليوميه، و هذا الكلام بعينه من مصاديق الانحراف الذي ذكرناه.

و لم يدر هذا القائل إن هذه الفضائل في المجتمع الإنساني من الواجبات الضروريه التي لو ارتفعت من أصلها لم يعيش المجتمع بعدها في حال الاجتماع و لا ساعه.

فلو ارتفعت هذه الخصال و تعدى كل فرد إلى ما لكل فرد من مختصات الحقوق و الأموال و الأعراض، و لم يسخ أحد ببذل ما مست إليه حاجه المجتمع، و لم يفعل أحد من مخالفه ما يجب عليه رعايته من القوانين و لم يرأف أحد بالعجزه الذين لا ذنب لهم في عجزهم كالأطفال و من في تلوهم، و كذب كل أحد لكل أحد في جميع ما يخبر به و يعده و هكذا تلاشى المجتمع الإنساني من حينه.

فينبغي لهذا القائل إن يعلم أن هذه الخصال لا ترتحل و لن ترتحل عن الدنيا، و أن طبيعته الإنسانيه مستمسكه بها حافظه لحياتها ما دامت داعيه للإنسان إلى الاجتماع، و إنما الشأن كل الشأن في تنظيم هذه الصفات و تعديلها بحيث توافق غرض الطبيعه و الخلقه في دعوتها الإنسان إلى سعادته الحياه، و لو كانت الخصال الدائره في المجتمع المترقى اليوم فضائل للإنسانيه معدله بما هو الحرى من التعديل لما أوردت المجتمع مورد الفساد و الهلكه و لأقر الناس في مستقر أمن و راحه و سعادته.

و لنعد إلى ما كنا فيه من البحث فنقول: الإسلام وضع أمر الازدواج فيما ذكرناه موضعه الطبيعي فأحل النكاح و حرم الزنا و السفاح، و وضع علقه الزوجيه على أساس جواز المفارقه و هو الطلاق، و وضع هذه العلقه على أساس الاختصاص في الجملة على ما

سنشرحه، و وضع عقد هذا الاجتماع على أساس التوالد و التربيه، و من الأحاديث النبويه المشهوره

قوله (ص): تناكحوا تناسلوا تكثروا الحديث.

## ٢- استيلاء الذكور على الإناث:

ثم إن التأمل في سفاد الحيوانات يعطى أن للذكور منها شائبه استيلاء على الإناث في هذا الباب فإننا نرى أن الذكر منها كأنه يرى نفسه مالكا للبضع مسلطا على الأنثى، و لذلك ما ترى أن الفحوله منها تتنازع و تتشاجر على الإناث من غير عكس فلا تثور الأنثى على مثلها إذا مال إليها الذكر بخلاف العكس، و كذا ما يجرى بينها مجرى الخطبه من الإنسان إنما يبدأ من ناحيه الذكران دون الإناث، و ليس إلا أنها ترى بالغريزه أن الذكور في هذا العمل كالفاعل المستعلى و الإناث كالقابل الخاضع، و هذا المعنى غير ما يشاهد من نحو طوع من الذكور للإناث في مراعاة ما تميل إليه نفسها و يستلذه طبعها فإن ذلك راجع إلى مراعاة جانب العشق و الشهوه و استزاده اللذه، و أما نحو الاستيلاء و الاستعلاء المذكور فإنه عائد إلى قوه الفحوله و إجراء ما تأمر به الطبيعه.

و هذا المعنى أعنى لزوم الشده و البأس لقبيل الذكور و اللين و الانفعال لقبيل الإناث مما يوجد الاعتقاد به قليلا أو كثيرا عند جميع الأمم حتى سرى إلى مختلف اللغات فسمى كل ما هو شديد صعب الانقياد بالذكر و كل لين سهل الانفعال بالأنثى يقال: حديد ذكر و سيف ذكر و نبت ذكر و مكان ذكر و هكذا.

و هذا الأمر جار في نوع الإنسان دائر بين المجتمعات المختلفه و الأمم المتنوعه في الجملة و إن كان ربما لم يخل من الاختلاف زياده و نقيصه.

و قد اعتبره الإسلام في تشريعه قال الله تعالى: الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ «النساء: ٣٤» فشرع و جوب إجابتها له إذا دعاها إلى مواقعه إن أمكنت لها.

## ٣- تعدد الزوجات:

و أمر الوحده و التعدد فيما نشاهده من أقسام الحيوان غير واضح ففيما كان بينها اجتماع منزلى تتأحد الإناث و تختص بالذكر لما أن الذكور في شغل شاغل في مشاركتها في تدبير المنزل و حضانه الأفراخ و تربيتها و ربما تغير الوضع الجارى بينها بالصناعه و التدبير و الكفاله أعنى بالتأهيل و التربيه كما يشاهد من

أمر الديك و الدجاج و الحمام و نحوها.

و أما الإنسان فاتخاذ الزوجات المتعدده كانت سنه جاريه فى غالب الأمم القديمه كمصر و الهند و الصين و الفرس بل و الروم و اليونان فإنهم كانوا ربما يضيفون إلى الزوجه الواحده فى البيت خدنا يصاحبونها بل و كان ذلك عند بعض الأمم لا ينتهى إلى عدد يقف عليه كاليهود و العرب فكان الرجل منهم ربما تزوج العشره و العشرين و أزيد و قد ذكروا أن سليمان الملك تزوج مئات من النساء.

و أغلب ما كان يقع تعدد الزوجات إنما هو فى القبائل و من يحذو حذوهم من سكان القرى و الجبال فإن لرب البيت منهم حاجه شديده إلى الجمع و كثره الأعضاء فكانوا يقصدون بذلك التكاثر فى البنين بكثره الاستيلاء ليهون لهم أمر الدفاع الذى هو من لوازم عيشتهم و ليكون ذلك وسيله يتوسلون بها إلى التروؤس و السؤدد فى قومهم على ما فى كثره الازدواج من تكثر الأقرباء بالمصاهره.

و ما ذكره بعض العلماء أن العامل فى تعدد الزوجات فى القبائل و أهل القرى إنما هو كثره المشاغل و الأعمال فيهم كأعمال الحمل و النقل و الرعى و الزراعه و السقايه و الصيد و الطبخ و النسج و غير ذلك فهو و إن كان حقا فى الجملة إلا أن التأمل فى صفاتهم الروحيه يعطى أن هذه الأعمال فى الدرجه الثانيه من الأهميه عندهم، و ما ذكرناه هو الذى يتعلق به قصد الإنسان البدوى أولا و بالذات كما أن شيوع الادعاء و التبنى أيضا بينهم سابقا كان من فروع هذا الغرض.

على أنه كان فى هذه الأمم عامل أساسى آخر لتداول تعدد الزوجات بينهم و هو زياده عدده النساء على الرجال بما لا يتسامح فيه فإن هذه الأمم السائره بسيره القبائل كانت تدوم فيهم الحروب و الغزوات و قتل الفتك و الغيله فكان القتل يفتى الرجال، و يزيد عدد النساء على الرجال زياده لا ترتفع حاجه الطبيعه معها إلا بتعدد الزوجات-هذا.

و الإسلام شرع الازدواج بواحد، و أنفذ التكثير إلى أربع بشرط التمكن من القسط بينهن مع إصلاح جميع المحاذير المتوجهه إلى التعدد على ما سنشير إليها قال الله تعالى: **وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**: «البقره: ٢٢٨».

و قد استشكلوا على حكم تعدد الزوجات:

أولاً: أنه يضع آثاراً سيئه في المجتمع فإنه يقرع قلوب النساء في عواطفهن و يخيب آمالهن و يسكن فوره الحب في قلوبهن فينعكس حس الحب إلى حس الانتقام فيهملن أمر البيت و يتناقلن في تربيته الأولاد و يقابلن الرجال بمثل ما أساءوا إليهن فيشيع الزنا و السفاح و الخيانه في المال و العرض فلا يلبث المجتمع دون أن ينحط في أقرب وقت.

و ثانياً: أن التعدد في الزوجات يخالف ما هو المشهود المتراءى من عمل الطبيعة فإن الإحصاء في الأمم و الأجيال يفيد أن قبلي الذكور و الإناث متساويان عدداً تقريباً فالذئ هياته الطبيعة هو واحد لواحد، و خلاف ذلك خلاف غرض الطبيعة.

و ثالثاً: أن في تشريع تعدد الزوجات ترغيباً للرجال إلى الشره و الشهوه، و تقويه لهذه القوه في المجتمع.

و رابعاً: أن في ذلك خطأ لوزن النساء في المجتمع بمعادله الأربع منهن بواحد من الرجال و هو تقويم جائر حتى بالنظر إلى مذاق الإسلام الذي سوى فيه بين مرأتين و رجل كما في الإرث و الشهاده و غيرهما، و لازمه تجويز التزوج باثنتين منهن لا أزيد ففي تجويز الأربع عدول عن العدل على أى حال من غير وجه و هذه الإشكالات مما اعترض بها النصارى على الإسلام أو من يوافقهم من المدنيين المنتصرين لمسأله تساوى حقوق الرجال و النساء في المجتمع.

و الجواب عن الأول ما تقدم غير مره في المباحث المتقدمه أن الإسلام وضع بنيه المجتمع الإنسانى على أساس الحياه العقلية دون الحياه الإحساسيه فالمتبع عنده هو الصلاح العقلى في السنن الاجتماعيه دون ما تهواه الإحساسات و تنجذب إليه العواطف و ليس في ذلك إماتة العواطف و الإحساسات الرقيقه و إبطال حكم المواهب الإلهيه و الغرائز الطبيعيه فإن من المسلم في الأبحاث النفسيه أن الصفات الروحيه و العواطف و الإحساسات الباطنه تختلف كما و كيفاً باختلاف التربه و العاده، كما أن كثيراً من الآداب و الرسوم الممدوحه عند الشرقيين مثلاً مذمومه عند الغربيين و بالعكس، و كل أمه تختلف مع غيرها في بعضها.

و التربية الدينيه فى الإسلام تقيم المرأه الإسلاميه مقاما لا تتألم بأمثال ذلك عواطفها. نعم المرأه الغريبه حيث اعتادت منذ قرون بالوحده و لفتت بذلك جيلا بعد جيل استحکم فى روحها عاطفه نفسانيه تضاد التعدد. و من الدليل على ذلك الاسترسال الفطيع الذى شاعت بين الرجال و النساء فى الأمم المتمدنه! اليوم.

أليس رجالهم يقضون أوطار الشهوه من كل من هووها و هوتهم من نساءهم من محارم و غيرها و من بكر أو ثيب و من ذات بعل أو غيرها، حتى أن الإنسان لا يقدر أن يقف فى كل ألف منهم بواحد قد سلم من الزنا سواء فى ذلك الرجال و النساء و لم يقنعوا بذلك حتى وقعوا فى الرجال وقوعا قل ما يسلم منه فرد حتى بلغ الأمر مبلغا رفعا قبيل سنه إلى برلمان بريطانيا العظمى أن يبيح لهم اللواط سنه قانونيه و ذلك بعد شيوعه بينهم من غير رسميه، و أما النساء و خاصه الأباكار و غير ذوات البعل من الفتيات فالأمر فيهن أغرب و أفضع.

فليت شعرى كيف لا تأسف النساء هناك و لا يتحرجن و لا تنكسر قلوبهن و لا تتألم عواطفهن حين يشاهدن كل هذه الفضائح من رجالهن؟ و كيف لا- تتألم عواطف الرجل و إحساساته حين يبنى بفتاه ثم يجدها ثيبا فقدت بكارتها و افترشت لا للواحد و الا-ثنين من الرجال ثم لا- يلبث حتى يباهى بين الأقران أن السيده ممن توفرت عليها رغبات الرجال و تنافس فى القضاء منها العشرات و المئات!! و هل هذا إلا أن هذه السيئات تكررت بينهم و نزعه الحريه تمكنت من أنفسهم حتى صارت عاده عريقه مألوفه لا- تمتنع منها العواطف و الإحساسات و لا تستنكرها النفوس؟ فليس إلا أن السنن الجاريه تميل العواطف و الإحساسات إلى ما يوافقها و لا يخالفها.

و أما ما ذكره من استلزام ذلك إهمالهن فى تدبير البيت و تثاقلهن فى تربيه الأولاد و شيوع الزنا و الخيانه فالذى أفادته التجربه خلاف ذلك فإن هذا الحكم جرى فى صدر الإسلام و ليس فى وسع أحد من أهل الخبره بالتاريخ أن يدعى حصول وقفه فى أمر المجتمع من جهته بل كان الأمر بالعكس.

على أن هذه النساء اللاتى يتزوج بهن على الزوجه الأولى فى المجتمع الإسلامى و سائر المجتمعات التى ترى ذلك أعنى الزوجه الثانيه و الثالثه و الرابعه إنما يتزوج بهن عن رضاه و رغبه منهن و هن من نساء هذه المجتمعات، و لم يسترققهن الرجال من مجتمعات

أخرى، و لا جلبوهن للنكاح من غير هذه الدنيا و إنما رغبين في مثل هذا الازدواج لعلل اجتماعيه، فطباع جنس المرأه لا يمتنع عن مسأله تعدد الزوجات، و لا قلوبهن تتألم منها بل لو كان شىء من ذلك فهو من لوازم أو عوارض الزوجيه الأولى أعنى أن المرأه إذا توحدت للرجل لا تحب أن ترد عليها و على بيتها أخرى لخوفها أن تميل عنها بعلها أو تترأس عليها غيرها أو يختلف الأولاد و نحو ذلك فعدم الرضاء و التألم فيما كان إنما منشؤه حاله عرضيه (التوحد بالبعل) لا غريزه طبيعیه.

و الجواب عن الثانى أن الاستدلال بتسويه الطبيعه بين الرجال و النساء فى العدد مختل من وجوه.

منها أن أمر الازدواج لا يتكى على هذا الذى ذكره فحسب بل هناك عوامل و شرائط أخرى لهذا الأمر فأولا الرشد الفكرى و التهيؤ لأمر النكاح أسرع إلى النساء منها إلى الرجال فالنساء و خاصه فى المناطق الحاره إذا جزن التسع صلحن للنكاح، و الرجال لا يتهيئون لذلك غالبا قبل الست عشره من السنين (و هو الذى اعتبره الإسلام للنكاح).

و من الدليل على ذلك السنه الجاربه فى فتيات الأمم المتمدنه فمن الشاذ النادر أن تبقى فتاه على بكارتها إلى سن البلوغ القانونى فليس إلا أن الطبيعه هياتها للنكاح قبل تهيئتها الرجال لذلك.

و لازم هذه الخاصه أن لو اعتبرنا مواليد ست عشره سنه من قوم (و الفرض تساوى عدد الذكور و الإناث فيهم) كان الصالح للنكاح فى السنه السادسه عشر من الرجال و هى سنه أول الصلوح مواليد سنه واحده و هم مواليد السنه الأولى المفروضه، و الصالحه للنكاح من النساء مواليد سبع سنين و هى مواليد السنه الأولى إلى السابعه، و لو اعتبرنا مواليد خمس و عشرين سنه و هى سن بلوغ الأشد من الرجال حصل فى السنه الخامسه و العشرين على الصلوح من الرجال مواليد عشره سنين و من النساء مواليد خمس عشره سنه، و إذا أخذنا بالنسبه الوسطى حصل لكل واحد من الرجال اثنتان من النساء بعمل الطبيعه.

و ثانيا أن الإحصاء كما ذكره يبين أن النساء أطول عمرا من الرجال و لازمه أن



تهيئ سنه الوفاه و الموت عددا من النساء ليس بحذائهن رجال (١).

و ثالثا: أن خاصه النسل و التوليد تدوم فى الرجال أكثر من النساء فالأغلب على النساء أن يئسن من الحمل فى سن الخمسين و يمكث ذلك فى الرجال سنين عديده بعد ذلك، و ربما بقى قابليه التوليد فى الرجال إلى تمام العمر الطبيعى و هى مائه سنه فيكون عمر صلاحيه الرجال للتوليد و هو ثمانون سنه تقريبا ضعفه فى المرأه و هو أربعون تقريبا، و إذا ضم هذا الوجه إلى الوجه السابق أنتج أن الطبيعه و الخلقه أباح للرجال التعدى من الزوجه الواحده إلى غيرها فلا- معنى لتهيئه قوه التوليد و المنع عن الاستيلاء من محل شأنه ذلك فإن ذلك مما تأباه سنه العلل و الأسباب الجاربه.

و رابعا: أن الحوادث المبيده لأفراد المجتمع من الحروب و المقاتل و غيرهما تحل بالرجال و تفنيهم أكثر منها بالنساء بما لا يقاس كما تقدم أنه كان أقوى العوامل لشيوع تعدد الزوجات فى القبائل فهذه الأرامل و النساء العزل لا محيص لهن عن قبول التعدد أو الزنا أو خييه القوه المودعه فى طبائهن و بطلانها.

و مما يتأيد به هذه الحقيقه ما وقع فى الألمان الغربى قبل عدّه شهور من كتابه هذه الأوراق: أظهرت جمعيه النساء العزل تحرجها من فقدان البعوله و سألت الحكومه أن يسمح لهن بسنه تعدد الزوجات الإسلاميه حتى يتزوج من شاء من الرجال بأزيد من واحد و يرتفع بذلك غائله الحرمان، غير أن الحكومه لم تجبهن فى ذلك و امتنعت الكنيسه من قبوله و رضيت بفسو الزنا و شيوعه و فساد النسل به.

و منها أن الاستدلال بتسويه الطبيعه النوعيه بين الرجال و النساء فى العدد مع

ص: ١٨٧

١- ١) و مما يؤيد ذلك ما نشره بعض الجرائد فى هذه الأيام (جريده الاطلاعات المنتشره فى طهران المؤرخه بالثلاثاء ١١ ديماه سنه ١٣٣٥ شمسى) حكايه عن دائره الإحصاء فى فرنسا ما حاصله: قد تحصل بحسب الإحصاء أنه يولد فى فرنسا حذاء كل «١٠٠» مولوده من البنات «١٠٥» من البنين، و مع ذلك فإن الإناث يربو عدتهم على عدّه الذكور بما يعادل «١٧٦٥٠٠٠» نسمة، و نفوس المملكه «٤٠ مليوناً تقريبا» و السبب فيه أن البنين أضعف مقاومه من البنات قبال الأمراض و يهلك بها «٥ در صد» الزائد منهم إلى سنه «١٩» من الولاده. ثم يأخذ عدّه الذكور فى النقص ما بين ٢٥-٣٠ من السنين حتى إذا بلغوا سنى ٦٠-٦٥ لم يبق تجاه كل «١٥٠٠٠٠٠» من الإناث إلى «٧٥٠٠٠٠» من الذكور

الغض عما تقدم إنما يستقيم فيما لو فرض أن يتزوج كل رجل في المجتمع بأكثر من الواحده إلى أربع من النساء لكن الطبيعه لا تسمح بإعداد جميع الرجال لذلك ولا يسع ذلك بالطبع إلا لبعضهم دون جميعهم والإسلام لم يشرع تعدد الزوجات بنحو الفرض والوجوب على الرجال بل إنما أباح ذلك لمن استطاع أن يقيم القسط منهم، ومن أوضح الدليل على عدم استلزام هذا التشريع حرجا ولا فسادا أن سير هذه السنه بين المسلمين و كذا بين سائر الأمم الذين يرون ذلك لم يستلزم حرجا من قحط النساء و إعوازهن على الرجال. بل بالعكس من ذلك أعد تحريم التعدد في البلاد التي فيها ذلك ألوفا من النساء حرمن الأزواج والاجتماع المنزلى و اكتفين بالزنا.

و منها أن الاستدلال المذكور مع الإغماض عن ما سبق إنما يستقيم لو لم يصلح هذا الحكم و لم يعدل بتقييده بقيود ترتفع بها المحاذير المتوهمه فقد شرط الإسلام على من يريد من الرجال التعدد أن يقيم العدل في معاشرتهم بالمعروف و فى القسم و الفراش و فرض عليهم نفقتهم ثم نفقه أولادهن و لا يتيسر الإنفاق على أربع نسوه مثلا و من يلدنه من الأولاد مع شريطه العدل فى المعاشره و غير ذلك إلا لبعض أولى الطول و السعه من الناس لا لجميعهم.

على أن هناك طرقا دينيه شرعيه يمكن أن تستريح إليها المرأه فتلتزم الزوج على الاقتصار عليها و الإغماض عن التكثير.

و الجواب عن الثالث: أنه مبنى على عدم التدبر فى نحو التربيه الإسلاميه و مقاصد هذه الشريعه فإن التربيه الدينيه للنساء فى المجتمع الإسلامى الذى يرتضيه الدين بالستر و العفاف و الحياء و عدم الخرق تنمى المرأه و شهوه النكاح فيها أقل منها فى الرجل (على الرغم مما شاع أن شهوه النكاح فيها أزيد و أكثر و استدل عليه بتولعها المفرط بالزينه و الجمال طبعاً) و هذا أمر لا يكاد يشك فيه رجال المسلمين ممن تزوج بالنساء الناشئات على التربيه الدينيه فشوهه النكاح فى المتوسط من الرجال تعادل ما فى أكثر من امرأه واحده بل و المرأتين و الثالث.

و من جهه أخرى من عنايه هذا الدين أن يرتفع الحرمان فى الواجب من مقتضيات الطبع و مشتبهات النفس فاعتبر أن لا تختزن الشهوه فى الرجل و لا يحرم منها فيدعوه ذلك إلى التعدى إلى الفجور و الفحشاء و المرأه الواحده ربما اعتذرت فيما يقرب من ثلث

أوقات المعاشرة و المصاحبه كأيام العاده و بعض أيام الحمل و الوضع و الرضاع و نحو ذلك و الإسراع فى رفع هذه الحاجه الغريزيه هو لازم ما تكرر منا فى المباحث السابقه من هذا الكتاب أن الإسلام يبنى المجتمع على أساس الحياه العقلية دون الحياه الإحساسيه فبقاء الإنسان على حاله الإحساس الداعيه إلى الاسترسال فى الأهواء و الخواطر السوء كحال التعذب و نحوه من أعظم المخاطر فى نظر الإسلام.

و من جهه أخرى من أهم المقاصد عند شارع الإسلام تكثر نسل المسلمين و عماره الأرض بيد مجتمع مسلم عماره صالحه ترفع الشرك و الفساد.

فهذه الجهات و أمثالها هى التى اهتم بها الإسلام فى تشريع تعدد الزوجات دون ترويج أمر الشهوه و ترغيب الناس إلى الانكباب عليها و لو أنصف هؤلاء المستشكلون كان هذه السنن الاجتماعيه المعروفه بين هؤلاء البانين للاجتماع على أساس التمتع المادى أولى بالرعى بترويج الفحشاء و الترغيب إلى الشره من الإسلام البانى للاجتماع على أساس السعاده الدينيه.

على أن فى تجويز تعدد الزوجات تسكيناً لثوره الحرص التى هى من لوازم الحرمان فكل محروم حريص، و لا- هم للممنوع المحبوس إلا- أن يهتك حجاب المنع و الحبس، فالمسلم و إن كان ذا زوجه واحده فإنه على سكن و طيب نفس من أنه ليس بممنوع عن التوسع فى قضاء شهوته لو تحرجت نفسه يوماً إليه، و هذا نوع تسكين لطيش النفس، و إحصان لها عن الميل إلى الفحشاء و هتك الأعراض المحرمه.

و قد أنصف بعض الباحثين من الغربيين حيث قال: لم يعمل فى إشاعه الزنا و الفحشاء بين الملل المسيحيه عامل أقوى من تحريم الكنيسه تعدد الزوجات (١).

و الجواب عن الرابع أنه ممنوع فقد بينا فى بعض المباحث السابقه عند الكلام فى حقوق (٢). المرأه فى الإسلام: أنه لم يحترم النساء و لم يراع حقوقهن كل المراعاه أى

ص: ١٨٩

١-١) رساله المستر جان ديون بورت الإنجليزى فى الاعتذار إلى حضره محمد و القرآن ترجمه الفاضل: السعيدى بالفارسيه.

٢-٢) البحث العلمى من الجزء الثانى ص ٢٦٠

سنه من السنن الدينيه أو الدينويه من قديمها و حديثها بمثل ما احترامهن الإسلام و سنزید فی ذلك و ضوحا.

و أما تجویز تعدد الزوجات للرجل فليس بمبنى على ما ذكر من إبطال الوزن الاجتماعی و إماتة حقوقهن و الاستخفاف بموقفهن فی الحياه و إنما هو مبنى على جهات من المصالح تقدم بیان بعضها.

و قد اعترف بحسن هذا التشريع الإسلامی و ما فی منعه من المفاسد الاجتماعیه و المحاذیر الحیویه جمع من باحثی الغرب من الرجال و النساء من أرادہ فليراجع إلى مظانہ.

و أقوى ما تشبث به مخالفوا سنه التعدد من علماء الغرب و زوقه فی أعین الناظرین ما هو مشهود فی بیوت المسلمین تلك البيوت المشتمله على زوجات عديده:

ضرتان أو ضرائر فإن هذه البيوت لا تحتوى على حياه صالحه و لا عيشه هنيهة، لا تلبث الضرتان من أول يوم حلنا البيت دون أن تأخذنا فی التحاسد حتى أنهم سموا الحسد بداء الضرائر، و عندئذ تنقلب جميع العواطف و الإحساسات الرقيقه التي جبلت عليها النساء من الحب و لين الجانب و الرقه و الرأفه و الشفقه و النصيح و حفظ الغيب و الوفاء و الموده و الرحمه و الإخلاص بالنسبه إلى الزوج و أولاده من غير الزوجه و بيته و جميع ما يتعلق به إلى أضدادها، فينقلب البيت الذي هو سكن للإنسان يستريح فيه من تعب الحياه اليومي و تألم الروح و الجسم من مشاق الأعمال و الجهد في المكسب معركه قتال يستباح فيها النفس و العرض و المال و الجاه، لا يؤمن فيه من شيء لشيء، و يتكدر فيه صفو العيش و ترتحل لذه الحياه، و يحل محلها الضرب و الشتم و السب و اللعن و السعایه و النميمه و الرقابه و المكر و المكيد، و اختلاف الأولاد و تشاجرهم، و ربما انجر الأمر إلى هم الزوجه بإهلاك الزوج، و قتل بعض الأولاد بعضا أو أباهم، و تتبدل القرابه بينهم إلى الأوتار التي تسحب في الأعقاب سفك الدماء و هلاك النسل و فساد البيت، أضف إلى ذلك ما يسرى من ذلك إلى المجتمع من الشقاء و فساد الأخلاق و القسوه و الظلم و البغى و الفحشاء و انسلاب الأمن و الوثوق و خاصه إذا أضيف إلى ذلك جواز الطلاق فإباحه تعدد الزوجات و الطلاق ينشئان في المجتمع رجالا ذواقين مترفين لا هم لهم إلا اتباع الشهوات و الحرص و التولع على أخذ هذه و ترك تلك، و رفع واحده و وضع أخرى، و ليس فيه إلا تضييع نصف المجتمع و إشقاؤه و هو قبيل النساء، و بذلك

هذا محصل ما ذكره، وهو حق غير أنه إنما يرد على المسلمين لا على الإسلام و تعاليمه، و متى عمل المسلمون بحقيقه ما ألقته إليهم تعاليم الإسلام حتى يؤخذ الإسلام بالمفاسد التي أعقبته أعمالهم؟ و قد فقدوا منذ قرون الحكومه الصالحه التي تربي الناس بالتعاليم الدينيه الشريفه بل كان أسبق الناس إلى هتك الأستار التي أسدلها الدين و نقض قوانينه و إبطال حدوده هي طبقه الحكام و الولاه على المسلمين، و الناس على دين ملوكهم، و لو اشتغلنا بقص بعض السير الجاربه فى بيوت الملوك و الفضائح التي كان يأتى بها ملوك الإسلام و ولاته منذ أن تبدلت الحكومه الدينيه بالملك و السلطنه المستبده لجاى بحيااله تأليفا مستقلا ، و بالجملة لو ورد الإشكال فهو وارد على المسلمين فى اختيارهم لبيوتهم نوع اجتماع لا يتضمن سعادته عيشتهم و نحو سياسه لا يقدررون على إنفاذها بحيث لا تنحرف عن مستقيم الصراط، و الذنب فى ذلك عائد إلى الرجال دون النساء و الأولاد و إن كان على كل نفس ما اكتسبت من إثم، و ذلك أن سيره هؤلاء الرجال و تفديتهم سعادته أنفسهم و أهليهم و أولادهم و صفاء جو مجتمعهم فى سبيل شرمهم و جهالتهم هو الأصل لجميع هذه المفاسد و المنبت لكل هذه الشقوه المبيده.

و أما الإسلام فلم يشرع تعدد الزوجات على نحو الإيجاب و الفرض على كل رجل، و إنما نظر فى طبيعه الأفراد و ما ربما يعرضهم من العوارض الحادته، و اعتبر الصلاح القاطع فى ذلك (كما مر تفصيله) ثم استقصى مفاصد التكاثر و محاذيره و أحصاها فأباح عند ذلك التعدد حفظا لمصلحه المجتمع الإنساني، و قيده بما يرتفع معه جميع هذه المفاسد الشنيعه و هو وثوق الرجل بأنه سيقسط بينهن و يعدل فمن وثق من نفسه بذلك و وفق له فهو الذى أباح له الدين تعدد الزوجات، و أما هؤلاء الذين لا عناية لهم بسعادته أنفسهم و أهليهم و أولادهم و لا كرامه عندهم إلا ترضيه بطونهم و فروجهم، و لا مفهوم للمرأة عندهم إلا أنها مخلوقه فى سبيل شهوه الرجل و لذته فلا شأن للإسلام فيهم، و لا يجوز لهم إلا الازدواج بواحد لو جاز لهم ذلك و الحال هذه.

على أن فى أصل الإشكال خلطا بين جهتين مفرقتين فى الإسلام، و هما جهتا التشريع و الولايه.

توضيح ذلك أن المدار فى القضاء بالصلاح و الفساد فى القوانين الموضوعه و السنن

الجاريه عند الباحثين اليوم هو الآثار و النتائج المرضيه أو غير المرضيه الحاصله من جريانها فى الجوامع و قبول الجوامع لها بفعاليتها الموجوده و عدم قبولها،و ما أظن أنهم على غفله من أن المجتمع ربما اشتمل على بعض سنن و عادات و عوارض لا تلائم الحكم المبحوث عنه و أنه يجب تجهيز المجتمع بما لا ينافى الحكم أو السنه المذكوره حتى يرى إلى ما يصير أمره؟ و ما ذا يبقى من الأثر خيرا أو شرا أو نفعاً أو ضراً؟ إلا أنهم يعتبرون فى القوانين الموضوعه ما يريدو و يستدعيه المجتمع بحاضر إرادته و ظاهر فكرته كيفما كان،فما وافق إرادتهم و مستدعياتهم فهو القانون الصالح و ما خالف ذلك فهو القانون غير الصالح.

و لذلك لما رأوا المسلمين تائهيين فى أوديه الغى فاسدين فى معاشهم و معادهم نسبوا ما يشاهدونه منهم من الكذب و الخيانه و الخنا و هضم الحقوق و فشو البغى و فساد البيوت و اختلال الاجتماع إلى القوانين الدينيه الدائره بينهم زعما منهم أن السنه الإسلاميه فى جريانها بين الناس و تأثيرها أثرها كسائر السنن الاجتماعيه التى تحمل على الناس عن إحساسات متراكمه بينهم،و يستنتجون من ذلك أن الإسلام هو المولد لهذه المفاسد الاجتماعيه و منه ينشأ هذا البغى و الفساد(و فيهم أبغى البغى و أخنى الخنا، و كل الصيد فى جوف الفراء)و لو كان دينا واقعيا و كانت القوانين الموضوعه فيه جيده متضمنه لصالح الناس و سعادتهم لأثرت فيهم الآثار المسعده الجميله،و لم ينقلب وبالا عليهم!.

و لكنهم خلطوا بين طبيعه الحكم الصالحه المصلحه،و بين طبيعه الناس الفاسده المفسده،و الإسلام مجموع معارف أصليه و أخلاقيه و قوانين عمليه متناسبه الأطراف مرتبطه الأجزاء إذا أفسد بعض أجزائها أوجب ذلك فساد الجميع و انحرافها فى التأثير كالأدويه و المعاجين المركبه التى تحتاج فى تأثيرها الصحى إلى سلامه أجزائها و إلى محل معد مهياً لورودها و عملها،و لو أفسد بعض أجزائها أو لم يعتبر فى الإنسان المستعمل لها شرائط الاستعمال بطل عنها وصف التأثير،و ربما أثرت ما يضاد أثرها المترقب منها.

هب أن السنه الإسلاميه لم تقو على إصلاح الناس و محق الذمائم و الرذائل العامه لضعف مبانيها التقنيه فما بال السنه الديمقراطيه لا تنجح فى بلادنا الشرقيه أثرها فى

البلاد الأوربية؟ وما بالناس كلما أمعنا في السير والكدر بالغنا في الرجوع على أعقابنا القهقري ولا يشك شك أن الذمائم و الرذائل اليوم أشد تصلبا و تعرقا فينا و نحن مدنيون متنورون منها قبل نصف قرن و نحن همجيون، وليس لنا حظ من العدل الاجتماعي و حياه الحقوق البشريه و المعارف العامه العاليه و كل سعادته اجتماعيه إلا أسماء نسميها و ألفاظا نسمعها.

فهل يمكن لمعتذر عن ذلك إلا بأن هذه السنن المرضيه إنما لم تؤثر أثرها لأنكم لا تعملون بها، ولا تهتمون بإجرائها فما بال هذا العذر يجري فيها و ينجح و لا يجري في الإسلام و لا ينجح؟.

و هب أن الإسلام لو هن أساسها (و العياذ بالله) عجز عن التمكن في قلوب الناس و النفوذ الكامل في أعماق المجتمع فلم تدم حكومته و لم يقدر على حفظ حياته في المجتمع الإسلامي فلم يلبث دون أن عاد مهجورا فما بال السنه الديمقراطيه و كانت سنه مرضيه عالميه ارتحلت بعد الحرب العالميه الكبرى الأولى عن روسيا و انمحت آثارها و خلفتها السنه الشيوعيه؟ و ما بالها انقلبت إلى السنه الشيوعيه بعد الحرب العالميه الكبرى الثانيه في ممالك الصين و لتونى و إستونى و ليتوانى و رومانيا و المجر و يوغوسلاوى و غيرها، و هى تهدد سائر الممالك و قد نفذت فيها نفوذها؟.

و ما بال السنه الشيوعيه بعد ما عمرت ما يقرب من أربعين سنه، و انبسطت و حكمت فيما يقرب من نصف المجتمع الإنسانى و لم يزل دعائها و أولياؤها يتباهون في فضيلتها أنها المشرعه الصافيه الوحيدى التى لا يشوبها تحكم الاستبداد و لا استثمار الديمقراطيه و أن البلاد التى تعرقت فيها هى الجنه الموعوده ثم لم يلبث هؤلاء الدعاه و الأولياء أنفسهم دون أن انتهضوا قبل سنتين على تقييح حكومه قائدها الوحيد (ستالين) الذى كان يتولى إمامتها و قيادتها منذ ثلاثين سنه، و أوضحوا أن حكومته كانت حكومه تحكم و استبداد و استعباد فى صورته الشيوعيه، و لا - محاله كان له التأثير العظيم فى وضع القوانين الدائره و إجرائها و سائر ما يتعلق بذلك فلم ينتش شىء من ذلك إلا عن إرادته مستعبده مستعبده و حكومه فرديه تحيى ألوفاً و تميت ألوفاً و تسعد أقواماً و تشقى

آخرين. والله يعلم من الذى يأتى بعد هؤلاء و يقضى عليهم بمثل ما قضاوا به على من كان قبلهم.

و السنن و الآداب و الرسوم الدائره فى المجتمعات (أعم من الصحيحه و الفاسده) ثم المرتحله عنها لعوامل متفرقه أقواها خيانه أولياؤها و ضعف إرادته الأفراد المستنين بها كثيره يعثر عليها من راجع كتب التواريخ.

فليت شعرى ما الفارق بين الإسلام من حيث إنها سنه اجتماعيه و بين هذه السنن المتقلبه المتبدله حيث يقبل العذر فيها و لا يقبل فى الإسلام؟ نعم كلمه الحق اليوم واقعه بين قدره هائله غريبه و جهاله تقليد شرقيه فلا سماء تظلمها و لا أرض تقلها و على أى حال يجب أن يتنبه مما فصلناه أن تأثير سنه من السنن أثرها فى الناس و عدمه و كذا بقاؤها بين الناس و ارتحالها لا يرتبط كل الارتباط بصحتها و فسادها حتى يستدل عليه بذلك بل لسائر العلل و الأسباب تأثير فى ذلك فما من سنه من السنن الدائره بين الناس فى جميع الأطوار و العهود إلا و هى تنتج يوما و تعقم آخر و تقيم بين الناس برهه من الزمان و ترتحل عنهم فى أخرى لعوامل مختلفه تعمل فيها، و تلك الأيام نداولها بين الناس و ليعلم الله الذين آمنوا و يتخذ منكم شهداء.

و بالجملة القوانين الإسلاميه و الأحكام التى فيها، تخالف بحسب المبنى و المشرب سائر القوانين الاجتماعيه الدائره بين الناس فإن القوانين الاجتماعيه التى لهم تختلف باختلاف الأعصار و تتبدل بتبدل المصالح لكن القوانين الإسلاميه لا تحتل الاختلاف و التبدل من واجب أو حرام أو مستحب أو مكروه أو مباح غير أن الأفعال التى للفرد من المجتمع أن يفعلها أو يتركها و كل تصرف له أن يتصرف به أو يدعه فلوالى الأمر أن يأمر الناس بها أو ينهاهم عنها و يتصرف فى ذلك كأن المجتمع فرد و الوالى نفسه المتفكره المريد.

فلو كان للإسلام وال أمكنه أن يمنع الناس عن هذه المظالم التى يرتكبونها باسم تعدد الزوجات و غير ذلك من غير أن يتغير الحكم الإلهى بإباحته، و إنما هو عزمه إجرائيه عامه لمصلحه نظير عزم الفرد الواحد على ترك تعدد الزوجات لمصلحه يراها لا لتغيير فى الحكم بل لأنه حكم إباحى له أن يعزم على تركه.



و مما اعترضوا عليه تعدد زوجات النبي ص قالوا: إن تعدد الزوجات لا- يخلو في نفسه عن الشره و الانقياد لداعي الشهوه: و هو(ص) لم يقنع بما شرعه لأتمته من الأربع حتى تعدى إلى التسع من النسوه.

و المسأله ترتبط بآيات متفرقه كثيره في القرآن، و البحث من كل جهه من جهاتها يجب أن يستوفى عند الكلام على الآيه المربوطه بها و لذلك أخرنا تفصيل القول إلى محاله المناسبه له و إنما نشير هاهنا إلى ذلك إشاره إجماليه.

ف نقول: من الواجب أن يلفت نظر هذا المعترض المستشكل إلى أن قصه تعدد زوجات النبي ص ليست على هذه السداجه (أنه(ص) بالغ في حب النساء حتى أنهى عدده أزواجه إلى تسع نسوه) بل كان اختياره لمن اختارها منهن على نهج خاص في مدى حياته فهو(ص) كان تزوج- أول ما تزوج- بخديجه رضى الله عنها و عاش معها مقتصرًا عليها نيفا و عشرين سنه (و هي ثلاثا عمره الشريف بعد الازدواج) منها ثلاث عشره سنه بعد نبوته قبل الهجره من مكه ثم هاجر إلى المدينه و شرع في نشر الدعوه و إعلاء كلمه الدين، و تزوج بعدها من النساء منهن البكر و منهن الثيب و منهن الشابه و منهن العجوز و المكتله و كان على ذلك ما يقرب من عشره سنين ثم حرم عليه النساء بعد ذلك إلا من هي في حباله نكاحه، و من المعلوم أن هذا الفعال على هذه الخصوصيات لا يقبل التوجيه بمجرد حب النساء و الولوع بهن و الوله بالقرب منهن فأول هذه السيره و آخرها يناقضان ذلك.

على أنا لا- نشك بحسب ما نشاهده من العاده الجاريه أن المتولع بالنساء المغرم بحبهن و الخلاء بهن و الصبوه إليهن مجذوب إلى الزينه عشيق للجمال مفتون بالغنج و الدلال حينين إلى الشباب و نضاره السن و طراوه الخلقه، و هذه الخواص أيضا لا تنطبق على سيرته(ص) فإنه بنى بالثيب بعد البكر و بالعجوز بعد الفتاه الشابه فقد بنى بأم سلمه و هي مسنه، و بنى بزینب بنت جحش و سنه يومئذ يربو على خمسين بعد ما تزوج بمثل عائشه و أم حبيبه و هكذا.

وقد خير(ص)نساءه بين التمتع و السراح الجميل و هو الطلاق إن كن يردن الدنيا و زينتها و بين الزهد فى الدنيا و ترك التزيين و التجمل إن كن يردن الله و رسوله و الدار الآخرة على ما يشهد به قوله تعالى فى القصة:

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكِ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَ زِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا وَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا: -الأحزاب ٢٩، و هذا المعنى أيضا- كما ترى- لا ينطبق على حال رجل مغرم بجمال النساء صاب إلى وصالهن.

فلا يبقى حينئذ للباحث المتعمق إذا أنصف إلا أن يوجه كثره ازدواجه(ص) فيما بين أول أمره و آخر أمره بعوامل آخر غير عامل الشره و الشبق و التلهى.

فقد تزوج(ص)ببعض هؤلاء الأزواج اكتسابا للقوه و ازديادا للعضد و العشيره، و ببعض هؤلاء استماله للقلوب و توقيا من بعض الشرور، و ببعض هؤلاء ليقوم على أمرها بالإنفاق و إداره المعاش و ليكون سنه جاريه بين المؤمنين فى حفظ الأرامل و العجائز من المسكنه و الضيعه، و ببعضها لتثبيت حكم مشروع و إجرائه عملا لكسر السنن المنحطه و البدع الباطله الجاريه بين الناس كما فى تزوجه بزینب بنت جحش و قد كانت زوجه لزيد بن حارثه ثم طلقها زيد، و قد كان زيد هذا يدعى ابن رسول الله على نحو التبنى و كانت زوجه المدعو ابنا عندهم كزوجه الابن الصلبى لا يتزوج بها الأب فتزوج بها النبى ص و نزل فيها الآيات.

و كان(ص)تزوج لأول مره بعد وفاه خديجه بسوده بنت زمعه و قد توفى عنها زوجها بعد الرجوع من هجره الحبشه الثانيه، و كانت سوده هذه مؤمنه مهاجره و لو رجعت إلى أهلها و هم يومئذ كفار لفتنوها كما فتنوا غيرها من المؤمنين و المؤمنات بالزجر و القتل و الإكراه على الكفر.

و تزوج بزینب بنت خزيمه بعد قتل زوجها عبد الله بن جحش فى أحد و كانت من السيدات الفضليات فى الجاهليه تدعى أم المساكين لكثرة برها للفقراء و المساكين و عطوفتها بهم فسان بازدواجهما ماء وجهها.

و تزوج بأم سلمه و اسمها هند و كانت من قبل زوجه عبد الله أبى سلمه ابن عمه

النبي و أخيه من الرضاعه أول من هاجر إلى الحبشه و كانت زاهده فاضله ذات دين و رأى فلما توفي عنها زوجها كانت مسنه ذات أيتام فتزوج بها النبي ص.

و تزوج بصفيه بنت حبي بن أخطب سيد بني النضير قتل زوجها يوم خيبر و قتل أبوها مع بني قريظه، و كانت فى سبى خيبر فاصطفاها و أعتقها و تزوج بها فوقها بذلك من الذل و وصل سببه بنى إسرائيل.

و تزوج بجويريه و اسمها بره بنت الحارث سيد بنى المصطلق بعد وقعه بنى المصطلق و قد كان المسلمون أسروا منهم مائتى بيت بالنساء و الذرارى، فتزوج(ص) بها فقال المسلمون هؤلاء أصهار رسول الله لا ينبغى أسرهم و أعتقوهم جميعا فأسلم بنو المصطلق بذلك، و لحقوا عن آخرهم بالمسلمين و كانوا جما غفيرا و أثر ذلك أثرا حسنا فى سائر العرب.

و تزوج بميمونه و اسمها بره بنت الحارث الهلاليه و هى التى وهبت نفسها للنبي ص بعد وفاه زوجها الثانى أبى رهم بن عبد العزى فاستنكحها النبي ص و تزوج بها و قد نزل فيها القرآن.

و تزوج بأم حبيبه و اسمها رمله بنت أبى سفيان و كانت زوجه عبيد الله بن جحش و هاجر معها إلى الحبشه الهجره الثانيه فتنصر عبيد الله هناك و ثبتت هى على الإسلام و أبوها أبو سفيان يجمع الجموع على الإسلام يومئذ فتزوج بها النبي ص و أحصنها.

و تزوج بحفصه بنت عمر و قد قتل زوجها خنيس بن حذاقه بيدر و بقيت أرملة و تزوج بعائشه بنت أبى بكر و هى بكر.

فالتأمل فى هذه الخصوصيات مع ما تقدم فى صدر الكلام من جمل سيرته فى أول أمره و آخره و ما سار به من الزهد و ترك الزينه و ندبه نساءه إلى ذلك لا يبقى للمتأمل موضع شك فى أن ازدواجه(ص) بمن تزوج بها من النساء لم يكن على حد غيره من عامه الناس، أضف إلى ذلك جمل صنائعه(ص) فى النساء، و إحياء ما كانت قرون الجاهليه و أعصار الهمجيه أماتت من حقوقهن فى الحياه، و أخسرت من وزنهن فى المجتمع الإنسانى حتى روى أن آخر ما تكلم به(ص) هو توصيتهن لجامعه الرجال

قال(ص): «الصلاه الصلاه، و ما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون، الله الله

فى النساء فإنهن عوان فى أيدىكم» الحديث.

و كانت سيرته (ص) فى العدل بين نسائه و حسن معاشرتهن و رعايه جانبهن مما يختص به (ص) (على ما سياتى شذره منه فى الكلام على سيرته فى مستقبل المباحث إن شاء الله) و كان حكم الزيادة على الأربع كصوم الوصال من مختصاتة التى منعت عنها الأمة، و هذه الخصال و ظهورها على الناس هى التى منعت أعداءه من الاعتراض عليه بذلك مع تربصهم الدوائر به.

## سورة النساء (٤): الآيات ٧ الى ١٠

### إشارة

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (٧) وَ إِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٨) وَ لِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَ لِيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَ سَيَصْلُونَ سَعِيرًا (١٠)

### بيان

شروع فى تشريع أحكام الإرث بعد تمهيد ما مهدت من المقدمات، و قد قدم بيان جملى لحكم الإرث من قبيل ضرب القاعده لإيذان أن لا- حرمان فى الإرث بعد ثبوت الولاده أو القرابه حرمانا ثابتا لبعض الأرحام و القرابات كتحريم صغار الورثه و النساء، و زيد مع ذلك فى التحذير عن تحريم الأيتام من الوراثه فإنه يستلزم أكل سائر الورثه أموالهم ظلما و قد شدد الله فى النهى عنه. و قد ذكر مع ذلك مسأله رزق

ص: ١٩٨

أولى القربى و اليتامى و المساكين إذا حضروا قسمه التركة و لم يكونوا ممن يرث تطفلا.

قوله تعالى: «لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ» الآية، النصيب هو الحظ و السهم، و أصله من النصب بمعنى الإقامة لأن كل سهم عند القسمة ينصب على حدته حتى لا يختلط بغيره، و التركة ما بقى من مال الميت بعده كأنه يتركه و يرتحل فاستعماله الأصلي استعمال استعارى ثم ابتدل، و الأقربون هم القرابه الأدنون، و اختيار هذا اللفظ على مثل الأقرباء و أولى القربى و نحوهما لا- يخلو من دلالة على أن الملا-ك فى الإرث أقربيه الميت من الوارث على ما سيجىء البحث عنه فى قوله تعالى: أَبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ لا- تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفَعًا: «النساء: ١١»، و الفرض قطع الشىء الصلب و إفراز بعضه من بعض، و لذا يستعمل فى معنى الوجوب لكون إتيانه و امتثال الأمر به مقطوعا معينا من غير تردد، و النصيب المفروض هو المقطوع المعين.

و فى الآية إعطاء للحكم الكلى و تشريع لسنه حديثه غير مألوفه فى أذهان المكلفين، فإن حكم الوارثه على النحو المشروع فى الإسلام لم يكن قبل ذلك مسبوقا بالمثل و قد كانت العادات و الرسوم على تحريم عده من الوارث عادت بين الناس كالطبيعه الثانیه تثير النفوس و تحرك العواطف الكاذبه لو قرع بخلافها أسماعهم.

و قد مهد له فى الإسلام أولا بتحكيم الحب فى الله و الإيثار الدينى بين المؤمنين فعقد الإخوه بين المؤمنين ثم جعل التوارث بين الأخوين، و انتسخ بذلك الرسم السابق فى التوارث، و انقلع المؤمنون من الأنفه و العصبية القديمه ثم لما اشتد عظم الدين، و قام صلبه شرع التوارث بين أولى الأرحام فى حين كان هناك عده كافيه من المؤمنين يلبون لهذا التشريع أحسن التلبيه.

و بهذه المقدمه يظهر أن المقام مقام التصريح و رفع كل لبس متوهم بضرب القاعده الكليه بقوله: لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ، فالحكم مطلق غير مقيد بحال أو وصف أو غير ذلك أصلا، كما أن موضوعه أعنى الرجال عام غير مخصص بشىء متصل فالصغار ذوو نصيب كالكبار.

ثم قال: وَ لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ و هو كسابقه عام من غير شائبه تخصيص فيعم جميع النساء من غير تخصيص أو تقييد، و قد أظهر فى قوله مِّمَّا تَرَكَ

مع أن المقام مقام الإضمار إيفاء لحق التصريح و التنصيص، ثم قال:

﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾

زياده فى التوضيح و أن لا مجال للمسامحه فى شىء منه لقله و حقايره، ثم قال: نَصَبَ بِيَأُ «إِلخ»، و هو حال من النصيب لما فيه من المعنى المصدرى، و هو بحسب المعنى تأكيد على تأكيد و زياده فى التنصيص على أن السهام مقطوعه معينه لا تقبل الاختلاط و الإبهام.

و قد استدل بالآيه على عموم حكم الإرث لتركه للنبي ص و غيره، و على بطلان التعصيب فى الفرائض.

قوله تعالى: ﴿وَ إِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾ «إِلخ» ظاهر الآيه أن المراد من حضورهم القسمه أن يشهدوا قسمه التركة حينما يأخذ الورثه فى اقتسامها لا ما ذكره بعضهم أن المراد حضورهم عند الميت حينما يوصى و نحو ذلك، و هو ظاهر.

و على هذا فالمراد من أولى القربى الفقراء منهم، و يشهد بذلك أيضا ذكرهم مع اليتامى و المساكين، و لحن قوله: فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَ قُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا، الظاهر فى الاسترحام و الاسترفاق، و يكون الخطاب حينئذ لأولياء الميت و الورثه.

و قد اختلف فى أن الرزق المذكور فى الآيه على نحو الوجوب أو الندب، و هو بحث فقهي خارج عن وضع هذا الكتاب، كما اختلف فى أن الآيه هل هى محكمه أو منسوخه بآيه المواريث؟ مع أن النسبه بين الآيتين ليست نسبه التناقض لأن آيه المواريث تعين فرائض الورثه، و هذه الآيه تدل على غيرهم و جوبا أو ندبا فى الجملة من غير تعيين سهم فلا موجب للنسخ و خاصه بناء على كون الرزق مندوبا كما أن الآيه لا تخلو من ظهور فيه.

قوله تعالى: ﴿وَ لِيُخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ الْآيَةَ﴾ الخشيه التأثير القلبي مما يخاف نزوله مع شائبه تعظيم و إكبار، و سداد القول و سدده كونه صوابا مستقيما.

و لا- يبعد أن تكون الآيه متعلقه نحو تعلق بقوله: لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا لَاشْتِمَالِهِ عَلَى إرث الأيتام الصغار بعمومه فتكون مسوقه سوق التهديد لمن يسلك مسلك تحريم صغار الورثه من الإرث، و يكون حينئذ قوله: وَ لِيُقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا كناية عن اتخاذ

طريقه التحريم و العمل بها و هضم حقوق الأيتام الصغار، و الكنايه بالقول عن الفعل للملازمه بينهما غالبا شائع في اللسان كقوله تعالى: **وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا** الآية X: -البقره ٨٣، و يؤيده توصيف القول بالسديد دون المعروف و اللين و نحوهما فإن ظاهر السداد في القول كونه قابلا للاعتقاد و العمل به لا قابلا لأن يحفظ به كرامه الناس و حرمتهم.

و كيف كان فظاهر قوله: **الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّهُمْ ضِعْفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ** إنه تمثيل للرحمه و الرأفه على الذريه الضعاف الذين لا- ولى لهم يتكفل أمرهم و يذود عنهم الذل و الهوان، و ليس التخويف و التهديد المستفاد من الآية مخصوصا بمن له ذريه ضعفاء بالفعل لمكان لو في قوله: **لَوْ تَرَكَوا**، و لم يقل: لو تركوا ذريتهم الضعاف بل هو تمثيل يقصد به بيان الحال، و المراد الذين من صفتهم أنهم كذا أى أن في قلوبهم رحمه إنسانيه و رأفه و شفقه على ضعفاء الذريه الذين مات عنهم آباؤهم و هم الأيتام و الذين من صفتهم كذا هم الناس و خاصه المسلمون المتأدبون بأدب الله المتخلقون بأخلاقه فيعود المعنى إلى مثل قولنا: و ليخش الناس و ليتقوا الله في أمر اليتامى فإنهم كأيتام أنفسهم في أنهم ذريه ضعاف يجب أن يخاف عليهم و يعتنى بشأنهم و لا- يضطهدوا و لا- يهضم حقوقهم فالكلام في مساق قولنا: من خاف الذل و الامتهان فليشتغل بالكسب و كل يخاف ذلك.

و لم يؤمر الناس في الآية بالترحم و التروؤف و نحو ذلك بل بالخشيه و اتقاء الله و ليس إلا أنه تهديد بحلول ما أحلوا بأيتام الناس من إبطال حقوقهم و أكل مالهم ظلما بأيتام أنفسهم بعدهم، و ارتداد المصائب التي أوردوها عليهم إلى ذريتهم بعدهم. و أما قوله: **فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَ لْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا** فقد تقدم أن الظاهر أن المراد بالقول هو الجرى العملى و من الممكن أن يراد به الرأى.

### كلام في انعكاس العمل إلى صاحبه

من ظلم يتيما في ماله فإن ظلمه سيعود إلى الأيتام من أعقابه، و هذا من الحقائق العجيبه القرآنيه، و هو من فروع ما يظهر من كلامه تعالى أن بين الأعمال الحسنه و السيئه و بين الحوادث الخارجيه ارتباطا، و قد تقدم بعض الكلام فيه في البحث عن

الناس يتسلمون في الجملة أن الإنسان إنما يجنى ثمر عمله و أن المحسن الخير من الناس يسعد في حياته، و الظلوم الشرير لا يلبث دون أن يذوق وبال عمله، و في القرآن الكريم آيات تدل على ذلك بإطلاقها كقوله تعالى: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا: -حم السجده ٤٦، و قوله: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ: -الزلال: ٨، و كذا قوله تعالى: قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَ هَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ: -يوسف: ٩٠، و قوله: لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ: -الحج: ٩، و قوله وَ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ Xالآية X: -الشورى: ٣٠، إلى غير ذلك من الآيات الداله على أن الخير و الشر من العمل له نوع انعكاس و ارتداد إلى عامله في الدنيا.

و السابق إلى أذهاننا-المأنوسه بالأفكار التجريبيه الدائره في المجتمع-من هذه الآيات أن هذا الانعكاس إنما هو من عمل الإنسان إلى نفسه إلا أن هناك آيات داله على أن الأمر أوسع من ذلك، و أن عمل الإنسان خيرا أو شرا ربما عاد إليه في ذريته و أعقابه قال تعالى: وَ أَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَ كَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَ كَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَ يَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ: -الكهف: ٨٢، فظاهر الآيه أن لصلاح أبيهما دخلا فيما أراده الله رحمه بهما، و قال تعالى وَ لِيُخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّهُ ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ الْآيَه.

و على هذا فأمر انعكاس العمل أوسع و أعم، و النعمه أو المصيبه ربما تحلان بالإنسان بما كسبت يدا شخصه أو أيدي آباءه.

و التدبر في كلامه تعالى يهدى إلى حقيقه السبب في ذلك فقد تقدم في الكلام على الدعاء في الجزء الثاني من هذا الكتاب في قوله تعالى: وَ إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي: -البقره: ١٨٦، دلالة كلامه تعالى على أن جميع ما يحل الإنسان من جانبه تعالى إنما هو لمسأله سألها ربه، و أن ما مهده من مقدمه و داخله من الأسباب سؤال منه لما ينتهي إليه من الحوادث و المسببات قال تعالى: يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ: -الرحمن: ٢٩، و قال تعالى: وَ آتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَ إِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ



اللَّهِ لَا تُخْصُوهُمَا: -إبراهيم: ٣٤، و لم يقل: و إن تعدوه لا تحصوه لأن فيما سألوه ما ليس بنعمه، و المقام مقام الامتنان بالنعم و اللوم على كفرها و لذا ذكر بعض ما سألوه و هو النعمة.

ثم إن ما يفعله الإنسان لنفسه و يوقعه على غيره من خير أو شر يرتضيه لمن أوقع عليه و هو إنسان مثله فليس إلا أنه يرتضيه لنفسه و يسأله لشخصه فليس هناك إلا الإنسانيه و من هاهنا يتضح للإنسان أنه إن أحسن لأحد فإنما سأل الله ذلك الإحسان لنفسه دعاء مستجابا و سؤالا غير مردود، و إن أساء على أحد أو ظلمه فإنما طلب ذلك لنفسه و ارتضاه لها و ما يرتضيه لأولاد الناس و يتأمله يرتضيه لأولاد نفسه و يسأله لهم من خير أو شر، قال تعالى: وَ لِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ: -البقره: ١٤٨، فإن معناه أن استبقوا الخيرات لتكون وجهتكم خيرا.

و الاشتراك في الدم و وحده الرحم يجعل عمود النسب و هو العتره شيئا واحدا فأى حال عرضت لجانب من جوانب هذا الواحد، و أى نازله نزلت في طرف من أطرافها فإنما عرضت و نزلت على منته و هو في حساب جميع الأطراف، و قد مر شطر من الكلام في الرحم في أول هذه السوره.

فقد ظهر بهذا البيان أن ما يعامل به الإنسان غيره أو ذريه غيره فلا محيص من أن ينعكس إلى نفسه أو ينقلب إلى ذريته إلا أن يشاء الله، و إنما استثنينا لأن في الوجود عوامل و جهات غير محصوره لا يحيط بجميعها إحصاء الإنسان، و من الممكن أن تجرى هناك عوامل و أسباب لم تنتبه لها أو لم نطلع عليها توجب خلاف ذلك كما يشير إليه بعض الإشاره قوله تعالى: وَ مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ: «الشورى: ٣٠».

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا الآية يقال: أكله و أكله في بطنه و هما بمعنى واحد غير أن التعبير الثانى أصرح و الآية كسابقتها متعلقه للمضمون بقوله: لِلرَّجَالِ نَصِيبٌ مِنَ الْآيَةِ وَ هى تخويف و ردع للناس عن هضم حقوق اليتامى فى الإرث.

و الآية مما يدل على تجسم الأعمال على ما مر فى الجزء الأول من هذا الكتاب فى

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا ﴿البقره: ٢٦﴾ و لعل هذا مراد من قال من المفسرين إن قوله: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾، كلام على الحقيقة دون المجاز و على هذا لا يرد عليه ما أورده بعض المفسرين: أن قوله: يَأْكُلُونَ أريد به الحال دون الاستقبال بقربنه عطف قوله: وَ سَيَصْلُونَ سَعِيرًا عليه و هو فعل دخل عليه حرف الاستقبال فلو كان المراد به حقيقة الأكل - و وقته يوم القيامة - لكان من اللازم أن يقال: سيأكلون في بطونهم نارا و يصلون سعيرا فالحق أن المراد به المعنى المجازي، و أنهم في أكل مال اليتيم كمن يأكل في بطنه نارا انتهى ملخصا و هو غفله عن معنى تجسم الأعمال.

و أما قوله: وَ سَيَصْلُونَ سَعِيرًا فهو إشارة إلى العذاب الأخرى، و السعير من أسماء نار الآخرة يقال صلى النار يصلها صلى و صلها أى احترق بها و قاسى عذابها.

## بحث روائى

فى المجمع: فى قوله تعالى: لِلرَّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ الْآيَةَ: اختلف الناس فى هذه الآية على قولين: أحدهما أنها محكمة غير منسوخة، و هو المروى عن الباقر (ع).

أقول: و عن تفسير على بن إبراهيم أنها منسوخة بقوله تعالى: يُوَصِّيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمُ الْآيَةَ، و لا وجه له، و قد ظهر فى البيان السابق أن الآية بيان كلى لحكم الموارث و لا تنافى بينها و بين سائر آيات الإرث المحكمة حتى يقال بانتساخها بها.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن عكرمه \* فى الآية قال: نزلت فى أم كلثوم و ابنه أم كحله أو أم كحل - و ثعلبه بن أوس و سويد و هم من الأنصار - كان أحدهم زوجها و الآخر عم ولدها فقالت: يا رسول الله - توفى زوجى و تركنى و ابنته فلم نورث من ماله فقال عم ولدها: يا رسول الله لا - تركب فرسا و لا - تنكى عدوا - و يكسب عليها و لا تكتسب، فنزلت: لِلرَّجَالِ نَصِيبٌ الْآيَةَ.

أقول: و فى بعض الروايات عن ابن عباس أنها نزلت فى رجل من الأنصار مات و ترك ابنتين فجاء ابنا عمه و هما عصيته فقالت امرأته تزوجا بهما - و كان بهما دمامه

فأبياً فرفعت الأمر إلى رسول الله ص فنزلت آيات المواريث. الرواية. ولا بأس بتعدد هذه الأسباب كما مر مرارا.

و في المجمع،\*: في قوله تعالى: وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ الْآيَةَ: اختلف الناس في هذه الآية على قولين: أحدهما أنها محكمة غير منسوخة قال: وهو المروى عن الباقر(ع):

و في نهج البيان، للشيباني: أنه مروى عن الباقر و الصادق(ع).

أقول: و في بعض الروايات أنها منسوخة بآية المواريث، و قد تقدم في البيان المتقدم أنها غير صالحة للنسخ.

و في تفسير العياشى، عن أبي عبد الله و أبي الحسن(ع): أن الله أوعده في مال اليتيم عقوبتين اثنتين: أما إحداهما فعقوبه الآخرة النار، و أما الأخرى فعقوبه الدنيا- قوله: وَ لِيُخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّهُمْ ذُرِّيَةً ضِرَّةً مَخَافًا- خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَ لْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا، قال: يعنى بذلك ليخش أن أخلفه في ذريته كما صنع بهؤلاء اليتامى:

أقول: و روى مثله في الكافي عن الصادق(ع)، و في المعاني عن الباقر(ع).

و فيه، عن عبد الأعلى مولى آل سام قال أبو عبد الله(ع) مبتدئا\*: من ظلم سلط الله عليه من يظلمه أو على عقبه أو على عقب عقبه، قال: فذكرت في نفسى فقلت:

يظلم هو فيسلط على عقبه و عقب عقبه؟ فقال لى قبل أن أتكلم: إن الله يقول: وَ لِيُخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّهُمْ ذُرِّيَةً ضِرَّةً مَخَافًا- خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَ لْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا .

و في الدر المنثور، أخرج عبد بن حميد عن قتاده قال\*: ذكر لنا أن نبى الله ص قال: اتقوا الله فى الضعيفين: اليتيم و المرأه ايتمه ثم أوصى به، و ابتلاه و ابتلى به.

أقول: و الأخبار فى أكل مال اليتيم و أنها كبيرة موبقه من طرق الفريقين كثيره مستفيضه

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلِأُمَّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمَّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوَصِّي بِهَا أَوْ دَيْنٍ أَوْ ذَنْبٍ أَوْ إِتْمَانٍ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَابْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَ لَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلِكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَ لَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ تُوَصُّونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كِلَاهُمَا أَوْ امْرَأَةٌ وَ لَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوَصِّي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّتُهُ مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢) تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَ لَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٤)

قوله تعالى: «يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ» الإيصاء و التوصيه هو العهد و الأمر، و قال الراغب في مفردات القرآن: الوصيه : التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترنا بوعظ، انتهى.

و في العدول عن لفظ الأبناء إلى الأولاد دلالة على أن حكم السهم و السهمين مخصوص بما ولده الميت بلا واسطه، و أما أولاد الأولاد فنازلا- فحكمهم حكم من يتصلون به فلبنت الابن سهمان و لابن البنت سهم واحد إذا لم يكن هناك من يتقدم على مرتبتهم كما أن الحكم في أولاد الإخوه و الأخوات حكم من يتصلون به، و أما لفظ الابن فلا يقضى بنفى الواسطه كما أن الأب أعم من الوالد.

و أما قوله تعالى في ذيل الآية: «أَبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا» فسيجيء أن هناك عناية خاصه تستوجب اختيار لفظ الأبناء على الأولاد.

و أما قوله: «لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ» ففي انتخاب هذا التعبير إشعار بإبطال ما كانت عليه الجاهليه من منع توريث النساء فكأنه جعل إرث الأنثى مقرا معروفا و أخبر بأن للذكر مثله مرتين أو جعله هو الأصل في التشريع و جعل إرث الذكر محمولا عليه يعرف بالإضافه إليه، و لو لا ذلك لقال: للأنثى نصف حظ الذكر و إذن لا يفيد هذا المعنى و لا يلتئم السياق معه- كما ترى- هذا ما ذكره بعض العلماء و لا بأس به، و ربما أيد ذلك بأن الآية لا تتعرض بنحو التصريح مستقلا إلا لسهام النساء و إن صرحت بشيء من سهام الرجال فمع ذكر سهامهن معه كما في الآية التاليه و الآية التي في آخر السوره.

و بالجملة قوله: لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ في محل التفسير لقوله: يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ، و اللام في الذكر و الأنثيين لتعريف الجنس أي إن جنس الذكر يعادل في السهم أنثيين، و هذا إنما يكون إذا كان هناك في الوراثة ذكر و أنثى معا فللذكر ضعفا الأنثى سهما و لم يقل: للذكر مثل حظي الأنثى أو مثلا حظ الأنثى ليدل الكلام على سهم الأنثيين إذا انفردتا بإيثار الإيجاز على ما سيجيء.

و على أى حال إذا تركت الورثة من الذكور و الإناث كان لكل ذكر سهمان و لكل أنثى سهم إلى أى مبلغ بلغ عددهم.

قوله تعالى: «فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثًا مِمَّا تَرَكَ» ظاهر وقوع هذا الكلام بعد قوله: «لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ» إنه على تقدير معطوف عليه محذوف كأنه قيل: هذا إذا كانوا نساء و رجالا فإن كن نساء «إلخ» و هو شائع فى الاستعمال و منه قوله تعالى: وَ أَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ: «البقره:

١٩٦» و قوله: أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ:

«البقره: ١٨٤».

و الضمير فى كن راجع إلى الأولاد فى قوله: فى أولادكم و تأنيث الضمير لتأنيث الخبر، و الضمير فى قوله: ترك راجع إلى الميت المعلوم من سياق الكلام.

قوله تعالى: «وَ إِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ» الضمير إلى الولد المفهوم من السياق و تأنيثه باعتبار الخبر و المراد بالنصف نصف ما ترك فاللام عوض عن المضاف إليه.

و لم يذكر سهم الأنثيين فإنه مفهوم من قوله: لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فإن ذكرا و أنثى إذا اجتمعا كان سهم الأنثى الثلث للآيه و سهم الذكر الثلثين و هو حظ الأنثيين فحظ الأنثيين الثلثان فهذا المقدار مفهوم من الكلام إجمالا و ليس فى نفسه متعينا للفهم إذ لا ينافى ما لو كان قيل بعده: و إن كانتا اثنتين فلهما النصف أو الجميع مثلا لكن يعينه السكوت عن ذكر هذا السهم و التصريح الذى فى قوله: فإن كن نساء فوق اثنتين، فإنه يشعر بالتعمد فى ترك ذكر حظ الأنثيين.

على أن كون حظهما الثلثين هو الذى عمل به النبى ص و جرى العمل عليه منذ عهده (ص) إلى عهدنا بين علماء الأمة سوى ما نقل من الخلاف عن ابن عباس.

و هذا أحسن الوجوه فى توجيه ترك التصريح بسهم الأنثيين، قال الكلينى رحمه الله فى الكافى: إن الله جعل حظ الأنثيين الثلثين بقوله: لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ، و ذلك أنه إذا ترك الرجل بنتا و ابنا فللذكر مثل حظ الأنثيين و هو الثلثان فحظ الأنثيين الثلثان، و اكتفى بهذا البيان أن يكون ذكر الأنثيين بالثلثين، انتهى، و نقل مثله عن

أبى مسلم المفسر: أنه يستفاد من قوله تعالى: لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ و ذلك أن الذكر مع الأنثى الواحده يرث الثلثين فيكون الثلثان هما حظ الأنثيين، انتهى و إن كان ما نقل عنهما لا يخلو من قصور يحتاج فى التتميم إلى ما أوضحناه آنفا فليأمل فيه.

و هناك وجوه آخر سخيغه ذكروها فى توجيه الآيه كقول بعضهم: إن المراد بقوله تعالى: فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ، الاثنان و ما فوقهما فهذه الجملة تتضمن بيان حظ الأنثيين، و النساء فوق اثنتين جميعا. و مثل قول بعضهم: إن حكم البنتين هاهنا معلوم بالقياس إلى حكم الأختين فى آخر آيه من السوره حيث ذكرت لهما الثلثين إلى غير ذلك مما يجعل عن أمثالها كلامه تعالى.

قوله تعالى: «وَلِلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ» إلى قوله: «فَلِأُمَّه السُّدُسُ» فى عطف الأبوين فى الحكم على الأولاد دلالة على أن الأبوين يشاركان الأولاد فى طبقتهم، و قوله: و ورثه أبواه، أى انحصر الوارث فيهما، و فى قوله: فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ «إلخ» بعد قوله: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ، دلالة على أن الإخوه واقعه فى طبقه ثانيه لاحقه لطبقه الأبناء و البنات لا ترث مع وجودهم غير أن الإخوه تحجب الأم عن الثلث.

قوله تعالى: «مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ» أما الوصيه فهى التى تندب إليها قوله: كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ X الآيه X: «البقره:

١٨٠» و لا ينافى تقدمها فى الآيه على الدين ما ورد فى السنه أن الدين مقدم على الوصيه لأن الكلام ربما يقدم فيه غير الأهم على الأهم لأن الأهم لمكانته وقوه ثبوته ربما لا يحتاج إلى ما يحتاج إليه غيره من التأكيد و التشديد، و منه التقديم، و على هذا فقوله: أَوْ دَيْنٍ فى مقام الإضراب و الترقى طبعاً.

و بذلك يظهر وجه توصيف الوصيه بقوله: يوصى بها ففيه دلالة على التأكيد، و لا يخلو مع ذلك من الإشعار بلزوم إكرام الميت و مراعاة حرمة فيما وصى به كما قال تعالى: فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ X الآيه X: «البقره: ١٨١».

قوله تعالى: «أَبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا» الخطاب للورثه أعنى لعامة المكلفين من حيث إنهم يرثون أمواتهم، و هو كلام ملقى للإيماء

إلى سر اختلاف السهام في وراثه الآباء و الأبناء و نوع تعليم لهم خوطبوا به بلسان «لا تدرؤن» و أمثال هذه التعبيرات شائعه في اللسان.

على أنه لو كان الخطاب لغير الورثه أعنى للناس من جهه أنهم سيموتون و يورثون آباءهم و أبناءهم لم يكن وجه لقوله: أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَإِنَّ الظاهر أن المراد بالانتفاع هو الانتفاع بالمال الموروث و هو إنما يعود إلى الورثه دون الميت.

و تقديم الآباء على الأبناء يشعر بكون الآباء أقرب نفعاً من الأبناء، كما في قوله تعالى: إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴿١٥٨﴾ و قد مرت الروايه

عن النبي ص أنه قال: أبدأ بما بدأ الله الحديث.

و الأمر على ذلك بالنظر إلى آثار الرحم و اعتبار العواطف الإنسانيه فإن الإنسان أرأف بولده منه بوالديه و هو يرى بقاء ولده بقاء لنفسه دون بقاء والديه فأبأ الإنسان أقوى ارتباطاً و أمس وجوداً به من أبنائه، و إذا بنى الانتفاع الإرثي على هذا الأصل كان لازمه أن يذهب الإنسان إذا ورث أباه مثلاً بسهم أزيد منه إذا ورث ابنه مثلاً و إن كان ربما يسبق إلى الذهن البدوى أن يكون الأمر بالعكس.

و هذه الآيه أعنى قوله: أَبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُم أَقْرَبُ لَكُمْ، نَفْعًا من الشواهد على أنه تعالى بنى حكم الإرث على أساس تكويني خارجي كسائر الأحكام الفطريه الإسلاميه.

على أن الآيات المطلقه القرآنيه الناظره إلى أصل التشريع أيضاً كقوله: فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ: «الروم: ٣٠» تدل على ذلك، و كيف يتصور مع وجود أمثال هذه الآيات أن يرد في الشريعة أحكام إلزاميه و فرائض غير متغيره و ليس لها أصل في التكوين في الجملة.

و ربما يمكن أن يستشم من الآيه أعنى قوله: أَبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ إِنْخ، تقدم أولاد الأولاد على الأجداد و الجدات فإن الأجداد و الجدات لا يرثون مع وجود الأولاد و أولاد الأولاد.

قوله تعالى: «فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ» إِنْخ الظاهر أنه منصوب بفعل مقدر و التقدير خذوا أو الزموا و نحو ذلك و تأكيد بالغ أن هذه السهام المذكوره قدمت إليكم و هي مفرزه





و الثلث من المجموع دون مثل النصف و الثلثين، و لذا قال تعالى: **الْشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ**، و قال:

**فَلَأَمَّهُ الثُّلُثُ**

، و قال: **فَلَكُمْ الرُّبْعُ** بالقطع عن الإضافة في جميع ذلك، و قال: **وَ لَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ**، و قال: **فَلَهُنَّ ثُلُثًا** **مَا تَرَكَ** بالإضافة، و قال: **فَلَهَا النِّصْفُ** أى نصف ما ترك فاللام عوض عن المضاف إليه.

قوله تعالى: **«وَ إِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ»** إلى آخر الآيه أصل الكلاله مصدر بمعنى الإحاطه، و منه الإكليل لإحاطته بالرأس و منه الكل-بضم الكاف- لإحاطته بالأجزاء، و منه الكل-بفتح الكاف-لنوع إحاطه منه ثقيله على من هو كل عليه، قال الراغب: الكلاله اسم لما عدا الولد و الوالد من الورثه،

قال: و روى: أن النبي ص سئل عن الكلاله-فقال: من مات و ليس له ولد و لا والد فجعله اسما للميت ، و كلا القولين صحيح فإن الكلاله مصدر يجمع الوارث و الموروث جميعا، انتهى.

أقول: و على هذا فلا- مانع من كون كان ناقصه و رجل اسمها و يورث وصفا للرجل و كلاله خبرها و المعنى: و إن كان الميت كلاله للوارث ليس أباه له و لا- ابنا. و يمكن أن يكون كان تامه و رجل يورث فاعله و كلاله مصدرا وضع موضع الحال، و يثول المعنى أيضا إلى كون الميت كلاله للورثه، و قال الزجاج على ما نقل عنه: من قرأ يورث -بكسر الراء- فكلاله مفعول، و من قرأ يورث-بفتح الراء- فكلاله منصوب على الحال.

و قوله: غير مضار منصوب على الحال، و المضار هو الإضرار و ظاهره أن المراد به الإضرار بالدين من قبل الميت كان يعتمل بالدين للإضرار بالورثه و تحريمهم الإرث، أو المراد المضار بالدين كما ذكروا بالوصيه بما يزيد على ثلث المال.

قوله تعالى: **«تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ»** إلى آخر الآيتين الحد هو الحاجز بين الشيين الذى يمنع اختلاط أحدهما بالآخر و ارتفاع التمايز بينهما كحد الدار و البستان، و المراد بها أحكام الإرث و الفرائض المبينه، و قد عظم الله أمرها بما ذكر في الآيتين من الثواب على إطاعته و إطاعه رسوله فيها و العذاب الخالد المهين على المعصيه.

### كلام فى الإرث على وجه كلى

هاتان الآيتان أعنى قوله تعالى: **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ** إلى آخر الآيتين، و الآيه

التي في آخر السوره: يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، مع قوله تعالى:

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ الْآيَةَ، و مع قوله تعالى: وَ أُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ  
:«الأحزاب: ٦، الأنفال: ٧»، خمس آيات أو ست هي الأصل القرآني للإرث في الإسلام و السنه تفسرها أوضح تفسيرا و تفصيل.

و الكلديات المنتزعه المستفاده منها التي هي الأصل في تفاصيل الأحكام أمور:

منها: ما تقدم في قوله: أَبَاؤُكُمْ وَ أُمَّهَاتُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا، و يظهر منها أن للقرب و البعد من الميت تأثيرا في باب الإرث، و إذا ضمت الجمله إلى بقية الآيه أفادت أن ذلك مؤثر في زيادة السهم و قلته و عظمه و صغره، و إذا ضمت إلى قوله تعالى: وَ أُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أفادت أن الأقرب نسبا في باب الإرث يمنع الأبعد.

فأقرب الأقارب إلى الميت الأب و الأم و الابن و البنت إذ لا واسطه بينهم و بين الميت، و الابن و البنت يمنعان أولاد أنفسهما لأنهم يتصلون به بواسطتهم فإذا فقدت واسطتهم فهم يقومون مقامها.

و تتلوها المرتبه الثانيه و هم إخوه الميت و أخواته و جدته و جدته فإنهم يتصلون بالميت بواسطه واحده و هي الأب أو الأم، و أولاد الأخ و الأخت يقومون مقام أبيهم و أمهم، و كل بطن يمنع من بعده من البطون كما مر.

و تتلو هذه المرتبه مرتبه أعمام الميت و أخواله و عماته و خالاته فإن بينهم و بين الميت واسطتين و هما الجد أو الجده و الأب أو الأم، و الأمر على قيام ما مر.

و يظهر من مسأله القرب و البعد المذكوره أن ذا السببين مقدم على ذى السبب الواحد، و من ذلك تقدم كلاله الأبوين على كلاله الأب فلا ترث معها، و أما كلاله الأم فلا تزاحمها كلاله الأبوين.

و منها: أنه قد اعتبر في الوراث تقدم و تأخر من جهه أخرى فإن السهام ربما اجتمعت فتزاحمت بالزيادة على أصل التركة فمنهم من عين له عند الزحام سهم آخر كالزوج يذهب بالنصف فإذا زاحمه الولد عاد إلى الربع بعينه و مثله الزوجه في ربعها و ثمنها

و كالأُم تذهب بالثلث فإذا زاحمها ولد أو إخوه عادت إلى السدس و الأب لا يزول عن سدسه مع وجود الولد و عدمه، و منهم من عين له سهم ثم إذا زاحمه آخر سكت عنه و لم يذكر له سهم بعينه كالبنات و البنات و الأخوات يذهبن بالنصف و الثلثين و قد سكت عن سهامهم عند الزحام، و يستفاد منه أن أولئك المقدمين لا يزاحمون و لا يرد عليهم نقص في صورته زياده السهام على الأصل و إنما يرد ما يرد من النقص على الآخرين المسكوت عن سهامهم عند الزحام.

و منها: أن السهام قد تزيد على المال كما إذا فرض زوج و أخوات من كلاله الأبوين فهناك نصف و ثلثان و هو زائد على مخرج المال، و كذا لو فرض أبوان و بنتان و زوج فتزيد السهام على أصل التركة فإنها سدسان و ثلثان و ربع.

و كذلك قد تزيد التركة على الفريضة كما إذا كانت هناك بنت واحده أو بنتان فقط و هكذا، و السنه المأثوره التي لها شأن تفسير الكتاب على ما ورد من طرق أئمه أهل البيت (ع) أنه في صورته زياده السهام على أصل المال يدخل النقص على هؤلاء الذين لم يعين لهم إلا سهم واحد و هم البنات و الأخوات دون غيرهم و هو الأم و الزوج الذين عين الله فرائضهما بحسب تغير الفروض و كذا في صورته زياده أصل التركة على السهام يرد الزائد على من يدخل عليه النقص في الصوره السابقه كما في بنت و أب فلأب السدس و للبنات نصف المال بالفريضة و الباقي بالرد.

و قد سن عمر بن الخطاب أيام خلافته في صورته زياده السهام العول و عمل الناس في الصدر الأول في صورته زياده التركة بالتعصيب و سيجيء الكلام فيهما في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى.

و منها: أن التأمل في سهام الرجال و النساء في الإرث يفيد أن سهم المرأة ينقص عن سهم الرجل في الجملة إلا في الأبوين فإن سهم الأم قد يربو على سهم الأب بحسب الفريضة و لعل تغليب جانب الأم على جانب الأب أو تسويتها لكونها في الإسلام أمس رحماً بولدها و مقاساتها كل شديده في حمله و وضعه و حضانه و تربيته، قال تعالى: **وَصَيَّرْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَ وَضَعَتْهُ كُرْهًا وَ حَمَلُهُ وَ فِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا**: «الأحقاف: ١٥» و خروج سهمها عن نصف ما للرجل إلى حد المساواه أو زياده تغليب لجانبها قطعاً.

و أما كون سهم الرجل في الجملة ضعف سهم المرأة فقد اعتبر فيه فضل الرجل على المرأة بحسب تدبير الحياه عقلا و كون الإنفاق اللازم على عهده، قال تعالى: الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ: «النساء: ٣٤» و القوام من القيام و هو إدارة المعاش، و المراد بالفضل هو الزيادة في التعقل فإن حياته حياه تعقلية و حياه المرأة إحساسيه عاطفيه، و إعطاء زمام المال يدا عاقله مدبره أقرب إلى الصلاح من إعطائه يدا ذات إحساس عاطفي و هذا الإعطاء. و التخصيص إذا قيس إلى الثروه الموجوده في الدنيا المنتقله من الجيل الحاضر إلى الجيل التالي يكون تدبير ثلثي الثروه الموجوده إلى الرجال و تدبير ثلثها إلى النساء فيغلب تدبير التعقل على تدبير الإحساس و العواطف فيصلح أمر المجتمع و تسعد الحياه.

و قد تدورك هذا الكسر الوارد على النساء بما أمر الله سبحانه الرجل بالعدل في أمرها الموجب لاشتراكها مع الرجل فيما بيده من الثلثين فتذهب المرأة بنصف هذين الثلثين من حيث المصرف، و عندها الثلث الذي تمتلكه و بيدها أمر ملكه و مصرفه.

و حاصل هذا الوضع و التشريع العجيب أن الرجل و المرأة متعاكسان في الملك و المصرف فللرجل ملك ثلثي ثروه الدنيا و له مصرف ثلثها، و للمرأة ملك ثلث الثروه و لها مصرف ثلثها، و قد لوحظ في ذلك غلبه روح التعقل على روح الإحساس و العواطف في الرجل، و التدبير المالي بالحفظ و التبديل و الإنتاج و الاسترباح أنسب و أمس بروح التعقل، و غلبه العواطف الرقيقه و الإحساسات اللطيفه على روح التعقل في المرأة، و ذلك بالمصرف أمس و ألصق فهذا هو السر في الفرق الذي اعتبره الإسلام في باب الإرث و النفقات بين الرجال و النساء.

و ينبغي أن يكون زياده روح التعقل بحسب الطبع في الرجل و مزيته على المرأة في هذا الشأن هو المراد بالفضل الذي ذكره الله سبحانه في قوله عز من قائل: الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ الآيه، دون الزيادة في البأس و الشده و الصلابه فإن الغلظه و الخشونه في قبيل الرجال و إن كانت مزيه وجوديه يمتاز بها الرجل من المرأة و تترتب عليها في المجتمع الإنساني آثار عظيمه في أبواب الدفاع و الحفظ و الأعمال الشاقه و تحمل الشدائد و المحن و الثبات و السكينه في الهزاهز و الأهوال، و هذه شئون ضروريه في الحياه لا يقوم لها قبيل النساء بالطبع.

لكن النساء أيضا مجهزة بما يقابلها من الإحساسات اللطيفة و العواطف الرقيقة التي لا غنى للمجتمع عنها في حياته، و لها آثار هامة في أبواب الأُنس و المحبة و السكن و الرحمه و الرأفة و تحمل أثقال التناسل و الحمل و الوضع و الحضانه و التربيه و التمريض و خدمه البيوت، و لا يصلح شأن الإنسان بالخشونه و الغلظه لو لا اللينه و الرقه، و لا بالغضب لو لا الشهوه، و لا أمر الدنيا بالدفع لو لا الجذب.

و بالجمله هذان تجهيزان متعادلان في الرجل و المرأه يتعادل بهما كفتا الحياه في المجتمع المختلط المركب من القبيلين، و حاشاه سبحانه أن يحيف في كلامه أو يظلم في حكمه أم يخافون أن يحيف الله عليهم (١)، و لا يظلم ربك أحدا (٢) و هو القائل:

بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ: «آل عمران: ١٩٥» و قد أشار إلى هذا الالتيام و البعضيه بقوله في الآيه: بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ .

و قال أيضا: وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ: «الروم: ٢١» فانظر إلى عجيب بيان الآيتين حيث وصف الإنسان (و هو الرجل بقريته المقابله) بالانتشار و هو السعى في طلب المعاش، و إليه يعود جميع أعمال اقتناء لوازم الحياه بالتوسل إلى القوه و الشده حتى ما في المغالبات و الغزوات و الغارات و لو كان للإنسان هذا الانتشار فحسب لانقسم أفراده إلى واحد يكر و آخر يفر.

لكن الله سبحانه خلق النساء و جهزهن بما يوجب أن يسكن إليهن الرجال و جعل بينهم موده و رحمه فاجتذبن الرجال بالجمال و الدلال و الموده و الرحمه، فالنساء هن الركن الأول و العامل الجوهرى للاجتماع الإنساني.

و من هنا ما جعل الإسلام الاجتماع المنزلى و هو الازدواج هو الأصل في هذا الباب قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ: «الحجرات: ١٣»، فبدأ بأمر ازدواج الذكر و الأنثى

ص: ٢١٦

١-١) سورة النور: ٥٠

٢-٢) سورة الكهف: ٤٩.

و ظهور التناسل بذلك ثم بنى عليه الاجتماع الكبير المتكون من الشعوب و القبائل.

و من ذيل الآيه يظهر أن التفضيل المذكور فى قوله: الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضِ الْآيَةِ، إنما هو تفضيل فى التجهيز بما ينتظم به أمر الحياه الدنيويه أعنى المعاش أحسن تنظيم، و يصلح به حال المجتمع إصلاحاً جيداً، و ليس المراد به الكرامه التى هى الفضيله الحقيقه فى الإسلام و هى القربى و الزلفى من الله سبحانه فإن الإسلام لا يعبأ بشيء من الزيادات الجسمانيه التى لا يستفاد منها إلا للحياه الماديه و إنما هى وسائل يتوسل بها لما عند الله.

فقد تحصل من جميع ما قدمنا أن الرجال فضلوا على النساء بروح التعقل الذى أوجب تفاوتاً فى أمر الإرث و ما يشبهه لكنها فضيله بمعنى الزيادة و أما الفضيله بمعنى الكرامه التى يعتنى بشأنها الإسلام فهى التقوى أينما كانت.

### بحث روائى

فى الدر المنثور، أخرج عبد بن حميد و البخارى و مسلم و أبو داود و الترمذى و النسائى و ابن ماجه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى سننه من طرق جابر بن عبد الله -قال\*: عادنى رسول الله ص و أبو بكر فى بنى سلمه ماشيين - فوجدنى النبى ص لا أعقل شيئاً فدعا بماء فتوضأ منه - ثم رش على فأفقت فقلت:

ما تأمرنى أن أصنع فى مالى يا رسول الله؟ فنزلت: يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ .

أقول: قد تقدم مراراً أن أسباب النزول المرويّه لا تأبى أن تتعدد و تجتمع عدّه منها فى آيه، و لا تنافى عدم انحصار عنايه الآيه النازله فيها و لا أن يتصادف النزول فينطبق عليها مضمون الآيه فلا يضر بالروايه ما فيها من قول جابر: ما تأمرنى أن أصنع بمالى يا رسول الله فنزلت «إلخ»، مع أن قسمه المال لم يكن عليه حتى يجاب بالآيه، و أعجب منه

ما رواه أيضاً عن عبد بن حميد و الحاكم عن جابر قال\*: كان رسول الله ص يعودنى و أنا مريض -فقلت: كيف أقسم مالى بين ولدى؟ فلم يرد على شيئاً و نزلت: يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ .

وفيه، أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عن السدى قال "\*: كان أهل الجاهلية لا يورثون الجوارى، و لا الضعفاء من الغلمان، لا يرث الرجل من والده إلا- من أطاق القتال- فمات عبد الرحمن أخو حسان الشاعر، و ترك امرأه له يقال لها: أم كحه- و ترك خمس جوار فجاءت الورثة فأخذوا ماله- فشكت أم كحه ذلك إلى النبي ص- فأنزل الله هذه الآية: فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلَاثًا مِمَّا تَرَكَ- وَ إِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ثم قال فى أم كحه: وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ- فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ .

وفيه، أيضا عنهما عن ابن عباس قال "\*: لما نزلت آية الفرائض- التى فرض الله فيها ما فرض للولد الذكر و الأنثى و الأبوين- كرهها الناس أو بعضهم و قالوا: تعطى المرأة الربع أو الثمن، و تعطى الابنة النصف، و يعطى الغلام الصغير، و ليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم، و لا يحوز الغنيمه، و كانوا يفعلون ذلك فى الجاهلية- لا يعطون الميراث إلا لمن قاتل القوم و يعطونه الأكبر فالأكبر.

أقول: و كان منه التعصيب و هو إعطاء الميراث عصبه الأب إذا لم يترك الميت ابنا كبيرا يطيق القتال، و قد عمل به أهل السنه فى الزائد على الفريضة فيما إذا لم يستوعب السهام التركة، و ربما وجد شىء من ذلك فى رواياتهم لكن وردت الروايات من طرق أهل البيت (ع) بنفى التعصيب، و أن الزائد على الفرائض يرد على من ورد عليه النقص و هم الأولاد و الإخوة من الأبوين أو الأب، و إلى الأب فى بعض الصور، و الذى يستفاد من الآيات يوافق ذلك على ما مر.

وفيه، أخرج الحاكم و البيهقى عن ابن عباس قال "\*: أول من أعال الفرائض عمر تدافعت عليه و ركب بعضها بعضا- قال: و الله ما أدرى كيف أصنع بكم؟ و الله ما أدرى أيكم قدم الله و أيكم آخر؟ و ما أجد فى هذا المال شيئا أحسن من أن أقسمه عليكم بالحصص! ثم قال ابن عباس: و أيم الله- لو قدم من قدم الله و آخر من آخر الله ما عالت فريضه، فقل له: و أيها قدم الله؟ قال: كل فريضه لم يهبطها الله من فريضه إلا إلى فريضه- فهذا ما قدم الله، و كل فريضه إذا زالت عن فرضها لم يكن لها إلا ما بقى- فتلك التى آخر الله فالذى قدم كالزوجين و الأم، و الذى آخر كالأخوات و البنات- فإذا اجتمع من قدم الله و آخر بدئ بمن قدم فأعطى حقه كاملا- فإن بقى شىء كان



لهن، وإن لم يبق شيء فلا شيء لهن.

وفيه، أيضا أخرج سعيد بن منصور عن ابن عباس قال "": أترون الذى أحصى رمل عالج عددا-جعل فى المال نصفا و ثلثا و ربعا؟إنما هو نصفان و ثلثه أثلاث و أربعة أرباع.

وفيه، أيضا عنه عن عطاء قال "": قلت لابن عباس: إن الناس لا يأخذون بقولى و لا بقولك-و لو مت أنا و أنت ما اقتسموا ميراثا على ما تقول-قال: فليجتمعوا فلنضع أيدينا على الركن-ثم نبتهل فنجعل لعنه الله على الكاذبين ما حكم الله بما قالوا.

أقول: و هذا المعنى منقول عن ابن عباس من طرق الشيعة أيضا كما يأتى.

فى الكافى، عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال "": جالست ابن عباس فعرض ذكر الفرائض من الموارث-فقال ابن عباس: سبحان الله العظيم- أترون الذى أحصى رمل عالج عددا جعل فى مال نصفا و نصفا و ثلثا؟!فهذان النصفان قد ذهبا بالمال فأين موضع الثلث؟فقال له زفر بن أوس البصرى: يا أبا العباس فمن أول من أعال هذه الفرائض؟فقال: عمر بن الخطاب لما التفت عنده الفرائض-و دفع بعضها بعضا قال: و الله ما أدرى أيكم قدم الله و أيكم آخر؟و ما أجد شيئا أوسع من أن أقسم عليكم هذا المال بالحصص-و أدخل على كل ذى حق حقه فأدخل عليه من عول الفرائض- و أيم الله لو قدم من قدم الله و آخر من آخر الله ما عالت الفريضة، فقال له زفر بن أوس: و أيها قدم و أيها آخر؟فقال: كل فريضة لم يهبها الله عن فريضة إلا إلى فريضة-فهذا ما قدم الله، و أما ما آخر الله-فكل فريضة إذا زالت عن فرضها-لم يكن لها إلا- ما بقى فتلك التى آخر، فأما التى قدم فالزوج له النصف-فإذا دخل عليه ما يزيله عنه رجع إلى الربع لا- يزيله عنه شيء، و الزوج له الربع فإذا زالت إلى الثمن لا- يزيلها عنه شيء، و الأم لها الثلث-فإذا زالت عنه صارت إلى السدس و لا يزيلها عنه شيء-فهذه الفرائض التى قدم الله عز و جل، و أما التى آخر ففريضة البنات و الأخوات لها النصف و الثلثان-فإذا أزالتهن الفرائض عن ذلك لم يكن لها إلا ما بقى، فتلك التى آخر الله، فإذا اجتمع ما قدم الله و ما آخر بدئ بما قدم الله-فأعطى حقه كاملا-فإن بقى شيء كان لمن آخر و إن لم يبق شيء فلا شيء له، فقال له زفر: فما منعك أن تشير بهذا الرأى على عمر؟فقال: هيئته.

أقول: وهذا القول من ابن عباس مسبق بقول علي (ع) بنفى العول، وهو مذهب أئمه أهل البيت (ع) كما يأتي.

في الكافي، عن الباقر (ع) في حديث قال\*: كان أمير المؤمنين (ع) يقول: إن الذي أحصى رمل عالج-ليعلم أن السهام لا تعول على سته لو تبصرون وجهها لم تجز سته.

أقول: في الصحاح: أن عالج موضع بالباديه به رمل، وقوله (ع): إن السهام لا تعول على سته أى لا تميل على الستة حتى تغيرها إلى غيرها، والسته هي السهام المصرح بها في الكتاب وهي: النصف و الثلث و الثلثان و الربع و السدس و الثمن.

وفيه، عن الصادق (ع) قال\*: قال أمير المؤمنين (ع): الحمد لله الذي لا مقدم لما آخر، ولا مؤخر لما قدم، ثم ضرب بإحدى يديه على الأخرى، ثم قال: يا أيتها الأمه المتحيره بعد نبياها-لو كنتم قدمتم من قدم الله و آخرتم من آخر الله، وجعلتم الولايه و الوراثه حيث جعلها الله ما عال ولى الله، ولا عال سهم من فرائض الله، ولا اختلف اثنان في حكم الله، ولا تنازعت الأمه في شيء من أمر الله-إلا و عند على علمه من كتاب الله، فذوقوا وبال أمركم و ما فرطتم فيما قدمت أيديكم، و ما الله بظلام للعبيد، و سيعلم الذي ظلموا أى منقلب ينقلبون.

أقول: و توضيح ورود النقص على حظوظ الورثه زياده على ما مر أن الفرائض المذكوره في كلامه تعالى ست: النصف، و الثلثان، و الثلث، و السدس، و الربع، و الثمن، و هذه السهام قد يجتمع بعضها مع بعض بحيث يحصل التزاحم كما أنه قد يجتمع النصف و السدسان و الربع في الطبقة الأولى ك بنت و أب و أم و زوج فتزيد السهام على الأصل، و كذا الثلثان و السدسان و الربع ك بنتين و أبوين و زوج فتزاحم، و كذلك يجتمع النصف و الثلث و الربع و السدس في الطبقة الثانيه كأخت و جدين للأب و الأم و زوجته، و كذا الثلثان و الثلث و الربع و السدس كأختين و جدين و زوج.

فإن أوردنا النقص على جميع السهام كان العول، و إن حفظنا فريضه الأبوين و الزوجين و كلاله الأم و هي الثلث و السدس و النصف و الربع و الثمن عن ورود النقص عليها-لأن الله عين هذه السهام و لم ييهما في حال بخلاف سهام البنت الواحده فما زادت و الأخت الواحده لأبوين أو لأب فما زادت و بخلاف سهام الذكر و الأنثى عند

الوحده و الكثره -ورد النقص دائما على الأولاد و الإخوه و الأخوات لما مر.

و أما كيفية الرد فليراجع فيها إلى جوامع الحديث و كتب الفقه.

و فى الدر المنثور، أخرج الحاكم و البيهقى فى سننه عن زيد بن ثابت \* : " أنه كان يحجب الأم بالأخوين فقالوا له: يا أبا سعيد إن الله يقول: فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ -و أنت تحجبها بأخوين؟ فقال: إن العرب تسمى الأخوين إخوه.

أقول: و هو المروى عن أئمه أهل البيت (ع) و إن كان المعروف أن الإخوه جمع الأخ و لا يطلق الجمع على ما دون الثلاثة.

و فى الكافى، عن الصادق (ع) قال \* : لا - يحجب الأم عن الثلث - إلا - أخوان أو أربع أخوات لأب و أم أو لأب أقول: و الأخبار فى ذلك كثيره و أما الإخوه لأم فإنهم يتقربون بالأم و هى بوجودها تمنعهم، و فى أخبار الفريقين أن الإخوه يحجبون الأم و لا يرثون لوجود من يتقدم عليهم فى الميراث و هو الأبوان فحجب الإخوه الأم مع عدم إرثهم إنما هو نوع مراعاة لحال الأب من حيث رد الزائد على الفريضة إليه، و منه يعلم وجه عدم حجب الإخوه للأم فإنهم ليسوا عاله للأب.

و فى المجمع، \* فى قوله تعالى: مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ ذَيْنِ، عن أمير المؤمنين (ع):

أنكم تقرءون فى هذه الآيه الوصيه قبل الدين، و أن رسول الله ص قضى بالدين قبل الوصيه:

أقول: و رواه السيوطى فى الدر المنثور عن عده من أرباب الجوامع و التفاسير.

و فى الكافى، \* فى معنى الكلاله عن الصادق (ع): من ليس بوالد و لا ولد.

و فيه، عنه (ع) \* فى قوله تعالى: وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً الْآيَةَ، إنما عنى بذلك الإخوه و الأخوات من الأم خاصه.

أقول: و الأخبار فى ذلك كثيره و قد رواها أهل السنه، و قد استفاضت الروايات بذلك و أن حكم كلاله الأب و الأبوين هو المذكور فى الآيه الخاتمه للسوره: يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ الْآيَةَ.

و من الشواهد على ذلك أن الفرائض المذكوره للكلاله فى آخر السوره تربو على ما ذكر لهم فى هذه الآيه زياده ضعف أو أزيد، و من المستفاد من سياق الآيات و ذكر الفرائض أنه تعالى يرجح سهم الرجال على النساء فى الجملة ترجيح المثلىن على المثل أو ما يقرب من ذلك مهما أمكن، و الكلاله إنما يتقرب إلى الميت من جهه الأم و الأب أو أحدهما فالتفاوت المراعى فى جانب الأب و الأم يسرى إليهم فيترجح لا- محاله فرائض كلاله الأبوين أو الأب على كلاله الأم و يكشف بذلك أن القليل لكلاله الأم و الكثير لغيره.

و فى المعانى، بإسناده إلى محمد بن سنان\*: أن أبا الحسن الرضا(ع) كتب إليه فيما كتب من جواب مسائله-عله إعطاء النساء نصف ما يعطى الرجال من الميراث: لأن المرأة إذا تزوجت أخذت و الرجل يعطى-فلذلك وفر على الرجال-و عله أخرى فى إعطاء الذكر مثلى ما تعطى الأنثى-لأن الأنثى من عيال الذكر إن احتاجت، و عليه أن يعولها و عليه نفقتها، و ليس على المرأة أن تعول الرجل-و لا- تؤخذ بنفقتها إن احتاج فوفر على الرجال لذلك، و ذلك قول الله عز و جل: **الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ-بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَ بِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ .**

و فى الكافى، بإسناده عن الأحول قال\*: قال ابن أبى العوجاء: ما بال المرأة المسكينه الضعيفه تأخذ سهمها واحدا و يأخذ الرجال سهمين؟ فذكر ذلك بعض أصحابنا لأبى عبد الله(ع)-فقال: إن المرأة ليس عليها جهاد، و لا نفقه، و لا معقله، فإنما ذلك على الرجال-فلذلك جعل للمرأة سهمها واحدا، و للرجل سهمين.

أقول: و الروايات فى هذا المعنى كثيره و قد مر دلالة الكتاب أيضا على ذلك.

## بحث علمى فى فصول

### ١- ظهور الإرث:

كان الإرث أعنى تملك بعض الأحياء المال الذى تركه الميت من أقدم السنن الدائره فى المجتمع الإنسانى، و قد خرج عن وسع ما بأيدينا من تواريخ الأمم و الملل الحصول على مبدإ حصوله، و من طبيعه الأمر أيضا ذلك فإننا نعلم بالتأمل فى طبيعه الإنسان الاجتماعيه أن المال و خاصه لو كان مما لا يد عليه يحن

إليه الإنسان و يتوق إليه نفسه لصفه فى حوائجه، و حيازته و خاصه فىما لا مانع عنه من دءوبه الأوليه القديمه، و الإنسان فى ما كونه من مجتمعه همجيا أو مدنيا لا- يستغنى عن اعتبار القرب و الولايه (المنتجين للأقربيه و الأولويه) بين أفراد المجتمع الاعتبار الذى عليه المدار فى تشكل البيت و البطن و العشيره و القبيله و نحو ذلك، فلا مناص فى المجتمع من كون بعض الأفراد أولى ببعض كالولد بوالديه و الرحم برحمه، و الصديق بصديقه، و المولى بعبده، و أحد الزوجين بالآخر، و الرئيس بمرءوسه حتى القوى بالضعيف، و إن اختلفت المجتمعات فى تشخيص ذلك اختلافا شديدا يكاد لا تناله يد الضبط.

و لازم هذين الأمرين كون الإرث دائرا بينهم من أقدم العهود الاجتماعيه.

## ٢- تحول الإرث تدريجيا:

لم تزل هذه السنه كسائر السنن الجاريه فى المجتمعات الإنسانيه تتحول من حال إلى حال و تلعب بها يد التطور و التكامل منذ أول ظهورها غير أن الأمم الهمجيه لما لم تستقر على حال منتظم تعسر الحصول فى تواريخهم على تحوله المنتظم حصولا يفيد وثوقا به.

و القدر المتيقن من أمرهم أنهم كانوا يحرمون النساء و الضعفاء الإرث، و إنما كان يختص بالأقوياء و ليس إلا- لأنهم كانوا يعاملون مع النساء و الضعفاء من العبيد و الصغار معاملة الحيوان المسخر و السلع و الأمتعه التى ليس لها إلا أن ينتفع بها الإنسان دون أن تنتفع هى بالإنسان و ما فى يده أو تستفيد من الحقوق الاجتماعيه التى لا تتجاوز النوع الإنسانى.

و مع ذلك كان يختلف مصداق القوى فى هذا الباب بره بعد بره فتاره مصداقه رئيس الطائفه أو العشيره، و تاره رئيس البيت، و تاره أخرى أشجع القوم و أشدهم بأسا، و كان ذلك يوجب طبعا تغير سنه الإرث تغيرا جوهريا.

و لكون هذه السنن الجاريه لا تضمن ما تقترحه الفطره الإنسانيه من السعاده المقترحه كان يسرع إليها التغير و التبديل حتى أن الملل المتمدنه التى كان يحكم بينهم القوانين أو ما يجرى مجراها من السنن المعتاده المليه كان شأنهم ذلك كالروم و اليونان، و ما عمر قانون من قوانين الإرث الدائره بين الأمم حتى اليوم مثل ما عمرت سنه الإرث الإسلاميه فقد حكمت فى الأمم الإسلاميه منذ أول ظهورها إلى اليوم ما يقرب من أربعة عشر قرنا.

من خواص الروم أنهم كانوا يرون للبيت فى نفسه استقلالاً مدنيا يفصله عن المجتمع العام و يصونه عن نفوذ الحكومه العامه فى جل ما يرتبط بأفاده من الحقوق الاجتماعيه، فكان يستقل فى الأمر و النهى و الجزاء و السياسه و نحو ذلك.

و كان رب البيت هو معبودا لأهله من زوجه و أولاد و عبيد، و كان هو المالك من بينهم و لا يملك دونه أحد ما دام أحد أفراد البيت، و كان هو الولى عليهم القيم بأمرهم باختياره المطلق النافذ فيهم، و كان هو يعبد رب البيت السابق من أسلافه.

و إذا كان هناك مال يرثه البيت كما إذا مات بعض الأبناء فيما ملكه بإذن رب البيت اكتساباً أو بعض البنات فيما ملكته بالازدواج صداقاً و أذن لها رب البيت أو بعض الأقارب فإنما كان يرثه رب البيت لأنه مقتضى ربوبيته و ملكه المطلق للبيت و أهله.

و إذا مات رب البيت فإنما كان يرثه أحد أبنائه أو إخوانه ممن فى وسعه ذلك و ورثه الأبناء فإن انفصلوا و أسسوا بيوتا جديده كانوا أربابها و إن بقوا فى بيتهم القديم كان نسبتهم إلى الرب الجديد (أخيهم مثلاً) هى النسبه السابقه إلى أبيهم من الورود تحت قيمومه و ولايته المطلقه.

و كذا كان يرثه الأديعاء لأن الادعاء و التبنى كان دائراً عندهم كما بين العرب فى الجاهليه.

و أما النساء كالزوجه و بنت و الأم فلم يكن يرثن لثلاً- ينتقل مال البيت بانتقالهن إلى بيوت أخرى بالازدواج فإنهم ما كانوا يرون جواز انتقال الثروه من بيت إلى آخر، و هذا هو الذى ربما ذكره بعضهم فقال: إنهم كانوا يقولون بالملكيه الاشتراكيه الاجتماعيه دون الانفراديه الفرديه و أظن أن مأخذه شىء آخر غير الملك الاشتراكي فإن الأقوام الهمجيه المتوحشه أيضاً من أقدم الأزمنه كانوا يمتنعون من مشاركه غيرهم من الطوائف البدويه فيما حازوه من المراعى و الأراضى الخصبه و حموه لأنفسهم و كانوا يحاربون عليه و يدفعون عن محمياتهم و هذا نوع من الملك العام الاجتماعى الذى مالكة هيئه المجتمع الإنسانى دون أفراده، و هو مع ذلك لا ينفى أن يملك كل فرد من المجتمع شيئاً من هذا الملك العام اختصاصاً.

و هذا ملك صحيح الاعتبار غير أنهم ما كانوا يحسنون تعديل أمره و الاستدرار منه، و قد احترمه الإسلام كما ذكرناه فيما تقدم، قال تعالى: خَلَقَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا: «البقره: ٢٩» فالمجتمع الإنساني و هو المجتمع الإسلامي و من هو تحت ذمته هو المالك لثروه الأرض بهذا المعنى ثم المجتمع الإسلامي هو المالك لما في يده من الثروه و لذلك لا يرى الإسلام إرث الكافر من المسلم.

و لهذا النظر آثار و نماذج في بعض الملل الحاضره حيث لا يرون جواز تملك الأجانب شيئاً من الأراضى و الأموال غير المنقوله من أوطانهم و نحو ذلك.

و لما كان البيت في الروم القديم ذا استقلال و تمام في نفسه كان قد استقر فيه هذه العاده القديمه المستقره في الطوائف و الممالك المستقله.

و كان قد أنتج استقرار هذه العاده أو السنه في بيوت الروم مع سنتهم في التزويج من منع الازدواج بالمحارم أن القرابه انقسمت عندهم قسمين: أحدهما القرابه الطبيعیه و هى الاشتراك في الدم، و كان لازمها منع الازدواج في المحارم و جوازه في غيرهم، و الثانى القرابه الرسمیه و هى القانونیه و لازمها الإرث و عدمه و النفقه و الولايه و غير ذلك فكان الأبناء أقرباء ذوى قرابه طبيعیه و رسمیه معا بالنسبه إلى رب البيت و رئيسه و فى ما بينهم، أنفسهم و كانت النساء جميعا ذوات قرابه طبيعیه لا رسمیه فكانت المرأه لا ترث والدها و لا ولدها و لا أخاها و لا بعلها و لا غيرهم. هذه سنه الروم القديم.

و أما اليونان فكان وضعهم القديم فى تشکل البيوت قريبا من وضع الروم القديم، و كان الميراث فيهم يرثه أرشد الأولاد الذكور، و يحرم النساء جميعا من زوجه و بنت و أخت، و يحرم صغار الأولاد و غيرهم غير أنهم كالروميين ربما كانوا يحتالون لإيراث الصغار من أبنائهم و من أحبوا و أشفقوا عليها من زوجاتهم و بناتهم و أخواتهم بحبل متفرقه تسهل الطريق لامتعهن بشىء من الميراث قليل أو كثير بوصيه أو نحوها و سيجىء الكلام فى أمر الوصيه.

و أما الهند و مصر و الصين فكان أمر الميراث فى حرمان النساء منه مطلقا

و حرمان ضعفاء الأولاد أو بقاؤهم تحت الولاية و القيمومه قريبا مما تقدم من سنه الروم و اليونان.

و أما الفرس فإنهم كانوا يرون نكاح المحارم و تعدد الزوجات كما تقدم و يرون التبنى، و كانت أحب النساء إلى الزوج ربما قامت مقام الابن بالادعاء و ترث كما يرث الابن و الدعى بالسويه و كانت تحرم بقيه الزوجات، و البنت المزوجه لا ترث حذرا من انتقال المال إلى خارج البيت، و التي لم تزوج بعد ترث نصف سهم الابن، فكانت الزوجات غير الكبيره و البنت المزوجه محرومات، و كانت الزوجه الكبيره و الابن و الدعى و البنت غير المزوجه بعد مرزوقين.

و أما العرب فقد كانوا يحرمون النساء مطلقا و الصغار من البنين و يمتعون أرشد الأولاد ممن يركب الفرس و يدفع عن الحرمه، فإن لم يكن فالعصبه.

هذا حال الدنيا يوم نزلت آيات الإرث، ذكرها و تعرض لها كثير من تواريخ آداب الملل و رسومهم و الرحلات و كتب الحقوق و أمثالها من أراد الاطلاع على تفاصيل القول أمكنه أن يراجعها.

و قد تلخص من جميع ما مر أن السنه كانت قد استقرت فى الدنيا يومئذ على حرمان النساء بعنوان أنهن زوجه أو أم أو بنت أو أخت إلا بعناوين أخرى مختلفه، و على حرمان الصغار و الأيتام إلا فى بعض الموارد تحت عنوان الولاية و القيمومه الدائمه غير المنقطعه.

#### ٤- ما ذا صنع الإسلام و الظرف هذا الظرف

؟: قد تقدم مرارا أن الإسلام يرى أن الأساس الحق للأحكام و القوانين الإنسانيه هو الفطره التى فطر الناس عليها و لا تبديل لخلق الله، و قد بنى الإرث على أساس الرحم التى هي من الفطره و الخلقه الثابته، و قد ألغى إرث الأدياء حيث يقول تعالى: **وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ، فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ مَوَالِيكُمْ: «الأحزاب: ٥».**

ثم أخرج الوصيه من تحت عنوان الإرث و أفرد لها عنوانا مستقلا يعطى به و يؤخذ و إن كانوا يسمون التملك من جهه الإيضاء إرثا، و ليس ذلك مجرد اختلاف فى التسميه



فإن لكل من الوصيه و الإرث ملاكا آخر و أصلا فطريا مستقلا،فملاك الإرث هو الرحم و لا نفوذ لإرادته المتوفى فيها أصلا،و ملاك الوصيه نفوذ إرادته المتوفى بعد وفاته(و إن شئت قل:حين ما يوصى)فى ما يملكه فى حياته و احترام مشيته،فلو أدخلت الوصيه فى الإرث لم يكن ذلك إلا مجرد تسميه.

و أما ما كان يسميها الناس كالروم القديم مثلا إرثا فلم يكن لاعتبارهم فى سنه الإرث أحد الأمرين،إما الرحم و إما احترام إرادته الميت بل حقيقه الأمر أنهم كانوا يبنون الإرث على احترام الإراده و هى إرادته الميت بقاء المال الموروث فى البيت الذى كان فيه تحت يد رئيس البيت و ربه أو إرادته انتقاله بعد الموت إلى من يحبه الميت و يشفق عليه فكان الإرث على أى حال يبنى على احترام الإراده و لو كان مبتنيا على أصل الرحم و اشتراك الدم لرزق من المال كثير من المحرومين منه،و حرم كثير من المرزوقين.

ثم إنه بعد ذلك عمد إلى الإرث و عنده فى ذلك أصلا جوهریان:

أصل الرحم و هو العنصر المشترك بين الإنسان و أقربائه لا يختلف فيه الذكور و الإناث و الكبار و الصغار حتى الأجنه فى بطون أمهاتهم و إن كان مختلف الأثر فى التقدم و التأخر،و منع البعض للبعض من جهه قوته و ضعفه بالقرب من الإنسان و البعد منه، و انتفاء الوسائط و تحققها قليلا أو كثيرا كالولد و الأخ و العم،و هذا الأصل يقضى باستحقاق أصل الإرث مع حفظ الطبقات المتقدمه و المتأخره.

و أصل اختلاف الذكر و الأنثى فى نحو وجود القرائح الناشئه عن الاختلاف فى تجهيزهما بالتعقل و الإحساسات،فالرجل بحسب طبعه إنسان التعقل كما أن المرأه مظهر العواطف و الإحساسات اللطيفه الرقيقه،و هذا الفرق مؤثر فى حياتيهما التأثير البارز فى تدبير المال المملوك،و صرفه فى الحوائج،و هذا الأصل هو الموجب للاختلاف فى السهام فى الرجل و المرأه و إن وقعا فى طبقه واحده كالابن و البنت،و الأخ و الأخت فى الجملة على ما سنبينه.

و استنتج من الأصل الأول ترتب الطبقات بحسب القرب و البعد من الميت لفقدان الوسائط و قلتها و كثرتها فالطبقه الأولى هى التى تتقرب من الميت بلا واسطه و هى الابن و البنت و الأب و الأم،و الثانيه الأخ و الأخت و الجد و الجده و هى تتقرب من

الميت بواسطة واحده و هي الأب أو الأم أو هما معا،و الثالثه العم و العمه و الخال و الخاله،و هي تتقرب إلى الميت بواسطة.

و هما أب الميت أو أمه و جده أو جدته،و على هذا القياس،و الأولاد فى كل طبقه يقومون مقام آبائهم و يمنعون طبقه اللاحقه و روعى حال الزوجين لاختلاط دمائهما بالزواج مع جميع الطبقات فلا يمنعهما طبقه و لا يمنعان طبقه.

ثم استنتج من الأصل الثانى اختلاف الذكر و الأنثى فى غير الأم و الكلاله المتقربه بالأم بأن للذكر مثل حظ الأنثيين.

و السهام الستة المفروضه فى الإسلام(النصف و الثلثان و الثلث و الربع و السدس و الثمن)و إن اختلفت،و كذا المال الذى ينتهى إلى أحد الوراث و إن تخلف عن فريضته غالبا بالرد أو النقص الوارد و كذا الأب و الأم و كلاله الأم و إن تخلفت فرائضهم عن قاعده«للذكر مثل حظ الأنثيين»و لذلك يعسر البحث الكلى الجامع فى باب الإرث إلا أن الجميع بحسب اعتبار النوع فى تخليف السابق لللاحق يرجع إلى استخلاف أحد الزوجين للآخر و استخلاف طبقه المولده و هم الآباء و الأمهات للطبقه المتولده و هم الأولاد،و الفريضه الإسلاميه فى كل من القبيلين أعنى الأزواج و الأولاد للذكر مثل حظ الأنثيين.

و ينتج هذا النظر الكلى أن الإسلام يرى اقتسام الثروه الموجوده فى الدنيا بالثلث و الثلثين فللأنثى ثلث و للذكر ثلثان هذا من حيث التملك لكنه لا يرى نظير هذا الرأى فى الصرف للحاجه فإنه يرى نفقه الزوجه على الزوج و يأمر بالعدل المقتضى للتساوى فى المصروف و يعطى للمرأة استقلال الإراده و العمل فيما تملكه من المال لا مداخله للرجل فيه،و هذه الجهات الثلاث تنتج أن للمرأة أن تتصرف فى ثلثى ثروه الدنيا(الثلث الذى تملكها و نصف الثلثين الذين يملكهما الرجل)و ليس فى قبال تصرف الرجل إلا الثلث.

## ٥-علام استقرار حال النساء و اليتامى فى الإسلام:

أما اليتامى فهم يرثون كالرجال الأقوياء،و يربون و ينمى أموالهم تحت ولايه الأولياء كالأب و الجد أو عامه المؤمنين أو الحكومه الإسلاميه حتى إذا بلغوا النكاح و أونس منهم الرشد دفعت إليهم أموالهم و استتوا على مستوى الحياه المستقله،و هذا أعدل السنن المتصوره فى حقهم.

و أما النساء فإنهن بحسب النظر العام يملكن ثلث ثروه الدنيا و يتصرفن فى ثلثيها بما تقدم من البيان، و هن حرات مستقلات فيما يملكن لا يدخلن تحت قيمومه دائمه و لا موقته و لا جناح على الرجال فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف.

فالمراه فى الإسلام ذات شخصيه تساوى شخصيه الرجل فى حريه الإراده و العمل من جميع الجهات، و لا تفارق حالها حال الرجل إلا فى ما تقتضيه صفتها الروحيه الخاصه المخالفه لصفه الرجل الروحيه و هى أن لها حياه إحساسيه و حياه الرجل تعقليه فاعتبر للرجل زياده فى الملك العام ليفوق تدبير التعقل فى الدنيا على تدبير الإحساس و العاطفه، و تدور ك ما ورد عليها من النقص باعتبار غلبتها فى التصرف، و شرعت عليها و جوب إطاعه الزوج فى أمر المباشره و تدور ك ذلك بالصدق، و حرمت القضاء و الحكومه و المباشره للقتال لكونها أمورا يجب بناؤها على التعقل دون الإحساس، و تدور ك ذلك بوجوب حفظ حماهن و الدفاع عن حريمهن على الرجال، و وضع على عاتقهم أثقال طلب الرزق و الإنفاق عليها و على الأولاد و على الوالدين و لها حق حضانه الأولاد من غير إيجاب، و قد عدل جميع هذه الأحكام بأمر أخرى دعين إليها كالتحجب و قله مخالطه الرجال و تدبير المنزل و تربيته الأولاد.

و قد أوضح معنى امتناع الإسلام عن إعطاء التدابير العامه الاجتماعيه كتدبير الدفاع و القضاء و الحكومه للعاطفه و الإحساس و وضع زمامها فى يدها، النتائج المره التى يذوقها المجتمع البشرى إثر غلبه الإحساس على التعقل فى عصرنا الحاضر، و أنت بالتأمل فى الحروب العالميه الكبرى التى هى من هدايا المدنيه الحاضره، و فى الأوضاع العامه الحاكمه على الدنيا، و عرض هذه الحوادث على العقل و الإحساس العاطفى تقف على تشخيص ما منه الإغراء و ما إليه النصح و الله الهادى.

على أن الملل المتمدنه من الغربيين لم يألوا جهدا و لم يقصروا حرصا منذ مئات السنين فى تربيته البنات مع الأبناء فى صف واحد، و إخراج ما فيهن من استعداد الكمال من القوه إلى الفعل، و أنت مع ذلك إذا نظرت فى فهرس نوايغ السياسه و رجال القضاء و التقنين و زعماء الحروب و قوادها (و هى الخلال الثلاث المذكوره: الحكومه، القضاء القتال) لم تجد فيه شيئا يعتد به من أسماء النساء و لا عددا يقبل المقايسه إلى المئات و الألوف من الرجال، و هذا فى نفسه أصدق شاهد على أن طباع النساء لا تقبل الرشد

و النماء فى هذه الخلال التى لا حكومه فىها بحسب الطبع إلا للتعقل و كلما زاد فىها ديب العواطف زادت خبىه و خسارانا.

و هذا و أمثاله من أقطع الأجوبه للنظريه المشهوره القائله إن السبب الوحيد فى تأخر النساء عن الرجال فى المجتمع الإنسانى هو ضعف التربيه الصالحه فىهن منذ أقدم عهود الإنسانىه، و لو دامت عليهن التربيه الصالحه الجيده مع ما فىهن من الإحساسات و العواطف الرقيقه لحقن الرجال أو تقدمن عليهم فى جهات الكمال.

و هذا الاستدلال أشبه بالاستدلال بما ينتج نقيض المطلوب فإن اختصاصهن بالعواطف الرقيقه أو زيادتها فىهن هو الموجب لتأخرهن فيما يحتاج من الأمور إلى قوه التعقل و تسلطه على العواطف الروحيه الرقيقه كالحكومه و القضاء، و تقدم من يزيد عليهن فى ذلك و هم الرجال فإن التجارب القطعيه تفيد أن من اختص بقوه صفه من الصفات الروحيه فإنما تنجح تربيتة فيما يناسبها من المقاصد و المآرب، و لازمه أن تنجح تربيه الرجال فى أمثال الحكومه و القضاء و يمتازوا عنهن فى نيل الكمال فيها، و أن تنجح تربيتهن فيما يناسب العواطف الرقيقه و يرتبط بها من الأمور كعض شعب صناعه الطب و التصوير و الموسيقى و النسيج و الطبخ و تربيه الأطفال و تمرير المرضى و أبواب الزينه و نحو ذلك، و يتساوى القبيلان فيما سوى ذلك.

على أن تأخرهن فيما ذكر من الأمور لو كان مستندا إلى الاتفاق و الصدفة كما ذكر لانتقض فى بعض هذه الأزمنه الطويله التى عاش فيها المجتمع الإنسانى و قد خمنوها بملايين من السنين كما أن تأخر الرجال فيما يختص من الأمور المختصه بالنساء كذلك و لو صح لنا أن نعد الأمور اللازمه للنوع غير المنفكه عن مجتمعهم و خاصه إذا ناسبت أمورا داخلية فى البنيه الإنسانىه من الاتفاقيات لم يسع لنا أن نحصل على خله طبيعیه فطريه من خلال الإنسانىه العامه كميل طباعه إلى المدنيه و الحضاره، و حبه للعلم، و بحثه عن أسرار الحوادث و نحو ذلك فإن هذه صفات لازمه لهذا النوع و فى بنیه أفرادها ما يناسبها من القرائح نعدھا لذلك صفات فطريه نظير ما نعد تقدم النساء فى الأمور الكمالیه المستظرفه و تأخرهن فى الأمور التعقليه و الأمور الهائله و الصعبه الشديده من مقتضى قرائحهن، و كذلك تقدم الرجال و تأخرهم فى عكس ذلك.

فلا يبقى بعد ذلك كله إلا انقباضهن من نسبه كمال التعقل إلى الرجال و كمال

الإحساس و التعطف إليهن، و ليس في محله فإن التعقل و الإحساس في نظر الإسلام موهبتان إلهيتان مودعتان في بنيه الإنسان لمآرب إلهيه حقه في حياته لا مزيه لإحدهما على الأخرى و لا كرامه إلا للتقوى، و أما الكمالات الأخر كائنه ما كانت فإنما تنمو و تربو إذا وقعت في صراطه و إلا لم تعد إلا أوزارا سيئه.

## ٦-قوانين الإرث الحديثه:

هذه القوانين و السنن و إن خالفت قانون الإرث الإسلامى كما و كيفا على ما سيمر بك إجمالها غير أنها استظهرت في ظهورها و استقرارها بالسنه الإسلاميه فى الإرث فكم بين موقف الإسلام عند تشريع إرث النساء فى الدنيا و بين موقفهن من الفرق.

فقد كان الإسلام يظهر أمرا ما كانت الدنيا تعرفه و لا قرعت أسماع الناس بمثله، و لا ذكرته أخلاف عن أسلافهم الماضين و آبائهم الأولين، و أما هذه القوانين فإنها أبدت و كلف بها أمم حينما كانت استقرت سنه الإسلام فى الإرث بين الأمم الإسلاميه فى معظم المعموره بين مئات الملايين من الناس توارثها الأخلاف من أسلافهم فى أكثر من عشره قرون، و من البديهيات فى أبحاث النفس أن وقوع أمر من الأمور فى الخارج ثم ثبوتها و استقرارها نعم العون فى وقوع ما يشابهها و كل سنه سابقه من السنن الاجتماعيه ماده فكريه للسنن اللاحقه المجانسه بل الأولى هى الماده المتحوله إلى الثانيه فليس لباحث اجتماعى أن ينكر استظهار القوانين الجديده فى الإرث بما تقدمها من الإرث الإسلامى و تحوله إليها تحولا عادلا أو جائرا.

و من أغرب الكلام ما ربما يقال-قاتل الله عصبية الجاهليه الأولى-: أن القوانين الحديثه إنما استفادت فى موادها من قانون الروم القديمه، و أنت قد عرفت ما كانت عليه سنه الروم القديمه فى الإرث، و ما قدمته السنه الإسلاميه إلى المجتمع البشرى و أن السنه الإسلاميه متوسطه فى الظهور و الجريان العملى بين القوانين الروميه القديمه و بين القوانين الغريبه الحديثه و كانت متعرفه متعمقه فى مجتمع الملايين و مئات الملايين من النفوس الإنسانيه قرونا متواليه متطاوله، و من المحال أن تبقى سدى و على جانب من التأثير فى أفكار هؤلاء المقننين.

و أغرب منه أن هؤلاء القائلين يذكرون أن الإرث الإسلامى مأخوذ من الإرث الرومى القديم!

و بالجمله فالقوانين الحديثه الدائره بين الملل الغريبه و إن اختلفت فى بعض الخصوصيات غير أنها كالمطبقه على تساوى الرجال و النساء فى سهم الإرث فالبنات و البنون سواء، و الأمهات و الآباء سواء فى السهام و هكذا.

و قد رتبت الطبقات فى قانون فرنسا على هذا النحو: (١) البنون و البنات (٢) الآباء و الأمهات و الإخوه و الأخوات (٣) الأجداد و الجدات (٤) الأعمام و العمات و الأ-خوال و الخالات، و قد أخرجوا علقه الزوجيه من هذه الطبقات و بنوها على أساس المحبه و العلقه القلبيه و لا يهمننا التعرض لتفاصيل ذلك و تفاصيل الحال فى سائر الطبقات من أرادها فليرجع إلى محلها.

و الذى يهمننا هو التأمل فى نتيجة هذه السنه الجاريه و هى اشتراك المرأه مع الرجل فى ثروه الدنيا الموجوده بحسب النظر العام الذى تقدم غير أنهم جعلوا الزوجه تحت قيمومه الزوج لا- حق لها فى تصرف مالى فى شىء من أموالها الموروثه إلا- بإذن زوجها، و عاد بذلك المال منصفاً بين الرجل و المرأه ملكاً، و تحت ولايه الرجل تدبيراً و إداره! و هناك جمعيات منتهضه يبذلون مساعيهم لإعطاء النساء الاستقلال و إخراجهن من تحت قيمومه الرجال فى أموالهن و لو وفقوا لما يريدون كانت الرجال و النساء متساويين من حيث الملك و من حيث ولايه التدبير و التصرف.

#### ٧-مقايسه هذه السنن بعضها إلى بعض:

و نحن بعد ما قدمنا خلاصه السنن الجاريه بين الأمم الماضيه و قرونها الخاليه إلى الباحث الناقد نحيل إليه قياس بعضها إلى البعض و القضاء على كل منها بالتمام و النقص و نفعه للمجتمع الإنسانى و ضرره من حيث وقوعه فى صراط السعاده ثم قياس ما سنه شارع الإسلام إليها و القضاء بما يجب أن يقضى به.

و الفرق الجوهرى بين السنه الإسلاميه و السنن غيرها فى الغايه و الغرض، فغرض الإسلام أن تنال الدنيا صلاحها، و غرض غيره أن تنال ما تشتهيها، و على هذين الأصلين يتفرع ما يتفرع من الروع قال تعالى: **وَ عَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَ عَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَ هُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**: «البقره: ٢١٦»، و قال تعالى: **وَ عَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ يَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا**: «النساء: ١٩».

قد تقدم أن الإسلام أخرج الوصيه من تحت الوراثة و أفرد لها عنوانا مستقلا لما فيها من الملاك المستقل و هو احترام إرادته المالك بالنسبه إلى ما يملكه في حياته، و قد كانت الوصيه بين الأمم المتقدمه من طرق الاحتيال لدفع الموصى ماله أو بعض ماله إلى غير من تحكم السنه الجاربه بإرثه كالأب و رئيس البيت و لذلك كانوا لا يزالون يضعون من القوانين ما يحدها و يسد بنحو هذا الطريق المؤدى إلى إبطال حكم الإرث و لا يزال يجرى الأمر في تحديدها هذا المجرى حتى اليوم.

و قد حدها الإسلام بنفوذها إلى ثلث المال فهي غير نافذه في الزائد عليه، و قد تبعته في ذلك بعض القوانين الحديثه كقانون فرنسا غير أن النظريين مختلفان، و لذلك كان الإسلام يحث عليها و القوانين تردع عنها أو هي ساكته.

و الذى يفيدته التدبر في آيات الوصيه و الصدقات و الزكاه و الخمس و مطلق الإنفاق أن في هذه التشريعات تسهيل طريق أن يوضع ما يقرب من نصف رقبه الأموال و الثلثان من منافعها للخيرات و المبرات و حوائج طبقه الفقراء و المساكين لتقرب بذلك الطبقات المختلفه في المجتمع، و يرتفع الفواصل البعيده من بينهم، و تقام به أصلاب المساكين مع ما في القوانين الموضوعه بالنسبه إلى كيفيه تصرف المثرين في ثروتهم من تقريب طبقتهم من طبقه المساكين، و لتفصيل هذا البحث محل آخر سيمر بك إن شاء الله تعالى

### [سوره النساء (٤): الآيات ١٥ إلى ١٦]

#### اشاره

وَ اللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَهُ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (١٥) وَ الَّذِينَ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَ أَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا (١٦)

#### بيان

قوله تعالى: «و اللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ» إلى قوله: «مِنْكُمْ» يقال: أتاه و أتى به

أى فعله، و الفاحشه من الفحش و هو الشناعه فهى الطريقه الشنيعه، و قد شاع استعمالها فى الزنا، و قد أطلقت فى القرآن على اللواط أو عليه و على السحق معا فى قوله تعالى: **إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ**: «العنكبوت: ٢٨».

و الظاهر أن المراد بها هاهنا الزنا على ما ذكره جمهور المفسرين، و

رووا: أن النبى ص ذكر عند نزول آيه الجلد- أن الجلد هو السبيل الذى جعله الله لهن إذا زنين ، و يشهد بذلك ظهور الآيه فى أن هذا الحكم سينسخ حيث يقول تعالى: **أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا** ، و لم ينقل إن السحق نسخ حده بشىء آخر، و لا أن هذا الحد أجرى على أحد من اللاتى يأتينه و قوله: **أَرْبَعَهُ مِنْكُمْ**، يشهد بأن العدد من الرجال.

قوله تعالى: **فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ** إلى آخر الآيه رتب الإمساك و هو الحبس المخلد على الشهاده لا على أصل تحقق الفاحشه و إن علم به إذا لم يشهد عليه الشهود و هو من منن الله سبحانه على الأمه من حيث السماح و الإغماض.

و الحكم هو الحبس الدائم بقرينه الغايه المذكوره فى الكلام أعنى قوله: **حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ**، غير أنه لم يعبر عنه بالحبس و السجن بل بالإمساك لهن فى البيوت، و هذا أيضا من واضح التسهيل و السماح بالإغماض، و قوله: **حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا**، أى طريقا إلى التخلص من الإمساك الدائم و النجاه منه.

و فى الترديد إشعار بأن من المرجو أن ينسخ هذا الحكم، و هكذا كان فإن حكم الجلد نسخه فإن من الضرورى أن الحكم الجارى على الزانيات فى أواخر عهد النبى ص و المعمول به بعده بين المسلمين هو الجلد دون الإمساك فى البيوت فالآيه على تقدير دلالتها على حكم الزانيات منسوخه بآيه الجلد و السبيل المذكور فيها هو الجلد بلا ريب.

قوله تعالى: **«وَ الذَّانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَادُّوهُمَا»**، الآيتان متناسبتان مضمونا و الضمير فى قوله: **يَأْتِيَانَهَا**، راجع إلى الفاحشه قطاعا، و هذا يؤيد كون الآيتين جميعا مسوقتين لبيان حكم الزنا، و على ذلك فالآيه الثانيه متممه الحكم فى الأولى فإن الأولى لم تتعرض إلا لما للنساء من الحكم، و الثانيه تبين الحكم فيهما معا و هو الإيذاء فيتحصل من مجموع الآيتين حكم الزانى و الزانيه معا و هو إيذاؤهما و إمساك النساء فى البيوت.



لكن لا- يلائم ذلك قوله تعالى بعد: فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا، فإنه لا يلائم الحبس المخلد فلا بد أن يقال: إن المراد بالإعراض الإعراض عن الإيذاء دون الحبس فهو بحاله.

ولهذا ربما قيل تبعا لما ورد في بعض الروايات (و سننقلها) إن الآيه الأولى لبيان حكم الزنا في الثيب، و الثانية مسوقه لحكم الأبكار و أن المراد بالإيذاء هو الحبس في الأبكار ثم تخليه سيبلهن مع التوبه و الإصلاح، لكن يبقى أولا- الوجه في تخصيص الأولى بالثيبات و الثانية بالأبكار من غير دليل يدل عليه من جهة اللفظ، و ثانيا وجه تخصيص الزانية بالذكر في الآيه الأولى، و ذكرهما معا في الآيه الثانية:

«وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيهَا مِنْكُمْ»

و قد عزى إلى أبي مسلم المفسر أن الآيه الأولى لبيان حكم السحق بين النساء، و الآيه الثانية تبين حكم اللواط بين الرجال، و الآيتان غير منسوختين.

و فساده ظاهر: أما في الآيه الأولى فلما ذكرناه في الكلام على قوله: وَاللَّاتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ، و أما في الآيه الثانية فلما ثبت في السنه من أن الحد في اللواط القتل،

و قد صح عن النبي ص أنه قال: من عمل منكم عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل و المفعول، و هذا إما حكم ابتدائي غير منسوخ، و إما حكم ناسخ لحكم الآيه، و على أى حال يبطل قوله.

و من الممكن: أن يقال في معنى الآيتين نظرا إلى الظاهر السابق إلى الذهن من الآيتين، و القرائن المحفوف بها الكلام، و ما تقدم من الإشكال فيما ذكره من المعنى -و الله أعلم-: إن الآيه متضمنه لبيان حكم زنا المحصنات ذوات الأزواج، و يدل عليه تخصيص الآيه النساء بالذكر دون الرجال، و إطلاق النساء على الأزواج شائع في اللسان و خاصه إذا أضيفت إلى الرجال كما في قوله: نسائكم، قال تعالى: وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً: «النساء: ٤»، و قال تعالى: مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ: «النساء: ٢٣».

و على هذا فقد كان الحكم الأولى المؤجل لهن الإمساك في البيوت ثم شرع لهن الرجم، و ليس نسخا للكتاب بالسنه على ما استدل به الجبائي فإن السنخ إنما هو رفع الحكم الظاهر بحسب الدليل في التأيد، و هذا حكم مقرون بما يشعر بأنه مؤجل

سينقطع بانقطاعه و هو قوله: أَوْ يُجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا لظهوره في أن هناك حكما سيطلع عليهن، و لو سمي هذا نسخا لم يكن به بأس فإنه غير متضمن لما يلزم نسخ الكتاب بالسنه من الفساد فإن القرآن نفسه مشعر بأن الحكم سيرتفع بانقطاع أمده، و النبي ص مبين لمرادات القرآن الكريم.

و الآيه الثانيه متضمنه لحكم الزنا من غير إحصان و هو الإيذاء سواء كان المراد به الحبس أو الضرب بالنعال أو التعيير بالقول أو غير ذلك، و الآيه على هذا منسوخه بآيه الجلد من سوره النور، و أما ما ورد من الروايه في كون الآيه متضمنه لحكم الأبكار فمن الآحاد و هي مع ذلك مرسله ضعيفه بالإرسال، و الله أعلم هذا و لا يخلو مع ذلك من وهن (1).

قوله تعالى: «فَإِنْ تَابَا وَ أَضِيحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا» «إلخ» تقييد التوبه بالإصلاح لتحقيق حقيقه التوبه، و تبين أنها ليست مجرد لفظ أو حاله مندفعه.

### بحث روائى

في الصافى، عن تفسير العياشى، عن الصادق (ع)\*: في قوله تعالى: وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ الْآيَةَ هِيَ مَنْسُوخَةٌ، و السبيل هى الحدود. و فيه، عن الباقر (ع)\*: سئل عن هذه الآيه فقال: هى منسوخه، قيل: كيف كانت؟ قال: كانت المرأه إذا فجرت - فقام عليها أربعه شهود أدخلت بيتا و لم تحدث، و لم تكلم، و لم تجالس، و أوتيت بطعامها و شرابها - حتى تموت أو يجعل الله لها سبيلا، قال: جعل السبيل الجلد و الرجم.

قيل: قوله: و اللذان يأتيناها منكم؟ قال: يعنى البكر - إذا أتت الفاحشه التى أتها هذه الثيب، فأذوهما؟ قال تحبس. الحديث.

أقول: القصة أعنى كون الحكم المجرى عليهن في صدر الإسلام الإمساك في البيوت حتى الوفاه مما رويت بعده من طرق أهل السنه عن ابن عباس و قتاده و مجاهد و غيرهم، و نقل عن السدى أن الحبس في البيوت كان حكما للثيبات، و الإيذاء الواقع في الآيه الثانيه كان حكما للجوارى و الفتيان الذين لم ينكحوا، و قد عرفت ما ينبغى أن يقال في المقام

ص: ٢٣٦

إشاره

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِيمَانَ وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)

بيان

مضمون الآيتين لا يخلو عن ارتباط بما تقدمهما من الآيتين فإنه ما قد اختتمتا بذكر التوبه فمن الممكن أن يكون هاتان نزلتا مع تينك، وهاتان الآيتان مع ذلك متضمنتان لمعنى مستقل فى نفسه، وهو إحدى الحقائق العالیه الإسلامیه و التعاليم الراقیه القرآنيه، وهى حقيقه التوبه و شأنها و حكمها.

قوله تعالى: «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ» التوبه هى الرجوع، وهى رجوع من العبد إلى الله سبحانه بالندامه و الانصراف عن الإعراض عن العبوديه، و رجوع من الله إلى العبد رحمه بتوفيقه للرجوع إلى ربه أو بغفران ذنبه، و قد مر مرارا أن توبه واحده من العبد محفوفه بتوبتين من الله سبحانه على ما يفيدہ القرآن الكريم.

و ذلك أن التوبه من العبد حسنه تحتاج إلى قوه و الحسنات من الله، و القوه لله جميعا فمن الله توفيق الأسباب حتى يتمكن العبد من التوبه و يتمشى له الانصراف عن التوغل فى غمرات البعد و الرجوع إلى ربه ثم إذا وفق للتوبه و الرجوع احتاج فى التطهر من هذه الألواث، و زوال هذه القذارات، و الورود و الاستقرار فى ساحه القرب إلى رجوع آخر من ربه إليه بالرحمه و الحنان و العفو و المغفره.

و هذان الرجوعان من الله سبحانه هما التوبتان الحافتان لتوبه العبد و رجوعه قال تعالى: ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا: «التوبه: ١١٨» و هذه هى التوبه الأولى، و قال تعالى: فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ: «البقره: ١٦٠» و هذه هى التوبه الثانيه، و بين التوبتين منه تعالى توبه العبد كما سمعت.

□ و أما قوله: عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ، لفظه على و اللام تفيدان معنى النفع و الضرر كما فى قولنا: دارت الدائره لزيد على عمرو، و كان السباق لفلان على فلان، و وجه إفاده على و اللام معنى الضرر و النفع أن على تفيد معنى الاستعلاء، و اللام معنى الملك و الاستحقاق، و لازم ذلك أن المعانى المتعلقه بطرفين ينتفع بها أحدهما و يتضرر بها الآخر كالحرب و القتال و النزاع و نحوها فيكون أحدهما الغالب و الآخر المغلوب ينطبق على الغالب منهما معنى الملك و على المغلوب معنى الاستعلاء، و كذا ما أشبه ذلك كمعنى التأثير بين المتأثر و المؤثر، و معنى العهد و الوعد بين المتعهد و المتعهد له، و الواعد و الموعود له و هكذا، فظهر أن كون على و اللام لمعنى الضرر و النفع إنما هو أمر طار من ناحيه مورد الاستعمال لا من ناحيه معنى اللفظ.

□ و لما كان نجاح التوبه إنما هو لوعده و وعده الله عباده فأوجبها بحسبه على نفسه لهم قال ها هنا: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوْءَ بِجَهَالَةٍ فيجب عليه تعالى قبول التوبه لعباده لكن لا على أن لغيره أن يوجب عليه شيئا أو يكلفه بتكليف سواء سمي ذلك الغير بالعقل أو نفس الأمر أو الواقع أو الحق أو شيئا آخر، تعالى عن ذلك و تقدس بل على أنه تعالى وعد عباده أن يقبل توبه التائب منهم و هو لا يخلف الميعاد، فهذا معنى وجوب قبول التوبه على الله فيما يجب، و هو أيضا معنى وجوب كل ما يجب على الله من الفعل.

و ظاهر الآيه أولا أنها لبيان أمر التوبه التى لله أعنى رجوعه تعالى بالرحمه إلى عبده دون توبه العبد و إن تبين بذلك أمر توبه العبد بطريق اللزوم فإن توبه الله سبحانه إذا تمت شرائطها لم ينفك ذلك من تمام شرائط توبه العبد، و هذا أعنى كون الآيه فى مقام بيان توبه الله سبحانه لا يحتاج إلى مزيد توضيح.

و ثانيا: أنها تبين أمر التوبه أعم مما إذا تاب العبد من الشرك و الكفر بالإيمان أو تاب من المعصيه إلى الطاعه بعد الإيمان فإن القرآن يسمى الأمرين جميعا بالتوبه قال

تعالى: الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ: «المؤمن: ٧» يريد: لِلَّذِينَ آمَنُوا بقرينه أول الكلام فسمى الإيمان توبه، وقال تعالى: ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ: «التوبة: ١١٨».

و الدليل على أن المراد هي التوبه أعم من أن تكون من الشرك أو المعصيه التعميم الموجود في الآيه التاليه: وليست التوبه «إلخ» فإنها تتعرض لحال الكافر والمؤمن معا، وعلى هذا فالمراد بقوله: يَعْمَلُونَ الشُّوءَ ما يعم حال المؤمن والكافر معا فالكافر كالمؤمن الفاسق ممن يعمل السوء بجهاله إما لأن الكفر من عمل القلب، والعمل أعم من عمل القلب والجوارح، أو لأن الكفر لا يخلو من أعمال سيئه من الجوارح فالمراد من الذين يَعْمَلُونَ الشُّوءَ بِجَهَالِهِ الكافر والفاسق إذا لم يكونا معاندين في الكفر والمعصيه.

و أما قوله تعالى: بِجَهَالِهِ فالجهل يقابل العلم بحسب الذات غير أن الناس لما شاهدوا من أنفسهم أنهم يعملون كلا من أعمالهم الجاربه عن علم وإرادته، وأن الإراده إنما تكون عن حب ما وشوق ما سواء كان الفعل مما ينبغي أن يفعل بحسب نظر العقلاء في المجتمع أو مما لا ينبغي أن يفعل لكن من له عقل مميز في المجتمع عندهم لا يقدم على السيئه المذمومه عند العقلاء فأذعنوا بأن من اقتترف هذه السيئات المذمومه لهوى نفساني وداعيه شهويه أو غضبيه خفى عليه وجه العلم، وغاب عنه عقله المميز الحاكم في الحسن والقبيح والممدوح والمذموم، وظهر عليه الهوى وعندئذ يسمى حاله في علمه وإرادته «جهاله» في عرفهم وإن كان بالنظر الدقيق نوعا من العلم لكن لما لم يؤثر ما عنده من العلم بوجه قبح الفعل و ذمه في رده عن الوقوع في القبح والشناعه ألحق بالعدم فكان هو جاهلا عندهم حتى إنهم يسمون الإنسان الشاب الحدث السن قليل التجربه جاهلا لغلبه الهوى وظهور العواطف والإحساسات النيئه على نفسه، ولذلك أيضا تراهم لا يسمون حال مقتترف السيئات إذا لم ينفع في اقتراف السيئه عن الهوى والعاطفه جهاله بل يسمونها عنادا وعمدا وغير ذلك.

فتبين بذلك أن الجهاله في باب الأعمال إتيان العمل عن الهوى وظهور الشهوه والغضب من غير عناد مع الحق، ومن خواص هذا الفعل الصادر عن جهاله أن إذا سكنت ثوره القوى و خمد لهيب الشهوه أو الغضب باقتراف للسيئه أو بحلول مانع أو

بمرور زمان أو ضعف القوى بشيب أو مزاج عاد الإنسان إلى العلم و زالت الجهالة، و بانت الندامة بخلاف الفعل الصادر عن عناد و تعمد و نحو ذلك فإن سبب صدوره لما لم يكن طغيان شىء من القوى و العواطف و الأميال النفسانية بل أمرًا يسمى عندهم بخبث الذات و رداءه الفطره لا- يزول بزوال طغيان القوى و الأميال سريعاً أو بطيئاً بل دام نوعاً بدوام الحياه من غير أن يلحقه ندامه من قريب إلا أن يشاء الله.

نعم ربما يتفق أن يرجع المعاند للرجوع عن عناده و لجأه و استعلائه على الحق فيتواضع للحق و يدخل في ذل العبوديه فيكشف ذلك عندهم عن أن عناده كان عن جهاله، و في الحقيقة كل معصيه جهاله من الإنسان، و على هذا لا يبقى للمعاند مصداق إلا من لا يرجع عن سوء عمله إلى آخر عهده بالحياه و العافيه.

و من هنا يظهر معنى قوله تعالى: **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ** أى إن عامل السوء بجهاله لا- يقيم عاكفا على طريقته ملازماً لها مدى حياته من غير رجاء فى عدوله إلى التقوى و العمل الصالح كما يدوم عليه المعاند للرجوع بل يرجع عن عمله من قريب فالمراد بالقریب العهد القريب أو الزمان القريب و هو قبل ظهور آيات الآخرة و قدوم الموت.

و كل معاند لرجوع فى عمله إذا شاهد ما يسوؤه من جزاء عمله و وبال فعله ألزمته نفسه على الندامة و التبرى من فعله لكنه بحسب الحقيقة ليس بنادم عن طبعه و هدايه فطرته بل إنما هى حيله يحتالها نفسه الشريره للتخلص من وبال الفعل، و الدليل عليه أنه إذا اتفق تخلصه من الوبال المخصوص عاد ثانياً إلى ما كان عليه من سيئات الأعمال قال تعالى: **وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**: «الأنعام: ٢٨».

و الدليل على أن المراد بالقریب فى الآيه هو ما قبل ظهور آيه الموت قوله تعالى فى الآيه التاليه: **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ إِلَى قَوْلِهِ: قَالَ إِنَّى تُبْتُ الآنَ**.

و على هذا يكون قوله: **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ** كناية عن المساهله المفضيه إلى فوت الفرصه.

و يتبين مما مر أن القيدین جميعاً أعنى قوله: **بِجَهَالِهِ**، و قوله: **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ** احترازيان يراد بالأول منهما أن لا يعمل السوء عن عناد و استعلاء على الله، و بالثانى منهما

أن لا- يؤخر الإنسان التوبه إلى حضور موته كسلا و توانيا و مماطله إذ التوبه هي رجوع العبد إلى الله سبحانه بالعبوديه فيكون توبته تعالى أيضا قبول هذا الرجوع، و لا معنى للعبوديه إلا مع الحياه الدنيويه التي هي ظرف الاختيار و موطن الطاعه و المعصيه، و مع طلوع آيه الموت لا- اختيار تتمشى معه طاعه أو معصيه، قال تعالى: **يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا** «الأنعام ١٥٨» و قال تعالى: **فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدِيثَهُ وَ كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ**: «المؤمن: ٨٥» إلى غير ذلك من الآيات.

و بالجمله يعود المعنى إلى أن الله سبحانه إنما يقبل توبه المذنب العاصي إذا لم يقترف المعصيه استكبارا على الله بحيث يبطل منه روح الرجوع و التذلل لله، و لم يتساهل و يتسامح في أمر التوبه تساهلا يؤدي إلى فوت الفرصه بحضور الموت.

و يمكن أن يكون قوله: **بِجَهَالِهِ** قيذا توضيحيا، و يكون المعنى: **لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ وَ لَا-** يكون ذلك إلا- عن جهل منهم فإنه مخاطره بالنفس و تعرض لعذاب أليم، أو لا- يكون ذلك إلا عن جهل منهم بكنه المعصيه و ما يترتب عليها من المحذور، و لازمه كون قوله: **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ** إشاره إلى ما قبل الموت لا- كناية عن المساهله في أمر التوبه فإن من يأتي بالمعصيه استكبارا و لا- يخضع لسلطان الربوبيه يخرج على هذا الفرض بقوله: **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ** لا بقوله: **بِجَهَالِهِ** و على هذا لا يمكن الكنايه بقوله:

**ثُمَّ يَتُوبُونَ**

عن التساهل و التواني فافهم ذلك، و لعل الوجه الأول أوفق لظاهر الآيه.

و قد ذكر بعضهم: أن المراد بقوله: **ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ** أن تتحقق التوبه في زمان قريب من وقت وقوع المعصيه عرفا كزمان الفراغ من إتيان المعصيه أو ما يعد عرفا متصلا به لا أن يمتد إلى حين حضور الموت كما ذكر.

و هو فاسد لإفساده معنى الآيه التاليه فإن الآيتين في مقام بيان ضابط كلي لتوبه الله سبحانه أى لقبول توبه العبد على ما يدل عليه الحصر الوارد في قوله: **إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ إِخْرَجَ وَ الْآيَةُ الثَّانِيه تَبِينُ الْمَوَارِدَ الَّتِي لَا تَقْبَلُ فِيهَا التَّوْبَةُ**، و لم يذكر في

الآية إلا مردان هما التوبة للمسيء المتسامح فى التوبة إلى حين حضور الموت، و التوبة للكافر بعد الموت، و لو كان المقبول من التوبة هو ما يعد عرفاً قريباً متصلاً بزمان المعصية لكان للتوبة غير المقبولة مصاديق آخر لم تذكر فى الآية.

قوله تعالى: «فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا» الآيتان باسم الإشارة الموضوع للبعيد لا يخلو من إشارة إلى ترفيع قدرهم و تعظيم أمرهم كما يدل قوله:

يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ

على المساهلة فى إحصاء معاصيهم على خلاف ما فى الآية الثانية:

وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ

إلخ.

و قد اختير لخنم الكلام قوله: وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا دون أن يقال: و كان الله غفوراً رحيماً للدلالة على أن فتح باب التوبة إنما هو لعلمه تعالى بحال العباد و ما يؤديهم إليه ضعفهم و جهالتهم، و لحكمته المقتضية لوضع ما يحتاج إليه إتقان النظام و إصلاح الأمور و هو تعالى لعلمه و حكمته لا يغيره ظواهر الأحوال بل يختبر القلوب، و لا يستتره مكر و لا خديعه فعلى التائب من العباد أن يتوب حق التوبة حتى يجيبه الله حق الإجابة.

قوله تعالى: «وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ» إلخ فى عدم إعادته قوله:

عَلَى اللَّهِ

مع كونه مقصوداً ما لا- يخفى من التلويح إلى انقطاع الرحمة الخاصة و العناية الإلهية عنهم كما أن إيراد السيئات بلفظ الجمع يدل على العناية بإحصاء سيئاتهم و حفظها عليهم كما تقدمت الإشارة إليه.

و تقييد قوله: يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ بقوله: حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ المفيد لاستمرار الفعل إما لأن المساهلة فى المبادره إلى التوبة و تسويقها فى نفسه معصية مستمره متكرره، أو لأنه بمنزلة مداومه على الفعل، أو لأن المساهلة فى أمر التوبة لا تخلو غالباً عن تكرر معاص مجانسه للمعصية الصادره أو مشابهه لها.

و فى قوله: حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ دون أن يقال: حتى إذا جاءهم الموت دلالة على الاستهانه بالأمر و الاستحقار له أى حتى يكون أمر التوبة هينا هذا الهوان سهلاً هذه السهولة حتى يعمل الناس ما يهونونه و يختاروا ما يشاءونه و لا يبالون و كلما عرض لأحدهم عارض الموت قال: إنى تبت الآن فتندفع مخاطر الذنوب و مهلكه



مخالفة الأمر الإلهي بمجرد لفظ يردده ألسنتهم أو خطور يخطر ببالهم في آخر الأمر.

و من هنا يظهر معنى تقييد قوله: <sup>□</sup> قَالَ إِنْ تَبُتْ بِقَوْلِهِ: <sup>□</sup> أَلَّا نَ فَإِنَّهُ يَفِيدُ أَنَّ حَضُورَ الْمَوْتِ وَ مَشَاهِدَهُ هَذَا الْقَائِلَ سُلْطَانَ الْآخِرَةِ هُمَا الْمَوْجِبَانِ لَهُ أَنْ يَقُولَ تَبْتُ سِوَاءَ ذِكْرِهِ أَوْ لَمْ يَذْكُرْهُ فَالْمَعْنَى: إِنِّي تَائِبٌ لِمَا شَاهَدْتُ الْمَوْتَ الْحَقَّ وَ الْجِزَاءَ الْحَقَّ، وَ قَدْ قَالَ تَعَالَى فِي نَظِيرِهِ حَاكِيًا عَنِ الْمَجْرِمِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: <sup>□</sup> وَ لَوْ تَرَى <sup>□</sup> إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَ سَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ: «السجده: ١٢».

فهذه توبه لا- تقبل من صاحبها لأن اليأس من الحياه الدنيا و هول المطلع هما اللذان أجبراه على أن يندم على فعله و يعزم على الرجوع إلى ربه و لات حين رجوع حيث لا حياه دنيويه و لا خيره عمليه.

قوله تعالى: <sup>□</sup> (وَ لَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارًا) هذا مصداق آخر لعدم قبول التوبه و هو الإنسان يتمادى في الكفر ثم يموت و هو كافر فإن الله لا يتوب عليه فإن إيمانه و هو توبته لا ينفعه يومئذ، و قد تكرر في القرآن الكريم أن الكفر لا نجاه معه بعد الموت، و أنهم لا يجابون و إن سألوها، قال تعالى: <sup>□</sup> إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَ أَصْلَحُوا وَ بَيَّنَّا فَاوْلِيكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ أَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ <sup>□</sup> إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارًا <sup>□</sup> أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَ الْمَلَائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ <sup>□</sup> خَالِدِينَ فِيهَا <sup>□</sup> لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ <sup>□</sup> وَ لَا هُمْ يُنظَرُونَ <sup>□</sup> البقره:

١٦٢، و قال تعالى: <sup>□</sup> إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ مَاتُوا وَ هُمْ كُفَّارًا <sup>□</sup> فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَ لَوْ افْتَدَى بِهِ <sup>□</sup> أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ <sup>□</sup> وَ مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ: -آل عمران:

٩١، و نفى الناصرين نفى للشفاعه في حقهم كما تقدم في الكلام على الآيه في الجزء الثالث من الكتاب.

و تقييد الجمله بقوله: <sup>□</sup> وَ هُمْ كُفَّارًا يدل على التوبه للعاصي المؤمن إذا مات على المعصيه من غير استكبار و لا تساهل فإن التوبه من العبد بمعنى رجوعه إلى عبوديه اختياريه و إن ارتفع موضوعها بالموت كما تقدم لكن التوبه منه تعالى بمعنى الرجوع بالمغفره و الرحمه يمكن أن يتحقق بعد الموت لشفاعه الشافعين، و هذا في نفسه من الشواهد على أن المراد بالآيتين بيان حال توبه الله سبحانه لعباده لا بيان حال توبه العبد إلى الله إلا بالتبع.

قوله تعالى: «أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» اسم الإشارة يدل على بعدهم من ساحه القرب و التشریف، و الاعتاد: و الإعداد أو الوعد.

### كلام فى التوبه [ و فيه أبحاث.]

التوبه بتمام معناها الوارد فى القرآن من التعاليم الحقيقه المختصه بهذا الكتاب السماوى فإن التوبه بمعنى الإيمان عن كفر و شرك و إن كانت دائره فى سائر الأديان الإلهيه كدين موسى و عيسى (ع) لكن لا من جهه تحليل حقيقه التوبه، و تسريتها إلى الإيمان بل باسم أن ذلك إيمان.

حتى أنه يلوح من الأصول التى بنوا عليها الديانه المسيحيه المستقله عدم نفع التوبه و استحاله أن يستفيد منها الإنسان كما يظهر مما أوردوه فى توجيه الصلب و الفداء، و قد تقدم نقله فى الكلام على خلقه المسيح فى الجزء الثالث من هذا الكتاب.

هذا و قد انجر أمر الكنيسه بعد إلى الإفراط فى أمر التوبه إلى حيث كانت تباع أوراق المغفره و تتجر بها، و كان أولياء الدين يغفرون ذنوب العاصين فيما اعترفوا به عندهم! لكن القرآن حلل حال الإنسان بحسب وقوع الدعوه عليه و تعلق الهدايه به فوجده بالنظر إلى الكمال و الكرامه و السعاده الواجبه له فى حياته الأخرويه عند الله سبحانه التى لا غنى له عنها فى سيره الاختيارى إلى ربه فقيرا كل الفقر فى ذاته صفر الكف بحسب نفسه قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ: -فاطر: ١٥، و قال: وَلَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا: الفرقان: ٣.

فهو واقع فى مهبط الشقاء و منحط البعد و منعزل المسكنه كما يشير إليه قوله تعالى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ: -التين: ٥، و قوله: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثْيًا: -مريم: ٧٢، و قوله: فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى: -طه: ١١٧.

و إذا كان كذلك فوروده منزله الكرامه و استقراره فى مستقر السعاده يتوقف على انصرافه عما هو فيه من مهبط الشقاء و منحط البعد و انقلاعه عنه برجوعه إلى ربه،

و هو توبته إليه في أصل السعادة و هو الإيمان، و في كل سعادته فرعيه و هي كل عمل صالح أعنى التوبه و الرجوع عن أصل الشقاء و هو الشرك بالله سبحانه، و عن فروعات الشقاء و هي سيئات الأعمال بعد الشرك، فالتوبه بمعنى الرجوع إلى الله و الانخلاع عن ألوات البعد و الشقاء يتوقف عليها الاستقرار في دار الكرامه بالإيمان، و التمتع بأقسام نعم الطاعات و القربات، و عبارته أخرى يتوقف القرب من الله و دار كرامته على التوبه من الشرك و من كل معصيه، قال تعالى: وَ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ -النور: ٣١، فالتوبه بمعنى الرجوع إلى الله تعم التوبتين جميعاً بل تعمهما و غيرهما على ما سيجيء إن شاء الله.

ثم إن الإنسان لما كان فقيراً في نفسه لا يملك لنفسه خيراً و لا سعادته قط إلا بربه كان محتاجاً في هذا الرجوع أيضاً إلى عناية من ربه بأمره، و إعانه منه له في شأنه فيحتاج رجوعه إلى ربه بالعبوديه و المسكنه إلى رجوع من ربه إليه بالتوفيق و الإعانه، و هو توبه الله سبحانه لعبده المتقدمه على توبه العبد إلى ربه كما قال تعالى: ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا -التوبه: ١١٨، و كذلك الرجوع إلى الله سبحانه يحتاج إلى قبوله بمغفره الذنوب و تطهيره من القذارات و ألوات البعد، و هذه هي التوبه الثانيه من الله سبحانه المتأخره عن توبه العبد إلى ربه كما قال تعالى: فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْآيَةَ.

و إذا تأملت حق التأمل وجدت أن التعدد في توبه الله سبحانه إنما عرض لها من حيث قياسها إلى توبه العبد، و إلا فهي توبه واحده هي رجوع الله سبحانه إلى عبده بالرحمه، و يكون ذلك عند توبه العبد رجوعاً إليه قبلها و بعدها، و ربما كان مع عدم توبه من العبد كما تقدم استفادته ذلك من قوله: وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَ هُمْ كُفَّارٌ، و أن قبول الشفاعة في حق العبد المذنب يوم القيامة من مصاديق التوبه و من هذا الباب قوله تعالى: «وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا» (١).

و كذلك القرب و البعد لما كانا نسيين أمكن أن يتحقق البعد في مقام القرب بنسبه بعض مواقفه و مراحلها إلى بعض، و يصدق حينئذ معنى التوبه على رجوع بعض المقربين من عباد الله الصالحين من موقفه الذي هو فيه إلى موقف أرفع منه و أقرب إلى ربه، كما يشهد به ما يحكيه تعالى من توبه الأنبياء و هم معصومون بنص كلامه كقوله تعالى: فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ -البقره: ٣٧، و قوله تعالى:

ص: ٢٤٥

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ -X إلى قوله X-: وَتَبَّ عَلَيْنَا إِنْ كُنَّا لِنَعْلَمَ أَنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ -البقرة: ١٢٨، وقوله تعالى: حكاية عن موسى (ع): سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ -الأعراف: ١٤٣، وقوله تعالى خطاباً لنبيه (ص): فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ الْمُؤْمِنِينَ: ٥٥، وقوله تعالى: لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ -التوبة: ١١٧.

وهذه التوبة العامه من الله سبحانه هي التي يدل عليها إطلاق آيات كثيرة من كلامه تعالى كقوله تعالى: غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ -المؤمن: ٣، وقوله تعالى: يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ -الشورى: ٢٥، إلى غير ذلك.

فتلخص مما مر أولاً- أن نشر الرحمة من الله سبحانه على عبده لمغفره ذنوبه، وإزاله ظلمه المعاصي عن قلبه-سواء في ذلك الشرك و ما دونه-توبه منه تعالى لعبده و أن رجوع العبد إلى ربه لمغفره ذنوبه وإزاله معاصيه-سواء في ذلك الشرك و غيره- توبه منه إلى ربه.

و يتبين به أن من الواجب في الدعوه الحقه أن تعتني بأمر المعاصي كما تعتني بأصل الشرك، و تندب إلى مطلق التوبه الشامل للتوبه عن الشرك و التوبه عن المعاصي.

و ثانياً: أن التوبه من الله سبحانه لعبده أعم من المبتدئه و اللاحقه فضل منه كسائر النعم التي يتنعم بها خلقه من غير إلزام و إيجاب يرد عليه تعالى من غيره، و ليس معنى وجوب قبول التوبه عليه تعالى عقلاً- إلا ما يدل عليه أمثال قوله تعالى: وَقَابِلِ التَّوْبِ «غافر: ٣» و قوله: وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ: «النور: ٣١» و قوله: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ X الآية X: «البقرة: ٢٢٢» و قوله: «فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» الآية من الآيات المتضمنه لتوصيفه تعالى بقبول التوبه، و الناديه إلى التوبه، الداعيه إلى الاستغفار و الإنابه و غيرها المشتمله على وعد القبول بالمطابقه أو الالتزام، و الله سبحانه لا يخلف الميعاد.

و من هنا يظهر أن الله سبحانه غير مجبور في قبول التوبه بل له الملك من غير استثناء يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد فله أن يقبل ما يقبل من التوبه على ما وعد و يرد ما يرد منها كما هو ظاهر قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ

«آل عمران: ٩٠» ويمكن أن يكون من هذا الباب قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدادوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ سَبِيلًا: «النساء: ١٣٧».

و من عجيب ما قيل في هذا الباب قول بعضهم في قوله تعالى في قصه غرق فرعون و توبته، حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَ كُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ: «يونس: ٩١».

قال ما محصله: أن الآيه لا تدل على رد توبته، وليس في القرآن أيضا ما يدل على هلاكه الأبدى، و أنه من المستبعد عند من يتأمل سعه رحمه الله و سبقتها غضبه أن يجوز عليه تعالى أنه يرد من التجأ إلى باب رحمته و كرامته متذللا مستكينا بالخبية و اليأس، و الواحد منا إذا أخذ بالأخلاق الإنسانية الفطرية من الكرم و الجود و الرحمه ليرحم أمثال هذا الإنسان النادم حقيقه على ما قدم من سوء الفعال فكيف بمن هو أرحم الراحمين و أكرم الأكرمين و غياث المستغيثين.

و هو مدفوع بقوله تعالى: «وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ» الآيه، و قد تقدم أن الندامه حينئذ ندم كاذب يسوق الإنسان إلى إظهاره مشاهدته وبال الذنب و نزول البلاء.

و لو كان كل ندم توبه و كل توبه مقبوله لدفع ذلك قوله تعالى حكاية لحال المجرمين يوم القيامة: وَ أَسِرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ: «سبأ: ٣٣» إلى غير ذلك من الآيات الكثيره الحاكيه لندمهم على ما فعلوا و سؤلهم الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحا، و الرد عليهم بأنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه و إنهم لكاذبون.

و إياك أن تتوهم أن الذى سلكه القرآن الكريم من تحليل التوبه على ما تقدم توضيحه تحليل ذهنى لا- عبره به فى سوق الحقائق، و ذلك أن البحث فى باب السعاده و الشقاء و الصلاح و الطلاح الإنسانيين لا ينتج غير ذلك فإننا اعتبرنا حال الإنسان العادى فى المجتمع على ما نراه من تأثير التعليم و الترييه فى الإنسان وجدناه خاليا فى نفسه عن الصلاح و الطلاح الاجتماعيين قابلا- للأمرين جميعا ثم إذا أراد أن يتحلى بحليه الصلاح، و يتلبس بلباس التقوى الاجتماعى لم يمكن له ذلك إلا- بتوافق الأسباب على خروجه من

الحال الذى فيه، و ذلك يحاذى التوبه الأولى من الله سبحانه فى باب السعاده المعنويه ثم انتزاعه و انصراف نفسه عما هو فيه من رثاى الحال و قيد التثبى و الإهمال و هو توبه بمنزله التوبه من العبد فيما نحن فيه ثم زوال هيئه الفساد و وصف الرذاله المستولىه على قلبه حتى يستقر فيه وصف الكمال و نور الصلاى فى القلب لا يسع الصلاى و الطلاى معا، و هذا يحاذى قبول التوبه و المغفره فيما نحن فيه و كذلك يجرى فى مرله الصلاى الاجتماعى الذى يسير فيه الإنسان بفطرته جميع ما اعتبره الدين فى باب التوبه من الأحكام و الآثار جريا على الفطره التى فطر الله الناس عليها.

و ثالثا: أن التوبه كما يستفاد من مجموع ما تقدم من الآيات المنقوله و غيرها إنما هى حقيقه ذات تأثير فى النفس الإنسانيه من حيث إصلاحها و إعدادها للصلاى الإنسانى الذى فيه سعاده دنياه و آخرته و بعباره أخرى التوبه إنما تنفع -إذا نعت- فى إزاله السيئات النفسانيه التى تجر إلى الإنسان كل شقاء فى حياته الأولى و الأخرى و تمنعه من الاستقرار على أريكه السعاده، و أما الأحكام الشرعيه و القوانين الدينيه فهى بحالها لا ترتفع عنه بتوبه كما لا ترتفع عنه بمعصيه.

نعم ربما ارتبط بعض الأحكام بها فارتفعت بالتوبه بحسب مصالح الجعل، و هذا غير كون التوبه رافعه لحكم من الأحكام قال تعالى: **وَ الذانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَأذُوهماَ فَإِنْ تَاباَ وَ أَصْلَحاَ فَأَعْرِضُوا عَنْهُماَ إِنَّ اللهَ كانَ تَواباً رَحِيماً**: «النساء: ١٦»، و قال تعالى:

**إِنماَ جزاءُ الذينَ يُحارِبُونَ اللهَ وَ رَسولَهُ وَ سَيَعُونَ فى الأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقتَلُوا أَوْ يُصَلِّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْديهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافِ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذلكَ لَهُمْ خِزْيٌ فى الدُّنيا وَ لَهُمْ فى الآخِرَةِ عَذابٌ عَظيمٌ إِلاَّ الذينَ تابواَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمُ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفورٌ رَحِيمٌ**: «المائدہ: ٣٤» إلى غير ذلك.

و رابعا: أن الملاك الذى شرعت لأجله التوبه على ما تبين مما تقدم هو التخلص من هلاك الذنب و بوار المعصيه لكونها وسيله الفلاح و مقدمه الفوز بالسعاده كما يشير إليه قوله تعالى: **وَ تَوَبُّوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّها المؤمنونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**: «النور: ٣١»، و من فوائد مضافه إلى ذلك أن فيها حفظا لروح الرجاء من الانخامد و الركود فإن الإنسان لا يستقيم سيره الحيوى إلا بالخوف و الرجاء المتعادلين حتى يندفع عما يضره و ينجذب إلى ما ينفعه، و لو لا ذلك لهلك، قال تعالى: **قُلْ يا عبادِ الذينَ أسيرَفُوا على أَنفُسِهِم**

لَا تَقْنُطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَ أُنَبِّئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ: «الزمر: ٥٤»، و لا يزال الإنسان على ما نعرف من غريزته على نشاط من الروح الفعالة و جد في العزيمة و السعى ما لم تخسر صفقته في متجر الحياة، و إذا بدا له ما يخسر عمله و يخيب سعيه و يبطل أمنيته استولى عليه اليأس و انسلت به أركان عمله و ربما انصرف بوجهه عن مسيره آيسا من النجاح خائبا من الفوز و الفلاح، و التوبه هي الدواء الوحيد الذي يعالج داءه، و يحيى به قلبه و قد أشرف على الهلكه و الردى.

و من هنا يظهر سقوط ما ربما يتوهم أن في تشريع التوبه و الدعوه إليها إغراء بالمعصيه، و تحريصا على ترك الطاعه، فإن الإنسان إذا أيقن أن الله يقبل توبته إذا اقترف أى معصيه من المعاصى لم يخلف ذلك في نفسه أثرا، دون أن تزيد جرأته على هتك حرمان الله و الانغمار في لجج المعاصى و الذنوب، فيدق باب كل معصيه قاصدا أن يذنب ثم يتوب.

وجه سقوطه: أن التوبه إنما شرعت مضافا إلى توقف التحلى بالكرامات على غفران الذنوب: للتحفظ على صفه الرجاء و تأثيره حسن أثره، و أما ما ذكر من استلزامه أن يقصد الإنسان كل معصيه بنيه أن يعصى ثم يتوب، فقد فاته أن التوبه بهذا النعت لا يتحقق معها حقيقه التوبه فإنها انقلاع عن المعصيه، و لا انقلاع في هذا الذى يأتى به، و الدليل عليه أنه كان عازما على ذلك قبل المعصيه و مع المعصيه و بعد المعصيه، و لا معنى للندامه (أعنى التوبه) قبل تحقق الفعل بل مجموع الفعل و التوبه في أمثال هذه المعاصى مأخوذ فعلا واحدا مقصودا بقصد واحد مكرا و خديعه يخدع بها رب العالمين، و لا يحق المكر السيئ إلا بأهله.

و خامسا: أن المعصيه و هى الموقف السوء من الإنسان ذو أثر سيئ في حياته لا يتاب منها و لا يرجع عنها إلا مع العلم و الإيقان بمساءتها، و لا- ينفك ذلك عن الندم على وقوعها أولا، و الندم تأثر خاص باطنى من فعل السيئ. و يتوقف على استقرار هذا، الرجوع ببعض الأفعال الصالحه المنافيه لتلك السيئه الداله على الرجوع و التوبه ثانيا.

و إلى هذا يرجع جميع ما اعتبر شرعا من آداب التوبه كالندم و الاستغفار و التلبس بالعمل الصالح، و الانقلاع عن المعصيه إلى غير ذلك مما وردت به الأخبار، و تعرض له كتب الأخلاق.

و سادسا: أن التوبه و هى الرجوع الاختيارى عن السيئه إلى الطاعه و العبوديه إنما تتحقق فى ظرف الاختيار و هو الحياه الدنيا التى هى مستوى الاختيار، و أما فيما لا اختيار للعبد هناك فى انتخاب كل من طريقى الصلاح و الطلاح و السعاده و الشقاوه فلا مسرح للتوبه فيه، و قد تقدم ما يتضح به ذلك.

و من هذا الباب التوبه فيما يتعلق بحقوق الناس فإنها إنما تصلح ما يتعلق بحقوق الله سبحانه، و أما ما يتعلق من السيئه بحقوق الناس مما يحتاج فى زواله إلى رضاهم فلا- يتدارك بها البتة لأن الله سبحانه احترم الناس بحقوق جعلها لهم فى أموالهم و أعراضهم و نفوسهم، و عد التعدى إلى أحدهم فى شىء من ذلك ظلما و عدوانا، و حاشاه أن يسلبهم شىئا مما جعله لهم من غير جرم صدر منهم، فيأتى هو نفسه بما ينهى عنه و يظلمهم بذلك، و قد قال عز من قائل: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا: «يونس: ٤٤».

إلا أن الإسلام و هو التوبه من الشرك يمحو كل سيئه سابقه و تبعه ماضيه متعلقه بالفروع كما يدل عليه

قوله (ع): الإسلام يجب ما قبله، و به تفسر الآيات المطلقة الداله على غفران السيئات جميعا كقوله تعالى: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَ أَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَ اسْأَلُوا لَهُ -: الزمر: ٥٤.

و من هذا الباب أيضا توبه من سن سنه سيئه أو أضل الناس عن سبيل الحق و قد وردت أخبار أن عليه مثل أوزار من عمل بها أو ضل عن الحق فإن حقيقه الرجوع لا تتحقق فى أمثال هذه الموارد لأن العاصى أحدث فيها حدثا له آثار يبقى ببقائها، و لا يتمكن من إزالتها كما فى الموارد التى لا تتجاوز المعصيه ما بينه و بين ربه عز اسمه.

و سابعا: أن التوبه و إن كانت تمحو ما تمحوه من السيئات كما يدل عليه قوله تعالى: فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ :-البقره: ٢٧٥ على ما تقدم من البيان فى الجزء الثانى من هذا الكتاب، بل ظاهر قوله تعالى: إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَ مَنْ تَابَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا: الفرقان: ٧١، و خاصه بملاحظه الآيه الثانيه أن التوبه بنفسها أو بضميمه الإيمان و العمل الصالح توجب تبدل السيئات



حسناً إلا أن اتقاء السيئه أفضل من اقترافها ثم إمحائها بالتوبه فإن الله سبحانه أوضح فى كتابه أن المعاصى كيفما كانت إنما تنتهى إلى وساوس شيطانيه نوع انتهاء ثم عبر عن المخلصين المعصومين عن زله المعاصى وعره السيئات بما لا يعادله كل مدح ورد فى غيرهم قال تعالى: قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا آيَاتِ: X

-الحجر: ٤٢، و قال تعالى حكاية عن إبليس أيضا فى القصة: وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ: الأعراف: ١٧.

فهؤلاء من الناس مختصون بمقام العبوديه التشريفيه اختصاصا لا يشاركهم فيه غيرهم من الصالحين التائبين.

## بحث روائى

فى الفقيه، قال رسول الله ص \* فى آخر خطبه خطبها: من تاب قبل موته بسنه تاب الله عليه، ثم قال: إن السنه لكثيره و من تاب قبل موته بشهر تاب الله عليه، ثم قال: و إن الشهر لكثير و من تاب قبل موته بيوم تاب الله عليه، ثم قال: و إن اليوم لكثير و من تاب قبل موته بساعه تاب الله عليه، ثم قال: و إن الساعه لكثيره من تاب و قد بلغت نفسه هذه - و أهوى بيده إلى حلقه تاب الله عليه.

: و سئل الصادق (ع) عن قول الله عز و جل - «و لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ - حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ» قال: ذلك إذا عاين أمر الآخره.

أقول: الروايه الأولى رواها فى الكافى مسندا عن الصادق (ع)، و هى مرويه من طرق أهل السنه و فى معناها روايات آخر.

و الروايه الثانيه تفسر الآيه و تفسر الروايات الوارده فى عدم قبول التوبه عند حضور الموت بأن المراد من حضور الموت العلم به و مشاهده آيات الآخره و لا توبه عندئذ، و أما الجاهل بالأمر فلا مانع من قبول توبته، و نظيرها بعض ما يأتى من الروايات.

و فى تفسير العياشى، عن زراره عن أبى جعفر (ع) قال: \* إذا بلغت النفس هذه

-و أهوى بيده إلى حنجرته-لم يكن للعالم توبه،و كانت للجاهل توبه.

و فى الدر المنثور،أخرج أحمد و البخارى فى التاريخ و الحاكم و ابن مردويه عن أبى ذر\* : أن رسول الله ص قال:إن الله يقبل توبه عبده أو يغفر لعبده ما لم يقع الحجاب، قيل و ما وقوع الحجاب؟قال:تخرج النفس و هى مشرکه.

و فيه،أخرج ابن جرير عن الحسن قال\* :بلغنى أن رسول الله ص قال:إن إبليس لما رأى آدم أجوف قال:و عزتك لا أخرج من جوفه ما دام فيه الروح-فقال الله تبارك و تعالى:و عزتى لا أحول بينه و بين التوبه ما دام الروح فيه.

و فى الكافى،عن على الأحمسى عن أبى جعفر(ع)قال\* :و الله ما ينجو من الذنوب إلا من أقر بها،قال:و قال أبو جعفر(ع):كفى بالندم توبه.

و فيه،بطريقين عن ابن وهب قال\* :سمعت أبا عبد الله(ع)يقول: إذا تاب العبد توبه نصوحا أحبه الله تعالى فستر عليه-فقلت:و كيف يستر عليه؟قال،ينسى ملكيه ما كانا يكتبان عليه-ثم يوحى الله إلى جوارحه و إلى بقاع الأرض:أن اكنمى عليه ذنوبه فيلقى الله حين يلقاه-و ليس شىء يشهد عليه بشىء من الذنوب.

و فيه،عن محمد بن مسلم عن أبى جعفر(ع)قال\* :يا محمد بن مسلم ذنوب المؤمن إذا تاب عنها مغفوره له-فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبه و المغفوره-أما و الله إنها ليست إلا لأهل الإيمان.قلت:فإن عاد بعد التوبه و الاستغفار فى الذنوب و عاد فى التوبه؟فقال يا محمد بن مسلم أ ترى العبد المؤمن يندم على ذنبه-فيستغفر الله منه و يتوب ثم لا يقبل الله توبته؟قلت:فإن فعل ذلك مرارا يذنب ثم يتوب و يستغفر؟فقال:كلما عاد المؤمن بالاستغفار و التوبه عاد الله تعالى عليه بالمغفوره،و إن الله غفور رحيم يقبل التوبه،و يعفو عن السيئات فإياك أن تقنط المؤمنين من رحمه الله.

و فى تفسير العياشى،عن أبى عمرو الزبيرى عن أبى عبد الله(ع)\* :فى قوله تعالى:

وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى □□ قال:لهذه الآيه تفسير يدل على ذلك التفسير-أن الله لا يقبل من عبد عملا إلا-لمن لقيه بالوفاء منه بذلك التفسير،و ما اشترط فيه على المؤمنين-و قال: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ - يعنى كل ذنب عمله العبد-و إن كان به عالما فهو جاهل حين خاطر بنفسه فى معصيه ربه،و قد قال فى ذلك

يحكى قول يوسف لـاخوته «هَيْلٌ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ» فنسبهم إلى الجهل لمخاطرتهم بأنفسهم في معصية الله.

أقول: و الروايه لا تخلو عن اضطراب في المتن و الظاهر أن المراد بالصدر أن العمل إنما يقبل إذا وفي به العبد و لم ينقضه فالتوبه إنما تقبل إذا كانت زاجره ناهيه على الذنب و لو حيناً. و قوله: و قال: إِنَّمَا التَّوْبَةُ «إلخ» كلام مستأنف أراد به بيان أن قوله: «بِجَهَالِهِ» قيد توضيحي، و أن في مطلق المعصيه جهاله على أحد التفسيرين السابقين في ما تقدم، و قد روى هذا الذيل في المجمع أيضاً عنه (ع)

## [سوره النساء (٤): الآيات ١٩ الى ٢٢]

### اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضَلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَ عَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ يَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) وَ إِنْ أَرَدْتُمْ إِسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَ آتَيْتُمْ إِخِيَارَهُنَّ فَتَطَارَافًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أ تَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا (٢٠) وَ كَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَ أَخَذَنْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (٢١) وَ لَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَ مَقْتًا وَ سَاءَ سَبِيلًا (٢٢)

### بيان

رجوع إلى أمر النساء بذكر بعض آخر مما يتعلق بهن و الآيات مع ذلك مشتمله على قوله: وَ عَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَ يَجْعَلَ اللَّهُ

فإنه أصل قرآني لحياء المرأة الاجتماعية.

قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ إلى قوله: «كَرْهًا» كان أهل الجاهلية-على ما فى التاريخ و الروايه-يعدون نساء الموتى من التركة-إذا لم تكن المرأة أما للوارث-فيرثونهن مع التركة فكان أحد الوراث يلقى ثوبا على زوجته الميت و يرثها فإن شاء تزوج بها من غير مهر بل بالوراثه و إن كره نكاحها حبسها عنده فإن شاء زوجها من غيره فانتفع بمهرها،و إن شاء عضلها و منعها النكاح و حبسها حتى تموت فيرثها إن كان لها مال.

و الآيه و إن كان ظاهرها أنها تنهى عن سنه دائره بينهم،و هى التى ذكرناها من إرث النساء فتكون مسوقه للردع عن هذه السنه السيئه على ما ذكره بعض المفسرين إلا أن قوله فى ذيل الجملة: «كَرْهًا» لا يلائم ذلك سواء أخذ قيدا توضيحيا أو احترازيا.

فإنه لو كان قيدا توضيحيا أفاد أن هذه الوراثه تقع دائما على كره من النساء و ليس كذلك،و هو ظاهر،و لو كان قيدا احترازيا أفاد أن النهى إنما هو إذا كانت الوراثه على كره من النساء دون ما إذا كان على رضى منهن،و ليس كذلك.

نعم الكره أمر متحقق فى العضل عن الازدواج طمعا فى ميراثهن دائما أو غالبا بعد القبض عليهن بالإرث فالظاهر أن الآيه فى مقام الردع عن هذا الإرث على كره و أما نكاحهن بالإرث فالمتعرض للنهى عنه قوله تعالى فيما سيأتى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ الآيه و أما تزويجهن من الغير و الذهاب بمهرهن فينهى عنه مثل قوله تعالى: ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْتُمْ﴾: «النساء: ٣٢» و يدل على الجميع قوله تعالى:

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾: «البقره: ٢٣٤».

و أما قوله بعد: ﴿وَلَا تَعْضُوا لَوْهُنَّ لِتَذْهَبُوا﴾ «إلخ» فهو غير هذا العضل عن الازدواج للذهاب بالمال إرثا لما فى تذييله بقوله: ﴿لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ من الدلاله على أن المراد به الذهاب ببعض المهر الذى آتاه الزوج العاضل دون المال الذى امتلكته من غير طريق هذا المهر.و بالجملة الآيه تنهى عن وراثه أموال النساء كرها منهن دون وراثه أنفسهن فإضافه الإرث إلى النساء إنما هى بتقدير الأموال أو يكون مجازا عقليا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُوا لَوْهُنَّ لِتَذْهَبُوا﴾ إلى قوله: «مُبَيَّنَّه» إما معطوف على

قوله: تَرِثُوا وَالتَّقْدِيرُ: و لا- أن تعضلوهم و إما نهى معطوف على قوله: لَا- يَحِلُّ لَكُمْ لكونه فى معنى النهى .و العضل هو المنع و التضييق و التشديد.و الفاحشه الطريقه الشنيعه كثر استعمالها فى الزنا.و الميينه المتبينه،و قد نقل عن سيويه أن أبان و استبان و بين و تبين بمعنى واحد،تعدى و لا تعدى يقال:أبان الشىء و استبان و بين و تبين و يقال:أبنت الشىء و استبنته و بينته و تبنته.

و الآيه تنهى عن التضييق عليهن بشىء من وجوه التضييق ليضطرن إلى بذل شىء من الصداق لفك عقده النكاح و التخلص من ضيق العيشه فالتضييق بهذا القصد محرم على الزوج إلا أن يأتى الزوجه بفاحشه ميينه فله حينئذ أن يعضلها و يضيق عليها لتفارقه بالبذل،و الآيه لا تنافى الآيه الأخرى فى باب البذل: وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَمَنْ خَافَ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ: «البقره: ٢٢٩»و إنما هو التخصيص.تخصص هذه الآيه آيه البقره بصوره إتيان الفاحشه،و أما البذل الذى فى آيه البقره فإنما هو واقع على تراض منهما فلا تخصص بها هذه الآيه.

قوله تعالى: «وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ» إلى آخر الآيه المعروف هو الأمر الذى يعرفه الناس فى مجتمعهم من غير أن ينكروه و يجهلوه،و حيث قيد به الأمر بالمعاشره كان المعنى الأمر بمعاشرتهم المعاشره المعروفه بين هؤلاء المأمورين.

و المعاشره التى يعرفها الرجال و يتعارفونها بينهم أن الواحد منهم جزء مقوم للمجتمع يساوى سائر الأجزاء فى تكوينه المجتمع الإنسانى لغرض التعاون و التعاضد العمومى النوعى فيتوجه على كل منهم من التكليف أن يسعى بما فى وسعه من السعى فيما يحتاج إليه المجتمع فيقتنى ما ينتفع به فيعطى ما يستغنى عنه و يأخذ ما يحتاج إليه فلو عومل واحد من أجزاء المجتمع غير هذه المعامله و ليس إلا أن يضطهد بإبطال استقلاله فى الجزئيه فيؤخذ تابعا ينتفع به و لا ينتفع هو بشىء يحاذيه،و هذا هو الاستثناء.

و قد بين الله تعالى فى كتابه إن الناس جميعا-رجالا و نساء-فروع أصل واحد إنسانى،و أجزاء و أبعاض لطبيعه واحده بشرية،و المجتمع فى تكوينه محتاج

إلى هؤلاء كما هو محتاج إلى أولئك على حد سواء كما قال تعالى: بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ: النساء: ٢٥».

ولا ينافى ذلك اختصاص كل من الطائفتين بخصله تختص به كاختصاص الرجال بالشده والقوه نوعاً، و اختصاص النساء بالرقه والعاطفه طبعاً فإن الطبيعه الإنسانيه فى حياتها التكوينيّه والاجتماعيه جميعاً تحتاج إلى بروز الشده وظهور القوه كما تحتاج إلى سريان الموده والرحمه، والخصلتان جميعاً مظهر الجذب والدفع العامين فى المجتمع الإنسانيّ.

فالطائفتان متعادلتان وزناً وأثراً كما أن أفراد طائفه الرجال متساويه فى الوزن والتأثير فى هذه البنيه المكونه مع اختلافهم فى شئونهم الطبيعه والاجتماعيه من قوه وضعف، وعلم وجهل، وكياسه وبلاده، وصغر وكبر، ورئاسه ومرءوسيه، ومخدوميه وخادميه، وشرف وخسه وغير ذلك.

فهذا هو الحكم الذى ينبعث من ذوق المجتمع المتوسط الجارى على سنه الفطره من غير انحراف، وقد قوم الإسلام أود الاجتماع الإنسانيّ وأقام عوجه فلا- مناص من أن يجرى فيه حكم التسويه فى المعاشره وهو الذى نعبر عنه بالحريه الاجتماعيه، وحريه النساء كالرجال، وحققتها أن الإنسان بما هو إنسان ذو فكر وإرادته له أن يختار ما ينفعه على ما يضره مستقلاً فى اختياره ثم إذا ورد المجتمع كان له أن يختار ما يختار- ما لم يزاحم سعادته المجتمع الإنسانيّ- مستقلاً فى ذلك من غير أن يمنع عنه أو يتبع غيره من غير اختيار.

وهذا كما عرفت لا- ينافى اختصاص بعض الطبقات أو بعض الأفراد من طبقه واحده بمزايا أو محروميته عن مزايا كاختصاص الرجال فى الإسلام بالقضاء والحكومه والجهاد ووجوب نفقتهم على الرجال وغير ذلك، وكحرمان الصبيان غير البالغين عن نفوذ الإقرار والمعاملات وعدم توجه التكاليف إليهم ونحو ذلك فجميع ذلك خصوصيات أحكام تعرض الطبقات وأشخاص المجتمع من حيث اختلاف أوزانهم فى المجتمع بعد اشتراكهم جميعاً فى أصل الوزن الإنسانيّ الاجتماعى الذى ملا-كه أن الجميع إنسان ذو فكر وإرادته.

ولا تختص هذه المختصات بشريعه الإسلام المقدسه بل توجد فى جميع القوانين

المدنيه بل فى جميع السنن الإنسانيه حتى الهمجيه قليلا- أو كثيرا على اختلافها، والكلمه الجامعه لجميع هذه المعانى هى قوله تعالى: **وَ عَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ عَلَى مَا تَبَيَّنَ**.

و أما قوله تعالى: **«فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُنَّ شَيْئًا وَ يَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا»** فهو من قبيل إظهار الأمر المعلوم فى صورته المشكوك المحتمل انقضاء من تيقظ غريزه التعصب فى المخاطب نظير قوله تعالى: **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ قُلْ لَا تُسْئَلُونَ عَمَّا أُجْرِمْنَا وَ لَا نُسْئَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ**: «سبأ: ٢٥».

فقد كان المجتمع الإنساني يومئذ(عصر نزول القرآن)لا يوقف النساء فى موقفها الإنساني الواقعى، و يكره ورودها فى المجتمع وروود البعض المقوم بل المجتمعات القائمه على ساقها يومئذ بين ما يعدهن طفيليات خارجه لاحقه ينتفع بوجودها، و ما يعدهن إنسانا ناقصا فى الإنسانيه كالصبيان و المجانين إلا أنهم لا يبلغن الإنسانيه أبدا فيجب أن يعشن تحت الإبتاع و الاستيلاء دائما، و لعل قوله تعالى: **فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ**، حيث نسب الكراهه إلى أنفسهن دون نكاحهن إشاره إلى ذلك.

قوله تعالى: **«وَ إِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ»** إلى آخر الآيه، الاستبدال استفعال بمعنى طلب البديل، و كأنه بمعنى إقامه زوج مقام زوج أو هو من قبيل التضمنين بمعنى إقامه امرأه مقام أخرى بالاستبدال، و لذلك جمع بين قوله **أَرَدْتُمْ** و بين قوله:

**اسْتِبْدَالَ**

إلخ مع كون الاستبدال مشتملا على معنى الإراده و الطلب، و على هذا فالمعنى:

**وَ إِنْ أَرَدْتُمْ**

أن تقيموا زوجا مقام أخرى بالاستبدال.

و البهتان ما بهت الإنسان أى جعله متحيرا، و يغلب استعماله فى الكذب من القول و هو فى الأصل مصدر، و قد استعمل فى الآيه فى الفعل الذى هو الأخذ من المهر، و هو فى الآيه حال من الأخذ و كذا قوله: **إِثْمًا**، و الاستفهام إنكارى.

و المعنى: إن أردتم أن تطلقوا بعض أزواجكم و تتزوجوا بأخرى مكانها فلا تأخذوا من الصداق الذى آتيتموها شيئا و إن كان ما آتيتموها مالا كثيرا، و ما تأخذونه قليلا جدا.

قوله تعالى: «وَ كَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ،الاستفهام للتعجب،و الإفضاء هو الاتصال بالماسه،و أصله الفضاء بمعنى السعه.

و لما كان هذا الأخذ إنما هو بالبغى و الظلم،و مورده مورد الاتصال و الاتحاد أوجب ذلك صحه التعجب حيث إن الزوجين يصيران بسبب ما أوجهه الازدواج من الإفضاء و الاقتراب كشخص واحد،و من العجيب أن يظلم شخص واحد نفسه و يؤذيها أو يؤذى بعض أجزاءه بعضاً.

و أما قوله: «وَ أَخَذَنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا» فالظاهر أن المراد بالميثاق الغليظ هو العلقه التى أبرمها الرجل بالعقد و نحوه،و من لوازمها الصداق الذى يسمى عند النكاح و تستحقه المرأه من الرجل.

و ربما قيل:إن المراد بالميثاق الغليظ العهد المأخوذ من الرجل للمرأه من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان على ما ذكره الله تعالى،و ربما قيل:إن المراد به حكم الحليه المجعول شرعا فى النكاح،و لا يخفى بعد الوجهين جميعا بالنسبه إلى لفظ الآيه.

## بحث روائى

فى تفسير العياشى،عن هاشم بن عبد الله عن السرى البجلي قال "»: سألته عن قوله:

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾

قال:فحكى كلاما ثم قال:كما يقول- النبطيه إذا طرح عليها الثوب عضلها فلا تستطيع تزويج غيره،و كان هذا فى الجاهليه.

و فى تفسير القمى،فى روايه أبى الجارود عن أبى جعفر(ع)»: فى قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾،فإنه كان فى الجاهليه فى أول ما أسلموا من قبائل العرب-إذا مات حميم الرجل و له امرأه-ألقى الرجل ثوبه عليها فورث نكاحها بصداق حميمه-الذى كان أصدقها يرث نكاحها كما يرث ماله،فلما مات أبو قيس بن الأسلت-ألقى محصن بن أبى قيس ثوبه على امرأه أبيه،و هى كبيشه بنت معمر بن معبد فورث نكاحها،ثم تركها لا يدخل بها و لا ينفق عليها،فأتت رسول الله ص فقالت:يا رسول الله-مات أبو قيس بن الأسلت فورث محصن ابنه نكاحى-فلا يدخل على،و لا ينفق على،و لا يخلى سبيلى فألحق بأهلى-فقال رسول الله ص:ارجعى



إلى بيتك-فإن يحدث الله في شأنك شيئاً أعلمتك فنزل: **وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ**-إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً  
وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا، فلحقت بأهلها، وكانت نساء في المدينة قد ورث نكاحهن-كما ورث نكاح كبيشه غير أنه ورثهن من الأبناء-  
فأنزل الله: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا**.

أقول: آخر الرواية لا يخلو عن اضطراب في المعنى وقد وردت هذه القصة و نزول الآيات فيها في عده من روايات أهل السنه  
أيضاً، غير أن الروايات أو معظمها تذكر نزول قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا الْآيَةَ فِي الْقِصَّةِ**، وقد عرفت  
في البيان السابق عدم مساعده السياق على ذلك.

و مع ذلك فتحقق القصة و ارتباط الآيات بوجه بها و بالعادة الجارية فيما بينهم عند النزول في الجملة لا ريب فيه، فالمعول في  
ذلك ما قدمناه في البيان السابق.

و في المجمع\*،: في قوله تعالى: **إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ** الآية-قال: الأولى حمل الآية على كل معصية، قال: و هو المروى عن  
أبي جعفر(ع).

و في تفسير البرهان، عن الشيباني\*،: الفاحشه يعنى الزنا،و ذلك إذا اطلع الرجل منها على فاحشه فله أخذ الفديه-و هو المروى عن  
أبي جعفر(ع).

و في الدر المنثور، أخرج ابن جرير عن جابر أن رسول الله ص قال\*،: اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانه الله، و استحللتم  
فروجهن بكلمه الله، و إن لكم عليهن أن لا- يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، و لهن  
عليكم رزقهن و كسوتهن بالمعروف.

و فيه، أخرج ابن جرير عن ابن عمر أن رسول الله ص قال\*،: يا أيها الناس إن النساء عندكم عوان أخذتموهن بأمانه الله، و استحللتم  
فروجهن بكلمه الله، و لكم عليهن حق، و من حقكم عليهن أن لا- يوطئن فرشكم أحدا، و لا- يعصينكم في معروف-و إذا فعلن  
ذلك فلهن رزقهن و كسوتهن بالمعروف.

أقول: و قد تقدم ما يتبين به معنى هذه الروايات.

و في الكافي، و تفسير العياشى، عن أبي جعفر(ع)\*،: في قوله تعالى: **وَأَخْذُنْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا** قال: الميثاق الكلمه التي عقد بها  
النكاح الروايه.

و في المجمع، قال\*،: الميثاق الغليظ هو العقد المأخوذ على الزوج حاله العقد-من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان قال: و هو  
المروى عن أبي جعفر(ع).

أقول: وهذا المعنى منقول عن عده من مفسرى السلف كابن عباس و قتاده و أبى مليكه، و الآيه لا تأباه بالنظر إلى أن ذلك حكم يصدق عليه أنه ميثاق مأخوذ على الرجال للنساء، و إن كان الأظهر أن يكون المراد هو العقد المجرى حين الأزواج.

و فى الدر المنثور، أخرج الزبير بن بكار فى الموفقيات عن عبد الله بن مصعب قال\*:

قال عمر "لا- تزيدوا فى مهور النساء على أربعين أوقيه، فمن زاد ألقىت الزيادة فى بيت المال، فقالت امرأه: ما ذاك لك قال: و لم؟ قالت: لأن الله يقول: وَ آتَيْتُمْ إِخْدَاهُنَّ قِنطَارًا الْآيَه، فقال عمر: امرأه أصابت و رجل أخطأ\*:

أقول: و رواه أيضا عن عبد الرزاق و ابن المنذر عن عبد الرحمن السلمى، و أيضا عن سعيد بن منصور و أبى يعلى بسند جيد عن مسروق، و فيه أربعمائه درهم مكان أربعين أوقيه، و أيضا عن سعيد بن منصور و عبد بن حميد عن بكر بن عبد الله المزنى، و الروايات متقاربه المعنى.

و فيه، أخرج ابن جرير عن عكرمه\*": فى قوله: وَ لَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ، قال: نزلت فى أبى قيس بن الأسلت-خلف على أم عبيد بنت ضميره كانت تحت الأسلت أبيه، و فى الأسود بن خلف و كان خلف على بنت أبى طلحه-بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار-و كانت عند أبيه خلف، و فى فاخته ابنه الأسود بن المطلب بن أسد -كانت عند أميه بن خلف فخلف عليها صفوان بن أميه، و فى منظور بن رباب و كان خلف على مليكه ابنه خارجه-و كانت عند أبيه رباب بن سيار.

و فيه، أخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظى قال\*": كان الرجل إذا توفى عن امرأه-كان ابنه أحق بها أن ينكحها إن شاء- إن لم تكن أمه أو ينكحها من شاء، فلما مات أبو قيس بن الأسلت قام ابنه محصن-فورث نكاح امرأته و لم ينفق عليها و لم يورثها من المال شيئا-فأتت النبى ص فذكرت ذلك له، فقال: ارجعى لعل الله ينزل فيك شيئا فنزلت: وَ لَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ الْآيَه، و نزلت: لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا .

أقول: و قد تقدم ما يدل على ذلك من روايات الشيعة.

و فيه، أخرج ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس قال\*": كان أهل الجاهليه يحرمون ما حرم الله إلا امرأه الأب-و الجمع بين الأختين-فأنزل الله: وَ لَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ

وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ :

أقول: وفي معناه أخبار أخرى.

**[سورة النساء (٤): الآيات ٢٣ إلى ٢٨]**

**إشاره**

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَضْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٢٣) وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصَنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤) وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَنْ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّهُنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشِهِ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٥) يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيبَ الَّتِي فِيكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سَبِيلَ الْحَقِّ وَيُخَفِّضَ لَكُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَعْيُنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (٢٨)

آيات محكمه تعد محرمات النكاح و ما أحل من نكاح النساء، والآيه السابقه عليها المبينه لحرمة نكاح ما نكح الآباء و إن كانت بحسب المضمون من جملتها إلا- أن ظاهر سياقها لما كان من تتمه السياق السابق أوردناها في جملة الآيات السابقه مع كونها بحسب المعنى ملحقه بها.

و بالجمله جمله الآيات متضمنه لبيان كل محرم نكاحي من غير تخصيص أو تقييد، و هو الظاهر من قوله تعالى بعد تعداد المحرمات: **وَ أُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ الْآيَةَ،** و لذلك لم يختلف أهل العلم في الاستدلال بالآيه على حرمة بنت الابن و البنت و أم الأب أو الأم و كذا على حرمة زوجه الجد بقوله تعالى: **وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ الْآيَةَ،** و به يستفاد نظر القرآن في تشخيص الأبناء و البنات بحسب التشريع على ما سيجيء إن شاء الله.

قوله تعالى: **«حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَ بَنَاتُكُمْ وَ أَخَوَاتُكُمْ وَ عَمَّاتُكُمْ وَ خَالَاتُكُمْ وَ بَنَاتُ الْأَخِ وَ بَنَاتُ الْأُخْتِ»** هؤلاء هن المحرمات بحسب النسب و هى سبعة أصناف، و الأم من اتصل إليها نسب الإنسان بالولاده كمن ولدته من غير واسطه أو بواسطه، كوالده الأب أو الأم فصاعده، و البنت من اتصل نسبها بالإنسان بسبب ولادتها منه كالمولوده من صلبه بلا واسطه، و كبنت الابن و البنت فنازله و الأخت من اتصل نسبها بالإنسان من جهة ولادتهما معا من الأب أو الأم أو منهما جميعا بلا واسطه، و العمه أخت

الأب و كذا أخت الجد من جهة الأب أو الأم، و الخاله أخت الأم، و كذا أخت الجده من جهة الأب أو الأم.

و المراد بتحريم الأمهات و ما يتلوها من الأصناف حرمه نكاحهن على ما يفيد الإطلاق من مناسبة الحكم و الموضوع، كما فى قوله تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ: «المائدة: ٣» أى أكلهما، و قوله تعالى: فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ: «المائدة: ٢٦» أى سكنى الأرض، و هذا مجاز عقلى شائع، هذا.

و لكنه لا يلائم ما سيأتى من قوله تعالى: «إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» فإنه استثناء من الوطاء دون علقه النكاح على ما سيجىء، و كذا قوله تعالى: أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصَةَ نِيْنٍ غَيْرِ مُسَافِحِينَ على ما سيجىء، فالحق أن المقدر هو ما يفيد معنى الوطاء دون علقه النكاح، و إنما لم يصرح تأدبا و صونا للسان على ما هو دأب كلامه تعالى.

و اختصاص الخطاب بالرجال دون أن يقال: حرم عليهن أبناؤهن «إلخ»، أو يقال مثلا: لا نكاح بين المرأه و ولدها «إلخ»، لما أن الطلب و الخطبه بحسب الطبع إنما يقع من جانب الرجال فحسب.

و توجيه الخطاب إلى الجمع مع تعليق الحرمة بالجمع كالأمهات و البنات «إلخ»، تفيد الاستغراق فى التوزيع، أى حرمت على كل رجل منكم أمه و بنته، إذ لا معنى لتحريم المجموع على المجموع، و لا لتحريم كل أم و بنت لكل رجل مثلا على كل رجل لأوله إلى تحريم أصل النكاح، فمآل الآيه إلى أن كل رجل يحرم عليه نكاح أمه و بنته و أخته «إلخ».

قوله تعالى: «وَ أُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمُ وَ أَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعِ» شروع فى بيان المحرمات بالسبب، و هى سبع ست منها ما فى هذه الآيه، و سابعتها ما يتضمنه قوله: «وَ لَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ الْآيَه».

و الآيه بسياقها تدل على جعل الأمومه و البنوه بين المرأه و من أرضعته و كذا الإخوه بين الرجل و أخته من الرضاعه حيث أرسل الكلام فيها إرسال المسلم فالرضاعه تكون الروابط النسبيه بحسب التشريع، و هذا مما يختص بالشريعة الإسلاميه على ما ستجىء الإشارة إليه.

وقد صح عن النبي ص فيما رواه الفريقان أنه قال: إن الله حرم من الرضاعة ما حرم من النسب و لازمه أن تنتشر الحرمة بالرضاع فيما يحاذى محرمات النسب من الأصناف، وهي الأم و البنت و الأخت و العمه و الخاله و بنت الأخ و بنت الأخت، سبعة أصناف.

و أما ما به يتحقق الرضاع و ما له في نشره الحرمة من الشرائط من حيث الكم و الكيف و المده و ما يلحق بها من الأحكام فهو مما يتبين في الفقه، و البحث فيه خارج عن وضع هذا الكتاب، و أما قوله: **وَ أَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعِ** فالمراد به الأخوات الملحقة بالرجل من جهة إرضاع أمه إياها بلبن أبيه و هكذا.

قوله تعالى: **«وَ أُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ»** سواء كانت النساء أى الأزواج مدخولا بهن أو غير مدخول بهن فإن النساء إذا أضيفت إلى الرجال دلت على مطلق الأزواج، و الدليل على ذلك التقييد الآتى فى قوله تعالى: **«مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ الْآيَةَ»**.

قوله تعالى: **«وَ رَبَائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ»** إلى قوله: **«فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ»** الربائب جمع الربيبه و هى بنت زوجه الرجل من غيره لأن تدبير أمر من مع المرأه من الولد إلى زوجها فهو الذى يربها و يربيه فى العاده الغالبه و إن لم يكن كذلك دائما.

و كذلك كون الربيبه فى حجر الزوج أمر مبنى على الغالب و إن لم يجر الأمر عليه دائما، و لذلك قيل: إن قوله: **«اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ قِيد مَبْنَى عَلَى الْغَالِبِ»** فى حجر الزوج أمر مبنى على الغالب فالربيبه محرمة سواء كانت فى حجر زوج أمها أو لم يكن، فالقيد توضيحي لا احترازي.

و من الممكن أن يقال: إن قوله: **«اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ»**، إشاره إلى ما يستفاد من حكمه تشريع الحرمة فى محرمات النسب و السبب على ما سيجىء البحث عنه، و هو الاختلاط الواقع المستقر بين الرجل و بين هؤلاء الأصناف من النساء و المصاحبه الغالبه بين هؤلاء فى المنازل و البيوت فلو لا حكم الحرمة المؤبده لم يمكن الاحتراز من وقوع الفحشاء بمجرد تحريم الزنا (على ما سيجىء بيانه).

فيكون قوله: **«اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ»** مشيرا إلى أن الربائب لكونهن غالبا فى حجوركم و فى صحابتكم تشارك سائر الأصناف فى الاشتمال على ملاك التحريم و حكمته.

و كيفما كان ليس قوله: **الْأَتِي فِي حُجُورِكُمْ** قيذا احترازيا يتقيد به التحريم حتى تحل الربيبه لرابها إذا لم تكن في حجره كالبت الكبيره يتزوج الرجل بأمها، والدليل على ذلك المفهوم المصرح به فى قوله تعالى: **«فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ»** حيث ذكر فيه ارتفاع قيد الدخول لكون الدخول دخيلا فى التحريم، و لو كان الكون فى الحجور مثله لكان من اللازم ذكره، و هو ظاهر.

و قوله: **فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ** أى فى أن تنكحوهن حذف إيثارا للاختصار لدلاله السياق عليه.

قوله تعالى: **«وَ حَلَائِلُ أَبْتِائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْوََابِكُمْ»** الحلائل جمع حليله قال فى المجمع: و الحلائل جمع الحليله، و هى بمعنى محلله مشتقه من الحلال و الذكر حليل، و جمعه أحله كعزير و أعزه سميا بذلك لأن كل واحده منهما يحل له مباشره صاحبه، و قيل هو من الحلول لأن كل واحد منهما يحال صاحبه أى يحل معه فى الفراش، انتهى.

و المراد بالأبناء من اتصل بالإنسان بولاده سواء كان ذلك بلا- واسطه أو بواسطه ابن أو بنت، و تقييده بقوله: **«الَّذِينَ مِنْ أَصْوََابِكُمْ»** احتراز عن حليله من يدعى ابنا بالتبنى دون الولاده.

قوله تعالى: **«وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ»** المراد به بيان تحريم نكاح أخت الزوجه ما دامت الزوجه حيه باقيه تحت حباله الزوجيه فهو أوجز عبارته و أحسنها فى تأديه المراد، و إطلاق الكلام ينصرف إلى الجمع بينهما فى النكاح فى زمان واحد، فلا مانع من أن ينكح الرجل إحدى الأختين ثم يتزوج بالأخرى بعد طلاق الأولى أو موتها و من الدليل عليه السيره القطعيه بين المسلمين المتصله بزمان النبى ص.

و أما قوله: **«إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ»** فهو كنظيره المتقدم فى قوله: **«وَ لَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ»** ناظر إلى ما كان معمولا- به بين عرب الجاهليه من الجمع بين الأختين، و المراد به بيان العفو عما سلف من عملهم بالجمع بين الأختين قبل نزول هذه الآيه دون ما لو كان شىء من ذلك فى زمان النزول بنكاح سابق فإن الآيه تدل على منعه لأنه جمع بين الأختين بالفعل كما يدل عليه أيضا ما تقدم نقله من أسباب نزول قوله: **«وَ لَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ»** الآيه حيث فرق النبى ص بعد نزول

الآية بين الأبناء و بين نساء آبائهم مع كون النكاح قبل نزول الآية.

و رفع التحريم-و هو الجواز-عن نكاح سالف لا يتلى به بالفعل،و العفو عنه من حيث نفس العمل المنقضى و إن كان لغوا لا أثر له لكنه لا يخلو عن الفائدة من حيث آثار العمل الباقية بعده كطهاره المولد و اعتبار القرابه مع الاستيلاء و نحو ذلك.

و بعبارة أخرى لا- معنى لتوجيه الحرمة أو الإباحة إلى نكاح سابق قد جمع بين الأختين إذا ماتتا مثلا أو ماتت إحداهما أو حل الطلاق بهما أو بإحداهما لكن يصح رفع الإلغاء و التحريم عن مثل هذا النكاح باعتبار ما استتبعه من الأولاد من حيث الحكم بطهاره مولدهم،و وجود القرابه بينهم و بين آبائهم المولدين لهم و سائر قرابات الآباء،المؤثر ذلك فى الإرث و النكاح و غير ذلك.

و على هذا فقولہ: «إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» استثناء من الحكم باعتبار آثاره الشرعية لا باعتبار أصل تعلقه بعمل قد انقضى قبل التشريع و من هنا يظهر أن الاستثناء متصل لا منقطع كما ذكره المفسرون.

و يمكن أن يرجع الاستثناء إلى جميع الفقرات المذكوره فى الآية من غير أن يختص بقوله: «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ» فإن العرب و إن كانت لا- ترتكب من هذه المحرمات إلا-الجمع بين الأختين،و لم تكن تقترف نكاح الأمهات و البنات و سائر ما ذكرت فى الآية إلا أن هناك أمما كانت تنكح أقسام المحارم كالفرس و الروم و سائر الأمم المتمدنه و غير المتمدنه يوم نزول الآيات على اختلافهم فيه،و الإسلام يعتبر صحه نكاح الأمم غير المسلمه الدائر بينهم على مذاهبهم فيحكم بطهاره مولدهم،و يعتبر صحه قرابتهم بعد الدخول فى دين الحق،هذا،لكن الوجه الأول أظهر.

قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً» تعليل راجع إلى الاستثناء،و هو من الموارد التى تعلق فيها المغفره بآثار الأعمال فى الخارج دون الذنوب و المعاصى.

قوله تعالى: «وَالْمُحْصِنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» المحصنات بفتح الصاد اسم مفعول من الإحصان و هو المنع،و منه الحصن الحصين أى المنيع يقال:

أحصنت المرأة إذا عفت فحفظت نفسها و امتنعت عن الفجور،قال تعالى: «الَّتِي أَحْصَيْنَتْ فَرْجَهَا» (التحريم: ١٢) أى عفت و يقال:أحصنت المرأة-بالبناء للفاعل و المفعول-



إذا تزوجت فأحصن زوجها أو التزوج إياها من غير زوجها، و يقال: أحصنت المرأه إذا كانت حره فمنعها ذلك من أن يمتلك الغير بضعها أو منعها ذلك من الزنا لأن ذلك كان فاشيا في الإمام.

و الظاهر أن المراد بالمحصنات في الآيه هو المعنى الثانى أى المتزوجات دون الأول و الثالث لأن الممنوع المحرم فى غير الأصناف الأربعة عشر المعدوده فى الآيتين هو نكاح المزوجات فحسب فلا- منع من غيرها من النساء سواء كانت عفيفه أو غيرها، و سواء كانت حره أو مملوكه فلا وجه لأن يراد بالمحصنات فى الآيه العفائف مع عدم اختصاص حكم المنع بالعفائف ثم يرتكب تقييد الآيه بالتزويج، أو حمل اللفظ على إرادته الحرائر مع كون الحكم فى الإمام أيضا مثلهن ثم ارتكاب التقييد بالتزويج فإن ذلك أمر لا يرتضيه الطبع السليم.

فالمراد بالمحصنات من النساء المزوجات و هى التى تحت حباله التزويج، و هو عطف على موضع أمهاتكم، و المعنى: و حرمت عليكم كل مزوجه من النساء ما دامت مزوجه ذات بعل.

و على هذا يكون قوله: «إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» رفعا لحكم المنع عن محصنات الإمام على ما ورد فى السنه أن لمولى الأمه المزوجه أن يحول بين مملوكته و زوجها ثم ينالها عن استبراء ثم يردها إلى زوجها.

و أما ما ذكره بعض المفسرين أن المراد بقوله: «إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» إلا- ما ملكت أيمانكم بالنكاح أو بملك الرقبه من العفائف فالمراد بالملك ملك الاستمتاع و التسلط على المباشره ففيه أولا أنه يتوقف على أن يراد بالمحصنات العفائف دون المزوجات و قد عرفت ما فيه، و ثانيا أن المعهود من القرآن إطلاق هذه العبارة على غير هذا المعنى، و هو ملك الرقبه دون التسلط على الانتفاع و نحوه.

و كذا ما ذكره بعض آخر أن المراد بما ملكته الأيمان الجوارى المسييات إذا كن ذوات أزواج من الكفار، و أيد ذلك

بما روى عن أبى سعيد الخدرى\*: أن الآيه نزلت فى سبى أو طاس- حيث أصاب المسلمون نساء المشركين، و كانت لهن أزواج فى دار الحرب- فلما نزلت نادى منادى رسول الله ص: ألا لا توطأ الجبالى حتى يضعن و لا غير الجبالى حتى يستبرأن.

و فيه مضافا إلى ضعف الروايه أن ذلك تخصيص للآيه من غير مخصص، فالمصير إلى ما ذكرناه.

قوله تعالى: «كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» أى الزموا حكم الله المكتوب المقضى عليكم وقد ذكر المفسرون أن قوله: «كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» منصوب مفعولا لمفعلا مقدر، والتقدير: كتب الله كتابا عليكم ثم حذف الفعل و أضيف المصدر إلى فاعله و أقيم مقامه، و لم يأخذوا لفظ عليكم اسم فعل لما ذكره النحويون أنه ضعيف العمل لا يتقدم معموله عليه، هذا.

قوله تعالى: «وَ أُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ» ظاهر التعبير بما الظاهره فى غير أولى العقل، و كذا الإشاره بذلكم الدال على المفرد المذكور، و كذا قوله بعده: «أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ»، أن يكون المراد بالموصول و اسم الإشاره هو المقدر فى قوله: حرمت عليكم أمهاتكم، المتعلق به التحريم من الوطء و النيل أو ما هو من هذا القبيل، و المعنى: و أحل لكم من نيلهن ما هو غير ما ذكر لكم، و هو النيل بالنكاح فى غير من عد من الأصناف الخمسه عشر أو بملك اليمين، و حينئذ يستقيم بدليه قوله: «أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ»، من قوله: «وَ أُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ» كل الاستقامه.

و قد ورد عن المفسرين فى هذه الجملة من الآيه تفاسير عجيبه كقول بعضهم:

إن معنى قوله: «وَ أُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ»: «أحل لكم ما وراء ذات المحارم من أقاربكم، و قول بعض آخر: إن المراد: أحل لكم ما دون الخمس و هى الأربع فما دونها أن تبتغوا بأموالكم على وجه النكاح، و قول بعض آخر: إن المعنى أحل لكم ما وراء ذلكم مما ملكت أيما نكحكم، و قول بعض آخر: معناها أحل لكم ما وراء ذات المحارم و الزيادة على الأربع أن تبتغوا بأموالكم نكاحا أو ملك يمين.

و هذه وجوه سخيفه لا- دليل على شىء منها من قبل اللفظ فى الآيه، على أنها تشترك فى حمل لفظه ما فى الآيه على أولى العقل، و لا موجب له كما عرفت آنفا، على أن الآيه فى مقام بيان المحرم من نيل النساء من حيث أصناف النساء لا من حيث عدد الأزواج فلا- وجه لتحميل إرادته العدد على الآيه، فالحق أن الجملة فى مقام بيان جواز نيل النساء فيما سوى الأصناف المعدوده منهن فى الآيتين السابقتين بالنكاح أو بملك اليمين.

قوله تعالى: «أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ» بدل أو عطف بيان

من قوله: «مَا وَرَاءَ ذَلِكَ» يتبين به الطريق المشروع في نيل النساء و مباشرتهن، و ذلك أن الذى يشمل قوله: «وَ أَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ» من المصداق ثلاثة: النكاح و ملك اليمين و السفاح و هو الزنا فبين بقوله: «أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ» إلخ، المنع عن السفاح و قصر الحل فى النكاح و ملك اليمين ثم اعتبر الابتغاء بالأموال و هو فى النكاح المهر و الأجره-ركن من أركانه-و فى ملك اليمين الثمن-و هو الطريق الغالب فى تملك الإمام-فيقول معنى الآية إلى مثل قولنا: أحل لكم فيما سوى الأصناف المعدوده أن تطلبوا مباشرة النساء و نيلهن بإنفاق أموالكم فى أجره المنكوحات من النساء نكاحا من غير سفاح أو إنفاقها فى ثمن الجوارى و الإمام.

و من هنا يظهر أن المراد بالإحصان فى قوله: «مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ» إحصان العفه دون إحصان التزوج و إحصان الحرية فإن المراد بابتغاء الأموال فى الآية أعم مما يتعلق بالنكاح أو بملك اليمين و لا دليل على قصرها فى النكاح حتى يحمل الإحصان على إحصان التزوج، و ليس المراد بإحصان العفه الاحتراز عن مباشرة النساء حتى ينافى المورد بل ما يقابل السفاح أعنى التعدى إلى الفحشاء بأى وجه كان بقصر النفس فى ما أحل الله، و كفها عما حرم الله من الطرق العادية فى التمتع المباشرى الذى أودع النزوع إليه فى جبله الإنسان و فطرته.

و بما قدمناه يظهر فساد ما ذكره بعضهم: أن قوله «أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ» ، بتقدير لام الغايه أو ما يؤدى معناها، و التقدير لتبتغوا، أو إرادته أن تبتغوا.

و ذلك أن مضمون قوله: «أَنْ تَبْتَغُوا» بوجه عين ما أريد بقوله: «مَا وَرَاءَ ذَلِكَ» لا أنه أمر مترتب عليه مقصود لأجله، و هو ظاهر.

و كذا ما يظهر من كلام بعضهم: أن المراد بالمسافحه مطلق سفح الماء و صبه من غير أن يقصد به الغايه التى وضع الله سبحانه هذه الداعيه الشهويه الفطريه فى الإنسان لأجلها، و هى غرض تكوين البيت و إيجاد النسل و الولد، و بالمقابل يكون الإحصان هو الازدواج الدائم الذى يكون الغرض منه التوالد و التناسل، هذا.

و إنى لست أرى هذا القائل إلا- أنه اختلط عليه طريق البحث فخلط البحث فى ملاك الحكم المسمى بحكمه التشريع بالبحث عن نفس الحكم فلزمه ما لا يسعه الالتزام به من اللوازم.

و أحد الباحثين و هو البحث عن الملاك عقلي، و الآخر و هو البحث عن الحكم الشرعي و ما له من الموضوع و المتعلق و الشرائط و الموانع لفظي يتبع في السعه و الضيق البيان اللفظي من الشارع، و إنا لا نشك أن جميع الأحكام المشرعه تتبع مصالح و ملاكات حقيقه، و حكم النكاح الذي هو أيضا أحدها يتبع في تشريعه مصلحه واقعيه و ملاكا حقيقيا، و هو التوالد و التناسل، و نعلم أن نظام الصنع و الإيجاد أراد من النوع الإنساني البقاء النوعي ببقاء الأفراد ما شاء الله، ثم احتيل إلى هذا الغرض بتجهيز البنيه الإنسانيه بجهاز التناسل الذي يفصل أجزاء منه فيريه و يكونه إنسانا جديدا يخلف الإنسان القديم فتمتد به سلسله النوع من غير انقطاع، و احتيل إلى تسخير هذا الجهاز للعمل و الإنتاج بإيداع القوه الشهوانيه التي يحن بها أحد القبيلين - الذكر و الأنثى - من الأفراد إلى الآخر، و ينجذب بها كل إلى صاحبه بالوقوع عليه و النيل، ثم كمل ذلك بالعقل الذي يمنع من إفساد هذا السبيل الذي يندب إليه نظام الخلقه.

و في عين أن نظام الخلقه بالغ أمره و واجد غرضه الذي هو بقاء النوع لسنا نجد أفراد هذه الاتصالات المباشره بين الذكر و الأنثى و لا أصنافها موصله إلى غرض الخلقه دائما بل إنما هي مقدمه غالبه، فليس كل ازدواج مؤديا إلى ظهور الولد، و لا كل عمل تناسلي كذلك، و لا - كل ميل إلى هذا العمل يؤثر هذا الأثر، و لا كل رجل أو كل امرأه، و لا كل ازدواج يهدي هدايه اضطراريه إلى الذواق فالاستيلاء، فالجميع أمور غالبه.

فالتجهز التكويني يدعو الإنسان إلى الازدواج طلبا للنسل من طريق الشهوه، و العقل المودوع فيه يضيف إلى ذلك التحرز و حفظ النفس عن الفحشاء المفسد لسعاده العيش، الهادم لأساس البيوت، القاطع للنسل.

و هذه المصلحه المركبه أعني مصلحه الاستيلاء و الأمن من ديب الفحشاء هي الملاك الغالبى الذي بنى عليه تشريع النكاح فى الإسلام غير أن الأغلبيه من أحكام الملاك، و أما الأحكام المشرعه لموضوعاتها فهي لا تقبل إلا الدوام.

فليس من الجائز أن يقال: إن النكاح أو المباشره يتبعان فى جوازهما الغرض و الملاك المذكور وجودا و عدما فلا يجوز نكاح إلا بنيه التوالد، و لا يجوز نكاح العقيم

و لا نكاح العجوز التي لا ترى الحمره، و لا يجوز نكاح الصغيره، و لا يجوز نكاح الزانى و لا يجوز مباشره الحامل، و لا مباشره من غير إنزال، و لا نكاح من غير تأسيس بيت، و لا يجوز... و لا يجوز....

بل النكاح سنه مشروعه بين قبيلى الذكر و الأنثى لها أحكام دائميّه، و قد أريد بهذه السنه المشروعه حفظ مصلحه عامه غالبية كما عرفت فلا معنى لجعل سنه مشروعه تابعه لتحقيق الملاك وجودا و عدما، و المنع عما لا يتحقق به الملاك من أفراده أو أحكامه.

قوله تعالى: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً» كان الضمير فى قوله: «بِهِ» راجع إلى ما يدل عليه قوله: «وَ أَجَلَ لَكُمْ مِنْهُنَّ وَرَاءَ ذَلِكَ» و هو النيل أو ما يؤدى معناه، فيكون «مَا» للتوقيت، و قوله «مِنْهُنَّ» متعلقا بقوله: «اسْتَمْتَعْتُمْ» و المعنى: مهما استمتعتم بالنيل منهن فآتوهن أجورهن فريضة.

و يمكن أن يكون ما موصوله، و استمتعتم صله لها، و ضمير به راجعا إلى الموصول و قوله «مِنْهُنَّ» بيانا للموصول، و المعنى: و من استمتعتم به من النساء «إلخ».

و الجملة أعنى قوله: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ» «إلخ» تفریع لما تقدمها من الكلام-لمكان الفاء-تفریع البعض على الكل أو تفریع الجزئى على الكلى بلا-شك فإن ما تقدم من الكلام أعنى قوله «أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصَةَ نِيْنٍ غَيْرِ مُسَافِحِينَ» كما تقدم بيانه شامل لما فى النكاح و ملك اليمين، فتفریع قوله: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ» عليه يكون من تفریع الجزء على الكل أو تفریع بعض الأقسام الجزئيه على المقسم الكلى.

و هذا النوع من التفریع كثير الورد فى كلامه تعالى كقوله عز من قائل:

أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ لَّآلَايَهُ: «البقره: ١٨٤» و قوله:

فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحِجِّ لَّآلَايَهُ: «البقره: ١٩٦» و قوله لا- إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ لَّآلَايَهُ: «البقره: ٢٥٦» إلى غير ذلك.

و المراد بالاستمتاع المذكور فى الآيه نكاح المتعه بلا شك فإن الآيه مدنيه نازله

فى سورة النساء فى النصف الأول من عهد النبى ص بعد الهجره على ما يشهد به معظم آياتها، و هذا النكاح أعنى نكاح المتعه كانت دائره بينهم معموله عندهم فى هذه البرهه من الزمان من غير شك- وقد أطبقت الأخبار على تسلم ذلك- سواء كان الإسلام هو المشرع لذلك أو لم يكن فأصل وجوده بينهم بمرأى من النبى و مسمع منه لا شك فيه، و كان اسمه هذا الاسم و لا يعبر عنه إلا بهذا اللفظ فلا مناص من كون قوله: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ» محمولاً عليه مفهوماً منه هذا المعنى كما أن سائر السنن و العادات و الرسوم الدائره بينهم فى عهد النزول بأسمائها المعروفه المعهوده كلما نزلت آيه متعرضه لحكم متعلق بشىء من تلك الأسماء بإمضاء أو رد أو أمر أو نهى لم يكن بد من حمل الأسماء الوارده فيها على معانيها المسماه بها من غير أن تحمل على معانيها اللغويه الأصلية.

و ذلك كالحج و البيع و الربا و الربح و الغنيمه و سائر ما هو من هذا القبيل فلم يمكن لأحد أن يدعى أن المراد بحج البيت قصده، و هكذا، و كذلك ما أتى به النبى ص من الموضوعات الشرعيه ثم شاع الاستعمال حتى عرفت بأساميها الشرعيه كالصلاه و الصوم و الزكاه و حج التمتع و غير ذلك لا- مجال بعد تحقق التسميه لحمل ألفاظها الواقعه فى القرآن الكريم على معانيها اللغويه الأصلية بعد تحقق الحقيقه الشرعيه أو المشرعيه فيها.

فمن المتعين أن يحمل الاستمتاع المذكور فى الآيه على نكاح المتعه لدورانه بهذا الاسم عندهم يوم نزول الآيه سواء قلنا بنسخ نكاح المتعه بعد ذلك بكتاب أو سنه أو لم نقل فإنما هو أمر آخر.

و جملة الأمر أن المفهوم من الآيه حكم نكاح المتعه، و هو المنقول عن القدماء من مفسرى الصحابه و التابعين كابن عباس و ابن مسعود و أبى بن كعب و قتاده و مجاهد و السدى و ابن جبير و الحسن و غيرهم، و هو مذهب أئمه أهل البيت (ع).

و منه يظهر فساد ما ذكره بعضهم فى تفسير الآيه أن المراد بالاستمتاع هو النكاح فإن إيجاد علقه النكاح طلب للتمتع منها هذا، و ربما ذكر بعضهم أن السين و التاء فى استمتعتم للتأكيد، و المعنى: تمتعتم.

و ذلك لأن تداول نكاح المتعه (بهذا الاسم) و معرفيته بينهم لا يدع مجالاً لخطور هذا المعنى اللغوي بذهن المستمعين.

على أن هذا المعنى على تقدير صحته و انطباق معنى الطلب على المورد أو كون استمتعتم بمعنى تمتعتم، لا- يلائم الجزاء المترتب عليه أعنى قوله: «فَأَتَوْهُنَّ أُجُورَهُنَّ» ، فإن المهر يجب بمجرد العقد، و لا يتوقف على نفس التمتع و لا على طلب التمتع الصادق على الخطبه و إجراء العقد و الملاعبه و المباشره و غير ذلك، بل يجب نصفه بالعقد و نصفه الآخر بالدخول.

على أن الآيات النازله قبل هذه الآيه قد استوفت بيان وجوب إيتاء المهر على جميع تقاديره، فلا وجه لتكرار بيان الوجوب، و ذلك كقوله تعالى: وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَهُ X الآيه X: «النساء: ٤»، و قوله تعالى: وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِخْرَاجَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا، X الآيتان X: «النساء: ٢٠»، و قوله تعالى لا- جُذَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَ مَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَ عَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ X- إلى أن قال- X: وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ X الآيتان X: «البقره: ٢٣٧».

و ما احتمله بعضهم أن الآيه أعنى قوله: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً» مسوقه للتأكيد يرد عليه أن سياق ما نقل من الآيات و خاصه سياق ذيل قوله: «وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ» الآيتين أشد و أكد لحنا من هذه الآيه فلا وجه لكون هذه مؤكده لتلك.

و أما النسخ فقد قيل: إن الآيه منسوخه بآيه المؤمنون: وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَوَالِحَكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ: «المؤمنون: ٧»، و قيل منسوخه بآيه العده: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ: «الطلاق: ١» وَ الْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ X الآيه X: «البقره: ٢٢٨»، حيث إن انفصال الزوجين إنما هو بطلاق و عده و ليسا في نكاح المتعه، و قيل: منسوخه بآيات الميراث: وَ لَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ

X الآيه X: «النساء: ١٢»، حيث لا إرث في نكاح المتعه، و قيل منسوخه بآيه التحريم:

«حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ»

الآيه، فإنها في النكاح، و قيل: منسوخه بآيه العدد: فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَ ثَلَاثَ وَ رِبَاعًا X الآيه X: «النساء: ٣»، و قيل: منسوخه بالسنة نسخها رسول الله ص عام خيبر، و قيل: عام الفتح، و قيل: في حجه الوداع، و قيل: أبيحت متعه النساء ثم حرمت مرتين أو ثلاثا، و آخر ما وقع و استقر عليه من الحكم الحرمه.

أما النسخ بآيه المؤمنون، ففيه أنها لا تصلح للنسخ، فإنها مكيه و آيه المتعه مدنيه، و لا تصلح المكيه لنسخ المدنيه، على أن عدم كون المتعه نكاحا و المتمتع بها زوجه ممنوع، و ناهيك في ذلك ما وقع في الأخبار النبويه، و في كلمات السلف من الصحابه و التابعين من تسميتها نكاحا، و الإشكال عليه بلزوم التوارث و الطلاق و غير ذلك سيأتى الجواب عنه.

و أما النسخ بسائر الآيات كآيه الميراث و آيه الطلاق و آيه العدد ففيه أن النسبه بينها و بين آيه المتعه ليست نسبه الناسخ و المنسوخ، بل نسبه العام و المخصص أو المطلق و المقيد، فإن آيه الميراث مثلا تعم الأزواج جميعا من كل دائم و منقطع و السنه تخصصها بإخراج بعض أفرادها، و هو المنقطع من تحت عمومها، و كذلك القول في آيه الطلاق و آيه العدد، و هو ظاهر، و لعل القول بالنسخ ناش من عدم التمييز بين النسبتين.

نعم ذهب بعض الأصوليين فيما إذا ورد خاص ثم عقبه عام يخالفه في الإثبات و النفي إلى أن العام ناسخ للخاص. لكن هذا مع ضعفه على ما بين في محله غير منطبق على مورد الكلام، و ذلك لوقوع آيات الطلاق (و هي العام) في سوره البقره، و هي أول سوره مدنيه نزلت قبل سوره النساء المشتمله على آيه المتعه، و كذلك آيه العدد واقعه في سوره النساء متقدمه على آيه المتعه، و كذلك آيه الميراث واقعه قبل آيه المتعه في سياق واحد متصل في سوره واحده فالخاص أعني آيه المتعه متأخر عن العام على أى حال.

و أما النسخ بآيه العده فبطلانه أوضح فإن حكم العده جار في المنقطعه كالدائمه و إن اختلفتا مده فيئول إلى التخصيص أيضا دون النسخ.

و أما النسخ بآيه التحريم فهو من أعجب ما قيل في هذا المقام أما أولا فلأن مجموع



الكلام الدال على التحريم و الدال على حكم نكاح المتعه كلام واحد مسرود متسق الأجزاء متصل الأبعاض فكيف يمكن تصور تقدم ما يدل على المتعه ثم نسخ ما فى صدر الكلام لذيله؟، و أما ثانيا فلأن الآيه غير صريحه و لا ظاهره فى النهى عن الزوجيه غير الدائمه بوجه من الوجوه، و إنما هى فى مقام بيان أصناف النساء المحرمه على الرجال ثم بيان جواز نيل غيرها بنكاح أو بملك يمين، و نكاح المتعه نكاح على ما تقدم، فلا نسبه بين الأمرين بالمباينه حتى يؤول إلى النسخ.

نعم ربما قيل: إن قوله تعالى: «وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ» حيث قيد حليه النساء بالمهر و بالإحصان من غير سفاح، و لا إحصان فى النكاح المنقطع - و لذلك لا يرمم الرجل المتمتع إذا زنا لعدم كونه محصنا - يدفع كون المتعه مراده بالآيه.

لكن يرد عليه ما تقدم أن المراد بالإحصان فى قوله «مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ» هو إحصان العفه دون إحصان التزوج لكون الكلام بعينه شاملا - لملك اليمين كشموله النكاح، و لو سلم أن المراد بالإحصان هو إحصان التزوج عاد الأمر إلى تخصيص الرجم فى زنا المحصن بزنا المتمتع المحصن بحسب السنه دون الكتاب فإن حكم الرجم غير مذكور فى الكتاب من أصله.

و أما النسخ بالسنه ففيه - مضافا إلى بطلان هذا القسم من النسخ من أصله لكونه مخالفا للأخبار المتواتره الأمره بعرض الأخبار على الكتاب و طرح ما خالفه، و الرجوع إلى الكتاب - ما سيأتى فى البحث الروائى.

قوله تعالى: «وَمَنْ لَمْ يَشْهَدْ بِمَنْكُحِكُمْ طَوْلًا» أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصِنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ، الطول الغنى و الزياده فى القدره، و كلا - المعنيين يلائمان الآيه، و المراد بالمحصنات الحرائر بقريته مقابلته بالفتيات، و هذا بعينه يشهد على أن ليس المراد بها العفاف، و إلا لم تقابل بالفتيات بل بها و بغير العفاف، و ليس المراد بها ذوات الأزواج إذ لا يقع عليها العقد و لا المسلمات و إلا لاستغنى عن التقييد بالمؤمنات.

و المراد بقوله «فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» ما ملكته أيمن المؤمنين غير من يريد الأزواج و إلا فتزوج الإنسان بملك يمين نفسه باطل غير مشروع، و قد نسب ملك

اليمين إلى المؤمنين و فيهم المرید للتزوج بعد الجميع واحدا غير مختلف لاتحادهم في الدين، و اتحاد مصالحهم و منافعهم كأنهم شخص واحد.

و في تقييد المحصنات و كذا الفتيات بالمؤمنات إشاره إلى عدم جواز تزوج غير المؤمنات من كتابيه و مشركه، و لهذا الكلام تتمه ستمر بك إن شاء الله العزيز في أوائل سورة المائدة.

و محصل معنى الآيه أن من لم يقدر منكم على أن ينكح الحرائر المؤمنات لعدم قدرته على تحمل أثقال المهر و النفقه فله أن ينكح من الفتيات المؤمنات من غير أن يتحرج من فقدان قدره على الحرائر، و يعرض نفسه على خطرات الفحشاء و معترض الشقاء.

فالمراد بهذا النكاح هو النكاح الدائم، و الآيه في سياق التنزل أى إن لم يمكنكم كذا فيمكنكم كذا، و إنما قصر الكلام في صورته التنزل على بعض أفراد المنزل عنه أعنى على النكاح الدائم الذى هو بعض أفراد النكاح الجائر لكون النكاح الدائم هو المتعارف المتعين بالطبع في نظر الإنسان المرید تأسيس البيت و إيجاد النسل و تخليف الولد، و نكاح المتعه تسهيل دينى خفف الله به عن عباده لمصلحه سد طريق الفحشاء، و قطع منابت الفساد.

و سوق الكلام على الجبهه الغالبه أو المعروفه السابقه إلى الذهن و خاصه في مقام تشريع الأحكام و القوانين كثير شائع في القرآن الكريم كقوله تعالى: **فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصِيْمُهُ، وَ مَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ**: «البقره: ١٨٥»، مع أن العذر لا ينحصر في المرض و السفر، و قوله تعالى: **وَ إِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا**: «النساء: ٤٣»، و الأعذار و قيود الكلام كما ترى مبنيه على الغالب المعروف، إلى غير ذلك من الآيات.

هذا على ما ذكره من حمل الآيه على النكاح الدائم، و لا يوجب ذلك من حيث اشتماله على معنى التنزل و التوسعه اختصاص الآيه السابقه بالنكاح الدائم، و كون قوله:

**فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ**

، غير مسوق لبيان حكم نكاح المتعه كما توهمه بعضهم، لأن هذا التنزل و التوسعه واقع بطرفيه (المنزل عنه و المنزل إليه) في نفس هذه الآيه أعنى قوله:

وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً

«إلخ».

على أن الآيه بلفظها لا تأبى عن الحمل على مطلق النكاح الشامل للدائم و المنقطع كما سيتضح بالكلام على بقيه فقراتها.

قوله تعالى: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ» لما كان الإيمان المأخوذ في متعلق الحكم أمراً قلبياً لا سبيل إلى العلم بحقيقته بحسب الأسباب، وربما أوهم تعليقا بالمتعذر أو المتعسر، وأوجب تخرج المكلفين منه، بين تعالى أنه هو العالم بإيمان عباده المؤمنين و هو كنايه عن أنهم إنما كلفوا الجرى على الأسباب الظاهرية الداله على الإيمان كالشهادتين و الدخول فى جماعه المسلمين و الإتيان بالوظائف العامه الدينيه، فظاهر الإيمان هو الملاك دون باطنه.

و فى هدايه هؤلاء المكلفين غير المستطيعين إلى الازدواج بالإماء نقص و قصور آخر فى الوقوع موقع التأثير و القبول، و هو أن عامه الناس يرون لطبقه المملوكين من العبيد و الإماء هوانا فى الأمر و حسه فى الشأن و نوع ذله و انكسار فيوجب ذلك انقباضهم و جماح نفوسهم من الاختلاط بهم و المعاشره معهم و خاصه بالازدواج الذى هو اشتراك حيوى و امتزاج باللحم و الدم.

فأشار سبحانه بقوله: «بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ» إلى حقيقه صريحه يندفع بالتأمل فيها هذا التوهم الفاسد فالرقيق إنسان كما أن الحر إنسان لا يتميزان فى ما به يصير الإنسان واجدا لشئون الإنسانيه، و إنما يفترقان بسلسله من أحكام موضوعه يستقيم بها المجتمع الإنساني فى إنتاجه سعادته الناس، و لا عبره بهذه التميزات عند الله، و الذى به العبره هو التقوى الذى به الكرامه عند الله، فلا ينبغى للمؤمنين أن يفعلوا عن أمثال هذه الخطرات الوهميه التى تبعدهم عن حقائق المعارف المتضمنه سعادتهم و فلاحهم، فإن الخروج عن مستوى الطريق المستقيم، و إن كان حقيراً فى بادية أمره لكنه لا يزال يبعد الإنسان من صراط الهدايه حتى يورده أوديه الهلكه.

و من هنا يظهر أن الترتيب الواقع فى صدر الآيه فى صورته الاشتراط و التنزل، أعنى قوله: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»، إنما هو جرى فى الكلام على مجرى الطبع و العاده، و ليس إلزاماً للمؤمنين

على الترتيب بمعنى أن يتوقف جواز نكاح الأمه على فقدان الاستطاعه على نكاح الحره بل لكون الناس بحسب طباعهم سالكين هذا المسلك خاطبهم أن لو لم يقدرُوا على نكاح الحرائر فلهم أن يقدموا على نكاح الفتيات من غير انقباض، ونبه مع ذلك على أن الحر و الرق من نوع واحد بعض أفراده يرجع إلى بعض.

و من هنا يظهر أيضا فساد ما ذكره بعضهم فى قوله تعالى فى ذيل الآيه: «وَ أَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ» أن المعنى و صبركم عن نكاح الإماء مع العفه خير لكم من نكاحهن لما فيه من الذل و المهانه و الابتذال، هذا، فإن قوله: «بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ» ينافى ذلك قطعاً.

قوله تعالى: «فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ» إلى قوله: «أَخْذَانٍ» المراد بالمحصنات العفائف فإن ذوات البعوله لا يقع عليهن نكاح، و المراد بالمسافحات ما يقابل متخذات الأخدان، الأخدان جمع خدن بكسر الخاء و هو الصديق، يستوى فيه المذكر و المؤنث و المفرد و الجمع، و إنما أتى به بصيغه الجمع للدلاله على الكثره نصاً، فمن يأخذ صديقاً للفحشاء لا يقنع بالواحد و الاثنى فيه لأن النفس لا تقف على حد إذا أطيعت فيما تهواه.

و بالنظر إلى هذه المقابله قال من قال: إن المراد بالسفاح الزنا جهراً و باتخاذ الخدن الزنا سراً، و قد كان اتخاذ الخدن متداولاً عند العرب حتى عند الأحرار و الحرائر لا يعاب به مع ذمهم زنا العلن لغير الإماء.

فقوله «فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ» إرشاد إلى نكاح الفتيات مشروطاً بأن يكون بإذن مواليهن فإن زمام أمرهن إنما هو بيد الموالى لا غير، و إنما عبر عنهم بقوله «أَهْلِهِنَّ» جرياً على ما يقتضيه قوله قبل: «بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ» فالفتاه واحده من أهل بيت مولاها و مولاها أهلها.

و المراد بإتيانهن أجورهن بالمعروف توفيتهن مهور نكاحهن و إتيان الأجور إياهن إعطاؤها مواليهن، و قد أرشد إلى الإعطاء بالمعروف عن غير بخس و مماطله و إيذاء.

قوله تعالى: «فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفٌ مَّا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ» قرئ أحصن بضم الهمزة بالبناء للمفعول و بفتح الهمزة بالبناء للفاعل، و هو الأرجح.

الإحصان فى الآيه إن كان هو إحصان الأزواج كان أخذه فى الشرط المجرد

كون مورد الكلام فى ما تقدم ازدواجهن، و ذلك أن الأمه تعذب نصف عذاب الحره إذا زنت سواء كانت محصنه بالازدواج أو لا من غير أن يؤثر الإحصان فيها شيئاً زائداً.

و أما إذا كان إحصان الإسلام كما قيل -و يؤيده قراءه فتح الهمزه- تم المعنى من غير مئونه زائده، و كان عليهن إذا زنين نصف عذاب الحرائر سواء كن ذوات بعوله أو لا.

و المراد بالعذاب هو الجلد دون الرجم لأن الرجم لا يقبل الانتصاف و هو الشاهد على أن المراد بالمحصنات الحرائر غير ذوات الأزواج المذكوره فى صدر الآيه. و اللام للعهد فمعنى الآيه بالجملة أن الفتيات المؤمنات إذا أتين بفاحشه و هو الزنا فعليهن نصف حد المحصنات غير ذوات الأزواج، و هو جلد خمسين سوطاً.

و من الممكن أن يكون المراد بالإحصان إحصان العفه، و تقريره أن الجوارى يومئذ لم يكن لهن الاشتغال بكل ما تهواه أنفسهن من الأعمال بما لهن من اتباع أوامر موليهن و خاصه فى الفاحشه و الفجور و كانت الفاحشه فيهن -لو اتفقت- بأمر من موليهن فى سبيل الاستغلال بهن و الاستدرار من عرضهن كما يشعر به النهى الوارد فى قوله تعالى: **وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَانِكُمْ عَلَىٰ الْبِغَاءِ إِنِ ارْتَدْنَ تَحْصُنًا**: «النور: ٣٣» فالتماسهن الفجور و اشتغالهن بالفحشاء باتخاذها عاده و مكسبا كان فيما كان بأمر موليهن من دون أن يسع لهن الاستنكاف و التمرد، و إذا لم يكرههن المولى على الفجور فالمؤمنات منهن على ظاهر تقوى الإسلام، و عفه الإيمان، و حينئذ إن أتين بفاحشه فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب، و هو قوله تعالى: **فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ** «الخ».

و من هنا يظهر أن لا- مفهوم لهذه الشرطيه على هذا المعنى و ذلك أنهم إذا لم يحصن و لم يعففن كن مكرهات من قبل موليهن مؤتمرات لأمرهم كما لا مفهوم لقوله تعالى: **وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَانِكُمْ عَلَىٰ الْبِغَاءِ إِنِ ارْتَدْنَ تَحْصُنًا**: «النور: ٣٣» حيث إنهن إن لم يردن التحصن لم يكن موضوع لإكراههن من قبل المولى لرضاهن بذلك فافهم.

قوله تعالى: «ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ» العنت الجهد و الشده و الهلاك، و كان المراد به الزنا الذى هو نتيجة وقوع الإنسان فى مشقه الشيق و جهد شهوه النكاح و فيه هلاك الإنسان. و الإشاره على ما قيل: إلى نكاح الجوارى المذكور فى الآيه، و عليه فمعنى قوله «وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ» أن تصبروا عن نكاح الإمام أو عن الزنا خير لكم. و يمكن أن يكون ذلك إشاره إلى وجوب نكاح الإمام أو وجوب مطلق النكاح لو استفيد شىء منهما من سابق سياق الآيه و الله أعلم.

و كيف كان فكون الصبر خيرا إن كان المراد هو الصبر عن نكاح الإمام إنما هو لما فيه من حقوق مواليهن و فى أولادهن على ما فصل فى الفقه، و إن كان المراد الصبر عن الزنا إنما هو لما فى الصبر من تهذيب النفس و تهيئه ملكه التقوى فيها بترك اتباع هواها فى الزنا من غير ازدواج أو معه، و الله غفور رحيم يمحو بمغفرته آثار خطرات السوء عن نفوس المتقين من عباده و يرحمهم برحمته.

قوله تعالى: «يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ» إلى آخر الآيه، بيان و إشاره إلى غايه تشريع ما سبق من الأحكام فى الآيات الثلاث و المصالح التى تترتب عليها إذا عمل بها فقوله:

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ

أى أحكام دينه مما فيه صلاح دنياكم و عقباكم، و ما فى ذلك من المعارف و الحكم و على هذا فمعمول قوله: لِيُذَيِّبَ محذوف للدلاله على فخامه أمره و عظم شأنه، و يمكن أن يكون قوله: لِيُذَيِّبَ لَكُمْ، و قوله: وَ يَهْدِيكُمْ متنازعين فى قوله، سُنَّ الدِّينِ .

قوله تعالى: «وَيَهْدِيكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» أى طرق حياه السابقين من الأنبياء و الأمم الصالحه، الجارين فى الحياه الدنيا على مرضاه الله، الحائزين به سعادته الدنيا و الآخرة، و المراد بسننهم على هذا المعنى سننهم فى الجملة لا سننهم بتفاصيلها و جميع خصوصياتها فلا يرد عليه أن من أحكامهم ما تنسخه هذه الآيات بعينها كازدواج الإخوه بالأخوات فى سنه آدم، و الجمع بين الأختين: فى سنه يعقوب (ع)، و قد جمع (ع) بين الأختين ليا أم يهودا و راحيل أم يوسف على ما فى بعض الأخبار، هذا.

و هنا معنى آخر قيل به، و هو أن المراد الهدايه إلى سنن جميع السابقين سواء كانوا على الحق أو على الباطل، يعنى أنا بينا لكم جميع السنن السابقه من حق و باطل لتكونوا على بصيره فتأخذوا بالحق منها و تدعوا الباطل.

و هذا معنى لا بأس به غير أن الهدايه فى القرآن غير مستعمله فى هذا المعنى، و إنما استعمل فيما استعمل فى الإيصال إلى الحق أو إرادته الحق كقوله: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ: «القصص: ٥٦» و قوله: إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَ إِمَّا كَفُورًا: «الإنسان: ٣» و الأوفق بمذاق القرآن أن يعبر عن أمثال هذه المعانى بلفظ التبيين و القصص و نحو ذلك.

نعم لو جعل قوله بين و قوله: وَ يَهْدِيكُمْ مَنَازِعِينَ فى قوله: «سُنَّ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ» و قوله: وَ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ أيضا راجعا إليه، و آل المعنى إلى أن الله يبين لكم سنن الذين من قبلكم، و يهديكم إلى الحق منها، و يتوب عليكم فيما ابتليتم به من باطلها كان له وجه فإن الآيات السابقه فيها ذكر من سنن السابقين و الحق و الباطل منها، و التوبه على ما قد سلف من السنن الباطله.

قوله تعالى: «وَ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» التوبه المذكوره هو رجوعه إلى عبده بالنعمة و الرحمه، و تشريع الشريعة، و بيان الحقيقه، و الهدايه إلى طريق الاستقامه كل ذلك توبه منه سبحانه كما أن قبول توبه العبد و رفع آثار المعصيه توبه.

و تذييل الكلام بقوله: وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ليكون راجعا إلى جميع فقرات الآيه، و لو كان المراد رجوعه إلى آخر الفقرات لكان الأنسب ظاهرا أن يقال: وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

قوله تعالى: «وَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَ يُرِيدُ الَّذِينَ» إلخ، كان تكرار ذكر توبته للمؤمنين للدلاله على أن قوله: «وَ يُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا» إنما يقابل من الفقرات الثلاث فى الآيه السابقه الفقره الأخيره فقط، إذ لو ضم قوله: وَ يُرِيدُ الَّذِينَ «إلخ» إلى الآيه السابقه من غير تكرار قوله: وَ اللَّهُ يُرِيدُ «إلخ» أفاد المقابله فى معنى جميع الفقرات و لغا المعنى قطعاً.

و المراد بالميل العظيم هتك هذه الحدود الإلهيه المذكوره فى الآيات بإتيان المحارم، و إلغاء تأثير الأنساب و الأسباب، و استباحه الزنا و المنع عن الأخذ بما سنه الله من السنه القويمه.

قوله تعالى: «يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَ خُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا» كون الإنسان

ضعيفا لما ركب الله فيه القوى الشهويه التي لا- تزال تنازعه في ما تتعلق به من المشتهيات، و تبعته إلى غشيانها فمن الله عليهم بتشريع حليه ما تنكسر به سوره شهوتهم بتجوزيز النكاح بما يرتفع به غائله الحرج حيث قال: «وَأُجِّلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ» و هو النكاح و ملك اليمين فهداهم بذلك سنن الذين من قبلهم، و زادهم تخفيفا منه لهم لتشريع نكاح المتعه إذ ليس معه كلفه النكاح و ما يستتبعه من أثقال الوظائف من صداق و نفقه و غير ذلك.

و ربما قيل: إن المراد به إباحه نكاح الإماء عند الضروره تخفيفا. و فيه:

أن نكاح الإماء عند الضروره كان معمولا به بينهم قبل الإسلام على كراهه و ذم، و الذي ابتدعته هذه الآيات هو التسبب إلى نفى هذه الكراهه و النفره ببيان أن الأمه كالحره إنسان لا تفاوت بينهما، و أن الرقيه لا توجب سقوط صاحبها عن لياقه المصاحبه و المعاشره.

و ظاهر الآيات- بما لا ينكر- أن الخطاب فيها متوجه إلى المؤمنين من هذه الأمه فالتخفيف المذكور في الآيه تخفيف على هذه الأمه، و المراد به ما ذكرناه.

و على هذا فتعليل التخفيف بقوله: «و خُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا» مع كونه وصفا مشتركا بين جميع الأمم- هذه الأمه و الذين من قبلهم- و كون التخفيف مخصوصا بهذه الأمه إنما هو من قبيل ذكر المقتضى العام و السكوت عما يتم به في تأثيره فكأنه قيل: إنا خففنا عنكم لكون الضعف العام في نوع الإنسان سببا مقتضيا للتخفيف لو لا- المانع لكن لم تزل الموانع تمنع عن فعلية التخفيف و انبساط الرحمه في سائر الأمم حتى وصلت النوبه إليكم فعمتكم الرحمه، و ظهرت فيكم آثاره فبرز حكم السبب المذكور و شرع فيكم حكم التخفيف و قد حرمت الأمم السابقه من ذلك كما يدل عليه قوله: رَبَّنَا وَ لَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِضْرَارًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا «البقره: ٢٨٦»، و قوله: هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَ مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ «الحج: ٧٨».

و من هنا يظهر أن النكته في هذا التعليل العام بيان ظهور تمام النعم الإنسانيه في هذه الأمه.



عن النبى ص: إن الله حرم من الرضاعة ما حرم من النسب ،

و عنه(ص):

الرضاع لحمه كلحمه النسب.

و فى الدر المنثور، أخرج مالك و عبد الرزاق عن عائشه قالت<sup>1</sup>: كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات-فسخن بخمس معلومات-فتوفى رسول الله ص و هن فيما يقرأ من القرآن.

أقول: و روى فيه عنها ما يقرب منه بطرق أخرى، و هى من روايات التحريف مطروحه بمخالفه الكتاب.

و فيه أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و البيهقى فى سننه من طريقين عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى ص قال<sup>2</sup>: إذا نكح الرجل المرأة-فلا يحل له أن يتزوج أمها دخل بالابنه أو لم يدخل، و إذا تزوج الأم فلم يدخل بها-ثم طلقها فإن شاء تزوج الابنه.

أقول: و هذا المعنى مروى من طرق الشيعة عن أئمه أهل البيت(ع)، و هو مذهبهم و هو المستفاد من الكتاب كما مر فى البيان المتقدم

و قد روى من طرق أهل السنه عن على(ع)<sup>3</sup>: أن أم الزوجه لا بأس بنكاحها قبل الدخول بالبنت، و أنها بمنزله الربيبه، و أن الربيبه إذا لم تكن فى حجر زوج أمها-لم يحرم عليه نكاحها ، و هذه أمور يدفعها المروى عنهم(ع) من طرق الشيعة.

و فى الكافى، بإسناده عن منصور بن حازم قال<sup>4</sup>: كنت عند أبى عبد الله(ع)- فأتاه رجل فسأله عن رجل تزوج امرأه-فماتت قبل أن يدخل بها أ يتزوج بأمرها؟ فقال أبو عبد الله(ع): قد فعله رجل منا فلم ير به بأساً، فقلت جعلت فداك ما تفتخر الشيعة إلا بقضاء على(ع)- فى هذا فى المشيخه [\(1\)](#) التى أفتاه ابن مسعود أنه لا بأس به بذلك.

ص: ٢٨٣

---

(١-١) لعل الصحيح: الشمخى لما فى بعض أخبار أهل السنه أنه كان رجلا من بنى شمش، أو الصحيح فى الشمخيه التى أفتى ابن مسعود.

ثم أتى علياً (ع) فسأله فقال له علي (ع): من أين يأخذها؟ (١) فقال من قول الله عز وجل: وَرَبِّائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ، فقال علي (ع): إن هذه مستثناه وهذه مرسله، فقال أبو عبد الله (ع) للرجل: أما تسمع ما يروى هذا عن علي (ع)؟.

فلما قمت ندمت و قلت: أى شىء صنعت؟ يقول: قد فعله رجل منا و لم ير به بأساً، و أقول أنا: قضى علي (ع) فيها! فلقيته بعد ذلك و قلت: جعلت فداك - مسأله الرجل إنما كان الذى قلت كان زله منى فما تقول فيها؟ فقال: يا شيخ تخبرنى أن علياً (ع) قضى فيها، و تسألنى ما تقول فيها؟.

أقول: و قصه قضائه (ع) فى فتوى ابن مسعود على

ما رواه فى الدر المنثور، عن سنن البيهقى و غيره\*: أن رجلاً من بنى شمش تزوج امرأة و لم يدخل بها - ثم رأى أمها فأعجبته - فاستفتى ابن مسعود فأمره أن يفارقها - ثم يتزوج أمها ففعل و ولدت له أولاداً، ثم أتى ابن مسعود المدينة فقيل له لا تصلح - فلما رجع إلى الكوفة قال للرجل: أنها عليك حرام ففارقها.

لكن لم ينسب القول فيه إلى علي (ع) بل ذكر: أنه سأل عنه أصحاب النبى ص، و فى لفظ: أنه سأل عنه عمر و فى بعض الروايات: فأخبر أنه ليس كما قال، و أن الشرط فى الربائب.

و فى الإستبصار، بإسناده عن إسحاق بن عمار عن جعفر عن أبيه\*: أن علياً (ع) كان يقول: الربائب عليكم حرام مع الأمهات اللاتي دخلتم بهن - فى الحجور و غير الحجور سواء، و الأمهات مبهمات دخل بالبنات أم لم يدخل، فحرموا و أبهموا ما أبهم الله.

أقول: و قد عزى إليه (ع) فى بعض الروايات من طرق أهل السنه اشتراط الحجور فى حرمه الربائب لكن الروايات المأثوره عن أئمه أهل البيت (ع) تدفعه، و هو الموافق لما يستفاد من الآيه كما تقدم.

و المبهمات من البهمة و هى كون الشىء ذا لون واحد لا يختلط به لون آخر و

ص: ٢٨٤

لا- يختلف فى لونه سمدى به من طبقات النساء المحرمه من كانت حرمه نكاحها مرسله غير مشروطه، وهى الأمهات و البنات و الأخوات و العمات و الخالات و بنات الأخ و بنات الأخت و ما كان من الرضاعه، و أمهات النساء، و حلائل الأبناء.

و فيه، بإسناده عن زراره عن أبي جعفر (ع) قال\*: سألته عن الرجل تكون له الجارية فيصيب منها، أله أن ينكح ابنتها؟ قال: لا هي كما قال الله تعالى: وَرَبَّائِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ .

و فى تفسير العياشى، عن أبى عون قال سمعت أبا صالح الحنفى قال\*: قال على (ع) ذات يوم: سلونى، فقال ابن الكوا أخبرنى عن بنت الأخت من الرضاعه، و عن المملوكتين الأختين، فقال: إنك لذهاب فى التيه سل عما يعنك أو ينفعك، فقال ابن الكوا إنما نسألك عما لا- نعلم- و أما ما نعلم فلا- نسألك عنه، ثم قال: أما الأختان المملوكتان أحلتهما آيه و حرمتها آيه، و لا أحله و لا أحرمه، و لا أفعله أنا و لا واحد من أهل بيتى.

و فى التهذيب، بإسناده عن معمر بن يحيى بن سالم قال\*: سألتنا أبا جعفر (ع)- عما يروى الناس عن أمير المؤمنين (ع) عن أشياء- لم يكن يأمر بها و لا ينهى إلا نفسه و ولده- فقلت: كيف يكون ذلك؟ قال: قد أحلتها آيه و حرمتها آيه أخرى، فقلنا:

الأول أن يكون إحداهما نسخت الأخرى- أم هما محكمتان ينبغى أن يعمل بهما؟ فقال:

قد بين لهم إذ نهى نفسه و ولده، قلنا: ما منعه أن يبين ذلك للناس؟ قال: خشى أن لا يطاع، فلو أن أمير المؤمنين ثبتت قدماه أقام كتاب الله كله و الحق كله.

أقول: و الروايه المنقوله عنه (ع) هى التى نقلت عنه (ع) من طرق أهل السنه كما رواه فى الدر المنثور، عن البيهقى و غيره عن على بن أبى طالب قال فى الأختين المملوكتين، أحلتها آيه، و حرمتها آيه، و لا أمر و لا أنهى، و لا أحل و لا أحرم، و لا أفعله أنا و لا أهل بيتى.

و روى فيه، أيضا عن قبيصه بن ذؤيب\*: أن رجلا سأله (ع) عن ذلك فقال: لو كان إلى من الأمر شيء- ثم وجدت أحدا فعل ذلك لجعلته نكالا.

و فى التهذيب، بإسناده عن عبد الله بن سنان قال\*: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول:

إذا كانت عند الإنسان المملوكتان فنكح إحداهما- ثم بدا له في الثانيه فليس ينبغي له أن ينكح الأخرى-حتى تخرج الأولى من ملكه يهبها أو يبيعها، فإن وهبها لولده يجزيه.

و في الكافي، و تفسير العياشى، عن محمد بن مسلم قال\*: سألت أبا جعفر(ع) عن قوله عز و جل: وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ- قال: هو أن يأمر الرجل عبده و تحته أمتة- فيقول له: اعترل امرأتك و لا تقربها- ثم يحبسها عنه حتى تحيض ثم يمسه- فإذا حاضت بعد مسه إياها ردها عليه بغير نكاح.

و في تفسير العياشى، عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أحدهما(ع)\*: في قول الله: وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ قال: هن ذوات الأزواج إلا- ما ملكت أيمانكم- إن كنت زوجت أمتك غلامك نزعته منه إذا شئت، فقلت أ رأيت إن زوج غير غلامه؟ قال ليس له أن ينزع حتى تباع، فإن باعها صار بضعها في يد غيره- فإن شاء المشتري فرق، و إن شاء أقر.

و في الدر المنثور، أخرج أحمد و أبو داود و الترمذى- و حسنه- و ابن ماجه عن فيروز الديلمى\*: أنه أدركه الإسلام و تحته أختان، فقال له النبي ص: طلق أيتهما شئت.

و فيه، أخرج ابن عبد البر في الاستذكار عن إياس بن عامر قال\*: سألت على بن أبي طالب- فقلت: إن لى أختين مما ملكت يمينى- اتخذت إحداهما سريه و ولدت لى أولادا- ثم رغبت فى الأخرى فما أصنع؟ قال: تعتق التى كنت تطأ ثم تطأ الأخرى.

ثم قال: إنه يحرم عليك مما ملكت يمينك- ما يحرم عليك فى كتاب الله من الحرائر إلا العدد- أو قال: إلا الأربع، و يحرم عليك من الرضاع ما يحرم عليك فى كتاب الله من النسب:

أقول: و رواه بطرق آخر غير هذا الطريق عنه.

و فى صحيحى البخارى و مسلم، عن أبى هريره قال\*: قال رسول الله ص: لا يجمع بين المرأه و عمتها، و لا بين المرأه و خالتها.

أقول: وهذا المعنى مروى بغير الطريقتين من طرق أهل السنه، لكن المروى من طرق أئمه أهل البيت خلاف ذلك، و الكتاب يساعده.

و فى الدر المنثور، أخرج الطيالسى و عبد الرزاق و الفريابى و ابن أبى شيبه و أحمد و عبد بن حميد و مسلم و أبو داود و الترمذى و النسائى و أبو يعلى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطحاوى و ابن حيان و البيهقى فى سننه عن أبى سعيد الخدرى\*: أن رسول الله ص بعث يوم حنين جيشا إلى أوطاس-فلقوا عدوا فقاتلوهم فظهروا عليهم و أصابوا لهم سبايا-فكان ناسا من أصحاب رسول الله ص-تخرجوا من غشيانهن من أجل أزواجهن من المشركين-فأنزل الله فى ذلك: «وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» يقول: إلا ما أفاء الله عليكم، فاستحللنا بذلك فروجهن:

أقول: و روى ذلك عن الطبرانى عن ابن عباس.

و فيه، أخرج عبد بن حميد عن عكرمه\*: أن هذه الآية التى فى سورة النساء:

«وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»

-نزلت فى امرأه يقال لها معاذة، و كانت تحت شيخ من بنى سدوس-يقال له: شجاع بن الحارث، و كان معها ضره لها قد ولدت لشجاع أولادا رجالا، و أن شجاعا انطلق يميم أهله من هجر، فمر بمعاذة ابن عم لها فقالت له: احملنى إلى أهلى فإنه ليس عند هذا الشيخ خير، فاحتملها فانطلق بها فوافق ذلك جيئه الشيخ، فانطلق إلى رسول الله ص فقال: يا رسول الله و أفضل العرب، إنى خرجت أبغيتها الطعام فى رجب، فتولت و ألت بالذنب، و هى شر غالب لمن غلب، رأيت غلاما واركأ على قتب، لها و له أرب، فقال رسول الله ص: على على، فإن كان الرجل كشف بها ثوبا فارجموها، و إلا فردوا إلى الشيخ امرأته، فانطلق مالك بن شجاع و ابن ضرتهما فطلبها فجاء بها، و نزلت بيتها.

أقول: و قد مر مرارا أن أمثال هذه الأسباب المرويه للنزول و خاصه فيما كانت متعلقه بأبعاض الآيات و أجزاءها تطبيقات من الرواه و ليست بأسباب حقيقه.

فى الفقيه، \*سئل الصادق (ع) عن قول الله عز و جل: وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ قال:

هن ذوات الأزواج، فقيل: وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ، قال هن العفائف:

أقول: ورواه العياشى أيضا عنه (ع).

و فى المجمع، \*فى قوله تعالى: وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا - أى من لم يجد منكم غنى قال: و هو المروى عن أبى جعفر (ع):

و فى الكافى، عن الصادق (ع) قال: \*لا- ينبغى أن يتزوج الحر المملوكه اليوم، إنما كان ذلك حيث قال الله عز و جل: وَ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا، و الطول المهر، و مهر الحره اليوم مهر الأمه أو أقل.

أقول: الغنى أحد مصاديق الطول كما تقدم، و الروايه لا تدل على أزيد من الكراهه.

و فى التهذيب، بإسناده عن أبى العباس البقباق قال: \*قلت لأبى عبد الله (ع):

يتزوج الرجل الأمه بغير علم أهلها؟ قال: هو زنا، إن الله تعالى يقول: فانكحوهن بإذن أهلهن.

و فيه، بإسناده عن أحمد بن محمد بن محمد بن أبى نصر قال: \*سألت الرضا (ع) يتمتع بالأمه بإذن أهلها؟ قال: نعم إن الله عز و جل يقول: فَانكحوهنَّ بإذنِ أهلِهِنَّ .

و فى تفسير العياشى، عن محمد بن مسلم عن أحدهما (ع) قال: \*سألته عن قول الله فى الإمام «فَإِذَا أُحْصِنَتْ» ما إحصانهن؟ قال: يدخل بهن، قلت: فإن لم يدخل بهن ما عليهن حد؟ قال: بلى.

و فيه، عن حريز قال: \*سألته عن المحصن فقال: الذى عنده ما يغنيه.

و فى الكافى، بإسناده عن محمد بن قيس عن أبى جعفر (ع) قال: \*قضى أمير المؤمنين (ع) فى العبيد و الإمام - إذا زنا أحدهم أن يجلد خمسين جلده - إن كان مسلما أو كافرا أو نصرانيا، و لا يرجم و لا ينفى.

و فيه، بإسناده عن أبى بكر الحضرمى عن أبى عبد الله (ع) \*عن عبد مملوك قذف حرا - قال: يجلد ثمانين، هذا من حقوق الناس، فأما ما كان من حقوق الله عز و جل - فإنه يضرب نصف الحد.

قلت: الذى من حقوق الله عز و جل ما هو؟ قال: إذا زنا أو شرب خمرا،

فهذا من الحقوق التي يضرب عليها نصف الحد.

و في التهذيب، بإسناده عن بريد العجلي عن أبي جعفر (ع):\* في الأمة تزنى قال:

تجلد نصف الحد كان لها زوج أو لم يكن.

و في الدر المنثور، أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال\*: المسافحات المعلنات بالزنا المتخذات أخذان ذات الخليل الواحد، قال: كان أهل الجاهلية يحرمون ما ظهر من الزنا-و يستحلون ما خفى، يقولون: أما ما ظهر منه فهو لؤم، و أما ما خفى فلا بأس بذلك، فأنزل الله: **وَلَا تَقْرَبُوا الْقَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ .**

أقول: و الروايات فيما تقدم من المعاني كثيرة اقتصرنا منها على أنموذج يسير.

### بحث آخر روائي

في الكافي، بإسناده عن أبي بصير قال\*: سألت أبا جعفر (ع) عن المتعة، فقال:

نزلت في القرآن: **فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً - وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ .**

و فيه، بإسناده عن ابن أبي عمير عن ذكره عن أبي عبد الله (ع)، قال\*: إنما نزلت: فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى - فآتوهن أجورهن فريضة:

أقول: و روى هذه القراءة العياشي عن أبي جعفر (ع)، و رواها الجمهور بطرق عديدة عن أبي بن كعب و عبد الله بن عباس كما سيأتي\*: و لعل المراد بأمثال هذه الروايات الدلالة على المعنى المراد من الآية دون النزول اللفظي.

و فيه، بإسناده عن زراره قال\*: جاء عبد الله بن عمير الليثي إلى أبي جعفر (ع) - فقال له: ما تقول في متعة النساء؟ فقال: أحلها الله في كتابه و على لسان نبيه - فهي حلال إلى يوم القيامة، فقال: يا أبا جعفر مثلك يقول هذا - و قد حرمها عمر و نهى عنها؟ فقال: و إن كان فعل. فقال: إني أعيدك بالله من ذلك أن تحل شيئاً حرمه عمر.

قال: فقال له: فأنت على قول صاحبك، و أنا على قول رسول الله ص،

فهلهم ألاعنك أن القول ما قال رسول الله ص، و أن الباطل ما قال صاحبك، فأقبل عبد الله بن عمير فقال: أيسرك أن نساءك و بناتك و أخواتك و بنات عمك يفعلن؟ قال: فأعرض عنه أبو جعفر (ع) حين ذكر نساءه و بنات عمه.

و فيه، بإسناده عن أبي مريم عن أبي عبد الله (ع) قال\*: المتعه نزل بها القرآن و جرت بها السنه من رسول الله ص.

و فيه، بإسناده عن عبد الرحمن بن أبي عبد الله قال\*: سمعت أبا حنيفة يسأل أبا عبد الله (ع) عن المتعه. فقال: أي المتعتين تسأل؟ قال: سألتك عن متعه الحج-فأبئني عن متعه النساء أ حق هي؟ فقال: سبحان الله أ ما قرأت كتاب الله عز و جل: **فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً** -فقال: و الله كأنها آيه لم أقرأها قط.

و فى تفسير العياشى، عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر (ع) قال\*: قال جابر بن عبد الله عن رسول الله ص -أنهم غزوا معه فأحل لهم المتعه و لم يحرمها، و كان على يقول: لو لا- ما سبقنى به ابن الخطاب-يعنى عمر- ما زنى إلا شقى (1). و كان ابن عباس يقول: فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى-فآتوهن أجورهن فريضة، و هؤلاء يكفرون بها، و رسول الله ص أحلها و لم يحرمها.

و فيه، عن أبي بصير عن أبي جعفر (ع) \*فى المتعه قال: نزلت هذه الآية: **فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً** -و لا جناح عليكم فيما تراضيتنم به من بعد الفريضة. قال: لا بأس بأن تزيدها و تزيدك إذا انقطع الأجل فيما بينكما، يقول:

استحللتك بأجل آخر برضى منها. و لا تحل لغيرك حتى تنقضى عدتها، و عدتها حيضتان.

و عن الشيبانى، \*فى قوله تعالى: **«و لا جناح عليكم فيما تراضيتنم به من بعد الفريضة»** :

عن أبي جعفر و أبي عبد الله (ع) أنهما قالوا\*: هو أن يزيدها فى الأجره، و تزيده فى الأجل.

ص: ٢٩٠



أقول: و الروايات فى المعانى السابقه مستفيضه أو متواتره عن أئمه أهل البيت (ع)، و إنما أوردنا طرفا منها، و على من يريد الاطلاع عليها جميعا أن يراجع جوامع الحديث.

(١)

و فى الدر المنثور، أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: " كان متعه النساء فى أول الإسلام، كان الرجل يقدم البلده ليس معه من يصلح له ضيعته، و لا- يحفظ متاعه فيتزوج المرأه إلى قدر ما يرى- أنه يفرغ من حاجته فتنظر له متاعه، و تصلح له ضيعته، و كان يقرأ: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى» نسختها: مُحْصَتَيْنِ غَيْرِ مُسَافِحِينَ ، و كان الإحصان بيد الرجل يمسه متى شاء، و يطلق متى شاء.

و فى مستدرک الحاكم، بإسناده عن أبى نصره قال: " قرأت على ابن عباس: فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً، قال ابن عباس: فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى، فقلت: ما نقرأها كذلك فقال ابن عباس: و الله لأنزلها الله كذلك:

أقول: و رواه فى الدر المنثور، عنه و عن عبد بن حميد و ابن جرير و ابن الأبارى فى المصاحف.

و فى الدر المنثور، أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن قتاده قال: " فى قراءة أبى بن كعب: فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى.

و فى صحيح الترمذى، عن محمد بن كعب عن ابن عباس قال: " إنما كانت المتعه فى أول الإسلام- كان الرجل يقدم البلده ليس له بها معرفه- فيتزوج المرأه بقدر ما يرى- أنه يقيم فيحفظ له متاعه و يصلح له شئنه- حتى إذا نزلت الآيه: «إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ» قال ابن عباس فكل فرج سوى هذين فهو حرام.

أقول: و لازم الخبر أنها نسخت بمكه لأن الآيه مكيه.

و فى مستدرک الحاكم، عن عبد الله بن أبى مليكه: " سألت عائشه رضى الله عنها عن متعه النساء- فقالت: بينى و بينكم كتاب الله. قال: و قرأت هذه الآيه:

ص: ٢٩١

(١-١) أخبار فى قراءة: إلى أجل مسمى.

وَ الَّذِينَ هُمْ لِرُؤُوسِهِمْ لَافِضُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ - أَوْ مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنْ ابْتغى وراء ما زوجته الله أو ملكه فقد عدا.

و في الدر المثور ، (١) أخرج أبو داود في ناسخه و ابن المنذر و النحاس من طريق عطاء عن ابن عباس \* في قوله: فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً - قال:

نسختها: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ - وَ الْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ - وَ اللَّائِي يَنْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ - إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ .

و فيه، أخرج أبو داود في ناسخه و ابن المنذر و النحاس و البيهقي عن سعيد بن المسيب قال \* : نسخت آية الميراث المتعه.

و فيه، أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر و البيهقي عن ابن مسعود قال \* : المتعه منسوخه نسخها الطلاق و الصدقه و العده و الميراث.

و فيه، أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر عن علي قال \* : نسخ رمضان كل صوم، و نسخت الزكاه كل صدقه، و نسخ المتعه الطلاق و العده و الميراث، و نسخت الضحيه كل ذبيحه.

و فيه، أخرج عبد الرزاق و أحمد و مسلم عن سبره الجهني (٢) قال \* : أذن لنا رسول الله ص عام فتح مكه في متعه النساء - فخرجت أنا و رجل من قومي، و لى عليه فضل فى الجمال، و هو قريب من الدمامه مع كل واحد منا برد، إما بردى فخلق، و إما برد ابن عمى فبرد جديد غض - حتى إذا كنا بأعلى مكه تلقنا فتاه مثل البكره العنطنطه - فقلنا: هل لك أن يستمتع منك أحدنا؟ قالت: و ما تبذلان؟ فنشر كل واحد منا برده فجعلت تنظر إلى الرجلين، فإذا رآها صاحبي قال: إن برد هذا خلق، و بردى جديد غض فتقول: و برد هذا لا بأس به، ثم استمتعت منها، فلم نخرج حتى حرمها رسول الله ص.

و فيه، أخرج مالك و عبد الرزاق و ابن أبى شيبه و البخارى و مسلم و الترمذى

ص: ٢٩٢

١- (١) جمله من الأخبار الداله على نسخ آية المتعه بالكتاب.

٢- (٢) جمله من الأخبار الداله على نسخ المتعه بالنسبه.

و النسائي و ابن ماجه عن على بن أبى طالب\*: أن رسول الله ص نهى عن متعه النساء يوم خيبر، و عن أكل لحوم الحمر الإنسيه.

و فيه، أخرج ابن أبى شيبه و أحمد و مسلم عن سلمه بن الأكوع قال " \* رخص لنا رسول الله ص فى متعه النساء عام أو طاس ثلاثة أيام- ثم نهى عنها بعدها.

و فى شرح ابن العربى، لصحيح الترمذى، عن إسماعيل عن أبيه عن الزهرى " \* : أن سبره روى أن النبى ص نهى عنها فى حجه الوداع ،

أخرجه أبو داود قال: و قد رواه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز عن الربيع بن سبره عن أبيه " \* : فذكر فيه: أنه كان فى حجه الوداع بعد الإحلال، و أنه كان بأجل معلوم، و قد قال الحسن: إنها فى عمره القضاء.

و فيه، عن الزهرى " \* : أن النبى ص جمع المتعه فى غزوه تبوك.

أقول: و الروايات كما ترى تختلف فى تشخيص زمان نهيه (ص) بين قائله أنه كان قبل الهجره، و قائله بأنه بعد الهجره بنزول آيات النكاح و الطلاق و العده و الميراث أو بنهى النبى ص عام خيبر أو زمن عمره القضاء أو عام أو طاس أو عام الفتح أو عام تبوك أو بعد حجه الوداع، و لذا حمل على تكرر النهى عنها مرات عديده، و إن كلا من الروايات تحدث عن مره منها لكن جلاله بعض رواتها كعلى و جابر و ابن مسعود مع ملازمتهم للنبى ص و خبرتهم بالخطير و اليسير من سيرته تأبى أن يخفى عليهم نواهيه (ص).

و فى الدر المنثور، أخرج البيهقى عن على قال \* : نهى رسول الله ص عن المتعه و إنما كانت لمن لم يجد- فلما نزل النكاح و الطلاق- و العده و الميراث بين الزوج و المرأه نسخت.

و فيه، أخرج النحاس عن على بن أبى طالب \* : أنه قال لابن عباس: إنك رجل تائه إن رسول الله ص نهى عن المتعه.

و فيه، أخرج البيهقى عن أبى ذر قال " \* : إنما أحلت لأصحاب رسول الله ص المتعه ثلاثة أيام- ثم نهى عنه رسول الله ص.

و فى صحيح البخارى، عن أبى جمره قال " \* : سئل ابن عباس عن متعه النساء فرخص فيها- فقال له مولى له: إنما كان ذلك و فى النساء قله و الحال شديد، فقال ابن عباس نعم.

و فى الدر المنثور، أخرج البيهقى عن عمر\* : أنه خطب فقال: ما بال رجال ينكحون هذه المتعه، وقد نهى رسول الله ص عنها لا أوتى بأحد نكحها إلا رجتمه.

وفيه، أخرج ابن أبى شيبه و أحمد و مسلم عن سبره قال\*: رأيت رسول الله ص قائما بين الركن و الباب و هو يقول: يا أيها الناس إني كنت أذنت لكم فى الاستمتاع - ألا و إن الله حرمها إلى يوم القيامة- فمن كان عنده منهن شىء فليخل سبيلها، و لا تأخذوا مما آتيتموهن شيئا.

وفيه، أخرج ابن أبى شيبه عن الحسن قال\*: و الله ما كانت المتعه إلا- ثلاثه أيام- أذن لهم رسول الله ص فيها، ما كانت قبل ذلك و لا بعد.

### (1)

و فى تفسير الطبرى، عن مجاهد\*: فما استمتعتم به منهن قال: يعنى نكاح المتعه.

وفيه، عن السدى\*: فى الآيه قال: هذه المتعه، الرجل ينكح المرأه بشرط إلى أجل مسمى- فإذا انقضت المده فليس له عليها سبيل، و هى منه بريئه، و عليها أن تستبرى ما فى رحمها، و ليس بينهما ميراث، ليس يرث واحد منهما صاحبه.

و فى صحيح البخارى و مسلم، و رواه فى الدر المنثور، عن عبد الرزاق و ابن أبى شيبه عن ابن مسعود قال\*: كنا نغزو مع رسول الله ص و ليس معنا نساؤنا، فقلنا:

ألا- نستخصى؟ فنهانا عن ذلك، و رخص لنا أن نتزوج المرأه بالثوب إلى أجل، ثم قرأ عبد الله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ .

و فى الدر المنثور، أخرج ابن أبى شيبه عن نافع\*: أن ابن عمر سئل عن المتعه فقال:

حرام- فقيل له: إن ابن عباس يفتى بها، قال فهلا ترمم بها فى زمان عمر.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن المنذر و الطبرانى و البيهقى من طريق سعيد بن جبير قال\*: قلت لابن عباس: ما ذا صنعت؟ ذهب الركاب بفتياك، و قالت فيه الشعراء، قال: و ما قالوا: قلت: قالوا:

أقول للشيخ لما طال مجلسه

يا صاح هل لك فى فتيا ابن عباس؟

هل لك فى رخصه الأطراف آنسه

تكون مثواك حتى مصدر الناس؟

---

١-١) جمله من الأخبار الداله على قول بعض الصحابه و التابعين عن المفسرين بجواز المتعه.

فقال: **إِنَّمَا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**، لا والله ما بهذا أفيت، ولا هذا أردت، ولا أحللتها إلا للمضطر، ولا أحللت منها إلا ما أحل الله من الميتة و الدم و لحم الخنزير.

و فيه، أخرج ابن المنذر من طريق عمار مولى الشريد قال **"\***: سألت ابن عباس عن المتعة أ سفاح هي أم نكاح؟ فقال: لا سفاح و لا نكاح، قلت: فما هي؟ قال: هي المتعة كما قال الله، قلت: هل لها من عده؟ قال: عدتها حيضه، قلت: هل يتوارثان قال: لا.

و فيه، أخرج عبد الرزاق و ابن المنذر، من طريق عطاء عن ابن عباس قال **"\***: يرحم الله عمر ما كانت المتعة إلا رحمه من الله رحم بها أمه محمد، و لو لا- نهيه عنها ما احتاج إلى الزنا إلا شقى، قال: و هي التي في سورة النساء: **فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ إِلَى كَذَا و كَذَا- من الأجل على كذا و كذا، قال: و ليس بينهما وراثته، فإن بدا لهما أن يتراضيا بعد الأجل فنعم، و إن تفرقا فنعم و ليس بينهما نكاح، و أخبر: أنه سمع ابن عباس:**

أنه يراها الآن حالاً.

و في تفسير الطبري، و رواه في الدر المنثور، عن عبد الرزاق و أبي داود في ناسخه عن الحكم **"\***: أنه سئل عن هذه الآية أ منسوخة؟ قال: لا، و قال علي: لو لا أن عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا شقى.

(١)

و في صحيح مسلم، عن جابر بن عبد الله قال **"\***: كنا نستمتع بالقبضه من التمر و الدقيق الأيام- على عهد رسول الله ص و أبي بكر- حتى نهى عنه عمر في شأن عمرو بن حريث:

أقول: و نقل عن جامع الأصول، لابن الأثير و زاد المعاد لابن القيم و فتح الباري لابن حجر و كنز العمال،.

و في الدر المنثور، أخرج مالك و عبد الرزاق عن عروه بن الزبير أن خوله بنت حكيم دخلت على عمر بن الخطاب، فقالت **"\***: إن ربيعه بن أمية استمتع بامرأه مولده فحملت منه، فخرج عمر بن الخطاب يجر رداءه فزعا، فقال: هذه المتعة، و لو كنت تقدمت فيها لرجمت:

أقول: و نقل عن الشافعي في كتاب الأم و البيهقي في السنن الكبرى.

ص: ٢٩٥

و عن كثر العمال، عن سليمان بن يسار عن أم عبد الله ابنة أبي خيثمه\*": أن رجلا قدم من الشام فنزل عليها، فقال: إن العزبه قد اشتدت على-فايغيني امرأه أتمتع معها، قالت: فدللته على امرأه-فشارطها و أشهدوا على ذلك عدولا، فمكث معها ما شاء الله أن يمكث، ثم إنه خرج فأخبر عن ذلك عمر بن الخطاب، فأرسل إلى فسألني أ حق ما حدثت؟ قلت: نعم-قال: فإذا قدم فأذنيني، فلما قدم أخبرته فأرسل إليه-فقال:

ما حملك على الذى فعلته؟ قال: فعلته مع رسول الله ص-ثم لم ينهنا عنه حتى قبضه الله-ثم معك فلم تحدث لنا فيه نهيا، فقال عمر: أما و الذى نفسى بيده-لو كنت تقدمت فى نهى لرجمتك، بينوا حتى يعرف النكاح من السفاح.

و فى صحيح مسلم، و مسند أحمد، عن عطاء\*": قدم جابر بن عبد الله معتمرا فجئناه فى منزله-فسأله القوم عن أشياء ثم ذكروا المتعه-فقال: استمتعنا على عهد رسول الله ص و أبى بكر و عمر، و فى لفظ أحمد: حتى إذا كان فى آخر خلافه عمر رضى الله عنه.

و عن سنن البيهقى، عن نافع عن عبد الله بن عمر\*": أنه سئل عن متعه النساء-فقال:

حرام أما إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه-لو أخذ فيها أحدا لرجمه بالحجاره.

و عن مرآه الزمان، لابن الجوزى": كان عمر رضى الله عنه يقول: و الله لا أوتى برجل أباح المتعه إلا رجمته.

و فى بدايه المجتهد، لابن رشد عن جابر بن عبد الله\*": تمتعنا على عهد رسول الله ص و أبى بكر-و نصفنا من خلافه عمر ثم نهى عنها عمر الناس.

و فى الإصابه، أخرج ابن الكلبي\*": أن سلمه بن أميه بن خلف الجمحى-استمتع من سلمى مولاه حكيم بن أميه بن الأوقص الأسلمى-فولدت له فجحد ولدها، فبلغ ذلك عمر فنهى عن المتعه.

و عن زاد المعاد، عن أيوب\*": قال عروه لابن عباس: ألا-تتقى الله ترخص فى المتعه؟ فقال ابن عباس: سل أمك يا عريه-فقال عروه: أما أبو بكر و عمر فلم يفعلوا، فقال ابن عباس: و الله ما أراكم منتهين حتى يعذبكم الله، نحدثكم عن النبى ص، و تحدثونا عن أبى بكر و عمر.

أقول: و أم عروه أسماء بنت أبي بكر تمتع منها الزبير بن العوام فولدت له عبد الله بن الزبير، و عروه.

و فى المحاضرات، للراغب " \*: غير عبد الله بن الزبير عبد الله بن عباس بتحليله المتعه - فقال له: سل أمك كيف سطعت المجامر بينها و بين أبيك؟ فسألها فقالت: ما ولدتك إلا فى المتعه.

و فى صحيح مسلم، عن مسلم القرى قال " \*: سألت ابن عباس عن المتعه فرخص فيها، و كان ابن الزبير ينهى عنها، فقال: هذه أم ابن الزبير تحدث أن رسول الله رخص فيها - فادخلوا عليها فاسألوها، قال: فدخلنا عليها فإذا امرأه ضخمه عمياء - فقالت: قد رخص رسول الله فيها.

أقول: و شاهد الحال المحكى يشهد أن السؤال عنها كان فى متعه النساء و تفسره الروايات الأخر أيضا.

و فى صحيح مسلم، عن أبي نضرة قال " \*: كنت عند جابر بن عبد الله فأتاه آت - فقال:

ابن عباس و ابن الزبير اختلفا فى المتعتين، فقال جابر: فعلناهما مع رسول الله ص، ثم نهانا عنهما عمر فلم نعد لهما:

أقول: و رواه البيهقى فى السنن، على ما نقل ،

و روى هذا المعنى فى صحيح مسلم، فى مواضع ثلاث بألفاظ مختلفة، و فى بعضها (قال جابر) \*: فلما قام عمر قال: إن الله كان يحل لرسوله ما شاء بما شاء، فأتموا الحج و العمره كما أمر الله، و انتهوا عن نكاح هذه النساء، لا أوتى برجل نكح امرأه إلى أجل إلا رجمته.

و روى هذا المعنى البيهقى فى سننه و فى أحكام القرآن، للجصاص و فى كنز العمال، و فى الدر المنثور، و فى تفسير الرازى، و مسند الطيالسى،

و فى تفسير القرطبي، عن عمر " \*: أنه قال فى خطبه: متعتان كانتا على عهد رسول الله (ع)، و أنا أنهى عنهما و أعاقب عليهما: متعه الحج و متعه النساء.

أقول: و خطبته هذه مما تسالم عليه أهل النقل، و أرسلوه إرسال المسلمات كما عن تفسير الرازى، و البيان و التبيين، و زاد المعاد، و أحكام القرآن، و الطبرى، و ابن عساكر و غيرهم.



و عن المستبين، للطبرى عن عمر: أنه قال " \*: ثلاث كن على عهد رسول الله ص - أنا محرمهن و معاقب عليهن: متعه الحج، و متعه النساء، و حى على خير العمل فى الأذان.

و فى تاريخ الطبرى، عن عمران بن سواده قال " \*: صليت الصبح مع عمر فقرأ سبحان و سوره معها، ثم انصرف و قمت معه، فقال: أ حاجه؟ قلت: حاجه، قال: فالحق، قال: فلحقت فلما دخل أذن لى - فإذا هو على سرير ليس فوقه شىء، فقلت: نصيحه، فقال: مرحبا بالناصح غدوا و عشيا، قلت، عابت أمتك أربعا، قال: فوضع رأس درته فى ذقنه، و وضع أسفلها فى فخذة، ثم قال: هات، قلت: ذكروا أنك حرمت العمره فى أشهر الحج - و لم يفعل ذلك رسول الله ص، و لا أبو بكر رضى الله عنه، و هى حلال، قال: هى حلال؟ لو أنهم اعتمروا فى أشهر الحج رأوها مجزيه من حجهم - فكانت قائبه قوب عامها فقرع حجهم، و هو بهاء من بهاء الله، و قد أصبت.

قلت: و ذكروا أنك حرمت متعه النساء، و قد كانت رخصه من الله، نستمتع بقبضه و نفارق عن ثلاث، قال: إن رسول الله ص أحلها فى زمان ضروره - ثم رجع الناس إلى السعه، ثم لم أعلم أحدا من المسلمين عمل بها و لا عاد إليها - فالآن من شاء نكح بقبضه، و فارق عن ثلاث بطلاق. و قد أصبت.

قال: قلت: و أعتقت الأمه - إن وضعت ذا بطنها بغير عتاقه سيدها، قال:

ألحقت حرمة بحرمة، و ما أردت إلا الخير، و أستغفر الله، قلت: و تشكو منك نهر الرعيه، و عنف السياق، قال: فشرع الدرره ثم مسحها حتى أتى على آخرها، ثم قال:

أنا زميل محمد - و كان زامله فى غزوه قرقه الكدر - فوالله إنى لأرتع فأشبع، و أسقى فأروى، و أنهز اللفو، و أزجر العروض، و أذب قدرى، و أسوق خطوى، و أضم العنود، و ألحق القطوف، و أكثر الزجر، و أقل الضرب، و أشهر العصا، و أدفع باليد لو لا ذلك لأعدرت.

قال: فبلغ ذلك معاويه فقال: كان و الله عالما برعيتهم:

أقول: و نقله ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغه، عن ابن قتيبه.

هذه عدده من الروايات الواردة فى أمر متعه النساء، و الناظر المتأمل الباحث يرى ما فيها من التباين و التضارب، و لا يتحصل للباحث فى مضامينها غير أن عمر بن

الخطاب أيام خلافته حرّمها ونهى عنها لرأى رآه فى قصص عمرو بن حرّث، وربيعة بن أمية بن خلف الجمحى، و أما حديث النسخ بالكتاب أو السنه فقد عرفت عدم رجوعه إلى محصل، على أن بعض الروايات يدفع البعض فى جميع مضامينها إلا فى أن عمر بن الخطاب هو الناهى عنها المجرى للمنع، المقرر حرمة العمل و حد الرجم لمن فعل -هذا أولا-.

و أنها كانت سنه معمولاً بها فى زمن النبى فى الجملة بتجويز منه (ص): إما إمضاء و إما تأسيساً، و قد عمل بها من أصحابه من لا يتوهم فى حقه السفاح كجابر بن عبد الله، و عبد الله بن مسعود، و الزبير بن العوام، و أسماء بنت أبى بكر، و قد ولدت بها عبد الله بن الزبير -و هذا ثانياً-.

و إن فى الصحابه و التابعين من كان يرى إباحتها كابن مسعود و جابر و عمرو بن حرّث و غيرهم، و مجاهد و السدى و سعيد بن جبير و غيرهم -و هذا ثالثاً-.

و هذا الاختلاف الفاحش بين الروايات هو المفضى للعلماء من الجمهور بعد الخلاف فيها من حيث أصل الجواز و الحرمة أولاً، إلى الخلاف فى نحو حرمتها و كيفيه منعها ثانياً و ذهابهم فيها إلى أقوال مختلفه عجيبه ربما أنهى إلى خمس عشر قولاً.

و إن للمسأله جهات من البحث لا يهمننا إلا الورود من بعضها، فهناك بحث كلامى دائر بين الطائفتين: أهل السنه و الشيعه، و بحث آخر فقهى فرعى ينظر فيها إلى حكم المسأله من حيث الجواز و الحرمة، و بحث آخر تفسيرى من حيث النظر فى قوله تعالى:

فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً

الآيه: هل مفاده تشريع نكاح المتعه؟ و هل هو بعد الفراغ عن دلالاته على ذلك منسوخ بشىء من الآيات كآيه المؤمنون أو آيات النكاح و التحريم و الطلاق و العده و الميراث؟ و هل هو منسوخ بسننه نبويه؟ و هل هو على تقدير تشريعه يشرع حكماً ابتدائياً أو حكماً إمضائياً؟ إلى غير ذلك.

و هذا النحو الثالث من البحث هو الذى نعقبه فى هذا الكتاب، و قد تقدم خلاصه القول فى ذلك فيما تقدم من البيان، و نزيده الآن توضيحاً بالافات النظر إلى بعض ما قيل فى المقام على دلالة الآيه على نكاح المتعه و تسنينها، ذلك بما ينافى ما مر فى البيان المتقدم.

قال بعضهم بعد إصراره على أن الآيه إنما سيقت لبيان إيفاء المهر فى النكاح الدائم: و ذهب الشيعة إلى أن المراد بالآيه نكاح المتعه، و هو نكاح المرأه إلى أجل معين كيوم أو أسبوع أو شهر مثلاً، و استدلوا على ذلك بقراءه شاذه رويت عن أبى و ابن مسعود و ابن عباس رضى الله عنهم، و بالأخبار و الآثار التى رويت فى المتعه.

قال: فأما القراءه فهى شاذه لم تثبت قرآناً، و قد تقدم أن ما صحت فيه الروايه من مثل هذا آحاداً فالزياده فيه من قبيل التفسير، و هو فهم لصاحبه، و فهم الصحابى ليس حجه فى الدين لا سيما إذا كان النظم و الأسلوب يأباه كما هنا، فإن المتمتع بالنكاح الموقت لا يقصد الإحصان دون المسافحه بل يكون قصده الأول المسافحه، فإن كان هناك نوع ما من إحصان نفسه و منعها من التنقل فى زمن الزنا، فإنه لا يكون فيه شىء ما من إحصان المرأه التى توجر نفسها كل طائفه من الزمن لرجل فتكون كما قيل:

كره حذف بصوالجه

فتلقاها رجل رجل

أقول: أما قوله: إنهم استدلوا على ذلك بقراءه ابن مسعود و غيره فكل مراجع يراجع كلامهم يرى أنهم لم يستدلوا بها استدلالهم بحجه معتبره قاطعه كيف و هم لا يرون حجه القراءات الشاذه حتى الشواذ المنقوله عن أئمتهم، فكيف يمكن أن يستدلوا بما لا يرونه حجه على من لا يراه حجه؟ فهل هذا إلا أضحوكه؟!.

بل إنما هو استدلال بقول من قرأ بها من الصحابه بما أنه قول منهم بكون المراد بالآيه ذلك، سواء كان ذلك منهم قراءه مصطلحه، أو تفسيراً دالاً على أنهم فهموا من لفظ الآيه ذلك.

و ذلك ينفعهم من جهتين: إحداهما: أن عدّه من الصحابه قالوا بما قال به هؤلاء المستدلون، و قد قال به -على ما نقل -جم غير من صحابه النبى ص و التابعين، و يمكن المراجع فى الحصول على صحه ذلك أن يراجع مظانه.

و الثانيه: أن الآيه داله على ذلك و يدل على ذلك قراءه هؤلاء من الصحابه كما يدل ما ورد عنهم فى نسخ الآيه أيضاً أنهم تسلموا دلالتها على نكاح المتعه حتى رأوا نسخها أو روى نسخها، و هى روايات كثيره تقدمت عدّه منها، فالشيعة يستفيدون من روايات النسخ كما يستفيدون من القراءه الشاذه المذكوره على حد سواء من دون أن

يقولوا بحجيه القراءه الشاذه كما لا يلزمهم القول بوقوع النسخ، وإنما يستفيدون من الجميع من جهه الدلاله على أن هؤلاء القراء و الرواه كانوا يرون دلالة الآيه على نكاح المتعه.

و أما قوله: لا سيما إذا كان النظم و الأسلوب يأباه كما هنا، فكلامه يعطى أنه جعل المراد من المسافحه مجرد سفح الماء و صبه- أخذنا بالأصل اللغوى المشتق منه- ثم جعله أمرا منوطا بالقصد، و لزمه أن الازدواج الموقت بقصد قضاء الشهوه و صب الماء سفاح لا نكاح، و قد غفل عن أن الأصل اللغوى فى النكاح أيضا هو الوقاع، ففى لسان العرب: قال الأزهري: أصل النكاح فى كلام العرب الوطء و لازم ما سلكه أن يكون النكاح أيضا سفاحا، و يختل به المقابله بين النكاح و السفاح.

على أن لازم القول بأن قصد صب الماء يجعل الازدواج الموقت سفاحا أن يكون النكاح الدائم بقصد قضاء الشهوه و صب الماء سفاحا، و هل يرضى رجل مسلم أن يفتى بذلك؟ فإن قال: بين النكاح الدائم و المؤجل فى ذلك فرق، فإن النكاح الدائم موضوع بطبعه على قصد الإحصان بالازدواج و إيجاد النسل، و تشكيل البيت بخلاف النكاح المؤجل. فهذا منه مكابره، فإن جميع ما يترتب على النكاح الدائم من الفوائد كصون النفس عن الزنا، و التوقى عن اختلال الأنساب، و إيجاد النسل و الولد، و تأسيس البيت يمكن أن يترتب على النكاح المؤجل، و يختص بأن فيه نوع تسهيل و تخفيف على هذه الأمه، يصون به نفسه من لا يقدر على النكاح الدائم لفقره أو لعدم قدرته على نفقه الزوجه، أو لغيره، أو لعوامل مختلفه أخر تمنعه عن النكاح الدائم.

و كذا كل ما يترتب على النكاح المؤجل- مما عده ملاكا للسفاح- كقصد صب الماء و قضاء الشهوه فإنه جائز الترتب على النكاح الدائم، و دعوى أن النكاح الدائم بالطبع موضوع للفوائد السابقه، و نكاح المتعه موضوع بالطبع لهذه المضار اللاحقه- على أن تكون مضارا- دعوى واضحه الفساد.

و إن قال: إن نكاح المتعه لما كان سفاحا كان زنا يقابل النكاح رد عليه: بأن السفاح الذى فسره بصب الماء أعم من الزنا، و ربما شمل النكاح الدائم و لا سيما إذا كان بقصد صب الماء.

و أما قوله: فإن كان هناك نوع ما من إحصان نفسه إلخ، فمن عجيب الكلام،

و ليت شعري ما الفرق الفارق بين الرجل و المرأة فى ذلك حتى يكون الرجل المتمتع يمكنه أن يحصن نفسه بنكاح المتعه من الزنا، و تكون المرأة لا يصح منها هذا القصد؟ و هل هذا إلا مجازفه.

و أما ما أنشده من الشعر فى بحث حقيقى يتعرض لكشف حقيقه من الحقائق الدينيه التى تتفرع عليها آثار هامه حيويه دنيويه و أخريه لا يستهان بها-سواء كان نكاح المتعه محرما أو مباحا-.

فما ذا ينفع الشعر و هو نسيج خيالى،الباطل أعرف عنده من الحق،و الغوايه أمس به من الهدايه.

و هلا أنشده فى ذيل ما مر من الروايات،و لا سيما فى ذيل قول عمر فى روايه الطبرى المتقدم:«فالآن من شاء نكح بقبضه و فارق عن ثلاث بطلاق».

و هل لهذا الطعن غرض يتوجه إليه إلا الله و رسوله فى أصل تشريع هذا النوع من النكاح تأسيسا أو إمضاء و قد كان دائرا بين المسلمين فى أول الإسلام بمرأى من النبى ص و مسمع بلا شك؟.

فإن قال:إنه(ص)إنما أذن فيه لقيام الضروره عليه من شمول الفقر و إكباب الفاقه على عامه المسلمين،و عروض الغزوات كما يظهر من بعض الروايات المتقدمه.

قلنا:مع فرض تداوله فى أول الإسلام بين الناس و شهرته باسم نكاح المتعه و الاستمتاع لا مناص من الاعتراف بدلاله الآيه على جوازه مع إطلاقها،و عدم صلاحيه شىء من الآيات و الروايات على نسخها فالقول بارتفاع إباحته تأول فى دلاله الآيه من غير دليل.

سلمنا أن إباحته كانت بإذن من النبى ص لمصلحه الضروره لكننا نسأل أن هذه الضروره هل كانت فى زمن النبى ص أشد و أعظم منها بعده،و لا- سيما فى زمن الراشدين،و قد كان يسير جيوش المسلمين إلى مشارق الأرض و مغاربها بالألوف بعد الألوف من الغزاه؟و أى فرق بين أوائل خلافه عمر و أواخرها من حيث تحول هذه الضروره من فقر و غزوه و اغتراب فى الأرض و غير ذلك؟و ما هو الفرق بين الضروره و الضروره؟.

و هل الضروره المبيحه اليوم و فى جو الإسلام الحاضر أشد و أعظم أو فى زمن

النبى ص و النصف الأول من عهد الراشدين؟ و قد أظل الفقر العام على بلاد المسلمين، و قد مصت حكومات الاستعمار و الدول القاهره المستعليه و الفراعنه من أولياء أمور المسلمين كل لبن فى ضرعهم، و حصدوا الرطب من زرعهم و اليايس.

و قد ظهرت الشهوات فى مظاهرها، و ازينت بأحسن زيتها و أجملها، و دعت إلى اقترافها بأبلغ دعوتها و لا يزال الأمر يشتد، و البليه تعم البلاد و النفوس، و شاعت الفحشاء بين طبقات الشبان من المتعلمين و الجنديين و عمله المعامل، و هم الذين يكونون المعظم من سواد الإنسانيه، و نفوس المعموره.

و لا- يشك شاك و لن يشك فى أن الضروره الموقعه لهم فى فحشاء الزنا و اللواط و كل انخلاع شهوانى عمدتها العجز من تهيئه نفقه البيت، و المشاغل الموقته المؤجله المانع من اتخاذ المنزل و النكاح الدائم بغريه أو خدمه أو دراسه و نحو ذلك. فما بال هذه الضرورات تبيح فى صدر الإسلام- و هى أقل و أهون عند القياس- نكاح المتعه لكنها لا تقوم للإباحه فى غير ذلك العهد و قد أحاطت البليه و عظمت الفتنه؟.

ثم قال: ثم إنه ينافى ما تقرر فى القرآن بمعنى هذا كقوله عز و جل فى صفه المؤمنين: **وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ**: «المؤمنون: ٧» أى المتجاوزون ما أحل الله لهم إلى ما حرمه عليهم، و هذه الآيات لا تعارض الآيه التى نفسرها يعنى قوله: **فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ الْآيَةَ**، بل هى بمعناها فلا نسخ، و المرأه المتمتع بها ليست زوجه فيكون لها على الرجل مثل الذى عليها بالمعروف، كما قال الله تعالى: **و قد نقل عن الشيعة أنفسهم أنهم لا يعطونها أحكام الزوجه و لوازمها، فلا يعدونها من الأربع اللواتى يحل للرجل أن يجمع بينها مع عدم الخوف من الجور بل يجوزون للرجل أن يتمتع بالكثير من النساء، و لا يقولون برجم الزانى المتمتع إذ لا يعدونه محصنا، و ذلك قطع منهم بأنه لا يصدق عليه قوله تعالى فى المستمتعين: «مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ» و هذا تناقض صريح منهم.**

و نقل عنهم بعض المفسرين: أن المرأه المتمتع بها ليس لها إرث و لا نفقه و لا طلاق و لا عده، و الحاصل أن القرآن بعيد من هذا القول، و لا دليل فى هذه الآيه و لا شبه دليل عليه البته.

أقول: أما قوله: ثم إنه ينافي ما تقرر في القرآن بمعنى هذا «إلخ»، محصله: أن آيات المؤمنون: وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ الآيات تقصر الحل في الأزواج، و المتمتع بها ليست زوجته، فالآيات مانعه من حليه المتعه، أولاً و مانعه من شمول قوله: فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ الآيه لها ثانياً.

فأما أن الآيات تحرم المتعه، فقد أغمض فيه عن كون الآيات مكيه، و المتعه كانت دائره بعد الهجره في الجملة، فهل كان رسول الله ص يبيح ما حرمه القرآن بإجازته المتعه؟ و قوله (ص) حجه بنص القرآن فيعود ذلك إلى التناقض في نفس القرآن، أو أن إباحته كانت ناسخه لآيات الحرمه: «وَ الَّذِينَ هُمْ» الآيات، ثم منع عنها القرآن أو النبي ص فحيث بذلك الآيات بعد موتها، و استحكمت بعد نسخها؟ و هذا أمر لا يقول به، و لا قال به أحد من المسلمين، و لا يمكن أن يقال به.

و هذا في نفسه نعم الشاهد على أن المتمتع بها زوجته، و أن المتعه نكاح، و أن هذه الآيات تدل على كون المتمتع تزوجاً، و إلا لزم أن تنتسخ بترخيص النبي ص، فالآيات حجه على جواز التمتع دون حرمة.

و بتقرير آخر: آيات المؤمنون و المعارج: وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ الآيات، أقوى دلالة على حليه المتعه من سائر الآيات، فمن المتفق عليه بينهم أن هذه الآيات محكمه غير منسوخه و هي مكيه، و من الضروري بحسب النقل أن النبي ص رخص في المتعه، و لو لا- كون المتمتع بها زوجته كان الترخيص بالضروره ناسخاً للآيات و هي غير منسوخه، فالتمتع زوجيه مشرعه فإذا تمت دلالة الآيات على تشريعه فما يدعى من نهى النبي ص عنها فاسد أيضاً لمنافاته الآيات، و استلزامه نسخها، و قد عرفت أنها غير منسوخه بالاتفاق.

و كيف كان فالمتمتع بها على خلاف ما ذكره زوجته و المتعه نكاح، و ناهيك في ذلك ما وقع فيما نقلناه من الروايات من تسميته في لسان الصحابه و التابعين بنكاح المتعه حتى في لسان عمر بن الخطاب في الروايات المشتمله على نهيه كروايه البيهقي عن عمر في خطبته، و روايه مسلم عن أبي نصره، حتى ما وقع من لفظه في روايه كثر العمال عن سليمان بن يسار: «بينوا حتى يعرف النكاح من السفاح» فإن معناه أن المتعه نكاح

لا يتبين من السفاح، وأنه يجب عليكم أن تبنوه منه فأتوا بنكاح يبين و يتميز منه، و الدليل على ذلك قوله: بينوا.

و بالجمله كون المتعه نكاحا و كون المتمتع بها زوجه في عرف القرآن و لسان السلف من الصحابه و من تلاهم من التابعين مما لا- ينبغي الارتياح فيه، و إنما تعين اللفظان (النكاح و التزويج) في النكاح الدائم بعد نهى عمر، و انتساح العمل به بين الناس فلم يبق مورد لصدق اللفظين إلا النكاح الدائم، فصار هو المتبادر من اللفظ إلى الذهن كسائر الحقائق المتشعبة.

و من هنا يظهر سقوط ما ذكره بعد ذلك فإن قوله: و قد نقل عن الشيعة أنفسهم أنهم لا- يعطونها أحكام الزوجه و لوازمها «إلخ»، يسأل عنه فيه: ما هو المراد بالزوجه؟ أما الزوجه في عرف القرآن فإنهم يعطونها أحكامها من غير استثناء، و أما الزوجه في عرف المتشعبة- كما ذكر- المعروفه في الفقه فإنهم لا يعطونها أحكامها و لا محذور.

و أما قوله: و ذلك قطع منهم بأنه لا يصدق عليه أى الزانى المتمتع قوله تعالى: «مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ» و هذا تناقض صريح منهم، ففيه أنا ذكرنا في ذيل الآيه فيما تقدم أن ظاهرها من جهة شمولها ملك اليمين أن المراد بالإحصان إحصان التعفف دون الأزواج، و لو سلم أن المراد بالإحصان إحصان الأزواج فالآيه شامله لنكاح المتعه، و أما عدم رجم الزانى المتمتع (مع أن الرجم ليس حكما قرآنيا) فإنما هو لبيان أو لتخصيص من السنه كسائر أحكام الزوجيه من الميراث و النفقه و الطلاق و العدد.

و توضيح ذلك أن آيات الأحكام إن كانت مسوقه على الإهمال لكونها وارده مورد أصل التشريع فما يطرأ عليها من القيود بيانات من غير تخصيص و لا تقييد، و إن كانت عمومات أو إطلاقات كانت البيانات الواردة في السنه مخصصات أو مقيدات من غير محذور التناقض و المرجع في ذلك علم أصول الفقه.

و هذه الآيات أعني آيات الإرث و الطلاق و النفقه كسائر الآيات لا تخلو من التخصيص و التقييد كالإرث و الطلاق في المرتبه و الطلاق عند ظهور العيوب المجوزه



لفسخ العقد و النفقه عند النشوز فلتخصص بالمتعه، فالبيانات المخرجه للمتعه عن حكم الميراث و الطلاق و النفقه مخصصات أو مقيدات، و تعين ألفاظ التزويج و النكاح و الإحصان و نحو ذلك فى الدوام من جهه الحقيقه المتشرعه دون الحقيقه الشرعيه فلا محذور أصلا كما توهمه فإذا قال الفقيه مثلا: الزانى المحصن يجب رجمه، و لا رجم فى الزانى المتمتع لعدم إحصانه فإنما ذلك لكونه يصطلح بالإحصان على دوام النكاح ذى الآثار الكذائيه، و لا- ينافى ذلك كون الإحصان فى عرف القرآن موجودا فى الدائمه و المنقطعه معا، و له فى كل منهما آثار خاصه.

و أما نقله عن بعضهم أن الشيعه لا تقول فى المتعه بالعهده ففريه بينه فهذه جوامع الشيعه، و هذه كتبهم الفقهيه مملوءه بأن عده المتمتع بها حيضتان، و قد تقدم بعض الروايات فى ذلك بطرق الشيعه عن أئمه أهل البيت (ع).

ثم قال: و أما الأحاديث و الآثار المرويّه فى ذلك فمجموعها يدل على أن النبى ص كان يرخص لأصحابه فيها فى بعض الغزوات ثم نهاهم عنها ثم رخص فيها مره أو مرتين ثم نهاهم عنها نهيا مؤبدا.

و أن الرخصه كانت للعلم بمشقه اجتناب الزنا مع البعد من نسائهم فكانت من قبيل ارتكاب أخف الضررين فإن الرجل إذا عقد على امرأه خليه نكاحا موقتا، و أقام معها ذلك الزمن الذى عينه فذلك أهون من تصديه للزنا بأيه امرأه يمكنه أن يستميلها.

أقول: ما ذكره أن مجموع الروايات تدل على الترخيص فى بعض الغزوات ثم النهى ثم الترخيص فيها مره أو مرتين ثم النهى المؤبد لا ينطبق على ما تقدم من الروايات على ما فيها من التدافع و التطارد فعليك بالرجوع إليها (و قد تقدم أكثرها) حتى ترى أن مجموعها يكذب ما ذكره من وجه الجمع حرفا حرفا.

ثم قال: و يرى أهل السنه أن الرخصه فى المتعه مره أو مرتين يقرب من التدرج فى منع الزنا منعاً باتاً كما وقع التدرج فى تحريم الخمر، و كلتا الفاحشتين كانتا فاشيتين فى الجاهليه، و لكن فشو الزنا كان فى الإماماء دون الحرائر.

أقول: أما قوله: إن الرخصه فى المتعه نوع من التدرج فى منع الزنا فمحصله أن المتعه كانت عندهم من أنواع الزنا، و قد كانت كسائر الزنا فاشيه فى الجاهليه فتدرج

النبى ص فى المنع عن الزنا بالرفق ليقع موقع القبول من الناس فممنوع عن غير المتعه من أقسامه، و أبقى زنا المتعه فرخص فيه ثم منع ثم رخص حتى تمكن من المنع البات فممنوع منعاً مؤبداً.

و لعمرى أنه من فضيح اللعب بالتشريعات الدينيه الطاهره التى لم يرد الله بها إلا تطهير هذه الأمة، و إتمام النعمه عليهم.

ففيه أولاً: ما تقدم أن نسبه المنع ثم الترخيص ثم المنع ثم الترخيص فى المتعه إلى النبى ص مع فرض دلاله آيات سورتي المعارج و المؤمنون: «وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ» الآيات- و هى مكيه-على حرمة المتعه على ما أصر عليه هذا القائل ليس إلا نسبه نسخ الآيات إلى النبى ص بالترخيص ثم نسخ هذا النسخ و أحكام الآيات ثم نسخ الآيات ثم إحكامها و هكذا، و هل هذا إلا نسبه اللعب بكتاب الله إليه (ص).

و ثانياً: أن الآيات الناهيه عن الزنا فى كتاب الله تعالى هى قوله فى سورة الإسراء: «وَ لَا تَقْرُبُوا الزُّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَ سَاءَ سَبِيلًا» (الإسراء: ٣٢) و أى لسان أصرح من هذا اللسان، و الآيه مكيه واقعه بين آيات المناهى، و كذا قوله: «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ -إلى أن قال X: وَ لَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ» (الأنعام: ١٥١)، كلمه الفواحش جمع محلى باللام واقعه فى سياق النهى مفيده لاستغراق النهى كل فاحشه و زنا، و الآيه مكيه، و كذا قوله: «قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ» (الأعراف: ٣٣)، و الآيه أيضا مكيه، و كذا قوله:

«وَ الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ» (المؤمنون: ٧، المعارج: ٣١، و السورتان مكيتان، و الآيات تحرم المتعه على قول هذا القائل كما تحرم سائر أقسام الزنا.

فهذه جل الآيات الناهيه عن الزنا المحرمه للفاحشه، و جميعها مكيه صريحه فى التحريم فأين ما ذكره من التدرج فى التحريم و المنع؟ أو أنه يقول- كما هو اللازم الصريح لقوله بدلاله آيات المؤمنون على الحرمة-: إن الله سبحانه حرّمها تحريماً باتاً، ثم النبى ص تدرج فى المنع عملاً بالرخصه بعد الرخصه مداهنه لمصلحه الإيقاع موقع القبول، و قد شدد الله تعالى على نبيه ص فى هذه الخله بعينها، قال تعالى: «وَ إِن كَادُوا

لِيَفْتُنُوْكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوْكَ خَلِيْلًا وَّ لَوْ لَا أَنْ تَبْتُلَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيْلًا  
إِذَا لَأَذُنُوكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَ ضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيْرًا: «الإسراء: ٧٥».

و ثالثا: أن هذا الترخيص المنسوب إلى النبي ص مره بعد مره إن كان ترخيصا من غير تشريع للحل، و الفرض كون المتعه زنا و فاحشه كان ذلك مخالفه صريحه منه (ص) لربه لو كان من عند نفسه، و هو معصوم بعصمه الله تعالى، و لو كان من عند ربه كان ذلك أمرا منه تعالى بالفحشاء، و قد رده تعالى بصريح قوله خطابا لنبيه: قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ X الآيه X: «الأعراف: ٢٨».

و إن كان ترخيصا مع تشريع للحل لم تكن زنا و فاحشه فإنها سنه مشروعه محدوده بحدود محكمه لا تجامع الطبقات المحرمه كالنكاح الدائم و معها فريضه المهر كالنكاح الدائم، و العده المانعه عن اختلاط المياه و اختلال الأنساب، و معها ضروره حاجه الناس إليها فما معنى كونها فاحشه و ليست الفاحشه إلا العمل المنكر الذي يستقبحه المجتمع لخلاعه من الحدود و إخلاله بالمصلحه العامه و منعه عن القيام بحاجه المجتمع الضروريه في حياتهم.

و رابعا: أن القول بكون التمتع من أنواع الزنا الدائره في الجاهليه اختلاق في التاريخ، و اصطناع لا يرجع إلى مدرک تاريخي، إذ لا عين منه في كتب التاريخ و لا أثر بل هو سنه مبتكره إسلاميه و تسهيل من الله تعالى على هذه الأمة لإقامه أودهم، و وقايتهم من انتشار الزنا و سائر الفواحش بينهم لو أنهم كانوا و فقوا لإقامه هذه السنه و إذا لم تكن الحكومات الإسلاميه تغمض في أمر الزنا و سائر الفواحش هذا الإغماض الذي ألحقها تدريجا بالسنن القانونيه، و امتلأت بها الدنيا فسادا و وبالا.

و أما قوله: «و كلتا الفاحشتين كانتا فاشيتين في الجاهليه، و لكن فشو الزنا كان في الإمامه دون الحرائر» ظاهره أن مراده بالفاحشتين الزنا و شرب الخمر، و هو كذلك إلا أن كون الزنا فاشيا في الإمامه دون الحرائر مما لا أصل له يركن إليه فإن الشواهد التاريخيه المختلفه المتفرقه تؤيد خلاف ذلك كالأشعار التي قيلت في ذلك، و قد تقدم في روايه ابن عباس أن أهل الجاهليه لم تكن ترى بالزنا بأسا إذا لم يكن علينا.

و يدل عليه أيضا مسأله الادعاء و التبنى الدائر فى الجاهليه فإن الادعاء لم يكن بينهم مجرد تسميه و نسبه بل كان ذلك أمرا دائرا بينهم يتغى به أقوياؤهم تكثير العده و القوه بالإلحاق، و يستندون فيه إلى زنا ارتكبه مع الحرائر حتى ذوات الأزواج منهم، و أما الإمام فهم و لا سيما أقوياؤهم يعيون الاختلاط بهن، و المعاشقه و المغازله معهن، و إنما كانت شأن الإمام فى ذلك أن مواليهن يقيمونهن ذلك المقام اكتسابا و استرباحا.

و من الدليل على ما ذكرناه ما ورد من قصص الإلحاق فى السير و الآثار كقصه إلحاق معاويه بن أبى سفيان زياد بن أبيه لأبيه أبى سفيان، و ما شهد به شاهد الأمر عند ذلك، و غيرها من القصص المنقوله.

نعم ربما يستشهد على عدم فشو الزنا بين الحرائر فى الجاهليه بقول هند للنبي ص عند البيعه: و هل الحره تزنى؟ لكن الرجوع إلى ديوان حسان، و التأمل فيما هجا به هند بعد وقعتى بدر و أحد يرفع اللبس و يكشف ما هو حقيقه الأمر.

ثم قال بعد كلام له فى تنقيح معنى الأحاديث، و رفعه التدافع الواقع بينها على زعمه: و العمده عند أهل السنه فى تحريمها وجوه: أولها: ما علمت من منافاتها لظاهر القرآن فى أحكام النكاح و الطلاق و العده إن لم نقل لنصوصه، و ثانيها: الأحاديث المصرحه بتحريمها تحريما مؤبدا إلى يوم القيامة - إلى أن قال -: و ثالثها: نهى عمر عنها و إشارته بتحريمها على المنبر، و إقرار الصحابه له على ذلك و قد علم أنهم ما كانوا يقرون على منكر، و أنهم كانوا يرجعون إذا أخطأ.

ثم اختار أن تحريمه لها لم يكن عن اجتهاد منه، و إنما كان استنادا إلى التحريم الثابت بنهى النبي ص، و إنما يسند إليه التحريم من جهه أنه ميبين للحرمه أو منفذ لها كما يقال: حرم الشافعى النيذ و أحله أبو حنيفه.

أقول: أما الوجه الأول و الثانى فقد عرفت آنفا و فى البيان المتقدم حقيقه القول فيهما بما لا مزيد عليه، و أما الوجه الثالث فتحريم عمر لها سواء كان ذلك باجتهاد منه أو باستناده إلى تحريم النبي ص كما يدعيه هذا القائل، و سواء كان سكوت الصحابه عنه هيبه له و خوفا من تهديده، أو إقرارا له فى تحريمه كما ذكره، أو لعدم

وقوعه موقع قبول الناس منهم كما يدل عليه الروايات عن علي و جابر و ابن مسعود و ابن عباس فتحريمه و حلفه على رجم مستحلها و فاعلها لا يؤثر في دلالة الآية عليها، و عدم انثلام هذه الحليه بكتاب أو سنه فدلاله الآيات و أحكامها مما لا غبار عليه.

و قد أغرب بعض الكتاب حيث ذكر أن المتعه سنه جاهليه لم تدخل في الإسلام قط حتى يحتاج إلى إخراجها منه و في نسخها إلى كتاب أو سنه و ما كان يعرفها المسلمون و لا وقعت إلا في كتب الشيعة.

أقول: و هذا الكلام المبني على الصفح عما يدل عليه الكتاب و الحديث و الإجماع و التاريخ يتم به تحول الأقوال في هذه المسأله تحولها العجيب فقد كانت سنه قائمه في عهد النبي ص ثم نهى عنها في عهد عمر و نفذ النهى عند عامه الناس، و وجه النهى بانتساح آيه الاستمتاع بآيات أخرى أو بنهى النبي عنها و خالف في ذلك عدده من الأصحاب (١) و جم غفير ممن تبعهم من فقهاء الحجاز و اليمن و غيرهم حتى مثل ابن جريح من أئمه الحديث «و كان يبالغ في التمتع حتى تمتع بسبعين امرأه (٢)» و مثل مالك أحد أئمه الفقه الأربعة (٣)، هذا، ثم أعرض المتأخرون من أهل التفسير عن دلالة آيه الاستمتاع على المتعه، و راموا تفسيرها بالنكاح الدائم، و ذكروا أن المتعه كانت سنه من النبي ص ثم نسخت بالحديث، ثم راموا في هذه الأواخر أنها كانت من أنواع الزنا في الجاهليه رخص فيها النبي ص رخصه بعد رخصه ثم نهى عنها نهيا مؤبدا إلى يوم القيامة، ثم ذكر هذا القائل الأخير: أنها زنا جاهلي محض لا خبر عنها في الإسلام قط إلا ما وقع في كتب الشيعة، و الله أعلم بما يصير إليه حال المسأله في مستقبل الزمان.

ص: ٣١٠

١- ١) و من عجيب الكلام ما ذكره الزجاج في هذه الآية: أن هذه آيه غلط فيها قوم غلطا عظيما لجهلهم باللغه، و ذلك أنهم ذكروا أن قوله: «فما استمتعتم به منهن» من المتعه التي قد أجمع أهل العلم أنها حرام، ثم ذكر أن معنى الاستمتاع هو النكاح، و ليتنى أدرى أن أى فصل من كلامه يقبل الإصلاح؟ أرميه أمثال ابن عباس و أبي و غيره بالجهل باللغه؟ أم دعواه إجماع أهل العلم على الحرمة؟ أم دعواه الخبره باللغه و قد جعل الاستمتاع بمعنى النكاح؟!

٢- ٢) راجع ترجمه ابن جريح في تهذيب التهذيب و ميزان الاعتدال.

٣- ٣) راجع للحصول على هذه الأقوال الكتب الفقيهيه، و في تفصيل أبحاثها الفقيهيه و الكلاميه ما ألفه أساتذه الفن من القدماء و المتأخرين و خاصه أعلام العصر الحاضر من نظار باحثي الحجج.

رابطة النسب-و هي الرابطة التي تربط الفرد من الإنسان بالفرد الآخر من جهة الولاده و جامع الرحم-هي في الأصل رابطة طبيعيه تكوينيه تكون الشعوب و القبائل،و تحمل الخصال المنبعثه عن الدم فتسريها حسب تسريه الدم،و هي المبدأ للآداب و الرسوم و السنن القوميه بما تختلط و تمتزج بسائر الأسباب و العلل المؤثره.

و للمجتمعات الإنسانيه المترقيه و غير المترقيه نوع اعتناء بها في السنن و القوانين الاجتماعيه في الجملة:في نكاح و إرث و غير ذلك،و هم مع ذلك لا- يزالون يتصرفون في هذه الرابطة النسبيه توسعه و تضييقا بحسب المصالح المنبعثه عن خصوصيات مجتمعهم كما سمعت في المباحث السابقه أن غالب الأمم السالفه كانوا لا يرون للمرأه قرابه رسما و كانوا يرون قرابه الدعي و بنوته،و كما أن الإسلام ينفي القرابه بين الكافر المحارب و المسلم،و يلحق الولد للفراش و غير ذلك.

و لما اعتبر الإسلام للنساء القرابه بما أعطاهن من الشركه التامه في الأموال، و الحريه التامه في الإراده و العمل على ما سمعت في المباحث السابقه،و صار بذلك الابن و البنت في درجه واحده من القرابه و الرحم الرسمى،و كذلك الأب و الأم،و الأخ و الأخت،و الجد و الجده،و العم و العمه،و الخال و الخاله،صار عمود النسب الرسمى منتزلا من ناحيه البنات كما كان يتنزل من ناحيه البنين،فصار ابن البنت ابنا للإنسان كبنيه ابن الابن و هكذا ما نزل،و كذا صار بنت الابن و بنت البنت بنتين للإنسان على حد سواء،و على ذلك جرت الأحكام في المناكح و المواريث،و قد عرفت فيما تقدم أن آيه التحريم «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَ بَنَاتُكُمْ» الآيه داله على ذلك.

و قد قصر السلف من باحثينا في هذه المسأله و أشباهها (و هي مسأله اجتماعيه و حقوقيه)فحسبوا مسأله لغويه يستراح فيها إلى قضاء اللغه،فاشدد النزاع بينهم فيما وضع له لفظ الابن مثلا،فمن معمم و من مخصص،و كل ذلك من الخطأ.

و قد ذكر بعضهم:أن الذى تعرفه اللغه من البنوه ما يجرى من ناحيه الابن، و أما ابن البنت و كل ما يجرى من ناحيتها فللحوق هؤلاء بأبائهم لا بجدهم الأمى

لا يعدهم العرب أبناء للإنسان، و أما

قول رسول الله ص للحسنين: ابناى هذان إمامان قاما أو قعدا و غير ذلك فهذا الإطلاق إطلاق تشريفي، و أنشد فى ذلك قول القائل:

بنونا بنو أبناثنا و بناتنا

بنوهن أبناء الرجال الأبعاد

و نظيره قول الآخر:

و إنما أمهات الناس أوعيه

مستودعات و للأنساب آباء

أقول: و قد اختلط عليه طريق البحث فحسبه بحثا لغويا زعم فيه أن العرب لو وضعت لفظ الابن لما يشمل ابن البنت تغيرت بذلك نتيجة البحث، و هو غفله عن أن الآثار و الأحكام المترتبة فى المجتمعات المختلفه البشريه على الأبوه و البنوه و نحوهما لا تتبع اللغات، و إنما تتبع نوع بنيه المجتمع و السنن الدائره فيها، و ربما تغيرت هذه الأحكام و الآثار بتغيير السنه الاجتماعيه فى المجتمع مع بقاء اللغه على حالها، و هذا يكشف عن كون البحث اجتماعيا أو عائدا إليه لا لفظيا لغويا.

و أما ما أنشد من الشعر فليس يسوى الشعر فى سوق الحقائق شيئا - و ليس إلا زخرفه خياليه و تزويقا وهميا- حتى يستدل بكل ما تقوله شاعر لاغ و لا سيما فيما يداخله القرآن الذى هو قول فصل و ليس بالهزل.

و أما مسأله لحوق الأبناء بأبائهم دون الأجداد من جانب الأمهات فهى على أنها ليست مسأله لفظيه لغويه ليست من فروع النسب حتى يستلزم لحوق الابن و البنت بالأب انقطاع نسبهما من جهه الأم، بل من فروع قيمومه الرجل على البيت من حيث الإنفاق، و تربيته الأولاد و نحوها.

و بالجمله فالأم تنقل رابطة النسب إلى أولادها من ذكور أو إناث كما ينقلها الأب، و من آثاره البارزه فى الإسلام الميراث و حرمة النكاح، نعم هناك أحكام و مسائل آخر لها ملاكات خاصه كلحوق الولد و النفقه و مسأله سهم أولى القربى من السادات و كل تتبع ملاكها الخاص بها.

### بحث علمى آخر [فى حكمه تحريم محرّمات النكاح].

النكاح و الازدواج من السنن الاجتماعيه التى لم تزل دائره فى المجتمعات الإنسانيه

أى مجتمع كان على ما بيدنا من تاريخ هذا النوع إلى هذا اليوم، وهو فى نفسه دليل على كونه سنه فطريه.

على أن من أقوى الدليل على ذلك كون الذكر و الأئنى مجهزين بحسب البنيه الجسمانيه بوسائل التناسل و التوالد كما ذكرناه مرارا، و الطائفتان (الذكر و الأئنى) فى ابتغاء ذلك شرع سواء و إن زيدت الأئنى بجهاز الإرضاع و العواطف الفطريه الملائمه لتربيته الأولاد.

ثم إن هناك غرائز إنسانيه تنعطف إلى محبه الأولاد، و تقبل قضاء طبيعه بكون الإنسان باقيا ببقاء نسله، و تدعن بكون المرأه سكنا للرجل و بالعكس، و تحترم أصل الوراثه بعد احترامها لأصل الملك و الاختصاص، و تحترم لزوم تأسيس البيت.

و المجتمعات التى تحترم هذه الأصول و الأحكام الفطريه فى الجمله لا مناص لها من الإذعان بسنه النكاح على نحو الاختصاص بوجه بمعنى أن لا يختلط الرجال و النساء على نحو يبطل الأنساب و إن فرض التحفظ عن فساد الصحه العامه و قوه التوالد الذى يوجبه شيوع الزنا و الفحشاء.

هذه أصول معتبره عند جميع الأمم الجاريه على سنه النكاح فى الجمله سواء خصوا الواحد بالواحد، أو جوزوا الكثير من النساء للواحد من الرجال أو بالعكس أو الكثير منهم للكثير منهم على اختلاف هذه السنن بين الأمم فإنهم مع ذلك يعتبرون النكاح بخاصته التى هى نوع ملازمه و مصاحبه بين الزوجين.

فالفحشاء و السفاح الذى يقطع النسل و يفسد الأنساب أول ما تبغضه الفطره الإنسانيه القاضيه بالنكاح، و لا تزال ترى لهذه المباغضه آثارا بين الأمم المختلفه و المجتمعات المتنوعه حتى الأمم التى تعيش على الحريه التامه فى الرجال و النساء فى المواصلات و المخالطات الشهويه فإنهم متوحشون من هذه الخلاعات المسترسله، و تراهم يعيشون بقوانين تحفظ لهم أحكام الأنساب بوجه.

و الإنسان مع إذعانه بسنه النكاح لا يتقيد فيه بحسب الطبع، و لا يحرم على نفسه ذا قرابه أو أجنبيا، و لا يجتنب الذكر من الإنسان أما و لا أختا و لا بنتا و لا



غيرهن، ولا- الأنتى منه أبا و لا أخا و لا ابنا بحسب الداعيه الشهويه فالتاريخ و النقل يثبت نكاح الأمهات و الأخوات و البنات و غيرهن فى الأمم العظيمه الرقيه و المنحطه، و الأخبار تحقق الزنا الفاشى فى الملل المتمدنه اليوم بين الإخوه و الأخوات، و الآباء و البنات و غيرهن فطاغيه الشهوه لا يقوم لها شىء، و ما كان بين هذه الأمم من اجتناب نكاح الأمهات و الأخوات و البنات و ما يلحق بهن فإنما هو سنه موروثه ربما انتهت إلى بعض الآداب و الرسوم القوميه.

و إنك إذا قايست القوانين المشرعه فى الإسلام لتنظيم أمر الازدواج بسائر القوانين و السنن الدائره فى الدنيا و تأملت فيها منصفاً و جدتها أدق و أضمن لجميع شئون الاحتياط فى حفظ الأنساب و سائر المصالح الإنسانيه الفطريه، و جميع ما شرعه من الأحكام فى أمر النكاح و ما يلحق به يرجع إلى حفظ الأنساب و سد سبيل الزنا.

فالذى روعى فيه مصلحه حفظ الأنساب من غير واسطه هو تحريم نكاح المحصنات من النساء، و بذلك يتم إلغاء ازدواج المرأه بأكثر من زوج واحد فى زمان واحد فإن فيه فساد الأنساب كما أنه هو الملاك فى وضع عدّه الطلاق بتربص المرأه بنفسها ثلاثه قروء تحرزا من اختلاط المياه.

و أما سائر أصناف النساء المحرم نكاحها و هى أربعه عشر صنفاً المعدوده فى آيات التحريم فإن الملاك فى تحريم نكاحهن سد باب الزنا فإن الإنسان- و هو فى المجتمع المنزلى- أكثر ما يعاشر و يختلط و يسترسل و يديم فى المصاحبه إنما هو مع هذه الأصناف الأربعه عشر، و دوام المصاحبه و مساس الاسترسال يوجب كمال توجه النفس و ركوز الفكر فيهن بما يهدى إلى تنبه الميول و العواطف الحيوانيه و هيجان دواعى الشهوه، و بعثها الإنسان إلى ما يستلذه طبعه، و تتوق له نفسه، و من يحم حول الحمى أو شك أن يقع فيه.

فكان من الواجب أن لا يقتصر على مجرد تحريم الزنا فى هذه الموارد فإن دوام المصاحبه، و تكرر هجوم الوسوس النفسانيه و ورود الهم بعد الهم لا يدع للإنسان مجال التحفظ على نهى واحد من الزنا.

بل كان يجب أن تحرم هؤلاء تحريماً مؤبداً، و تقع عليه التريه الدينيه حتى

يستقر فى القلوب اليأس التام من بلوغهن و النيل منهن، و يميت ذلك تعلق الشهوه بهن و يقطع منبتها و يقلعها من أصلها، و هذا هو الذى نرى من كثير من المسلمين حتى فى المتوغلين فى الفحشاء المسترسلين فى المنكرات منهم أنهم لا- يخطر ببالهم الفحشاء بالمحارم، و هتك ستر الأمهات و البنات، و لو لا ذلك لم يكذب يخلو بيت من البيوت من فاحشه الزنا و نحوه.

و هذا كما أن الإسلام سد باب الزنا فى غير المحارم بإيجاب الحجاب، و المنع عن اختلاط الرجال بالنساء و النساء بالرجال، و لو لا ذلك لم ينجح النهى عن الزنا فى الحجز بين الإنسان و بين هذا الفعال الشنيع فهناك أحد أمرين: إما أن يمنع الاختلاط كما فى طائفه، و إما أن يستقر اليأس من النيل بالمره بحرمة مؤبده يترتب عليها الإنسان حتى يستوى على هذه العقيدة، لا يبصر مثاله فيما يبصر، و لا يسمعه فيما يسمع فلا يخطر بباله أبدا.

و تصديق ذلك ما نجده من حال الأمم الغربيه فإن هؤلاء معاشر النصارى كانت ترى حرمة الزنا، و تعدد الزوجات فى تلو الزنا أباحت اختلاط النساء بالرجال فلم تلبث حتى فشا الفحشاء فيها فشوا لا يكاد يوجد فى الألف منهم واحد يسلم من هذا الداء، و لا فى ألف من رجالهم واحد يستيقن بكون من ينتسب إليه من أولاده من صلبه، ثم لم يمكث هذا الداء حتى سرى إلى الرجال مع محارمهم من الأخوات و البنات و الأمهات، ثم إلى ما بين الرجال و الغلمان ثم الشبان أنفسهم ثم... و ثم... آل الأمر إلى أن صارت هذه الطائفه التى ما خلقها الله سبحانه إلا سكنا للبشر، و نعمه يقيم بها صلب الإنسانيه، و يطيب بها عيشه النوع مصيده يصطاد بها فى كل شأن سياسى و اقتصادى و اجتماعى و وسيله للنيل إلى كل غرض يفسد حياه المجتمع و الفرد، و عادت الحياه الإنسانيه أمنيّه تخيليه، و لعبا و لهوا بتمام معنى الكلمه، و قد اتسع الخرق على الراقق.

هذا هو الذى بنى عليه الإسلام مسأله تحريم المحرمات من المبهمات و غيرها فى باب النكاح إلا المحصنات من النساء على ما عرفت.

و تأثير هذا الحكم فى المنع عن فشو الزنا و تسربه فى المجتمع المنزلى كتأثير حكم الحجاب فى المنع عن ظهور الزنا و سرىان الفساد فى المجتمع المدنى على ما عرفت.

و قد تقدم أن قوله تعالى: **وَ رَبَّائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمُ الْآيَه**، لا تخلو عن إشاره إلى هذه الحكمه، و يمكن أن تكون الإشاره إليه بقوله تعالى فى آخر آيات التحريم:

يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا

«النساء: ٢٨» فإن تحريم هذه الأصناف الأربعة عشر من الله سبحانه تحريماً باتاً يرفع عن كاهل الإنسان ثقل الصبر على هوانه و الميل إليهن و النيل منهن على إمكان من الأمر، و قد خلق الإنسان ضعيفاً في قبال الميول النفسانية، و الدواعي الشهوانية، و قد قال تعالى: إِنَّ كَيْدَ كُنَّ عَظِيمٌ: «يوسف:

٢٨» فإن من أمر الصبر أن يعيش الإنسان مع واحده أو أكثر من النساء الأجنبية، و يصاحبهن في الخلوه و الجلوه، و يتصل بهن ليلاً و نهاراً و يمتلئ سمعه و بصره من لطيف إشاراتهن و حلو حركاتهن حيناً بعد حين ثم يصبر على ما يوسوسه نفسه في أمرهن و لا يجيبها في ما تتوق إليه، و الحاجه إحدى الحاجتين الغذاء و النكاح، و ما سواهما فضل يعود إليهما، و كأنه هو الذى

أشار إليه (ص) بقوله: «من تزوج أحرز نصف دينه - فليتق الله في النصف الآخر»

(١)

## [سوره النساء (٤): الآيات ٢٩ الى ٣٠]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهُ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠)

بيان

في الآيه شبه اتصال بما سبقتها حيث إنها تتضمن النهى عن أكل المال بالباطل و كانت الآيات السابقه متضمنه للنهى عن أكل مهور النساء بالعضل و التعدى فى الآيه انتقال من الخصوص إلى العموم.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ» إلى قوله: «مِنْكُمْ»

ص: ٣١٦

(١-١) مرويه فى نكاح الوسائل.

الأكل معروف و هو إنفاد ما يمكن أن يتغذى به بالتقامه و بلعه مثلا، و لما فيه من معنى التسلط و الإنفاد يقال: أكلت النار الحطب شبه فيه إعدام النار الحطب بإحراقه بإنفاد الأكل الغذاء بالتناول و البلع، و يقال أيضا: أكل فلان المال أى تصرف فيه بالتسلط عليه، و ذلك بعنايه أن العمده فى تصرف الإنسان فى الأشياء هو التغذى بها لأنه أشد ما يحتاج إليه الإنسان فى بقائه و أمسه منه، و لذلك سمى التصرف أكلا لكن لا كل تصرف بل التصرف عن تسلط يقطع تسلط الغير على المال بالتملك و نحوه كأنه ينفده ببسط سلطته عليه و التصرف فيه كما ينفد الأكل الغذاء بالأكل.

و الباطل من الأفعال ما لا يشتمل على غرض صحيح عقلائى، و التجاره هى التصرف فى رأس المال طلبا للربح على ما ذكره الراغب فى مفرداته قال: و ليس فى كلامهم تاء بعدها جيم غير هذا اللفظ انتهى، فتنطبق على المعامله بالبيع و الشرى.

و فى تقييد قوله: «لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ» بقوله: «بَيْنَكُمْ» الدال على نوع تجمع منهم على المال و وقوعه فى وسطهم إشعار أو دلالة بكون الأكل المنهى عنه بنحو إدارته فيما بينهم و نقله من واحد إلى آخر بالتعاور و التداول، فتفيد الجملة أعنى قوله: لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ، بعد تقييدها بقوله: بِالْبَاطِلِ النهى عن المعاملات الناقله التى لا تسوق المجتمع إلى سعادته و نجاحه بل تضرها و تجرها إلى الفساد و الهلاك، و هى المعاملات الباطله فى نظر الدين كالربا و القمار و البيوع الغرريه كالبيع بالحصاه و النواه و ما أشبه ذلك.

و على هذا فالاستثناء الواقع فى قوله: إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ، استثناء منقطع جىء به لدفع الدخل فإنه لما نهى عن أكل المال بالباطل - و نوع المعاملات الدائره فى المجتمع الفاسد التى يتحقق بها النقل و الانتقال المالى كالربويات و الغرريات و القمار و أضرارها باطله بنظر الشرع - كان من الجائز أن يتوهم أن ذلك يوجب انهدام أركان المجتمع و تلاشى أجزائها و فيه هلاك الناس فأجيب عن ذلك بذكر نوع معامله فى وسعها أن تنظم شتات المجتمع، و تقيم صلبه، و تحفظه على استقامته، و هى التجاره عن تراض و معامله صحيحه رافعه لحاجه المجتمع، و ذلك نظير قوله تعالى: يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ: «الشعراء: ٨٩» فإنه لما نفى النفع عن المال و البنين يوم القيامه أمكن أن يتوهم أن نجاح يومئذ و لا فلاح فإن معظم ما ينتفع به الإنسان إنما هو المال و البنون فإذا سقطا عن التأثير لم يبق إلا اليأس و الخيبه فأجيب أن هناك

أمر آخر نافعا كل النفع و إن لم يكن من جنس المال و البنين و هو القلب السليم.

و هذا الذى ذكرناه من انقطاع الاستثناء هو الأوفق بسياق الآيه و كون قوله:

بِالْبَاطِلِ

قيدا أصليا فى الكلام نظير قوله تعالى: **وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ** X:البقره: ١٨٨) و على هذا لا تخصص الآيه بسائر المعاملات الصحيحه و الأمور المشروعه غير التجاره مما يوجب التملك و يبيح التصرف فى المال كالهبة و الصلح و الجعالة و كالأهوار و الإرث و نحوها.

و ربما يقال: إن الاستثناء متصل و قوله: بِالْبَاطِلِ قيد توضيحي جىء به لبيان حال المستثنى منه بعد خروج المستثنى و تعلق النهى، و التقدير: لا- تأكلوا أموالكم بينكم إلا- أن تكون تجاره عن تراض منكم فإنكم إن أكلتموها من غير طريق التجاره كان أكلا- بالباطل منهيًا عنه كقولك: لا- تضرب اليتيم ظلما إلا تأديبا، و هذا النحو من الاستعمال و إن كان جائزا معروفا عند أهل اللسان إلا أنك قد عرفت أن الأوفق لسياق الآيه هو انقطاع الاستثناء.

و ربما قيل: إن المراد بالنهى المنع عن صرف المال فيما لا يرضاه الله، و بالتجاره صرفه فيما يرضاه. و ربما قيل: إن الآيه كانت تنهى عن مطلق أكل مال الغير بغير عوض، و أنه كان الرجل منهم يتخرج عن أن يأكل عند أحد من الناس بعد ما نزلت هذه الآيه حتى نسخ ذلك بقوله فى سوره النور: **وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ** -X إلى قوله X- **أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا**: «النور: ٦١) و قد عرفت أن الآيه بمعزل عن الدلاله على أمثال هذه المعانى.

و من غريب التفسير ما رام به بعضهم توجيه اتصال الاستثناء مع أخذ قوله: بِالْبَاطِلِ قيда احترازا فقال ما حاصله: أن المراد بالباطل أكل المال بغير عوض يعادله فالجمله المستثنى منها تدل على تحريم أخذ المال من الغير بالباطل و من غير عوض ثم استثنى من ذلك التجاره مع كون غالب مصاديقها غير خاليه عن الباطل فإن تقدير العوض بالقسطاس المستقيم بحيث يعادل المعوض عنه فى قيمه حقيقه متعسر جدا لو لم يكن متعدرا.

فالمراد بالاستثناء التسامح بما يكون فيه أحد العوضين أكبر من الآخر، و ما يكون سبب التعاوض فيه براعه التاجر فى تزيين سلعته و ترويجها بزخرف القول من غير

غش و لا خداع و لا تغرير كما يقع ذلك كثيرا إلى غير ذلك من الأسباب.

و كل ذلك من باطل التجاره أباحته الشريعة مسامحه و تسهيفا لأهلها، و لو لم يجز ذلك فى الدين بالاستثناء لما رغب أحد من أهله فى التجاره و اختل نظام المجتمع الدينى.

انتهى ملخصا.

و فساده ظاهر مما قدمناه فإن الباطل على ما يعرفه أهل اللغة ما لا يترتب عليه أثره المطلوب منه، و أثر البيع و التجاره تبدل المالين و تغير محل الملكين لرفع حاجه كل واحد من البيعين إلى مال الآخر بأن يحصل كل منهما على ما يرغب فيه و ينال إربه بالمعادله، و ذلك كما يحصل بالتعادل فى القيمتين كذلك يحصل بمقابله القليل الكثير إذا انضم إلى القليل شىء من رغبه الطالب أو رهبته أو مصلحه أخرى يعادل بانضمامها الكثير، و الكاشف عن جميع ذلك وقوع الرضا من الطرفين، و مع وقوع التراضى لا تعد المبادله باطله البتة.

على أن المستأنس بأسلوب القرآن الكريم فى بياناته لا يرتاب فى أن من المحال أن يعد القرآن أمرا من الأمور باطلا ثم يأمر به و يهدى إليه و قد قال تعالى فى وصفه:

يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ: -الأحقاف: ٣٠، و كيف يهدى إلى الحق ما يهدى إلى الباطل؟.

على أن لازم هذا التوجيه أن يهدى الإنسان اهتداء حقا فطريا إلى حاجته إلى المبادله فى الأموال ثم يهدى اهتداء حقا فطريا إلى المبادله بالموازنه ثم لا يكون ما يهدى إليه و افيا لرفع حاجته حقا حتى ينضم إليه شىء من الباطل و كيف يمكن أن تهتدى الفطره إلى أمر لا- يكفى فى رفع حاجتها، و لا يفى إلا ببعض شأنها؟ و كيف يمكن أن تهتدى الفطره إلى باطل و هل الفارق بين الحق و الباطل فى الأعمال إلا اهتداء الفطره و عدم اهتدائها؟ فلا مفر لمن يجعل الاستثناء متصلا من أن يجعل قوله: بِالْبَاطِلِ قِيدًا توضيحيا.

و أعجب من هذا التوجيه ما نقل عن بعضهم أن النكته فى هذا الاستثناء المنقطع هى الإشاره إلى أن جميع ما فى الدنيا من التجاره و ما فى معناها من قبيل الباطل لأنه لا ثبات له و لا بقاء فينبغى أن لا يشتغل به العاقل عن الاستعداد للدار الآخرة التى هى خير و أبقى انتهى.

و هو خطأ فإنه على تقدير صحته نكته للاستثناء المتصل لا الاستثناء المنقطع، على أن هذه المعنويات من الحقائق إنما يصح أن يذكر لمثل قوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّا لَنَدَارُ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ - العنكبوت: ٦٤، و قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ - النحل: ٩٦، و قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التَّجَارَةِ﴾ - الجمعة: ١١، و أما ما نحن فيه فجريان هذه النكته توجب تشريع الباطل، و يجل القرآن عن الترخيص في الباطل بأى وجه كان.

قوله تعالى: ﴿وَ لَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ظاهر الجمله أنها نهى عن قتل الإنسان نفسه لكن مقارنتها قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ﴾، حيث إن ظاهره أخذ مجموع المؤمنين كنفس واحده لها مال يجب أن تأكلها من غير طريق الباطل ربما أشعرت أو دلت على أن المراد بالأنفس جميع نفوس المجتمع الدينى المأخوذه كنفس واحده نفس كل بعض هى نفس الآخر فيكون فى مثل هذا المجتمع نفس الإنسان نفسه و نفس غيره أيضا نفسه فلو قتل نفسه أو غيره فقد قتل نفسه، و بهذه العناية تكون الجمله أعنى قوله: ﴿وَ لَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ مطلقه تشمل الانتحار-الذى هو قتل الإنسان نفسه- و قتل الإنسان غيره من المؤمنين.

و ربما أمكن أن يستفاد من ذيل الآيه أعنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أن المراد من قتل النفس المنهى عنه ما يشمل إلقاء الإنسان نفسه فى مخاطره القتل و التسبب إلى هلاك نفسه المؤدى إلى قتله، و ذلك أن تعليل النهى عن قتل النفس بالرحمه لهذا المعنى أوفق و أنسب كما لا يخفى، و يزيد على هذا معنى الآيه عموما و اتساعا، و هذه الملاءمه بعينها تؤيد كون قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ تعليلا لقوله: ﴿وَ لَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ فقط.

قوله تعالى: ﴿وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَ ظُلْمًا﴾ الآيه العدوان مطلق التجاوز سواء كان جائزا ممدوحا أو محظورا مذموما قال تعالى: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ - البقره: ١٩٣، و قال تعالى: ﴿وَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوَى وَ لَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ﴾ - المائده: ٢، فهو أعم موردا من الظلم، و معناه فى الآيه تعدى الحدود التى حدها الله تعالى، و الإصلاء بالنار الإحراق بها.

و فى الآيه من حيث اشتمالها على قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ التفات عن خطاب المؤمنين إلى

خطاب رسول الله ص تلويحا إلى أن من فعل ذلك منهم-و هم نفس واحده و النفس الواحده لا- ينبغي لها أن تريد هلاك نفسها-فليس من المؤمنين، فلا يخاطب في مجازاته المؤمنون، وإنما يخاطب فيها الرسول المخاطب في شأن المؤمنين و غيرهم، و لذلك بنى الكلام على العموم فقيل: و من يفعل ذلك عدوانا و ظلما فسوف نصليه، و لم يقل: و من يفعل ذلك منكم.

و ذيل الآية أعنى قوله. **وَ كَانَ ذَلِكْ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا** يؤيد أن يكون المشار إليه بقوله: ذلك هو النهي عن قتل الأنفس بناء على كون قوله: **إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا** ناظرا إلى تعليل النهي عن القتل فقط لما من المناسبه التامه بين الذيلين، فإن الظاهر أن المعنى هو أن الله تعالى إنما ينهاكم عن قتل أنفسكم رحمه بكم و رأفه، و إلا- فمجازاته لمن قتل النفس بإصلائه النار عليه يسير غير عسير، و مع ذلك فعود التعليل و كذا التهديد إلى مجموع الفقرتين في الآية الأولى أعنى النهي عن أكل المال بالباطل و النهي عن قتل النفس لا ضير فيه.

و أما قول بعضهم: إن التعليل و التهديد أو التهديد فقط راجع إلى جميع ما ذكر من المناهي من أول السوره إلى هذه الآية، و كذا قول آخرين: إن ذلك إشاره إلى جميع ما ذكر من المناهي من قوله: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا** X(مريم ١٩) إلى هنا لعدم ذكر جزاء للمناهي الواقعه في هذه الآيات فمما لا دليل على اعتباره.

و تغيير السياق في قوله: فسوف نصليه نارا بالخصوص عن سياق الغيبه الواقع في قوله: **إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا** إلى سياق التكلم تابع للالتفات الواقع في قوله: «ذَلِكَ» عن خطاب المؤمنين إلى خطاب الرسول، ثم الرجوع إلى الغيبه في قوله: **وَ كَانَ ذَلِكْ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا** إشعار بالتعليل، أى و ذلك عليه يسير لأنه هو الله عز اسمه.

## بحث روائى

في المجمع،\* في قوله تعالى: بِالْبَاطِلِ -قولان: أحدهما أنه الربا و القمار و البنخس و الظلم، قال: و هو المروى عن الباقر(ع).



و في نهج البيان، عن الباقر و الصادق (ع)\*: أنه القمار و السحت و الربا و الأيمان.

و في تفسير العياشي، عن أسباط بن سالم قال\*: كنت عند أبي عبد الله (ع) فجاءه رجل -فقال له: أخبرني عن قول الله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ، قال: عنى بذلك القمار، و أما قوله: وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ -عنى بذلك الرجل من المسلمين يشد على المشركين وحده- يجيء في منازلهم فيقتلونها فهام الله عن ذلك أقول: الآية عامه في الأكل بالباطل، و ذكر القمار و ما أشبهه من قبيل عد المصاديق و كذا تفسير قتل النفس بما ذكر في الروايه تعميم للآيه لا تخصيص بما ذكر.

و فيه، عن إسحاق بن عبد الله بن محمد بن علي بن الحسين قال\*: حدثني الحسن بن زيد عن أبيه عن علي بن أبي طالب (ع) قال: سألت رسول الله ص عن الجبائر تكون على الكسير- كيف يتوضأ صاحبها؟ و كيف يغتسل إذا أجنب؟ قال: يجزيه المسح بالماء عليها في الجنابه و الوضوء، قلت: فإن كان في برد يخاف على نفسه- إذا أفرغ الماء على جسده؟ فقرأ رسول الله ص: وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا .

و في الفقيه، قال الصادق (ع)\*: من قتل نفسه متعمدا فهو في نار جهنم خالد فيها، قال الله تعالى: وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا- وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَ ظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيه نَارًا وَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا .

أقول: و الروايات كما ترى تعميم معنى قوله: وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ الآية كما استفدناه فيما تقدم، و في معنى ما تقدم روايات أخر.

و في الدر المنثور، أخرج ابن ماجه و ابن المنذر عن ابن سعيد قال\*: قال رسول الله ص: إنما البيع عن تراض.

و فيه، أخرج ابن جرير عن ابن عباس\*: أن النبي ص باع رجلا ثم قال له: اختر فقال: قد اخترت فقال: هكذا البيع.

و فيه، أخرج البخارى و الترمذى و النسائى عن ابن عمر قال\*: قال رسول الله ص:

البيعان بالخيار ما لم يفترقا أو يقول أحدهما للآخر: اختر.

أقول: قوله: البيعان بالخيار ما لم يفترقا مروى من طرق الشيعة أيضا، و قوله:

أو يقول أحدهما للآخر: اختر لتحقيق معنى التراضى

اشاره

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (٣١)

بيان

الآيه غير عادمه الارتباط بما قبلها فإن فيما قبلها ذكرا من المعاصي الكبيره.

قوله تعالى: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ» -إلى قوله:- «سَيِّئَاتِكُمْ» الاجتناب أصله من الجنب و هو الجارحه بنى منها الفعل على الاستعاره،فإن الإنسان إذا أراد شيئا استقبله بوجهه و مقاديم بدنه،و إذا أعرض عنه و تركه وليه بجنبه فاجتنبه، فالاجتناب هو الترك،قال الراغب:و هو أبلغ من الترك، انتهى،و ليس إلا لأنه مبنى على الاستعاره،و من هذا الباب الجانب و الجنبيه و الأجنبى.

و التكفير من الكفر و هو الستر و قد شاع استعماله فى القرآن فى العفو عن السيئات و الكبائر جمع كبيره و وصف موضع الموصوف كالمعاصى و نحوها،و الكبر معنى إضافى لا يتحقق إلا بالقياس إلى صغر،و من هنا كان المستفاد من قوله: كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ أن هناك من المعاصى المنهى عنها ما هى صغيره،فيتبين من الآيه:أولا:أن المعاصى قسمان:صغيره و كبيره،و ثانيا:أن السيئات فى الآيه هى الصغائر لما فيها من دلالة المقابله على ذلك.

نعم العصيان و التمرد كيفما كان كبير و أمر عظيم بالنظر إلى ضعف المخلوق المربوب فى جنب الله عظم سلطانه غير أن القياس فى هذا الاعتبار إنما هو بين الإنسان و ربه لا بين معصيه و معصيه فلا منافاه بين كون كل معصيه كبيره باعتبار و بين كون بعض المعاصى صغيره باعتبار آخر.

و كبر المعصيه إنما يتحقق بأهميه النهى عنها إذا قيس إلى النهى المتعلق بغيرها و لا يخلو قوله تعالى: مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ،من إشعار أو دلالة على ذلك،و الدليل على أهميه النهى تشديد الخطاب بإصرار فيه أو تهديد بعذاب من النار و نحو ذلك.

قوله تعالى: «وَنُدْخِلْكُمْ مِذْخَلًا كَرِيمًا» المدخل بضم الميم وفتح الخاء اسم مكان والمراد منه الجنة أو مقام القرب من الله سبحانه وإن كان مرجعها واحداً.

### كلام فى الكبائر والصغائر وتكفير السيئات

لا ريب فى دلاله قوله تعالى: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ»، الآية على انقسام المعاصى إلى كبائر و صغائر سميت فى الآية بالسيئات، ونظيرها فى الدلالة قوله تعالى: «وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَنَا بِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا» الآية X: «الكهف: ٤٩»، إذ إشفاقهم مما فى الكتاب يدل على أن المراد بالصغيره والكبيره صغائر الذنوب و كبائرهما.

و أما السيئه فهى بحسب ما تعطيه ماده اللفظ و هيئته هى الحادثه أو العمل الذى يحمل المساءه، و لذلك ربما يطلق لفظها على الأمور و المصائب التى يسوء الإنسان وقوعها كقوله تعالى: «وَمِمَّا أَصَابَكُمْ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكُمْ» الآية X: «النساء: ٧٩»، و قوله تعالى: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ» الآية X: «الرعد: ٤»، و ربما أطلق على نتائج المعاصى و آثارها الخارجيه الدينويه و الأخرويه كقوله تعالى: «فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا»، الآية X:

«النحل: ٣٤»، و قوله تعالى: «سَيِّئَاتٌ مِمَّا كَسَبُوا» الآية X: «الزمر: ٥١»، و هذا بحسب الحقيقه يرجع إلى المعنى السابق، و ربما أطلق على نفس المعصيه كقوله تعالى:

«وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا» الآية X: «الشورى: ٤٠»، و السيئه بمعنى المعصيه ربما أطلقت على مطلق المعاصى أعم من الصغائر و الكبائر كقوله تعالى: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَ مَمَاتُهُمْ سَاءٌ مِمَّا يَحْكُمُونَ» الآية X: «الجاثية: ٢١»، إلى غير ذلك من الآيات.

و ربما أطلقت على الصغائر خاصه كقوله تعالى: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ»، الآية، إذ مع فرض اجتناب الكبائر لا تبقى للسيئات إلا الصغائر.

و بالجمله دلالة الآية على انقسام المعاصى إلى الصغائر و الكبائر بحسب القياس الدائر بين المعاصى أنفسها مما لا ينبغى أن يرتاب فيه.

و كذا لا ريب أن الآية فى مقام الامتتان، و هى تفرع أسماع المؤمنين بعنايه لطيفه

إليه أنهم إن اجتنبوا البعض من المعاصي كفر عنهم البعض الآخر، فليس إغراء على ارتكاب المعاصي الصغار، فإن ذلك لا معنى له لأن الآيه تدعو إلى ترك الكبائر بلا شك، و ارتكاب الصغيره من جهه أنها صغيره لا يعبأ بها و يتهاون في أمرها يعود مصداقا من مصاديق الطغيان و الاستهانه بأمر الله سبحانه، وهذا من أكبر الكبائر بل الآيه تعد تكفير السيئات من جهه أنها سيئات لا يخلو الإنسان المخلوق على الضعف المبني على الجهاله من ارتكابها بغلبه الجهل و الهوى عليه، فمساق هذه الآيه مساق الآيه الداعيه إلى التوبه التي تعد غفران الذنوب كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَ أَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ X الآيه X: «الزمر: ٥٤» فكما لا- يصح أن يقال هناك: أن الآيه تغري إلى المعصيه بفتح باب التوبه و تطيب النفوس بذلك فكذا هاهنا بل أمثال هذه الخطابات إحياء للقلوب الآيسه بالرجاء.

و من هنا يعلم أن الآيه لا- تمنع عن معرفه الكبائر بمعنى أن يكون المراد بها اتقاء جميع المعاصي مخافه الوقوع في الكبائر و الابتلاء بارتكابها فإن ذلك معنى بعيد عن مساق الآيه بل المستفاد من الآيه أن المخاطبين هم يعرفون الكبائر و يميزون هؤلاء الموبقات من النهي المتعلق بها، و لا- أقل من أن يقال: إن الآيه تدعو إلى معرفه الكبائر حتى يهتم المكلفون في الاتقاء منها كل الاهتمام من غير تهاون في جنب غيرها فإن ذلك التهاون كما عرفت إحدى الكبائر الموبقه.

و ذلك أن الإنسان إذا عرف الكبائر و ميزها و شخصها عرف أنها حرمت لا يغمض من هتكها بالتكفير إلا عن ندامه قاطعه و توبه نصوح و نفس هذا العلم مما يوجب تنبه الإنسان و انصرافه عن ارتكابها.

و أما الشفاعه فإنها و إن كانت حقه إلا أنك قد عرفت فيما تقدم من مباحثها أنها لا تنفع من استهان بأمر الله سبحانه و استهزأ بالتوبه و الندامه. و اقتراف المعصيه بالاعتماد على الشفاعه تساهل و تهاون في أمر الله سبحانه و هو من الكبائر الموبقه القاطعه لسبيل الشفاعه قطعا.

و من هنا يتضح معنى ما تقدم أن كبر المعصيه إنما يعلم من شدة النهي الواقع عنها بإصرار أو تهديد بالعذاب كما تقدم.

و مما تقدم من الكلام يظهر حال سائر ما قيل في معنى الكبائر، وهي كثيره:

منها ما قيل: إن الكبيره كل ما أوعده الله عليه في الآخره عقابا و وضع له في الدنيا حدا. و فيه أن الإصرار على الصغيره كبيره

لقول النبي ص: لا كبيره مع الاستغفار، و لا صغيره مع الإصرار. رواه الفريقان مع عدم وضع حد فيه شرعا، و كذا ولاية الكفار و أكل الربا مع أنهما من كبائر ما نهى عنه في القرآن.

و منها قول بعضهم: إن الكبيره كل ما أوعده الله عليه بالنار في القرآن، و ربما أضاف إليه بعضهم السنه. و فيه أنه لا دليل على انعكاسه كليا.

و منها قول بعضهم: إنها كل ما يشعر بالاستهانه بالدين و عدم الاكتراث به قال به إمام الحرمين و استحسنة الرازي. و فيه أنه عنوان الطغيان و الاعتداء و هي إحدى الكبائر و هناك ذنوب كبيره موبقه و إن لم تقترف بهذا العنوان كأكل مال اليتيم و زنا المحارم و قتل النفس المؤمنه من غير حق.

و منها قول بعضهم: إن الكبيره ما حرمت لنفسها لا - لعارض، و هذا كالمقابل للقول السابق. و فيه أن الطغيان و الاستهانه و نحو ذلك من أكبر الكبائر و هي عناوين طاريه، و بطورها على معصيه و عروضها لها تصير من الكبائر الموبقه.

و منها قول بعضهم: إن الكبائر ما اشتملت عليه آيات سوره النساء من أول السوره إلى تمام ثلاثين آيه، و كان المراد أن قوله: **إِنْ تَجْتَبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ** الآية إشاره إلى المعاصي المبيته في الآيات السابقه عليه كقطيعه الرحم و أكل مال اليتيم و الزنا و نحو ذلك. و فيه أنه ينافي إطلاق الآية.

و منها قول بعضهم (و ينسب إلى ابن عباس): كل ما نهى الله عنه فهو كبيره، و لعله لكون مخالفته تعالى أمرا عظيما، و فيه أنك قد عرفت أن انقسام المعصيه إلى الكبيره و الصغيره إنما هو بقياس بعضها إلى بعض، و هذا الذي ذكره مبنى على قياس حال الإنسان في مخالفته - و هو عبد - إلى الله سبحانه - و هو رب كل شيء - و من الممكن أن يميل إلى هذا القول بعضهم بتوهم كون الإضافه في قوله تعالى: **كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ**، بيانيه لكنه فاسد لرجوع معنى الآية حينئذ إلى قولنا: إن تجتنبوا المعاصي جميعا فكفر عنكم سيئاتكم و لا سيئه مع اجتناب المعاصي، و إن أريد تكفير

سيئات المؤمنين قبل نزول الآيه اختصت الآيه بأشخاص من حضر عند النزول، وهو خلاف ظاهر الآيه من العموم، ولو عمت الآيه عاد المعنى إلى أنكم إن عزمتم على اجتناب جميع المعاصي واجتنبتموها كفرنا عنكم سيئاتكم السابقة عليه، وهذا أمر نادر شاذ المصداق أو عديمه لا يحمل عليه عموم الآيه لأن نوع الإنسان لا يخلو عن السيئه و اللمم إلا من عصمه الله بعصمته فافهم ذلك.

و منها: أن الصغيره ما نقص عقابه عن ثواب صاحبه، والكبيره ما يكبر عقابه عن ثوابه، نسب إلى المعتزله و فيه أن ذلك أمر لا يدل عليه هذه الآيه و لا غيرها من آيات القرآن، نعم من الثابت بالقرآن وجود الحبط في بعض المعاصي في الجملة لا في جميعها سواء كان على وفق ما ذكروه أو لا على وفقه، وقد مر البحث عن معنى الحبط مستوفى في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

و قالوا أيضا: يجب تكفير السيئات و الصغائر عند اجتناب الكبائر و لا تحسن المؤاخذة عليها، وهذا أيضا أمر لا تدل الآيه عليه البته.

و منها: أن الكبر و الصغر اعتباران يعرضان لكل معصيه، فالمعصيه التي يقترفها الإنسان استهانته بأمر الربوبيه و استهزاء أو عدم مبالاه به كبيره، و هي بعينها لو اقترفت من جهه استشاطه غضب أو غلبه جبن أو ثوره شهوه كانت صغيره مغفوره بشرط اجتناب الكبائر.

و لما كان هذه العناوين الطاريه المذكوره يجمعها العناد و الاعتداء على الله أمكن أن يلخص الكلام بأن كل واحده من المعاصي المنهيه عنها في الدين إن أتى بها عنادا و اعتداء فهي كبيره و إلا فهي صغيره مغفوره بشرط اجتناب العناد و الاعتداء.

قال بعضهم: إن في كل سيئه و في كل نهى خاطب الله به كبيره أو كباثر و صغيره أو صغائر، و أكبر الكبائر في كل ذنب عدم المبالاه بالنهى و الأمر و احترام التكليف، و منه الإصرار فإن المصر على الذنب لا يكون محترما و لا مباليا بالأمر و النهى فالله تعالى يقول: **إِنْ تَجْتَبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ أَى الكِبَائِرِ الَّتِي يَتَضَمَّنُهَا كُل شَيْءٍ تَنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفَرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ أَى نَكْفَرُ عَنْكُمْ** صغيره فلا نؤاخذكم عليه.

و فيه: أن استلزام اقتران كل معصيه مقترفه بما يوجب كونها طغيانا و استعلاء

على الله سبحانه صيرورتها معصيه كبيره لا يوجب كون الكبر دائرا مدار هذا الاعتبار حتى لا يكون بعض المعاصي كبيره فى نفسها مع عدم عروض شىء من هذه العناوين عليه، فإن زنا المحارم بالنسبه إلى النظر إلى الأجنبيه و قتل النفس المحرمه ظلما بالنسبه إلى الضرب كبيرتان عرض لهما عارض من العناوين أم لم يعرض، نعم كلما عرض شىء من هذه العناوين المهلكه اشتد النهى بحسبه و كبرت المعصيه و عظم الذنب فما الزنا عن هوى النفس و غلبه الشهوه و الجهاله كالزنا بالاستباحه.

على أن هذا المعنى (أن تجتنبوا فى كل معصيه كبائرنا نكفر عنكم صغائرها) معنى ردىء لا يحتمله قوله تعالى: **إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْا عَنْهُ نُكْفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ الْآيَهُ بِحَسَبِ مَا لَهَا مِنَ السِّيَاقِ عَلَى مَا لَا يَخْفَى لِكُلِّ مِنْ اسْتَأْنَسَ قَلِيلَ اسْتِنَاسَ بِأَسَالِبِ الْكَلَامِ.**

و منها: ما يتراءى من ظاهر كلام الغزالي على ما نقل عنه (1) من الجمع بين الأقوال و هو أن بين المعاصي بقياس بعضها إلى بعض كبيره و صغيره كزنا المحصنه من المحارم بالنسبه إلى النظر إلى الأجنبيه و إن كانت بعض المعاصي يكبر بانطباق بعض العناوين المهلكه الموبقه عليه كالإصرار على الصغائر، فبذلك تصير المعصيه كبيره بعد ما لم تكن.

فبهذا يظهر أن المعاصي تنقسم إلى صغيره و كبيره بحسب قياس البعض إلى البعض بالنظر إلى نفس العمل و جرم الفعل، ثم هى مع ذلك تنقسم إلى القسمين بالنظر إلى أثر الذنب و وباله فى إحباطه للثواب بغلبته عليه أو نقصه منه إذا لم يغلبه فيزول الذنب بزوال مقدار يعادله من الثواب فإن لكل طاعه تأثيرا حسنا فى النفس يوجب رفعه مقامها و تخلصها من قذاره البعد و ظلمه الجهل كما أن لكل معصيه تأثيرا سيئا فيها يوجب خلاف ذلك من انحطاط محلها و سقوطها فى هاويه البعد و ظلمه الجهل.

فإذا اقترب الإنسان شيئا من المعاصي و قد هيا لنفسه شيئا من النور و الصفاء بالطاعه فلا بد من أن يتصادم ظلمه المعصيه و نور الطاعه فإن غلبت ظلمه المعصيه و وبال الذنب نور الطاعه و ظهرت عليه أحبطته، و هذه هى المعصيه الكبيره، و إن غلبت الطاعه بما لها من النور و الصفاء أزال ظلمه الجهل و قذاره الذنب بطلان مقدار

ص: ٣٢٨

(١-١) نقله الفخر الرازى فى تفسيره عن الغزالي فى منتخبات كتاب الإحياء.

يعادل ظلمه الذنب من نور الطاعه، و يبقى الباقي من نورها و صفائها تتنور و تصفو به النفس، و هذا معنى التحابط، و هو بعينه معنى غفران الذنوب الصغيره و تكفير السيئات، و هذا النوع من المعاصي هي المعاصي الصغيره.

و أما تكافؤ السيئه و الحسنه بما لهما من العقاب و الثواب فهو و إن كان مما يحتمله العقل في بادى النظر، و لازمه صحه فرض إنسان أعزل لا طاعه له و لا معصيه، و لا نور لنفسه و لا ظلمه لكن يبطله قوله تعالى: «فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَ فَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ» .

انتهى ملخصا.

و قد رده الرازى بأنه يبتنى على أصول المعتزله الباطله عندنا، و شدد النكير على الرازى فى المنار قائلا:

و إذا كان هذا (يعنى انقسام المعصيه إلى الصغيره و الكبيره فى نفسها) صريحا فى القرآن فهل يعقل أن يصح عن ابن عباس إنكاره؟ لا بل روى عبد الرزاق عنه أنه قيل له: هل الكبائر سبع؟ فقال: هي إلى السبعين أقرب، و روى ابن جبير:

أنه قال: هي إلى السبعمائنه أقرب، و إنما عزى القول بإنكار تقسيم الذنوب إلى صغائر و كبائر إلى الأشعريه.

و كأن القائلين بذلك منهم أرادوا أن يخالفوا به المعتزله و لو بالتأويل كما يعلم من كلام ابن فورك فإنه صحح كلام الأشعريه و قال: معاصى الله كلها كبائر، و إنما يقال لبعضها: صغيره و كبيره بإضافه (1)، و قالت المعتزله: الذنوب على ضربين:

صغائر و كبائر، و هذا ليس بصحيح انتهى، و أول الآيه تأويلا بعيدا.

و هل يثول الآيات و الأحاديث لأجل أن يخالف المعتزله و لو فيما أصابوا فيه؟ لا يبعد ذلك فإن التعصب للمذاهب هو الذى صرف كثيرا من العلماء الأزكيا عن إفاده أنفسهم و أمتهم بفتنتهم، و جعل كتبهم فتنه للمسلمين اشتغلوا بالجدل فيها عن حقيقه الدين، و سترى ما ينقله الرازى عن الغزالي، و يردده لأجل ذلك، و أين الرازى من الغزالي، و أين معاويه من على. انتهى. و يشير فى آخر كلامه إلى ما نقلناه عن الغزالي و الرازى.

ص: ٣٢٩

---

(١-١) أى الإضافه بحسب قصود المعاصى المختلفه لا إضافه بعض المعاصى إلى بعضها فى نفسها.



و كيف كان فما ذكره الغزالي و إن كان وجيها في الجملة لكنه لا يخلو عن خلل من جهات.

الأولى: أن ما ذكره من انقسام المعاصي إلى الصغائر و الكبائر بحسب تحابط الثواب و العقاب لا ينطبق دائما على ما ذكره من الانقسام بحسب نفس المعاصي و متون الذنوب في أول كلامه فإن غالب المعاصي الكبيره المسلمه في نفسها يمكن أن يصادف في فاعله ثوابا كبيرا يغلب عليها و كذا يمكن أن تفرض معصيه صغيره تصادف من الثواب الباقي في النفس ما هو أصغر منها و أنقص، و بذلك يختلف الصغيره و الكبيره بحسب التقسيمين فمن المعاصي ما هي صغيره على التقسيم الأول كبيره بحسب التقسيم الثاني، و منها ما هي بالعكس فلا تطابق كلياً بين التقسيمين.

و الثانيه: أن التصادم بين آثار المعاصي و الطاعات و إن كان ثابتا في الجملة لكنه مما لم يثبت كلياً من طريق الظواهر الدينيه من الكتاب و السنه أبداً. و أى دليل من طريق الكتاب و السنه يدل على تحقق التزايل و التحابط بنحو الكليه بين عقاب المعاصي و ثواب الطاعات؟.

و الذى أجرى تفصيل البحث فيه من الحالات الشريفه النوريه النفسانيه و الحالات الأخرى الخسيسه الظلمانيه كذلك أيضاً، فإنها و إن كانت تتصادم بحسب الغالب و تتزايل و تتفانى لكن ذلك ليس على وجه كلي دائم بل ربما يثبت كل من الفضيله و الرذيله في مقامها و تتصالح على البقاء، و تقسم النفس كأن شيئاً منها للفضيله خاصه، و شيئاً منها للرذيله خاصه، فترى الرجل المسلم مثلاً- يأكل الربا و لا يلوى عن ابتلاع أموال الناس، و لا يصغى إلى استغائه المطلوب المستأصل المظلوم، و يجتهد في الصلوات المفروضه، و يبالي في خضوعه و خشوعه، أو أنه لا- يبالي في إهراق الدماء و هتك الأعراس و الإفساد في الأرض و يخلص لله أى إخلاص فى أمور من الطاعات و القربات، و هذا هو الذى يسميه علماء النفس اليوم بازدواج الشخصيه بعد تعددها و تنازعها، و هو أن تتنازع الميول المختلفه النفسانيه و تثور بعضها على بعض بالتزاحم و التعارض، و لا يزال الإنسان فى تعب داخلى من ذلك حتى تستقر الملكتان فتردوجان و تتصالحان و يغيب كل عند ظهور الأخرى و انتهاضها و إمساكها على فريستها كما عرفت من المثل المذكور آنفاً.

و الثالثه: أن لازم ما ذكره أن يلغو اعتبار الاجتناب فى تكفير السيئات فإن من لا يأتى بالكبائر لا لأنه يكف نفسه عنها مع القدره و التمايل النفسانى عليها بل لعدم قدرته عليها و عدم استطاعته منها فإن سيئاته تنحبط بالطاعات لغبه ثوابه على الفرض على ما له من العقاب و هو تكفير السيئات فلا يبقى لاعتبار اجتناب الكبائر وجه مرضى.

قال الغزالى فى الإحياء: اجتناب الكبيره إنما يكفر الصغيره إذا اجتنبها مع القدره و الإراده كمن يتمكن من امرأه و من مواععتها فيكف نفسه عن الوقاع فيقتصر على نظر أو لمس فإن مجاهده نفسه بالكف عن الوقاع أشد تأثيرا فى تنوير قلبه من إقدامه على النظر فى إظلامه فهذا معنى تكفيره، فإن كان عيننا أو لم يكن امتناعه إلا بالضروره للعجز أو كان قادرا و لكن امتنع لخوف أمر الآخره فهذا لا يصلح للتكفير أصلا، و كل من لا يشتهى الخمر بطبعه و لو أبيع له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التى هى من مقدماته كسماع الملاهى و الأوتار نعم من يشتهى الخمر و سماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهده عن الخمر و يطلقها فى السماع فمجاهدته النفس بالكف ربما يمحو عن قلبه الظلمه التى ارتفعت إليه من معصيه السماع فكل هذه أحكام أخرويه، انتهى.

و قال أيضا فى محل آخر: كل ظلمه ارتفعت إلى القلب لا- يمحوها إلا- نور يرتفع إليها بحسنه تضادها، و المتضادات هى المتناسبات فلذلك ينبغى أن تمحى كل سيئه بحسنه من جنسها لكى تضادها فإن البياض يزال بالسواد لا بالحراره و البروده و هذا التدريج و التحقيق من التلطف فى طريقه المحو، فالرجاء فيه أصدق و الثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات و إن كان ذلك أيضا مؤثرا فى المحو، انتهى كلامه.

و كلامه كما ترى يدل على أن المحبط للسيئات هو الاجتناب الذى هو الكف مع أنه غير لازم على هذا القول.

و الكلام الجامع الذى يمكن أن يقال فى المقام مستظهرا بالآيات الكريمه هو أن الحسنات و السيئات متحابطه فى الجمله غير أن تأثير كل سيئه فى كل حسنه و بالعكس بنحو النقص منه أو إفناؤه مما لا دليل عليه، و يدل عليه اعتبار حال الأخلاق و الحالات النفسانيه التى هى نعم العون فى فهم هذه الحقائق القرآنيه فى باب الثواب و العقاب.

و أما الكبائر و الصغائر من المعاصى فظاهر الآيه كما عرفت هو أن المعاصى بقياس

بعضها إلى بعض كقتل النفس المحترمه ظلما بالقياس إلى النظر إلى الأجنبيه و شرب الخمر بالاستحلال بالقياس إلى شربها بهوى النفس بعضها كبيره و بعضها صغيره من غير ظهور ارتباط ذلك بمسأله الإحباط و التكفير بالكلية.

ثم إن الآيه ظاهره فى أن الله سبحانه يعد لمن اجتنب الكبائر أن يكفر عنه سيئاته جميعا ما تقدم منها و ما تأخر على ما هو ظاهر إطلاق الآيه، و من المعلوم أن الظاهر من هذا الاجتناب أن يأتى كل مؤمن بما يمكنه من اجتناب الكبائر و ما يصدق فى موردہ الاجتناب من الكبائر لا أن يجتنب كل كبيره بالكف عنها فإن الملتفت أدنى التفات إلى سلسله الكبائر لا يرتاب فى أنه لا يتحقق فى الوجود من يميل إلى جميعها و يقدر عليها عامه أو يندر ندره ملحقه بالعدم، و تنزيل الآيه هذه المنزله لا يرتضيها الطبع المستقيم.

فالمراد أن من اجتنب ما يقدر عليه من الكبائر و تتوق نفسه إليه منها و هى الكبائر التى يمكنه أن يجتنبها كفر الله سيئاته سواء جانسها أو لم يجانسها.

و أما إن هذا التكفير للاجتناب بأن يكون الاجتناب فى نفسه طاعه مكفره للسيئات كما أن التوبه كذلك أو أن الإنسان إذا لم يقترب الكبائر خلى ما بينه و بين الصغائر و الطاعات الحسنه فالحسنات يكفرن سيئاته، و قد قال الله تعالى: **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** : «هود: ١١٤»، **ظاهر الآيه (إِنَّ تَجْتَنَّبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ الْآيَه)** أن للاجتناب دخلا فى التكفير، و إلا كان الأنسب بيان أن الطاعات يكفرن السيئات كما فى قوله: **إِنَّ الْحَسَنَاتِ الْآيَه**، أو إن الله سبحانه يغفر الصغائر مهما كانت من غير حاجه إلى سرد الكلام جمله شرطيه.

و الدليل على كبر المعصيه هو شدة النهى الوارد عنها أو الإبعاد عليها بالنار أو ما يقرب من ذلك سواء كان ذلك فى كتاب أو سنه من غير دليل على الحصر.

## بحث روائى

فى الكافى، عن الصادق (ع): \*الكبائر، التى أوجب الله عليها النار.

و فى الفقيه، و تفسير العياشى، عن الباقر (ع): \*فى الكبائر قال: كل ما أوعده الله عليها النار.

و في ثواب الأعمال، عن الصادق (ع) \* : من اجتنب ما أوعد الله عليه النار- إذا كان مؤمناً كفر الله عنه سيئاته و يدخله مدخلا كريماً، والكبائر السبع الموجبات:

قتل النفس الحرام، و عقوق الوالدين، و أكل الربا، و التعرب بعد الهجره، و قذف المحصنه، و أكل مال اليتيم، و الفرار من الزحف.

أقول: و الروايات من طرق الشيعة و أهل السنه في عد الكبائر كثيره سيمر بك بعضها و قد عد الشرك بالله فيما نذكر منها إحدى الكبائر السبع إلا في هذه الروايه و لعله (ع) أخرجه من بينها لكونه أكبر الكبائر و يشير إليه قوله: إذا كان مؤمناً.

و في المجمع: روى عبد العظيم بن عبد الله الحسنى عن أبى جعفر محمد بن على عن أبيه على بن موسى الرضا عن موسى بن جعفر (ع) قال \* : دخل عمرو بن عبيد البصرى- على أبى عبد الله جعفر بن محمد الصادق (ع)، فلما سلم و جلس تلا هذه الآيه:

الَّذِينَ يَجْتَبُونَ كِبَائِرَ الْإِنَّمِ وَالْفَوَاحِشَ ثُمَّ أَمْسَكَ، فقال أبو عبد الله: ما أسكتك؟ قال:

أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله، قال: نعم يا عمرو أكبر الكبائر الشرك بالله- لقول الله عز و جل: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، و قال: مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَاوَاهُ النَّارُ، و بعده اليأس من روح الله لأن الله يقول: لَا يَنفَعُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ، ثم الأيمن من مكر الله لأن الله يقول: فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ، و منها عقوق الوالدين لأن الله تعالى جعل العاق جباراً شقياً- فى قوله:

وَ بَرًّا بِوَالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا، و منها قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق لأنه يقول:

وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا الْآيَه، و قذف المحصنات لأن الله يقول:

إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ- لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَ الْمَآخِرَةِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ، و أكل مال اليتيم لقوله: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا الْآيَه، و الفرار من الزحف لأن الله يقول: وَ مَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ- فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَاوَاهُ جَهَنَّمَ وَ بئس المصير، و أكل الربا لأن الله يقول: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ- إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ، و يقول: فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ، و السحر لأن الله يقول: وَ لَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ، و الزنا لأن الله يقول: وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ- وَ يَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا، و اليمين الغموس لأن الله يقول: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ أَيْمَانِهِمْ

ثَمَنًا قَلِيلًا - أَوْلِيكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ الآيَه، و الغلول قال الله: وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، و منع الزكاه المفروضه لأن الله يقول: يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ الآيَه، و شهاده الزور و كتمان الشهاده لأن الله يقول:

وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ، و شرب الخمر لأن الله عدل بها عباده الأوثان، و ترك الصلاه متعمدا و شيئا مما فرض الله تعالى - لأن رسول الله ص يقول: من ترك الصلاه متعمدا فقد برىء من ذمه الله و ذمه رسوله، و نقض العهد و قطيعه الرحم لأن الله يقول: أَوْلِيكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ .

قال: فخرج عمرو بن عبيد له صراخ من بكائه و هو يقول: هلك من قال برأيه، و نازعكم فى الفضل و العلم.

أقول: و قد روى من طرق أهل السنه ما يقرب منه عن ابن عباس، و يتبين بالروايه أمران.

الأول: أن الكبيره من المعاصى ما اشتد النهى عنها إما بالإصرار و البلوغ فى النهى أو بالإيعاد بالنار، من الكتاب أو السنه كما يظهر من موارد استدلاله (ع)، و منه يظهر معنى ما مر فى (حديث الكافى): أن الكبيره ما أوجب الله عليها النار، و ما مر فى (حديث الفقيه، و تفسير العياشى): أن الكبيره ما أوعده الله عليها النار، فالمراد بإيجابها و إيعادها أعم من التصريح و التلويح فى كلام الله أو حديث النبى ص.

و أظن أن ما نقل فى ذلك عن ابن عباس أيضا كذلك فمراده بالإيعاد بالنار أعم من التصريح و التلويح فى قرآن أو حديث، و يشهد بذلك ما فى (تفسير الطبرى، عن ابن عباس قال: \*الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنه أو عذاب)، و يتبين بذلك أن ما نقل عنه أيضا فى (تفسير الطبرى، و غيره: كل ما نهى الله عنه فهو كبيره) ليس خلافا فى معنى الكبيره و إنما هو تكبير للمعاصى جميعا بقياس حقايره الإنسان إلى عظمه ربه كما مر.

و الثانى: أن حصر المعاصى الكبيره فى بعض ما تقدم و ما يأتى من الروايات، أو فى ثمانية، أو فى تسع كما فى بعض الروايات النبويه المرويّه من طرق السنه، أو فى عشرين كما فى هذه الروايه أو فى سبعين كما فى روايات أخرى كل ذلك باعتبار اختلاف

مراتب الكبر في المعصية كما يدل عليه ما في الروايه من قوله عند تعداد الكبائر:

و أكبر الكبائر الشرك بالله.

و في الدر المنثور، أخرج البخارى و مسلم و أبو داود و النسائى و ابن حاتم عن أبى هريره قال: \*قال رسول الله ص: اجتنبوا السبع الموبقات-قالوا: و ما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، و قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، و السحر، و أكل الربا، و أكل مال اليتيم، و التولى يوم الزحف، و قذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

و فيه، أخرج ابن حيان و ابن مردويه عن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده قال: \*كتب رسول الله ص إلى أهل اليمن كتابا-فيه الفرائض و السنن و الديات، و بعث به مع عمرو بن حزم.

قال: و كان فى الكتاب-أن أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة إشراك بالله-و قتل النفس المؤمنه بغير حق، و الفرار يوم الزحف، و عقوق الوالدين، و رمى المحصنه، و تعلم السحر، و أكل الربا، و أكل مال اليتيم.

و فيه، أخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد، عن أنس: \*سمعت النبى ص يقول:

ألا إن شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى، ثم تلا هذه الآيه: **إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ الْآيَه.**

## [سوره النساء (٤): الآيات ٣٢ الى ٣٥]

### اشاره

و لَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَ لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ وَ سَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢) وَ لِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَ الْأَقْرَبُونَ وَ الَّذِينَ عَقَدْتُمْ أَيْمَانَكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣) الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَ بِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَ اللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَ أَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَ اضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا (٣٤) وَ إِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَ حَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَبِيرًا (٣٥)

الآيات مرتبطة بما تقدم من أحكام المواريث و أحكام النكاح يؤكد بها أمر الأحكام السابقة، و يستنتج منها بعض الأحكام الكليه التي تصلح بعض الخلال العارضه فى المعاشره بين الرجال و النساء.

قوله تعالى: «وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ» التمنى قول الإنسان:

ليت كذا كان كذا، و الظاهر أن التسميه القول بذلك من باب توصيف اللفظ بصفه المعنى، و إنما التمنى إنشاء نحو تعلق من النفس نظير تعلق الحب بما تراه متعذرا أو كالمتعذر سواء أظهر ذلك بلفظ أو لم يظهر.

و ظاهر الآيه أنها مسوقه للنهى عن تمنى فضل و زياده موجوده ثابتة بين الناس، و أنه ناش عن تلبس بعض طائفتى الرجال و النساء بهذا الفضل، و أنه ينبغى الإعراض عن التعلق بمن له الفضل، و التعلق بالله بالسؤال من الفضل الذى عنده تعالى، و بهذا يتعين أن المراد بالفضل هو المزيه التى رزقها الله تعالى كلاً من طائفتى الرجال و النساء بتشريع الأحكام التى شرعت فى خصوص ما يتعلق بالطائفتين كليهما كمزيه الرجال على النساء فى عدد الزوجات، و زياده السهم فى الميراث، و مزيه النساء على الرجال فى وجوب جعل المهر لهن، و وجوب نفقتهن على الرجال.

فالنهى عن تمنى هذه المزيه التى اختص بها صاحبها إنما هو لقطع شجره الشر و الفساد من أصلها فإن هذه المزايا مما تتعلق به النفس الإنسانيه لما أودعه الله فى النفوس

من حبها و السعى لها لعمارها هذه الدار، فيظهر الأمر أولاً في صورته التمني فإذا تكرر تبدل حسداً مستبطناً فإذا أديم عليه فاستقر في القلب سرى إلى مقام العمل و الفعل الخارجى ثم إذا انضمت بعض هذه النفوس إلى بعض كان ذلك بلوى يفسد الأرض، و يهلك الحرث و النسل.

و من هنا يظهر أن النهى عن التمني نهى إرشادى يعود مصلحته إلى مصلحته حفظ الأحكام المشرعه المذكوره، و ليس بنهى مولوى.

و فى نسبه الفضل إلى فعل الله سبحانه، و التعبير بقوله: **بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ** إيقاظ لصفه الخضوع لأمر الله بإيمانهم به، و غريزه الحب المثاره بالتنبيه حتى يتنبه المفضل عليه أن المفضل بعض منه غير مبان.

قوله تعالى: **«لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَ لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ»** ذكر الراغب: أن الاكتساب إنما يستعمل فيما استفاده الإنسان لنفسه، و الكسب أعم مما كان لنفسه أو لغيره، و البيان المتقدم ينتج أن يكون هذه الجملة مبينه للنهى السابق عن التمني و بمنزله التعليل له أى لا تتمنوا ذلك فإن هذه المزيه إنما وجدت عند من يختص بها لأنه اكتسبها بالنفسيه التى له أو بعمل بدنه فإن الرجال إنما اختصوا بجواز اتخاذ أربع نسوه مثلاً و حرم ذلك على النساء لأن موقعهم فى المجتمع الإنسانى موقع يستدعى ذلك دون موقع النساء، و خصوا فى الميراث بمثل حظ الأثنيين لذلك أيضاً، و كذلك النساء خصصن بنصف سهم الرجال و جعل نفقتهن على الرجال و خصصن بالمهر لاستدعاء موقعهن ذلك، و كذلك ما اكتسبته إحدى الطائفتين من المال بتجاره أو طريق آخر هو الموجب للاختصاص، و ما الله يريد ظلماً للعباد.

و من هنا يظهر أن المراد بالاكتساب هو نوع من الحيازه و الاختصاص أعم من أن يكون بعمل اختيارى كالاكتساب بصنعه أو حرفه أو لا يكون بذلك لكنه ينتهى إلى تلبس صاحب الفضل بصفه توجب له ذلك كتلبس الإنسان بذكوريه أو أنوثيه توجب له سهماً و نصيباً كذا.

و أئمه اللغه و إن ذكروا فى الكسب و الاكتساب أنهما يختصان بما يحوزه الإنسان



بعمل اختياري كالطلب ونحوه لكنهم ذكروا أن الأصل في معنى الكسب هو الجمع، وربما جاز أن يقال: اكتسب فلان بجماله الشهرة ونحو ذلك، وفسر الاكتساب في الآية بذلك بعض المفسرين، وليس من البعيد أن يكون الاكتساب في الآية مستعملا فيما ذكر من المعنى على سبيل التشبيه والاستعارة.

و أما كون المراد من الاكتساب في الآية ما يتحراه الإنسان بعمله، ويكون المعنى: للرجال نصيب مما استفادوه لأنفسهم من المال بعملهم وكذا النساء ويكون النهى عن التمني نهيا عن تمنى ما بيد الناس من المال الذي استفادوه بصنعه أو حرفه فهو وإن كان معنى صحيحا في نفسه لكنه يوجب تضيق دائره معنى الآية، وانقطاع رابطتها مع ما تقدم من آيات الإرث والنكاح.

و كيف كان فمعنى الآية على ما تقدم من المعنى: لا تتمنوا الفضل والمزيه المالى وغير المالى الذى خص الله تعالى به أحد القبيلين من الرجال والنساء ففضل به بعضكم على بعض فإن ذلك الفضل أمر خص به من خص به لأنه أحرزه بنفسيته فى المجتمع الإنسانى أو بعمل يده بتجاره ونحوها، وله منه نصيب، وإنما ينال كل نصيبه مما اكتسبه.

□  
قوله تعالى: «وَسِئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ»، الإنعام على الغير بشيء مما عند المنعم لما كان غالبا بما هو زائد لا حاجه للمنعم إليه سمي فضلا، ولما صرف الله تعالى وجوه الناس عن العناية بما أوتى أرباب الفضل من الفضل والرغبه فيه، وكان حب المزاياء الحيويه بل التفرد بها والتقدم فيها والاستعلاء من فطريات الإنسان لا يسلب عنه حيناً صرفهم تعالى إلى نفسه، ووجه وجوههم نحو فضله، وأمرهم أن يعرضوا عما فى أيدي الناس، و يقبلوا إلى جنابه، و يسألوا من فضله فإن الفضل بيد الله، وهو الذى أعطى كل ذى فضل فضله فله أن يعطيكم ما تزيدون به و تفضلون بذلك على غيركم ممن ترغبون فيما عنده، و تتمنون ما أعطيه.

و قد أبهم هذا الفضل الذى يجب أن يسأل منه بدخول لفظه «مِنْ» عليه، وفيه من الفائدة أو لا التعليم بأدب الدعاء والمسأله من جنابه تعالى فإن الأليق بالإنسان المبنى على الجهل بما ينفعه و يضره بحسب الواقع إذا سأل ربه العالم بحقيقه ما ينفع خلقه و ما يضرهم، القادر على كل شيء أن يسأله الخير فيما تتوق نفسه إليه، و لا- يطنب فى تشخيص ما يسأله منه و تعيين الطريق إلى وصوله، فكثيرا ما رأينا من كانت تتوق نفسه إلى حاجه من الحوائج الخاصه كمال أو ولد أو جاه و منزله أو صحه و عافيه و كان

يلجح في الدعاء و المسأله لأجلها لا- يريد سواها ثم لما استجيب دعاؤه، و أعطى مسأله كان في ذلك هلاكه و خيبه سعيه في الحياه.

و ثانيا:الإشاره إلى أن يكون المسئول ما لا يبطل به الحكمه الإلهيه في هذا الفضل الذى قرره الله تعالى بتشريع أو تكوين، فمن الواجب أن يسألوا شيئا من فضل الله الذى اختص به غيرهم فلو سأل الرجال ما للنساء من الفضل أو بالعكس ثم أعطاهم الله ذلك بطلت الحكمه و فسدت الأحكام و القوانين المشرعه فافهم.

فينبغى للإنسان إذا دعا الله سبحانه عند ما ضاقت نفسه لحاجه أن لا يسأله ما فى أيدي الناس مما يرفع حاجته بل يسأله مما عنده و إذا سأله مما عنده أن لا يعلم لربه الخبير بحاله طريق الوصول إلى حاجته بل يسأله أن يرفع حاجته بما يعلمه خيرا من عنده.

و أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فتعليل للنهي فى صدر الآيه أى لا تتمنوا ما أعطاه الله من فضله من أعطاه الله إن الله بكل شىء عليم لا يجهل طريق المصلحه و لا يخطئ فى حكمه.

### كلام فى حقيقه قرآنيه

اختلاف القرائح و الاستعدادات فى اقتناء مزايا الحياه فى أفراد الإنسان مما ينتهى إلى أصول طبيعيه تكوينيه لا مناص عن تأثيرها فى فعليه اختلاف درجات الحياه و على ذلك جرى الحال فى المجتمعات الإنسانيه من أقدم عهودها إلى يومنا هذا فيما نعلم.

فقد كانت الأفراد القويه من الإنسان يستعبدون الضعفاء و يستخدمونهم فى سبيل مشترياتهم و هوى نفوسهم من غير قيد أو شرط، و كان لا يسع لأولئك الضعفاء المساكين إلا الانقياد لأوامرهم، و لا يهتدون إلا إلى إجابتهم بما يشتهونه و يريدونه منهم لكن القلوب ممتلئه غيظا و حنقا و النفوس متربصه و لا يزال الناس على هذه السنه التى ابتدأت سنه شيوخيه و انتهت إلى طريقه ملوكيه و إمبراطوريه.

حتى إذا وفق النوع الإنسانى بالنهضه بعد النهضه على هدم هذه البنيه المتغلبه و إلزام أولياء الحكومه و الملك على اتباع الدساتير و القوانين الموضوعه لصالح المجتمع و سعاده فارتحلت بذلك حكومه الإيرادات الجزافيه، و سيطره السنن الاستبداديه ظاهرا و ارتفع

اختلاف طبقات الناس و انقسامهم إلى مالك حاكم مطلق العنان و مملوك محكوم مأخوذ بزمامه غير أن شجره الفساد أخذت فى النمو فى أرض غير الأرض، و منظر غير منظره السابق، و الثمره هى الثمره، و هو تمايز الصفات باختلاف الثروه بتراكم المال عند بعض، و صفاره الكف عند آخر، و بعد ما بين القبيلين بعدا لا يتمالك به المثرى الواجد من نفسه إلا أن ينفذ بثروته فى جميع شئون حياه المجتمع، و لا المسكين المعدم إلا أن ينهض للبراز و يقاوم الاضطهاد.

فاستتبع ذلك سنه الشيوعيه القائله بالاشتراك فى مواد الحياه و إلغاء المالكيه، و إبطال رءوس الأموال، و أن لكل فرد من المجتمع أن يتمتع بما عملته يده و هياه كماله النفسانى الذى اكتسبه فانقطع بذلك أصل الاختلاف بالثروه و الجده غير أنه أورث من وجود الفساد ما لا يكاد تصيبه رميه السنه السابقه و هو بطلان حريه إرادته الفرد، و انسلاب اختياره، و الطبيعه تدفع ذلك، و الخلقه لا توافقه، و هيهات أن يعيش ما يرغب الطبيعه و يضطهد الخلقه.

على أن أصل الفساد مع ذلك مستقر على قراره فإن الطبيعه الإنسانيه لا تنشط إلا لعمل فيه إمكان التميز و السبق، و رجاء التقدم و الفخر و مع إلغاء التمايزات تبطل الأعمال، و فيه هلاك الإنسانيه، و قد احتالوا لذلك بصرف هذه التمايزات إلى الغايات و المقاصد الافتخاريه التشريفيه غير الماديه، و عاد بذلك المحذور جذعا فإن الإنسان إن لم يدعن بحقيقتها لم يخضع لها، و إن أذعن بها كان حال التمايز بها حال التمايز المادى.

و قد احتالت الديمقراطيه لدفع ما تسرب إليها من الفساد بإيضاح مفاسد هذه السنه بتوسعه التبليغ و بضرب الضرائب الثقيله التى تذهب بجانب عظيم من أرباح المكاسب و المتاجر، و لما ينفعهم ذلك فظهور ديب الفساد فى سنه مخالفهم لا يسد طريق هجوم الشر على سنتهم أنفسهم و لا ذهاب جل الربح إلى بيت المال يمنع المترفين عن إترافهم و مظالمهم، و هم يحيلون مساعيهم لمقاصدهم من تملك المال إلى التسلط و تداول المال فى أيديهم فالمال يستفاد من التسلط و وضع اليد عليه و إدارته ما يستفاد من ملكه.

فلا هؤلاء عالجوا الداء و لا أولئك، و لا دواء بعد الكى، و ليس إلا لأن الذى جعله البشر غايه و بغيه لمجتمعه، و هو التمتع بالحياه الماديه بوصله تهدى إلى قطب الفساد، و لن تنقلب عن شأنها أينما حولت، و مهما نصبت.

و الذى يراه الإسلام لقطع منابت هذا الفساد أن حرر الناس فى جميع ما يهديهم إليه الفطره الإنسانيه، ثم قرب ما بين الطبقتين برفع مستوى حياه الفقراء بما وضع من الضرائب الماليه و نحوها، و خفض مستوى حياه الأغنياء بالمنع عن الإسراف و التبذير و التظاهر بما يبعدهم من حاق الوسط، و تعديل ذلك بالتوحيد و الأخلاق، و صرف الوجوه عن المزايا الماديه إلى كرامه التقوى و ابتغاء ما عند الله من الفضل.

و هو الذى يشير إليه قوله تعالى: **وَ سِئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ الْآيَةَ**، و قوله: **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**: «الحجرات: ١٣»، و قوله: **فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ**: «الذاريات: ٥٠»، و قد بينا فيما تقدم أن صرف وجوه الناس إلى الله سبحانه يستتبع اعتناءهم بأمر الأسباب الحقيقيه الواقعيه فى تحرى مقاصدهم الحيويه من غير أن يستتبع البطاله فى اكتساب معيشه أو الكسل فى ابتغاء سعاده فليس قول القائل: إن الإسلام دين البطاله و الخمود عن ابتغاء المقاصد الحيويه الإنسانيه إلا- رمية من غير مرمى جهلاء هذا ملخص القول فى هذا المقصد، و قد تكرر الكلام فى أطرافه تفصيلا فيما تقدم من مختلف المباحث من هذا الكتاب.

### [بيان]

قوله تعالى: **وَ لِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَ الْأَقْرَبُونَ** «الآيه»، الموالى جمع مولى، و هو الولى و إن كثر استعماله فى بعض المصاديق من الولايه كالمولى لسيد العبد لولايته عليه، و المولى للناصر لولايته على أمر المنصور، و المولى لابن العم لولايته على نكاح بنت عمه، و لا- يبعد أن يكون فى الأصل مصدرا ميميا أو اسم مكان أريد به الشخص المتلبس به بوجه كما نطلق اليوم الحكومه و المحكمه و نريد بهما الحاكم.

و العقد مقابل الحل، و اليمين مقابل اليسار، و اليمين اليد اليمنى، و اليمين الحلف و له غير ذلك من المعانى.

و وقوع الآيه مع قوله قبل: **وَ لَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ**، فى سياق واحد، و اشتمالها على التوصيه بإعطاء كل ذى نصيب نصيبه، و أن الله جعل لكل موالى مما ترك الوالدان و الأقربون يؤيد أن تكون الآيه أعنى قوله: **وَ لِكُلِّ جَعَلْنَا إِنْخِ بضميمه الآيه السابقه تلخيصا للأحكام و الأوامر التى فى آيات الإرث، و وصيه إجماليه لما فيها من الشرائع التفصيليه كما كان قوله قبل آيات الإرث: لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَ الْأَقْرَبُونَ الْآيَةَ** تشريعا إجماليا كضرب القاعده فى باب الإرث تعود إليه تفاصيل أحكام الإرث.

و لازلزم ذلك أن ينطبق من أجمل ذكره من الوراثة و المورثين على من ذكر منهم تفصيلا في آيات الإرث، فالمراد بالموالى جميع من ذكر وارثا فيها من الأولاد و الأبوين و الإخوه و الأخوات و غيرهم.

و المراد بالأصناف الثلاث المذكورين فى الآيه بقوله: **الْوَالِدَانِ وَ الْأَقْرَبُونَ وَ الَّذِينَ عَقَدْتُمْ أَيْمَانَكُمْ** المذكوره فى آيات الإرث، و هم ثلاثه: الوالدان و الأقربون و الزوجان فىطبق قوله: **الَّذِينَ عَقَدْتُمْ أَيْمَانَكُمْ** على الزوج و الزوجه.

فقوله: **«وَ لِكُلِّ»** أى و لكل واحد منكم ذكرا أو أنثى، جعلنا موالى أى أولياء فى الوراثه يرثون ما تركتم من المال، و قوله **مِمَّا تَرَكَ**، من فيه للابتداء متعلق بالموالى كأن الولايه نشأت من المال، أو متعلق بمحذوف أى يرثون أو يؤتون مما ترك، و ما ترك هو المال الذى تركه الميت المورث الذى هو الوالدان و الأقربون نسبا و الزوج و الزوجه.

و إطلاق **«الَّذِينَ عَقَدْتُمْ أَيْمَانَكُمْ»** على الزوج و الزوجه إطلاق كنائى فقد كان دأبهم فى المعاهدات و المعاهدات أن يضافوا فكان أيمانهم التى يضافون بها هى التى عقدت العقود، و أبرمت العهود فالمراد: الذين أوجدتم بالعقد سببىه الازدواج بينكم و بينهم.

و قوله: **«فَمَا تَوْهَمُ نَصَبَ بَيْنَهُمْ»** الضمير للموالى، و المراد بالنصيب ما بين فى آيات الإرث، و الفاء للتفريع، و الجملة متفرعه على قوله تعالى: **وَ لِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي**، ثم أكد حكمه بإيتاء نصيبهم بقوله: **إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا بِكُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا**.

و هذا الذى ذكرناه من معنى الآيه أقرب المعانى التى ذكروها فى تفسيرها، و ربما ذكروا أن المراد بالموالى العصبه دون الورثه الذين هم أولى بالميراث، و لا دليل عليه من جهة اللفظ بخلاف الورثه.

و ربما قيل: إن «من» فى قوله **مِمَّا تَرَكَ** **الْوَالِدَانِ وَ الْأَقْرَبُونَ**، بيانيه و المراد بما الورثه الأولياء، و المعنى: و لكل منكم جعلنا أولياء، يرثونه و هم الذين تركهم و خلفهم الوالدان و الأقربون.

و ربما قيل: إن المراد ب **الَّذِينَ عَقَدْتُمْ أَيْمَانَكُمْ** الحلفاء، فقد كان الرجل فى الجاهليه يعاقد الرجل فىقول: دمي دمك، و حربى حربك، و سلمى سلمك، و ترثنى و أرثك، و تعقل عنى و أعقل عنك، فىكون للحليف السدس من مال الحليف.

و على هذا فالجمله مقطوعه عما قبلها، و المعنى: و الحلفاء آتوهم سدسهم، ثم نسخ ذلك بقوله: وَ أَوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ. و قيل: إن المراد: آتوهم نصيبهم من النصر و العقل و الرفد، و لا ميراث، و على هذه فلا نسخ فى الآيه.

و ربما قيل: إن المراد بهم الذين آخى بينهم رسول الله ص فى المدينه، و كانوا يتوارثون بذلك بينهم ثم نسخ ذلك بآيه الميراث. و ربما قيل: أريد بهم الأدياء الذين كانوا يتبنونهم فى الجاهليه فأمروا فى الإسلام أن يوصوا لهم بوصيه، و ذلك قوله تعالى: فَأَتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ .

و هذه معان لا يساعدها سياق الآيه و لا لفظها على ما لا يخفى للباحث المتأمل، و لذلك أضربنا عن الإطناب فى البحث عما يرد عليها.

قوله تعالى: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَ بِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ» القيم هو الذى يقوم بأمر غيره، و القوام و القيام مبالغه منه.

و المراد بما فضل الله بعضهم على بعض هو ما يفضل و يزيد فيه الرجال بحسب الطبع على النساء، و هو زياده قوه التعقل فيهم، و ما يتفرع عليه من شده البأس و القوه و الطاقه على الشدائد من الأعمال و نحوها فإن حياه النساء حياه إحساسيه عاطفيه مبنيه على الرقه و اللطافه، و المراد بما أنفقوا من أموالهم ما أنفقوه فى مهورهن و نفقاتهن.

و عموم هذه العله يعطى أن الحكم المبنى عليها أعنى قوله: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ» غير مقصور على الأزواج بأن يختص القواميه بالرجل على زوجته بل الحكم مجعول لقبيل الرجال على قبيل النساء فى الجهات العامه التى ترتبط بها حياه القبيلين جميعا فالجهات العامه الاجتماعيه التى ترتبط بفضل الرجال كجهتى الحكومه و القضاء مثلا- اللتين يتوقف عليهما حياه المجتمع، إنما يقومان بالتعقل الذى هو فى الرجال بالطبع أزيد منه فى النساء، و كذا الدفاع الحربى الذى يرتبط بالشده و قوه التعقل كل ذلك مما يقوم به الرجال على النساء.

و على هذا فقوله: الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ذو إطلاق تام، و أما قوله بعد:

فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ

«إلخ» الظاهر فى الاختصاص بما بين الرجل و زوجته على ما سيأتى فهو

فرع من فروع هذا الحكم المطلق و جزئى من جزئياته مستخرج منه من غير أن يتقيد به إطلاقه.

قوله تعالى: «فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ» المراد بالصالح معناه اللغوى، وهو ما يعبر عنه بلياقه النفس. و القنوت هو دوام الطاعة و الخضوع.

و مقابلتها لقوله: وَ اللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ إِيَّاهُ تَفِيدُ أَنْ الْمُرَادُ بِالصَّالِحَاتِ الزَّوْجَاتِ الصَّالِحَاتِ، و أن هذا الحكم مضروب على النساء فى حال الازدواج لا مطلقا، و أن قوله: قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ -الذى هو إعطاء للأمر فى صورته التوصيف أى ليقنتن و ليحفظن- حكم مربوط بشئون الزوجيه و المعاشره المنزليه، و هذا مع ذلك حكم يتبع فى سعته و ضيقه علته أعنى قيمومه الرجل على المرأه قيمومه زوجيه فعليها أن تقنت له و تحفظه فيما يرجع إلى ما بينهما من شئون الزوجيه.

و بعبارة أخرى كما أن قيمومه قبيل الرجال على قبيل النساء فى المجتمع إنما تتعلق بالجهات العامه المشتركه بينهما المرتبطه بزياده تعقل الرجل و شدته فى البأس و هى جهات الحكومه و القضاء و الحرب من غير أن يبطل بذلك ما للمرأه من الاستقلال فى الإراده الفرديه و عمل نفسها بأن تريد ما أحببت و تفعل ما شاءت من غير أن يحق للرجل أن يعارضها فى شىء من ذلك فى غير المنكر فلا جناح عليهم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف كذلك قيمومه الرجل لزوجته ليست بأن لا تنفذ للمرأه فى ما تملكه إرادته و لا- تصرف، و لا- أن لا- تستقل المرأه فى حفظ حقوقها الفرديه و الاجتماعيه، و الدفاع عنها، و التوسل إليها بالمقدمات الموصلة إليها بل معناها أن الرجل إذ كان ينفق ما ينفق من ماله بإزاء الاستمتاع فعليها أن تطاوعه و تطيعه فى كل ما يرتبط بالاستمتاع و المباشره عند الحضور، و أن تحفظه فى الغيب فلا تخونه عند غيبته بأن توطئ فراشه غيره، و أن تمتع لغيره من نفسها ما ليس لغير الزوج التمتع منها بذلك، و لا تخونه فيما وضعه تحت يدها من المال، و سلطها عليه فى ظرف الازدواج و الاشتراك فى الحياه المنزليه.

فقوله: فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ أى ينبغى أن يتخذن لأنفسهن وصف الصلاح، و إذا كن صالحات فهن لا محاله قانتات، أى يجب أن يقنتن و يطعن أزواجهن إطاعه دائمه فيما أرادوا منهن مما له مساس بالتمتع، و يجب عليهن أن يحفظن جانبهم فى جميع ما لهم من الحقوق إذا غابوا.

و أما قوله: «بِمَا حَفِظَ اللَّهُ» فالظاهر أن ما مصدرية، و الباء للآله و المعنى:

أنهن قانتات لأزواجهن حافظات للغيب بما حفظ الله لهم من الحقوق حيث شرع لهم القيمومه، و أوجب عليهن الإطاعة و حفظ الغيب لهم.

و يمكن أن يكون الباء للمقابلة، و المعنى حينئذ: أنه يجب عليهن القنوت و حفظ الغيب في مقابله ما حفظ الله من حقوقهن حيث أحيا أمرهن في المجتمع البشرى، و أوجب على الرجال لهن المهر و النفقه، و المعنى الأول أظهر.

و هناك معان ذكروها في تفسير الآيه أضربنا عن ذكرها لكون السياق لا يساعد على شيء منها.

قوله تعالى: «وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ» ، النشوز العصيان و الاستكبار عن الطاعة، و المراد بخوف النشوز ظهور آياته و علائمه، و لعل التفرغ على خوف النشوز دون نفسه لمراعاه حال العظه من بين العلاجات الثلاث المذكوره فإن الوعظ كما أن له محلا مع تحقق العصيان كذلك له محل مع بدو آثار العصيان و علائمه.

و الأمور الثلاثة أعنى ما يدل عليه قوله: «فَعِظُوهُنَّ وَ اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَ اضْرِبُوهُنَّ» و إن ذكرت معا و عطف بعضها على بعض بالواو فهي أمور مترتبة تدريجية: فالموعظه، فإن لم تنجح فالهجره، فإن لم تنفع فالضرب، و يدل على كون المراد بها التدرج فيها أنها بحسب الطبع و سائل للزجر مختلفه آخذة من الضعف إلى الشده بحسب الترتيب المأخوذ في الكلام، فالترتيب مفهوم من السياق دون الواو.

و ظاهر قوله: «وَ اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ» أن تكون الهجره مع حفظ المضاجعه كالأستدبار و ترك الملاعبه و نحوها، و إن أمكن أن يراد من مثل الكلام ترك المضاجعه لكنه بعيد، و ربما تأيد المعنى الأول بإتيان المضاجع بلفظ الجمع فإن المعنى الثانى لا حازه فيه إلى إفاده كثره المضجع ظاهرا.

قوله تعالى: «فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا» «إلخ» أى لا تتخذوا عليهن عله تعتلون بها في إيدائهن مع إطاعتهن لكم، ثم علل هذا النهى بقوله: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا»، و هو إيدان لهم أن مقام ربهم على كبير فلا يغرنهم ما يجدونه من القوه و الشده في أنفسهم فيظلموهن بالاستعلاء و الاستكبار عليهن.



قوله تعالى: «وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا»، الشقاق البينونه و العداوه، و قد قرر الله سبحانه بعث الحكّمين ليكون أبعد من الجور و التحكم، و قوله: «إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا» أى إن يرد الزوجان نوعاً من الإصلاح من غير عناد و لجاج فى الاختلاف، فإن سلب الاختيار من أنفسهما و إلقاء زمام الأمر إلى الحكّمين المرضيين يوجب وفاق البين.

و أسند التوفيق إلى الله مع وجود السبب العادى الذى هو إرادتهما الإصلاح، و المطاوعه لما حكم به الحكّمان لأنه تعالى هو السبب الحقيقى الذى يربط الأسباب بالمسببات و هو المعطى لكل ذى حق حقه، ثم تم الكلام بقوله: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا»، و مناسبتة ظاهره.

### كلام فى معنى قيمومه الرجال على النساء

تقويه القرآن الكريم لجانب العقل الإنسانى السليم، و ترجيحه إياه على الهوى و اتباع الشهوات، و الخضوع لحكم العواطف و الإحساسات الحاده و حظه و ترغيبه فى اتباعه، و توصيته فى حفظ هذه الوديعه الإلهيه عن الضيعه مما لا ستر عليه، و لا حاجه إلى إيراد دليل كتابى يؤدى إليه فقد تضمن القرآن آيات كثيره متكرره فى الدلاله على ذلك تصريحا و تلويحا و بكل لسان و بيان.

و لم يهمل القرآن مع ذلك أمر العواطف الحسنه الطاهره، و مهام آثارها الجميله التى يتربى بها الفرد، و يقوم بها صلب المجتمع كقوله: «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ» -الفتح ٢٩، و قوله: «لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً» -الروم ٢١، و قوله:

«قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ الْأَعْرَافِ ٣٢، لكنه عدلها بالموافقه لحكم العقل فصار اتباع حكم هذه العواطف و الميول اتباعاً لحكم العقل.

و قد مر فى بعض المباحث السابقه أن من حفظ الإسلام لجانب العقل و بنائه أحكامه المشرعه على ذلك أن جميع الأعمال و الأحوال و الأخلاق التى تبطل استقامه العقل فى حكمه و توجب خبطه فى قضائه و تقويمه لشئون المجتمع كسرب الخمر و القمار و أقسام المعاملات الغرريه و الكذب و البهتان و الافتراء و الغيبه كل ذلك محرّمه فى الدين.

والباحث المتأمل يحدس من هذا المقدار أن من الواجب أن يفوض زمام الأمور الكليه و الجهات العامه الاجتماعيه-التي ينبغي أن تدبرها قوه التعقل و يجتنب فيها من حكومه العواطف و الميول النفسانيه كجهات الحكومه و القضاء و الحرب-إلى من يمتاز بمزيد العقل و يضعف فيه حكم العواطف،و هو قبيل الرجال دون النساء.

و هو كذلك،قال الله تعالى: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ» و السنه النبويه التي هي ترجمان البيانات القرآنيه بينت ذلك كذلك،و سيرته(ص)جرت على ذلك أيام حياته فلم يول امرأه على قوم و لا- أعطى امرأه منصب القضاء و لا- دعاهن إلى غزاه بمعنى دعوتهن إلى أن يقاتلن.

و أما غيرها من الجهات كجهات التعليم و التعلم و المكاسب و التمريض و العلاج و غيرها مما لا ينافى نجاح العمل فيها مداخله العواطف فلم تمنعهن السنه ذلك،و السيره النبويه تمضى كثيرا منها،و الكتاب أيضا لا يخلو من دلاله على إجازته ذلك في حقهن فإن ذلك لازم ما أعطين من حريه الإيراده و العمل في كثير من شئون الحياه إذ لا معنى لإخراجهن من تحت ولايه الرجال،و جعل الملك لهن بحيالهن ثم النهى عن قيامهن بإصلاح ما ملكته أيديهن بأى نحو من الإصلاح،و كذا لا معنى لجعل حق الدعوى أو الشهاده لهن ثم المنع عن حضورهن عند الوالى أو القاضى و هكذا.

اللهم إلا- فيما يزاحم حق الزوج فإن له عليها قيمومه الطاعه فى الحضور،و الحفظ فى الغيبه،و لا يمضى لها من شئونها الجائزه ما يزاحم ذلك.

## بحث روائى

فى المجمع،\*فى قوله تعالى: وَ لَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ الْآيَةَ: أى لا يقل أحدكم: ليت ما أعطى فلان من النعمه و المرأه الحسنى كان لى-فإن ذلك يكون حسدا،و لكن يجوز أن يقول: اللهم أعطني مثله، قال: و هو المروى عن أبى عبد الله(ع).

أقول: و روى العياشى فى تفسيره عن الصادق(ع)\*مثله .

فى تفسير البرهيان،عن ابن شهر آشوب عن الباقر و الصادق(ع)\*فى قوله تعالى: ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، و فى قوله: وَ لَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ

بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ

-أنهما نزلتا فى على(ع).

أقول: و الروايه من باب الجرى و التطبيق.

و فى الكافى، و تفسير القمى، عن إبراهيم بن أبى البلاد عن أبىه عن أبى جعفر(ع) قال\*: ليس من نفس إلا- و قد فرض الله لها رزقها- حاللا يأتيا فى عافيه، و عرض لها بالحرام من وجه آخر، فإن هى تناولت شيئا من الحرام- قاصها به من الحلال الذى فرض لها- و عند الله سواهما فضل كثير، و هو قول الله عز و جل: وَ سَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ::

أقول: و رواه العياشى عن إسماعيل بن كثير رفعه إلى النبى ص، و روى هذا المعنى أيضا عن أبى الهذيل عن الصادق(ع)، و روى قريبا منه أيضا القمى فى تفسيره عن الحسين بن مسلم عن الباقر(ع).

و قد تقدم كلام فى حقيقه الرزق و فرضه و انقسامه إلى الرزق الحلال و الحرام فى ذيل قوله: وَ اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ : «البقره: ٢١٢»، فى الجزء الثانى فراجع.

و فى صحيح الترمذى، عن ابن مسعود قال\*: قال رسول الله ص: سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن جرير من طريق حكيم بن جبير عن رجل لم يسمه قال\*: قال رسول الله ص: سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل، و إن من أفضل العباده انتظار الفرج.

و فى التهذيب، بإسناده عن زراره قال\*: سمعت أبا عبد الله(ع) يقول:

«وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَ الْأَقْرَبُونَ»

قال: عنى بذلك أولى الأرحام فى الموارث، و لم يعن أولياء النعمه- فأولاهم بالميت أقربهم إليه من الرحم التى تجره إليها.

و فيه، أيضا بإسناده عن إبراهيم بن محرز قال\*: سأل أبا جعفر(ع) رجل و أنا عنده قال: فقال رجل لامرأته: أمرك بيدك، قال: أنى يكون هذا و الله يقول:

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ

? ليس هذا بشىء.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن أبى حاتم من طريق أشعث بن عبد الملك عن الحسن قال\*:

جاءت امرأه إلى النبى ص تستعدى على زوجها أنه لطمها، فقال رسول الله ص:



القصاص، فأَنْزَلَ اللهُ: الرَّجُلَ جُلُودًا مِثْلَ مَا جُرِيَ بِهِ مِنَ النِّسَاءِ الْآيَةَ - فرجعت بغير قصاص:

أقول: ورواه بطرق أخرى عنه (ص)،

و في بعضها: قال رسول الله ص:

أردت أمرا و أراد الله غيره، و لعل المورد كان من موارد النشوز، و إلا فذيل الآية:

«فَإِنْ أَطَعْتُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا»

ينفي ذلك.

و في ظاهر الروايات إشكال آخر من حيث إن ظاهرها أن قوله (ص): القصاص بيان للحكم عن استفتاء من السائل لا قضاء فيما لم يحضر طرفا الدعوى، و لازمه أن يكون نزول الآية تخطئه للنبي ص في حكمه و تشريعه و هو يناهى عصمته، و ليس بنسخ فإنه رفع حكم قبل العمل به، و الله سبحانه و إن تصرف في بعض أحكام النبي ص وضعاً أو رفعا لكن ذلك إنما هو في حكمه و رأيه في موارد ولايته لا في حكمه فيما شرعه لأُمَّته فإن ذلك تخطئه باطله.

و في تفسير القمي،\*: في روايه أبي الجارود عن أبي جعفر (ع): في قوله: فَأَنْتَاتٍ يَقُولُ: مطيعات.

و في المجمع،\*: في قوله تعالى: فَعِظُوهُنَّ وَ اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَ اضْرِبُوهُنَّ الْآيَةَ،:

عن أبي جعفر (ع) قال: يحول ظهره إليها،

و في معنى الضرب عن أبي جعفر (ع):

أنه الضرب بالسواك.

و في الكافي، بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله (ع) \*: في قوله: «فَابْتَغُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَ حَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا» قال: الحكمان يشترطان إن شاء فرقا، و إن شاء جمعا فإن فرقا فجائز، و إن جمعا فجائز.

أقول: و روى هذا المعنى و ما يقرب منه بعده طرق آخر فيه و في تفسير العياشي،.

و في تفسير العياشي، عن ابن مسلم عن أبي جعفر (ع) قال: \*: قضى أمير المؤمنين (ع) في امرأه تزوجها رجل، و شرط عليها و على أهلها إن تزوج عليها امرأه - و هجرها أو أتى عليها سرية فإنها طالق، فقال: شرط الله قبل شرطكم إن شاء و في بشرطه، و إن شاء أمسك امرأته و نكح عليها - و تسرى عليها و هجرها إن أتت سبيل ذلك، قال الله في كتابه: «فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْلِي وَ ثَلَاثَ وَ رُبَاعَ» و قال: «أَحِلَّ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» و قال: «وَ اللَّائِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَ وَ اهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ»



وَ اضْرِبُوهُنَّ - فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا

و فى الدر المنثور، أخرج البيهقى عن أسماء بنت يزيد الأنصارية \* أنها أتت النبى ص و هو بين أصحابه-فقلت: بأبى أنت و أمى  
إنى وافده النساء إليك، و أعلم نفسى لك الفداء- أنه ما من امرأه كائنه فى شرق و لا غرب-سمعت بمخرجى هذا إلا و هى على  
مثل رأى.

إن الله بعثك بالحق إلى الرجال و النساء-فآمننا بك و بإلهك الذى أرسلك، و إنا معشر النساء محصورات مقسورات، قواعد  
بيوتكم، و مقضى شهواتكم، و حاملات أولادكم، و إنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمعه و الجماعات، و عياده المرضى، و  
شهود الجنائز، و الحج بعد الحج، و أفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله، و إن الرجل منكم إذا خرج حاجا أو معتمرا-أو مرابطا  
حفظنا لكم أموالكم، و غزلنا لكم أثوابكم، و ربنا لكم أموالكم (1)، فما نشارككم فى الأجر يا رسول الله؟ فالتفت النبى ص إلى  
أصحابه بوجهه كله، ثم قال: هل سمعتم مقاله امرأه قط-أحسن من مساءلتها فى أمر دينها من هذه؟ فقالوا: يا رسول الله ما ظننا أن  
امرأه تهتدى إلى مثل هذا، فالتفت النبى ص إليها-ثم قال لها: انصرفى أيتها المرأه-و أعلمى من خلفك من النساء: أن حسن تبعل  
إحداكن لزوجها، و طلبها مرضاته، و اتباعها موافقته يعدل ذلك كله، فأدبرت المرأه و هى تهلل و تكبر استبشارا.

أقول: و الروايات فى هذا المعنى كثيره مرويه فى جوامع الحديث من طرق الشيعة و أهل السنه،

و من أجمل ما روى فيه ما رواه فى الكافى، عن أبى إبراهيم موسى بن جعفر (ع): «جهاد المرأه حسن التبعل»، و من أجمع  
الكلمات لهذا المعنى مع اشتماله على أس ما بنى عليه التشريع ما فى نهج البلاغه،

و رواه أيضا فى الكافى، بإسناده عن عبد الله بن كثير عن الصادق (ع) عن على عليه أفضل السلام، و بإسناده أيضا عن الأصبغ بن  
نباته عنه (ع) فى رسالته إلى ابنه: إن المرأه ريحانه، و ليست بقهرمانه.

و ما روى فى ذلك عن النبى ص: «إنما المرأه لعبه من اتخذها فلا يضيعها» و قد كان يتعجب رسول الله ص: كيف تعانق المرأه  
بيد ضربت بها،

ففى الكافى، أيضا بإسناده عن أبى مريم عن أبى جعفر (ع) قال: قال رسول الله ص: «أ يضرب

ص: ٣٥٠

أحدكم المرأة ثم يظل معانقها؟!» و أمثال هذه البيانات كثيرة في الأحاديث، و من التأمل فيها يظهر رأى الإسلام فيها.

و لنرجع إلى ما كنا فيه من حديث أسماء بنت يزيد الأنصارية فنقول: يظهر من التأمل فيه و فى نظائره الحاكيه عن دخول النساء على النبي ص، و تكليمهن إياه فيما يرجع إلى شرائع الدين، و مختلف ما قرره الإسلام فى حقهن أنهن على احتجابهن و اختصاصهن بالأحور المنزليه من شئون الحياه غالبا لم يكن ممنوعات من المراوده إلى ولى الأمر، و السعى فى حل ما ربما كان يشكل عليهن، و هذه حريه الاعتقاد التى باحثنا فيها فى ضمن الكلام فى المرابطه الإسلاميه فى آخر سوره آل عمران.

و يستفاد منه و من نظائره أيضا أولا أن الطريقه المرضيه فى حياه المرأة فى الإسلام أن تشتغل بتدبير أمور المنزل الداخليه و تربيه الأولاد، و هذه و إن كانت سنه مسنونه غير مفروضه لكن الترغيب و التحريض الندبى-و الظرف ظرف الدين، و الجو جو التقوى و ابتغاء مرضاه الله، و إشار مثوبه الآخره على عرض الدنيا و التربيه على الأخلاق الصالحه للنساء كالعفه و الحياء و محبه الأولاد و التعلق بالحياه المنزليه- كانت تحفظ هذه السنه.

و كان الاشتغال بهذه الشئون و الاعتكاف على إحياء العواطف الطاهره المودعه فى وجودهن يشغلهن عن الورود فى مجامع الرجال، و اختلاطهن بهم فى حدود ما أباح الله لهن، و يشهد بذلك بقاء هذه السنه بين المسلمين على ساقها قرونا كثيره بعد ذلك حتى نفذ فيهن الاسترسال الغربى المسمى بحريه النساء فى المجتمع فجرت إليهن و إليهم هلاك الأخلاق، و فساد الحياه و هم لا- يشعرون، و سوف يعلمون، و لو أن أهل القرى آمنوا و اتقوا لفتح الله عليهم بركات من السماء، و أكلوا من فوقهم و من تحت أرجلهم و لكن كذبوا فأخذوا.

و ثانيا: أن من السنه المفروضه فى الإسلام منع النساء من القيام بأمر الجهاد كالقضاء و الولايه.

و ثالثا: أن الإسلام لم يهمل أمر هذه الحرمانات كحرمان المرأة من فضيله الجهاد فى سبيل الله دون أن تداركها، و جبر كسرها بما يعادلها عنده بمزايا و فضائل فيها مفاخر حقيقه كما أنه جعل حسن التبعل مثلا جهادا للمرأة، و هذه الصنائع و المكارم أو شك أن لا يكون لها عندنا- و ظرفنا هذا الظرف الحيوى الفاسد-قدر لكن الظرف





آيات سبع فيها حث على الإحسان و الإنفاق فى سبيل الله و وعد جميل عليه، و ذم على تركه إما بالبخل أو بالإنفاق مرءاه للناس.

قوله تعالى: «وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» هذا هو التوحيد غير أن المراد به التوحيد العملى، و هو إتيان الأعمال الحسنه-و منها الإحسان الذى هو مورد الكلام-طلباً لمرضاه الله و ابتغاء لثواب الآخره دون اتباع الهوى و الشرك به.

و الدليل على ذلك أنه تعالى عقب هذا الكلام أعنى قوله: «وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا

و، وعلله بقوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا، و ذكر أنه البخیل بماله و المنفق لرئاء الناس، فهم الذين يشركون بالله و لا يعبدونه وحده، ثم قال: وَ مَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ أَنْفَقُوا، و ظهر بذلك أن شركهم عدم إيمانهم باليوم الآخر، و قال تعالى: وَ لَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَصْتَلِمُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ: -ص: ٢٦- فبين أن الضلال باتباع الهوى -و كل شرك ضلال- إنما هو بنسيان يوم الحساب، ثم قال: أَمْ فَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ: «الجاثية: ٢٣» فبين أن اتباع الهوى عباده له و شرك به.

فتبين بذلك كله أن التوحيد العملى أن يعمل الإنسان ابتغاء مثوبه الله و هو على ذكر من يوم الحساب الذى فيه ظهور المثوبات و العقوبات، و أن الشرك فى العمل أن ينسى اليوم الآخر -و لو آمن به لم ينسه- و أن يعمل عمله لا لطلب مثوبه بل لما يزينه له هواه من التعلق بالمال أو حمد الناس و نحو ذلك، فقد أشخص هذا الإنسان هواه تجاه ربه، و أشرك به.

فالمراد بعباده الله و الإخلاص له فيها أن يكون طلبا لمرضاته، و ابتغاء لمثوبته لا لاتباع الهوى.

قوله تعالى: (وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) إلى قوله: «أَيُّمَانِكُمْ» الظاهر أن قوله:

### إِحْسَانًا

مفعول مطلق لفعل مقدر، تقديره: و أحسنوا بالوالدين إحسانا، و الإحسان يتعدى بالباء و إلى ما يقال: أحسنت به و أحسنت إليه، و قوله: وَ بِذِي الْقُرْبَى، هو و ما بعده معطوف على الوالدين، و ذو القربى القرابه، و قوله: وَ الْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَ الْجَارِ الْجُنْبِ قرينه المقابله فى الوصف تعطى أن يكون المراد بالجار ذى القربى الجار القريب دارا، و بالجار الجنب -و هو الأجنبى- الجار البعيد دارا،

و قد روى عن النبى ص: تحديد الجوار بأربعين ذراعا، و فى روايه: أربعون دارا، و لعل الروایتين ناظرتان إلى الجار ذى القربى و الجار الجنب.

و قوله: و الصاحب بالجنب هو الذى يصاحبك ملازما لجنبك، و هو بمفهومه يعم مصاحب السفر من رفقته الطريق و مصاحب الحضر و المنزل و غيرهم، و قوله: و ابن السبيل هو الذى لا يعرف من حاله إلا أنه سألك سبيل كأنه ليس له من ينتسب إليه إلا السبيل فهو ابنه، و أما كونه فقيرا ذا مسكنه عادما لزيد أو راحله فكأنه خارج

من مفهوم اللفظ، وقوله: «و ما ملكت أيمانكم المراد به العبيد و الإماء بقريته عده فى عداد من يحسن إليهم، و قد كثر التعبير عنهم بما ملكته الأيمان دون من ملكته.

قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا» المختال التائه المتبخر المسخر لخياله، و منه الخيل للفرس لأنه يتبخر فى مشيته، و الفخور كثير الفخر، و الوصفان أعنى الاختيال و كثره الفخر من لوازم التعلق بالمال و الجاه، و الإفراط فى حبهما، و لذلك لم يكن الله ليحب المختال الفخور لتعلق قلبه بغيره تعالى، و ما ذكره تعالى فى تفسيره بقوله: «الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْإِخْ وَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِذَاءَ النَّاسِ الْإِخْ بَيْن كُون الطائفتين معروضتين للخيلاء و الفخر: فالطائفه الأولى متعلقه القلب بالمال، و الثانيه بالجاه و إن كان بين الجاه و المال تلازم فى الجملة.

و كان من طبع الكلام أن يشتغل بذكر أعمالهما من البخل و الكتمان و غيرهما لكن بدأ بالوصفين ليدل على السبب فى عدم الحب كما لا يخفى.

قوله تعالى: «الَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْإِخْ وَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِذَاءَ النَّاسِ بِالْبُخْلِ» الآية أمرهم الناس بالبخل إنما هو بسيرتهم الفاسده و عملهم به سواء أمروا به لفظاً أو سكتوا فإن هذه الطائفه لكونهم أولى ثروه و مال يتقرب إليهم الناس و يخضعون لهم لما فى طباع الناس من الطمع ففعلهم أمر و زاجر كقولهم، و أما كتمانهم ما آتاهم الله من فضله فهو تظاهرهم بظاهر الفاقد المعدم للمال لتأذيبهم من سؤال الناس ما فى أيديهم، و خوفهم على أنفسهم لو منعوا و خشيتهم من توجه النفوس إلى أموالهم، و المراد بالكافرين الساترون لنعمه الله التى أنعم بها، و منه الكافر المعروف لستره على الحق بإنكاره.

قوله تعالى: «وَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِذَاءَ النَّاسِ»، الإخ أى لمراءاتهم، و فى الآية دلالة على أن الرئاء فى الإنفاق -أو هو مطلقاً- شرك بالله كاشف عن عدم الإيمان به لاعتماد المرائى على نفوس الناس و استحسانهم فعله، و شرك من جهة العمل لأن المرائى لا يريد بعمله ثواب الآخرة، و إنما يريد ما يرجوه من نتائج إنفاقه فى الدنيا، و على أن المرائى قرين الشيطان و ساء قريناً.

قوله تعالى: «وَ مَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا» الآية، استفهام للتأسف أو التعجب، و فى الآية دلالة على أن الاستنكاف عن الإنفاق فى سبيل الله ناش من فقدان التلبس بالإيمان بالله و باليوم الآخر حقيقه و إن تلبس به ظاهراً.

و قوله: «وَ كَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا» تمهيد لما في الآيه التاليه من البيان، و الأمس لهذه الجمله بحسب المعنى أن تكون حالا.

قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ» الآيه. المثلث هو الزنه، و الذره هو الصغير من النمل الأحمر، أو هو الواحد من الهباء المبتوث في الهواء الذى لا يكاد يرى صغرا. و قوله: «مِثْقَالَ ذَرَّةٍ» نائبا مناب المفعول المطلق أى لا يظلم ظلما يعدل مثلثا ذره وزنا.

و قوله: «وَ إِنَّ تَكُ حَسِينَةً» قرئ برفع حسنه و بنصبها فعلى تقدير الرفع كان تامه، و على تقدير النصب تقديره: و إن تكن المثلث المذكور حسنه يضاعفها، و تأنيث الضمير فى قوله: «إِنَّ تَكُ» إما من جهة تأنيث الخبر أو لكسب المثلث التأنيث بالإضافة إلى ذره.

و السياق يفيد أن تكون الآيه بمنزله التعليل للاستفهام السابق، و التقدير: و من الأسف عليهم أن لم يؤمنوا و لم ينفقوا فإنهم لو آمنوا و أنفقوا و الله عليهم لم يكن الله ليظلمهم فى مثلثا ذره أنفقوها بالإهمال و ترك الجزاء، و إن تك حسنه يضاعفها. و الله أعلم.

قوله تعالى: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ» الآيه. قد تقدم بعض الكلام فى معنى الشهاده على الأعمال فى تفسير قوله تعالى: «لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ»: «البقره: ١٤٣» من الجزء الأول من هذا الكتاب، و سيجىء بعض آخر فى محله المناسب له.

قوله تعالى: «يَوْمَئِذٍ يَرَوُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَىٰ وَالرَّسُولَ» الآيه. نسبه المعصيه إلى الرسول يشهد أن المراد بها معصيه أو امره (ص) الصادره عن مقام ولايته لا معصيه الله تعالى فى أحكام الشريعة، و قوله: «لَوْ تَسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ» كناية عن الموت بمعنى بطلان الوجود نظير قوله تعالى: «وَ يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا»: «النبا: ٤٠».

و قوله: «وَ لَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا» ظاهر السياق أنه معطوف على موضع قوله: «يَرَوُ الَّذِينَ كَفَرُوا» و فائدته الدلاله بوجه على ما يعلل به تمنيه الموت، و هو أنهم بارزون يومئذ لله لا يخفى عليه منهم شىء لظهور حالهم عليه تعالى بحضور أعمالهم، و شهاده أعضائهم و شهاده الأنبياء و الملائكه و غيرهم عليهم، و الله من ورائهم محيط

فيودون عند ذلك أن لو لم يكونوا و ليس لهم أن يكتموه تعالى حديثا مع ما يشاهدون من ظهور مساوى أعمالهم و قبائح أفعالهم.

و أما قوله تعالى: **يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ**: «المجادله: ١٨» فسيجيء إن شاء الله تعالى أن ذلك إنما هو لإيجاب ملكه الكذب التي حصلوها في الدنيا لا للإخفاء و كتمان الحديث يوم لا يخفى على الله منهم شيء.

## بحث روائى

في تفسير العياشى، \*في قوله تعالى: **و بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** الآية: عن سلام الجعفى عن أبى جعفر (ع) و أبان بن تغلب عن أبى عبد الله (ع): \*نزلت في رسول الله ص و في على (ع).

ثم قال:

و روى مثل ذلك في حديث ابن جبلة. قال: \*قال: و روى عن النبى ص: أنا و على أبوا هذه الأمة.

أقول: و قال البحرانى في تفسير البرهان، بعد نقل الحديث: قلت: و روى ذلك صاحب الفائق.

و روى العياشى هذا المعنى عن أبى بصير عن أبى جعفر و أبى عبد الله (ع)، و رواه ابن شهر آشوب عن أبان عن أبى جعفر (ع). و الذى تعرض له الخبر هو من بطن القرآن بالمعنى الذى بحثنا عنه في مبحث المحكم و المتشابه في الجزء الثالث من هذا الكتاب، إذ الأب أو الوالد هو المبدأ الإنسانى لوجود الإنسان و المربى له، فمعلم الإنسان و مربيه للكمال أبوه فمثل النبى و الولى عليهما أفضل الصلاة أحق أن يكون أباً للمؤمن المهتدى به، المقتبس من أنوار علومه و معارفه من الأب الجسمانى الذى لا شأن له إلا المبدئيه و التربييه في الجسم فالنبى و الولى أبوان، و الآيات القرآنيه التى توصى الولد بوالديه تشملهما بحسب الباطن و إن كانت بحسب ظاهرها لا تعدو الأبوين الجسمانيين.

و في تفسير العياشى، أيضا عن أبى صالح عن أبى العباس \*في قول الله: **وَ الْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَ الْجَارِ الْجُنُبِ** قال: الذى ليس بينك و بينه قرابه، و الصاحب بالجنب قال:

الصاحب في السفر.

ص: ٣٥٧

أقول: قوله: الذي ليس بينك، تفسير الجار ذى القربى و الجنب معا و إن أمكن رجوعه إلى الجار الجنب فقط، وقوله: الصاحب فى السفر لعله من قبيل ذكر بعض المصاديق.

و فيه، عن مسعده بن صدقه عن جعفر بن محمد عن جده قال: \*قال أمير المؤمنين (ع): فى خطبه يصف هول يوم القيامة: ختم على الأفواه فلا تكلم، و تكلمت الأيدى، و شهدت الأرجل، و أنطقت الجلود بما عملوا فلا يكتمون الله حديثا.

و اعلم، أن الأخبار كثيره من طرق أهل السنه فى أن الآيات نازله فى حق اليهود، و هى و إن كان يؤيدها ما ينتهى إليه ذيل الآيات من التعرض لحال أهل الكتاب من اليهود فى بخلهم و ولعهم بجمع المال و ادخاره و كذا وسوستهم للمؤمنين و ترغيبهم على الكف عن الإنفاق فى سبيل الله و تفتينهم إياهم و إخزائهم لهم، و إفساد الأمر على رسول الله ص لكن الأخبار المذكوره مع ذلك أشبه بالتطبيق النظرى منها بنقل السبب فى النزول كما هو الغالب فى الأخبار الناقله لأسباب النزول، و لذلك تركنا نقلها على كثرتها.

و اعلم أيضا أن الأخبار الوارده عن النبى و آله (ص) فى إحسان الوالدين و ذى القربى و اليتامى و غيرهم من الطوائف المذكوره فى الآيه فوق حد الإحصاء على معرفتها و شهرتها، و هو الموجب للإغماض عن إيرادها هاهنا على أن لكل منها وحده مواقع خاصه فى القرآن، ذكر ما يخصها من الأخبار هناك أنسب.

### [سوره النساء (٤): آيه ٤٣]

#### اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسِسُوا بِأَيْدِيكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا غَفُورًا (٤٣)

قد تقدم فى الكلام على قوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ: «البقره: ٢١٩»، أن الآيات المتعرضه لأمر الخمر خمس طوائف، وإن ضم هذه الآيات بعضها إلى بعض يفيد أن هذه الآيه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا» الآيه نزلت بعد قوله تعالى: تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَيْكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا: «النحل: ٦٧»، وقوله: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ: «الأعراف: ٣٣»، وقبل قوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا: «البقره: ٢١٩»، وقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ: «المائد: ٩٠»، وهذه آخر الآيات نزولا.

و يمكن بوجه أن يتصور الترتيب على خلاف هذا الذى ذكرناه فتكون النازله أولا آيه النحل ثم الأعراف ثم البقره ثم النساء ثم المائده فيكون ما يفيد هذا الترتيب من قصه النهى القطعى عن شرب الخمر على خلاف ما يفيد الترتيب السابق فيكون ما فى سوره الأعراف نهيا من غير تفسير ثم الذى فى سوره البقره نهيا باتا لكن المسلمين كانوا يتعللون فى الاجتناب حتى نهوا عنها نهيا جازما فى حال الصلاه فى سوره النساء، ثم نهيا مطلقا فى جميع الحالات فى سوره المائده و لعلك إن تدبرت فى مضامين الآيات رجحت الترتيب السابق على هذا الترتيب، و لم تجوز بعد النهى الصريح الذى فى آيه البقره النهى الذى فى آيه النساء المختص بحال الصلاه فهذه الآيه قبل آيه البقره، إلا أن نقول إن النهى عن الصلاه فى حال السكر كناية عن الصلاه كسلان كما ورد فى بعض الروايات الآتية.

و أما وقوع الآيه بين ما تقدمها و ما تأخر عنها من الآيات فهى كالمتخلله المعترضه إلا أن هاهنا احتمالا ربما صحح هذا النحو من التخلل و الاعتراض -و هو غير عزيز فى القرآن- و هو جواز أن تنزل عده من الآيات ذات سياق واحد متصل منسجم تدريجا فى خلال أيام ثم تمس الحاجه إلى نزول آيه أو آيات و لما تمت الآيات النازله على سياق واحد فتقع الآيه بين الآيات كالمعترضه المتخلله و ليست بأجنبيه بحسب الحقيقه و إنما هى كالكلام بين الكلام لرفع توهم لانزم الدفع، أو مس حاجه إلى إيراده نظير قوله تعالى:



بِيلِ الْإِنْسَانِ عَلَيَّ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَ لَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ لَا تُحَرِّكَ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتَهُ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ: X الآيات X «القيامة: ٢٠»، انظر إلى موضع قوله: لَا تُحَرِّكَ إِلَى قَوْلِهِ: «بَيِّنَاتُهُ» .

و على هذا فلا حاجة إلى التكلف في بيان وجه ارتباط الآيه بما قبلها، و ارتباط ما بعدها بها، على أن القرآن إنما نزل نجوماً، و لا موجب لهذا الارتباط إلا في السور النازله دفعه أو الآيات الواضحه الاتصال الكاشف ذلك عن الارتباط بينها.

قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» إلى قوله: «مَا تَقُولُونَ» المراد بالصلاه المسجد، و الدليل عليه قوله: وَ لَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ، و المقتضى لهذا التجوز قوله حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ إذ لو قيل: لا تقربوا المسجد و أنتم سكارى لم يستقم تعليله بقوله:

«حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ»

أو أفاد التعليل معنى آخر غير مقصود مع أن المقصود إفاده أنكم في حال الصلاه تواجهون مقام العظمه و الكبرياء و تخاطبون رب العالمين فلا يصلح لكم أن تسكروا و تبطلوا عقولكم برجس الخمر فلا تعلموا ما تقولون، و هذا المعنى كما ترى -يناسب النهى عن اقتراب الصلاه لكن الصلاه لما كانت أكثر ما تقع تقع في المسجد جماعه-على السنه-و كان من القصد أن تذكر أحكام الجنب في دخوله المسجد أو جز في المقال و سبك الكلام على ما ترى.

و على هذا فقوله: حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ في مقام التعليل للنهى عن شرب الخمر بحيث يبقى سكرها إلى حال دخول الصلاه أى نهيناكم عنه لغايه أن تعلموا ما تقولون و ليس غايه للحكم بمعنى أن لا تقربوا إلى أن تعلموا ما تقولون فإذا علمتم ما تقولون فلا بأس.

قوله تعالى: «وَ لَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ» إلى آخر الآيه سيأتى الكلام فى الآيه فى تفسير قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ: «المائدة: ٦».

## بحث روائى

فى تفسير العياشى، عن محمد بن الفضل عن أبى الحسن (ع) \* فى قول الله: «لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ - وَ أَنْتُمْ سِكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ» قال: هذا قبل أن تحرم الخمر.

أقول: ينبغى أن تحمل الروايه على أن المراد بتحريم الخمر توضيح تحريمها، و إلا

فهي مخالفة للكتاب فإن آية الأعراف تحرم الخمر بعنوان أنه إثم صريحاً، وآية البقره تصرح بأن في الخمر إثماً كبيراً فقد حرمت الخمر في مكة قبل الهجرة لكون سورة الأعراف مكية و لم يختلف أحد في أن هذه الآية (آية النساء) مدنيه، و مثل هذه الروايه عدده روايات من طرق أهل السنه تصرح بكون الآيه نازله قبل تحريم الخمر، و يمكن أن تكون الروايه ناظره إلى كون المراد بالآيه عن الصلاه كسلان.

و فيه، عن زراره عن أبي جعفر (ع) قال\*: لا تقم إلى الصلاه متكاسلاً و لا متناعساً- و لا متثاقلاً فإنها من خلل النفاق- فإن الله نهى المؤمنين أن يقوموا إلى الصلاه- و هم سكارى يعنى من النوم.

أقول: قوله: فإنها من خلل النفاق استفاد (ع) ذلك من قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، فالمتنمرد عن هذا الخطاب مناقق غير مؤمن، و قوله: يعنى من النوم يحتمل أن يكون من كلام الراوى و يحتمل أن يكون من كلامه (ع) و يكون تفسيراً للآيه من قبيل بطن القرآن، و يمكن أن يكون من الظاهر.

و قد وردت روايات أخر في تفسيره بالنوم رواها العياشى في تفسيره عن الحلبي في روايتين، و الكليني في الكافي بإسناده عن زيد الشحام عن الصادق (ع)، و بإسناده عن زراره عن الباقر (ع)، و روى هذا المعنى أيضا البخارى في صحيحه عن أنس عن رسول الله ص.

## [سورة النساء (٤): الآيات ٤٤ الى ٥٨]

### اشاره

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحاً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَهَ وَ يُرِيدُونَ أَن تَضَلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَ كَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَ كَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) مَنِ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَ يَقُولُونَ سَمِعْنَا وَ عَصَيْنَا وَ أَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَ رَاعِنَا لِيَّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَ طَعْنَا فِي الدِّينِ وَ لَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا وَ أَسْمَعُ وَ أَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَ أَقْوَمَ وَ لَكِن لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (٤٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٤٧) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا (٤٨) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ يَلِي اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَ لَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) أَنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ كَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا (٥٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ وَ يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَ مَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فْلَن تَجِدْ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَّا يُوْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَهَ وَ آتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُمْ مَن آمَنَ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَن صَدَّ عَنْهُ وَ كَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كُلَّمَا نَضَا جَثَّ جُلُودُهُمْ يَدُلُّنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَيْدَا لَهُمْ فِيهَا أَنْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَ يَدْخُلُهَا مِنْ ظِلِّهَا ظِلِيلًا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَ إِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨)





آيات متعرضه لحال أهل الكتاب، و تفصيل لمظالمهم و خياناتهم في دين الله، و أوضح ما تنطبق على اليهود، و هي ذات سياق واحد متصل، و الآيه الأخيره: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا» الآيه، و إن ذكر بعضهم أنها مكيه، و استثناها في آيتين من سوره النساء المدنيه، و هي هذه الآيه، و قوله تعالى: يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ X الآيه X: «النساء: ١٧٦» على ما في المجمع لكن الآيه ظاهره الارتباط بما قبلها من الآيات، و كذا آيه الاستفتاء فإنها في الإرث، و قد شرع في المدينه.

قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ» الآيه، قد تقدم في الكلام على الآيات (٣٦ ٤٢) أنها مرتبطه بعض الارتباط بهذه الآيات، و قد سمعت القول في نزول تلك الآيات في حق اليهود.

و بالجملة يلوح من هذه الآيات أن اليهود كانوا يلقون إلى المؤمنين الموده و يظهرون لهم النصيح فيفتنونهم بذلك، و يأمرونهم بالبخل و الإمساک عن الإنفاق ليمنعوا بذلك سعيهم عن النجاح، و جدهم في التقدم و التعالى، و هذا لازم كون تلك الآيات نازله في حق اليهود أو في حق من كان يسار اليهود و يصادقهم ثم تنحرف عن الحق بتحريفهم، و يميل إلى حيث يميلونه فيبخل ثم يأمر بالبخل.

و هذا هو الذى يستفاد من قوله: وَ يُرِيدُونَ أَنْ تَضَلُّوا السَّبِيلَ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ.

فمعنى الآيتين -و الله أعلم- أن ما نبينه لكم تصديق ما بيناه لكم من حال الممسك عن الإنفاق في سبيل الله بالاختيال و الفخر و البخل و الرئاء إنك ترى اليهود الذين

أوتوا نصيبا من الكتاب أى حظا منه لا جميعه كما يدعون لأنفسهم يشترون الضلاله و يختارونها على الهدى، و يريدون أن تزلوا السبيل فإنهم و إن لقوكم ببشر الوجه، و ظهروا لكم فى زى الصلاح، و اتصلوا بكم اتصال الأولياء الناصرين فذكروا لكم ما ربما استحسنته طباعكم، و استصوبته قلوبكم لكنهم ما يريدون إلا ضلالكم عن السبيل كما اختاروا لأنفسهم الضلاله، و الله أعلم منكم بأعدائكم، و هم أعداؤكم فلا يغرنكم ظاهر ما تشاهدون من حالهم فأياكم أن تطيعوا أمرهم أو تصغوا إلى أقوالهم المزوقه و إلقاءاتهم المزخرفه و أنتم تقدرون أنهم أولياؤكم و أنصاركم، فأنتم لا تحتاجون إلى ولايتهم الكاذبه، و نصرتهم المرجوه و كفى بالله وليا، و كفى بالله نصيرا، فأى حاجه مع ولايته و نصرته إلى ولايتهم و نصرتهم.

قوله تعالى: «مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ» إلى قوله: «فِي الدِّينِ» «مَنْ» فى قوله: مَنْ الَّذِينَ، بيانيه، و هو بيان لقوله فى الآيه السابقه: الَّذِينَ أُوْتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ، أو لقوله: بِأَعْدَائِكُمْ، و ربما قيل: إن قوله: مَنْ الَّذِينَ هَادُوا خبر لمبتدأ محذوف و هو الموصوف المحذوف لقوله يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ، و التقدير: من الذين هادوا قوم يحرفون، أو من الذين هادوا من يحرفون، قالوا: و حذف الموصوف شائع كقول ذى الرمه:

فظلوا و منهم دمه سابق له

و آخر يشنى دمه العين بالمهل

يريد: و منهم قوم دمه أو و منهم من دمه و قد وصف الله تعالى هذه الطائفه بتحريف الكلم عن مواضعه، و ذلك إما بتغيير مواضع الألفاظ بالتقديم و التأخير و الإسقاط و الزياده كما ينسب إلى التوراه الموجوده، و إما بتفسير ما ورد عن موسى (ع) فى التوراه و عن سائر الأنبياء بغير ما قصد منه من المعنى الحق كما أولوا ما ورد فى رسول الله ص من بشارات التوراه، و من قبل أولوا ما ورد فى المسيح (ع) من البشاره، و قالوا: إن الموعود لم يجرى بعد، و هم ينتظرون قدومه إلى اليوم.

و من الممكن أن يكون المراد بتحريف الكلم عن مواضعه ما سيذكره تعالى بقوله:

و يَقُولُونَ سَمِعْنَا وَ عَصَيْنَا

فتكون هذه الجمل معطوفه على قوله: يُحَرِّفُونَ، و يكون المراد حينئذ من تحريف الكلم عن مواضعه استعمال القول بوضعه فى غير المحل الذى ينبغى أن

يوضع فيه،فقول القائل:سمعنا من حقه أن يوضع في موضع الطاعة فيقال: سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا لا- أن يقال:سمعنا و عصينا،أو يوضع:سمعنا موضع التهكم و الاستهزاء،و كذا قول القائل:اسمع ينبغي أن يقال فيه:اسمع أسمعك الله لا أن يقال: اسْمِعْ غَيْرِ مُسْمَعٍ أَى لا أسمعك الله و راعنا،و هو يفيد فى لغة اليهود معنى اسمع غير مسمع.

و قوله: «لَيَّا بِاللَّسِيَّتِهِمْ وَ طَعْنَا فِي الدِّينِ» أصل اللى الفتل أى يميلون بألسنتهم فيظهرون الباطل من كلامهم فى صورته الحق،و الإزراء و الإهانة فى صور التأدب و الاحترام فإن المؤمنين كانوا يخاطبون رسول الله ص حين ما كانوا يكلمونه بقولهم:

راعنا يا رسول الله،و معنا:أنظرنا و اسمع منا حتى نوفى غرضنا من كلامنا،فاغتتمت اليهود ذلك فكانوا يخاطبون رسول الله ص بقولهم:راعنا و هم يريدون به ما عندهم من المعنى المستهجن غير الحرى بمقامه(ص)فدموا به فى هذه الآيه،و هو قوله تعالى:

«يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ»

ثم فسره بقوله: «وَ يَقُولُونَ سَمِعْنَا وَ عَصَيْنَا وَ اسْمِعْ غَيْرِ مُسْمَعٍ» ثم عطف عليه كعطف التفسير قوله: «وَ رَاعِدًا» ثم ذكر أن هذا الفعال المذموم منهم لى بالألسن،و طعن فى الدين فقال: «لَيَّا بِاللَّسِيَّتِهِمْ وَ طَعْنَا فِي الدِّينِ» و المصدران فى موضع الحال و التقدير:لاوين بألسنتهم،و طاعنين فى الدين.

قوله تعالى: «وَ لَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَ أَقْوَمَ» كون هذا القول منهم و هو مشتمل على أدب الدين،و الخضوع للحق خيرا و أقوم مما قالوه(مع اشتماله على اللى و الطعن المذمومين و لا خير فيه و لا قوام)مبنى على مقايسه الأثر الحق الذى فى هذا الكلام الحق على ما يظنونه من الأثر فى كلامهم و إن لم يكن له ذلك بحسب الحقيقة،فالمقايسه بين الأثر الحق و بين الأثر المظنون حقا،و المعنى:أنهم لو قالوا:سمعنا و أطعنا،لكان فيه من الخير و القوام أكثر مما يقدران فى أنفسهم لهذا اللى و الطعن فالكلام يجرى مجرى قوله تعالى: «وَ إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَ تَرَكُوا قُلُوبًا قَائِمًا قُلُوبًا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَ مِنَ التِّجَارَةِ وَ اللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ الجمعة: ١١.

قوله تعالى: «وَ لَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا» تأييس للسامعين من أن تقول اليهود سمعنا و أطعنا فإنه كلمه إيمان و هؤلاء ملعونون لا يوقفون للإيمان، و لذلك قيل:لو أنهم قالوا،الذال على التمنى المشعر بالاستحاله.

و الظاهر أن الباء فى قوله: «بِكُفْرِهِمْ» للسببيه دون الآيه،فإن الكفر يمكن

أن يزاح بالإيمان فهو لا- يوجب بما هو كفر لعنه تمنع عن الإيمان منعاً قاطعاً لكنهم لما كفروا(و سيشرح الله تعالى في آخر السوره حال كفرهم)لعنهم الله بسبب ذلك لعنا ألزم الكفر عليهم إلزاماً لا يؤمنون بذلك إلا قليلاً فافهم ذلك.

و أما قوله: **فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا** فقد قيل: إن «قَلِيلًا» حال، و التقدير: إلا و هم قليل أى لا يؤمنون إلا فى حال هم قليل، و ربما قيل: إن «قَلِيلًا» صفة لموصوف محذوف، و التقدير: فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً، و هذا الوجه كسابقه لا بأس به لكن يجب أن يزداد فيه أن اتصاف الإيمان بالقله إنما هو من قبيل الوصف بحال المتعلق أى إيماناً المؤمن به قليل.

و أما ما ذكره بعض المفسرين أن المراد به قليل الإيمان فى مقابل كامله، و ذكر أن المعنى: فلا يؤمنون إلا قليلاً من الإيمان لا يعتد به إذ لا- يصلح عمل صاحبه، و لا يزكى نفسه، و لا يرقى عقله فقد أخطأ، فإن الإيمان إنما يتصف بالمستقر و المستودع، و الكامل و الناقص فى درجات و مراتب مختلفه، و أما القله و تقابلها الكثره فلا يتصف بهما، و خاصه فى مثل القرآن الذى هو أبلغ الكلام.

على أن المراد بالإيمان المذكور فى الآيه إما حقيقه الإيمان القلبي فى مقابل النفاق أو صوره الإيمان التى ربما يطلق عليها الإسلام، و اعتباره على أى معنى من معانيه، و الاعتناء به فى الإسلام مما لا ريب فيه، و الآيات القرآنيه ناصه فيه، قال تعالى:

**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقِيَ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا**: «النساء: ٩٤»، مع أن الذى يستثنى الله تعالى منه قوله: **وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ**، كان يكفى فيه أقل درجات الإيمان أو الإسلام الظاهرى بحفظهم الظاهر بقولهم: سمعنا و أطعنا كسائر المسلمين.

و الذى أوقعه فى هذا الخطأ ما توهمه أن لعنه تعالى إياهم بكفرهم لا يجوز أن يتخلف عن التأثير بإيمان بعضهم فقدّر أن القله وصف الإيمان و هى ما لا- يعتد به من الإيمان حتى يستقيم قوله: «لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ»، و قد غفل عن أن هذه الخطابات و ما تشتمل عليه من صفات الذم و المؤاخذات و التوبيخات كل ذلك متوجهه إلى المجتمعات من حيث الاجتماع، فالذى لحقه اللعن و الغضب و المؤاخذات العامه الأخرى إنما هو المجتمع اليهودى من حيث إنه مجتمع مكون فلا- يؤمنون و لا- يسعدون و لا يفلحون، و هو كذلك إلى هذا اليوم و هم على ذلك إلى يوم القيامة.



و أما الاستثناء فإنما هو بالنسبة إلى الأفراد، و خروج بعض الأفراد من الحكم المحتوم على المجتمع ليس نقضا لذلك الحكم، و المحوج إلى هذا الاستثناء أن الأفراد بوجه هم المجتمع فقوله: «فَلَا- يُؤْمِنُونَ» حيث نفى فيه الإيمان عن الأفراد- و إن كان ذلك نفياً عنهم من حيث جهه الاجتماع- و كان يمكن فيه أن يتوهم أن الحكم شامل لكل واحد واحد منهم بحيث لا يتخلص منه أحد استثنى فقيل: إِلَّا قَلِيلًا فَالآيه تجرى مجرى قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ -:النساء: ٦٦.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا﴾ إلخ الطمس محو أثر الشيء، و الوجه ما يستقبلك من الشيء و يظهر منه، و هو من الإنسان الجانب المقدم الظاهر من الرأس و ما يستقبلك منه، و يستعمل في الأمور المعنويه كما يستعمل في الأمور الحسيه، و الأدبار جمع دبر بضمتين و هو القفا، و المراد بأصحاب السبت قوم من اليهود كانوا يعدون في السبت فلعنهم الله و مسخهم، قال تعالى: وَ سَيَلَّمُ عَنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبُحْرَةِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيَتَانِهِمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَ يَوْمَ لَا- يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ -:الأعراف: ١٦٣، و قال تعالى: وَ لَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَ مَا خَلْفَهَا -:البقره: ٦٦.

و قد كانت الآيات السابقه- كما عرفت- متعرضه لحال اليهود أو لحال طائفه من اليهود، و انجر القول إلى أنهم يإزاء ما خانوا الله و رسوله، و أفسدوا صالح دينهم ابتلوا بلعنه من الله لحق جمعهم، و سلبهم التوفيق للإيمان إلا قليلا فعم الخطاب لجميع أهل الكتاب- على ما يفيد قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ - و دعاهم إلى الإيمان بالكتاب الذى نزله مصدقا لما معهم، و أوعدهم بالسخط الذى يلحقهم لو تمردوا و استكبروا من غير عذر من طمس أو لعن يتبعانهم اتباعا لا ريب فيه.

و ذلك ما ذكره بقوله: مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا، فطمس الوجوه محو هذه الوجوه التى يتوجه بها البشر نحو مقاصدها الحيويه مما فيه سعادته الإنسان المترقبه و المرجوه لكن لا المحو الذى يوجب فناء الوجوه و زوالها و بطلان آثارها بل محوا يوجب ارتداد تلك الوجوه على أدبارها فهى تقصد مقاصدها على الفطره التى فطر عليها لكن لما كانت منصوبه إلى الأقفية و مردوده على الأدبار لا تقصد

إلا ما خلفته وراءها، ولا تمشى إليه إلا القهقري.

و هذا الإنسان- هو بالطبع و الفطره متوجه نحو ما يراه خيرا و سعادته لنفسه- كلما توجه إلى ما يراه خيرا لنفسه، و صلاحا لدينه أو لدينه لم ينل إلا شرا و فسادا، و كلما بالغ في التقدم زاد في التأخر، و ليس يفلح أبدا.

و أما لعنهم كلعن أصحاب السبب فظاهره المسخ على ما تقدم من آيات أصحاب السبب التي تخبر عن مسخهم قرده.

و على هذا فلفظه «أَوْ» في قوله: أَوْ نَلْعَنُهُمْ، على ظاهرها من إفاده الترديد، و الفرق بين الوعيدين أن الأول أعنى الطمس يوجب تغيير مقاصد المغضوب عليهم من غير تغيير الخلقه إلا في بعض كفياتها، و الثاني أعنى اللعن كلعن أصحاب السبب يوجب تغيير المقصد بتغيير الخلقه الإنسانيه إلى خلقه حيوانيّه كالقرده.

فهؤلاء إن تمردوا عن الامتثال- و سوف يتمردون على ما تفيده خاتمه الآية- كان لهم إحدى سخطتين: إما طمس الوجوه، و أما اللعن كلعن أصحاب السبب لكن الآية تدل على أن هذه السخطه لا تعمهم جميعهم حيث قال. «وَجُوهًا» فأتى بالجمع المنكر، و لو كان المراد هو الجميع لم ينكر، و لتكثير الوجوه و عدم تعيينه نكته أخرى هي أن المقام لما كان مقام الإيعاد و التهديد، و هو إيعاد للجماعه بشر لا- يخلق إلا- ببعضهم كان إبهام الأفراد الذين يقع عليهم السخط الإلهي أوقع في الإنذار و التخويف لأن وصفهم على إبهامه يقبل الانطباق على كل واحد واحد من القوم فلا يأمن أحدهم أن يمسه هذا العذاب البئيس، و هذه الصناعه شائعه في اللسان في مقام التهديد و التخويف.

و في قوله تعالى: أَوْ نَلْعَنُهُمْ، حيث أرجع فيه ضمير «هم» الموضوع لأولى العقل إلى قوله: «وَجُوهًا» كما هو الظاهر تلويحا أو تصريحاً بأن المراد بالوجوه الأشخاص من حيث استقبالهم مقاصدهم، و بذلك يضعف احتمال أن يكون المراد بطمس الوجوه و ردها على أديارها تحويل وجوه الأبدان إلى الأفقيه كما قال به بعضهم، و يقوى بذلك احتمال أن المراد من تحويل الوجوه إلى الأدبار تحويل النفوس من حال استقامه الفكر، و إدراك الواقعيات على واقعيتها إلى حال الاعوجاج و الانحطاط الفكري بحيث لا يشاهد حقا إلا أعرض عنه و اشماز منه، و لا باطلا إلا مال إليه و تولع به.

و هذا نوع من التصرف الإلهي مقنا و نغمه نظير ما يدل عليه قوله تعالى: وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ: «الأنعام: ١١٠».

فتبين مما مر أن المراد بطمس الوجوه فى الآيه نوع تصرف إلهى فى النفوس يوجب تغيير طباعها من مطاوعه الحق و تجنب الباطل إلى اتباع الباطل و الاحتراز عن الحق فى باب الإيمان بالله و آياته كما يؤيده صدر الآيه: آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ إِلَٰخِ، و كذا تبين أن المراد باللعن المذكور فيها المسخ.

و ربما قيل: إن المراد بالطمس تحويل وجوه قوم إلى أفقيتهم و يكون ذلك فى آخر الزمان أو يوم القيامة، و فيه: أن قوله: «أَوْ نَلْعَنُهُمْ» ينافى ذلك كما تقدم بيانه.

و ربما قيل: إن المراد بالطمس الخذلان الدنيوى فلا يزالون على ذله و نكبه لا يقصدون غاية ذات سعادته إلا بدلها الله عليهم سرايا لا خير فيه، و فيه: أنه و إن كان لا يبعد كل البعد لكن صدر الآيه - كما تقدم - ينافيه.

و ربما قيل: إن المراد به إجلاؤهم و ردهم ثانيا إلى حيث خرجوا منه، و قد أخرجوا من الحجاز إلى أرض الشام و فلسطين، و قد جاءوا منهما، و فيه أن صدر الآيه بسياقه يؤيد غير ذلك كما عرفته.

نعم من الممكن أن يقال: إن المراد به تقلب أفئدتهم، و طمس وجوه باطنهم من الحق إلى نحو الباطل فلا يفلحون بالإيمان بالله و آياته، ثم إن الدين الحق لما كان هو الصراط الذى لا ينجح إنسان فى سعادته حياته الدنيا إلا بركوبه و الاستواء عليه، و ليس للناكب عنه إلا الوقوع فى كانون الفساد، و السقوط فى مهابط الهلاك، قال تعالى:

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا: «الروم:

٤١»، و قال تعالى: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَ الْمَأْرُضِ، وَ لَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم: «الأعراف: ٩٦» و لازم هذه الحقيقة أن طمس الوجوه عن المعارف الحقه الدينيه طمس لها عن حقائق سعادته الحياه الدنيا بجميع أقسامها فالمحروم من سعادته الدين محروم من سعادته الدنيا من استقرار الحال و تمهد الأمن و سؤدد الاستقلال و الملك، و كل ما يطيب به العيش، و يدر به ضرع العمل

اللهم إلا على قدر ما نسرب المواد الدينيه فى مجتمعهم و على هذا فلا بأس بالجمع بين الوجوه المذكوره جلهما أو كلها.

قوله تعالى: «وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا» إشاره إلى أن الأمر لا- محاله واقع، وقد وقع على ما ذكره الله فى كتابه من لعنهم و إنزال السخط عليهم، و إلقاء العداوه و البغضاء بينهم إلى يوم القيامه، و غير ذلك فى آيات كثيره.

قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» ظاهر السياق أن الآيه فى مقام التعليل للحكم المذكور فى الآيه السابقه أعنى قوله: آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ إِيَّاهُ، فيعود المعنى إلى مثل قولنا: فإنكم إن لم تؤمنوا به كنتم بذلك مشركين، و الله لا يغفر أن يشرك به فيحل عليكم غضبه و عقوبته فيطمس وجوهكم بردها على أدبارها أو يلعنكم فنتيجة عدم المغفره هذه ترتب آثار الشرك الدنيويه من طمس أو لعن عليه.

و هذا هو الفرق بين مضمون هذه الآيه، و قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا» النساء: ١١٦، فإن هذه الآيه (آيه ٤٨)، تهدد بآثار الشرك الدنيويه، و تلك (آيه ١١٦)، تهدد بآثاره الأخرويه، و ذلك بحسب الانطباق على المورد و إن كانتا بحسب الإطلاق كلتاهما شاملتين لجميع الآثار.

و مغفرته سبحانه و عدم مغفرته لا- يقع شىء منهما وقوعا جزافيا بل على وفق الحكمه، و هو العزيز الحكيم، فأما عدم مغفرته للشرك فإن الخلقه إنما تثبت على ما فيها من الرحمه على أساس العبوديه و الربوبيه، قال تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» الذاريات: ٥٦، و لا عبوديه مع شرك، و أما مغفرته لسائر المعاصى و الذنوب التى دون الشرك فلشفاعه من جعل له الشفاعة من الأنبياء و الأولياء و الملائكه و الأعمال الصالحه على ما مر تفصيله فى بحث الشفاعة فى الجزء الأول من هذا الكتاب.

و أما التوبه فالآيه غير متعرضه لشأنها من حيث خصوص مورد الآيه لأن موردها عدم الإيمان و لا توبه معه، على أن التوبه يغفر معها جميع الذنوب حتى الشرك، قال تعالى: «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَ أَنْيَبُوا إِلَيَّ رَبُّكُمْ» الزمر: ٥٤.

و المراد بالشرك فى الآيه ما يعم الكفر لا محاله فإن الكافر أيضا لا يغفر له البتة و إن لم يصدق عليه المشرك بعنوان التسميه بناء على أن أهل الكتاب لا يسمون فى القرآن مشركين و إن كان كفرهم بالقرآن و بما جاء به النبى شركا منهم أشركوا به (راجع تفسير آيه ٢٢١ من البقره)، و إذا لم يؤمن أهل الكتاب بما نزل الله مصدقا لما معهم فقد كفروا به، و أشركوا ما فى أيديهم بالله سبحانه فإنه شىء لا يريد الله على الصفه التى أخذوه بها فالمؤمن بموسى (ع) إذا كفر بالمسيح (ع) فقد كفر بالله و أشرك به موسى، و لعل ما ذكرناه هو النكته لقوله تعالى: أَنْ يُشْرَكَ بِهِ دُونَ أَنْ يَقُولَ: الْمَشْرِكُ أَوْ الْمَشْرِكِينَ.

و قوله تعالى: «لِمَنْ يَشَاءُ» تقييد للكلام لدفع توهم أن لأحد من الناس تأثيرا فيه تعالى يوجب به عليه المغفره فيحكم عليه تعالى حاكم أو يقهره قاهر، و تعليق الأمور الثابته فى القرآن على المشيئه كثير و الوجه فى كلها أو جلها دفع ما ذكرناه من التوهم كقوله تعالى: خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُودٍ: «هود: ١٠٨».

على أن من الحكمه ألا يغفر لكل مذنب ذنبه و إلا لغا الأمر و النهى، و بطل التشريع، و فسد أمر التريبه الإلهيه، و إليه الإشاره بقوله: لِمَنْ يَشَاءُ، و من هنا يظهر أن كل واحد من المعاصى لا بد أن لا يغفر بعض أفرادها و إلا لغا النهى عنه، و هذا لا ينافى عموم لسان آيات أسباب المغفره فإن الكلام فى الوقوع دون الوعد على وجه الإطلاق، و من المعاصى ما يصدر عن من لا يغفر له بشرك و نحوه.

فمعنى الآيه أنه تعالى لا يغفر الشرك من كافر و لا مشرك، و يغفر سائر الذنوب دون الشرك بشفاعه شافع من عباده أو عمل صالح، و ليس هو تعالى مقهورا أن يغفر كل ذنب من هذه الذنوب لكل مذنب بل له أن يغفر و له أن لا يغفر، كل ذلك لحكمه.

قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ» قال الراغب: أصل الزكاه النمو الحاصل من بركه الله تعالى - إلى أن قال -: و تزكيه الإنسان نفسه ضربان: أحدهما:

بالفعل و هو محمود، و إليه قصد بقوله: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى، و الثانى بالقول كتزكيته لعدل غيره، و ذلك مذموم أن يفعل الإنسان بنفسه، و قد نهى الله تعالى عنه فقال: فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ، و نهيه عن ذلك تأديب لقبح مدح الإنسان نفسه عقلا و شرعا، و لهذا قيل

لحكيم: ما الذى لا يحسن و إن كان حقا؟ فقال: مدح الرجل نفسه، انتهى كلامه.

و لما كانت الآيه فى ضمن الآيات المسروده للتعرض لحال أهل الكتاب كان الظاهر أن هؤلاء المزكين لأنفسهم هم أهل الكتاب أو بعضهم، و لم يوصفوا بأهل الكتاب لأن العلماء بالله و آياته لا ينبغى لهم أن يتلبسوا بأمثال هذه الرذائل فالإصرار عليها انسلاخ عن الكتاب و علمه.

و يؤيده ما حكاه الله تعالى عن اليهود من قولهم: نَحْنُ أَوْلَادُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاءُهُ: «المائدة: ١٨»، و قولهم: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً: «البقره: ٨٠» و زعمهم الولايه كما فى قوله تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ: «الجمعه: ٦»، فالآيه تكنى عن اليهود، و فيها استشهاد لما تقدم ذكره فى الآيات السابقه من استكبارهم عن الخضوع للحق و اتباعه، و الإيمان بآيات الله سبحانه، و استقرار اللعن الإلهى فيهم، و أن ذلك من لوازم إعجابهم بأنفسهم و تزكيتهم لها.

قوله تعالى: «يَلِ اللَّهُ يَزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَ لَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا» إضراب عن تزكيتهم لأنفسهم، و رد لهم فيما زكوه، و بيان أن ذلك من شئون الربوبيه يختص به تعالى فإن الإنسان و إن أمكن أن يتصف بفضائل، و يتلبس بأنواع الشرف و السؤدد المعنوى غير أن اعتناؤه بذلك و اعتماده عليه لا- يتم إلا- بإعطائه لنفسه استغناء و استقلالاً و هو فى معنى دعوى الألوهيه و الشركه مع رب العالمين، و أين الإنسان الفقير الذى لا- يملك لنفسه ضرا و لا- نفعاً و لا موتاً و لا حياه و الاستغناء عن الله سبحانه فى خير أو فضيله؟ و الإنسان فى نفسه و فى جميع شئون نفسه، و الخير الذى يزعم أنه يملكه، و جميع أسباب ذلك الخير، مملوك لله سبحانه محضاً من غير استثناء، فما ذا يبقى للإنسان؟.

و هذا الغرور و الإعجاب الذى يبعث الإنسان إلى تزكيه نفسه هو العجب الذى هو من أمهات الرذائل، ثم لا يلبث هذا الإنسان المغرور المعتمد على نفسه دون أن يمس غيره فيتولد من رذيلته هذه رذيله أخرى، و هى رذيله التكبر و يتم تكبره فى صوره الاستعلاء على غيره من عباد الله فيستعبد به عباد الله سبحانه، و يجرى به كل ظلم و بغى بغير حق و هتك محارم الله و بسط السلطه على دماء الناس و أعراضهم و أموالهم.

و هذا كله إذا كان الوصف وصفا فردياً و أما إذا تعدى الفرد و صار خلقاً اجتماعياً

و سيره قومه فهو الخطر الذى فيه هلاك النوع و فساد الأرض، و هو الذى يحكيه تعالى عن اليهود إذ قالوا: لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ: «آل عمران: ٧٥».

فما كان لبشر أن يذكر لنفسه من الفضيله ما يمدحها به سواء كان صادقاً فيما يقول أو كاذباً لأنه لا يملك ذلك لنفسه لكن الله سبحانه لما كان هو المالك لما ملكه، و المعطى الفضل لمن يشاء و كيف يشاء كان له أن يزكى من شاء تزكيه عمليه بإعطاء الفضل و إفاضه النعمه، و أن يزكى من يشاء تزكيه قوليه يذكره بما يمدح به، و يشرفه بصفات الكمال كقوله فى آدم و نوح: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَ نُوحًا: «آل عمران: ٣٣»، و قوله فى إبراهيم و إدريس: إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا: «مريم: ٥٦، ٤١»، و قوله فى يعقوب:

وَ إِنَّهُ لَدُوٌّ عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ: «يوسف: ٦٨»، و قوله فى يوسف: إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ: «يوسف:

٢٤»، و قوله فى حق موسى: إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا: «مريم: ٥١»، و قوله فى حق عيسى: وَ جِيهًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ: «آل عمران: ٤٥»، و قوله فى سليمان و أيوب: نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ: «ص: ٤٤، ٣٠»، و قوله فى محمد ص:

إِنَّ وِلْيَى اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ: «الأعراف: ١٩٦»، و قوله:

وَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ: «القلم: ٤»، و كذا قوله تعالى فى حق عده من الأنبياء ذكرهم فى سور الأنعام و مريم و الأنبياء و الصفات و ص و غيرها.

و بالجملة فالتركيه لله سبحانه حق لا يشاركه فيه غيره إذ لا يصدر عن غيره إلا من ظلم و إلى ظلم، و لا يصدر عنه تعالى إلا حقاً و عدلاً يقدر بقدره لا يفرط و لا يفرط، و لذا ذيل قوله: بل الله يزكى من يشاء بقوله— هو فى معنى التعليل:— وَ لَا يُظَلِّمُونَ فَتِيلاً .

و قد تبين مما مر أن تركيبه تعالى و إن كانت مطلقه تشمل التركيه العمليه و التركيه القوليه لكنها تنطبق بحسب مورد الكلام على التركيه القوليه.

قوله تعالى: «وَ لَا يُظَلِّمُونَ فَتِيلاً» الفتيل فعيل بمعنى المفعول من الفتل و هو اللى قيل: المراد به ما يكون فى شق النواه، و قيل: هو ما فى بطن النواه،

و قد ورد فى روايات عن أئمه أهل البيت (ع): أنه النقطه التى على النواه، و النقيير ما فى ظهرها، و القطمير قشرها، و قيل: هو ما فتلتها بين إصبعيك من الوسخ، و كيف كان هو كناية عن الشئء الحقيق الذى لا يعتد به.

و قد بان بالآيه الشريفه أمران: أحدهما: أن ليس لصاحب الفضل أن يعجبه

فضله و يمدح نفسه بل هو مما يختص به تعالى فإن ظاهر الآيه أن الله يختص به أن يزكى كل من جاز أن يتلبس بالتركيه فليس غير صاحب الفضل أيضا أن يزكيه إلا بما زكاه الله به، و ينتج ذلك أن الفضائل هي التي مدحها الله و زكاها فلا قدر لفضل لا يعرفه الدين و لا يسميه فضلا، و لا يستلزم ذلك أن تبطل آثار الفضائل عند الناس فلا يعرفوا لصاحب الفضل فضله، و لا يعظموا قدره بل هي شعائر الله و علائمه، و قد قال تعالى:

وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ: «الحج: ٣٢»، فعلى الجاهل أن يخضع للعالم و يعرف له قدره فإنه من اتباع الحق و قد قال تعالى: هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ: «الزمر: ٩»، و إن لم يكن للعالم أن يتبجح بعلمه و يمدح نفسه، و الأمر في جميع الفضائل الحقيقيه الإنسانيه على هذا الحال.

و ثانيهما: أن ما ذكره بعض باحثينا، و اتبعوا في ذلك ما ذكره المغاربه أن من الفضائل الإنسانيه الاعتماد بالنفس أمر لا يعرفه الدين، و لا- يوافق مذاق القرآن، و الذى يراه القرآن في ذلك هو الاعتماد بالله و التعزز بالله قال تعالى: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ: «آل عمران: ١٧٣»، و قال: أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا: «البقره: ١٦٥»، و قال: إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا: «يونس: ٦٥»، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: «أَنْظُرْ كَيْفَ يُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ»، إلخ فتركيتهم أنفسهم بينوه الله و حبه و ولايته و نحو ذلك افتراء على الله إذ لم يجعل الله لهم ذلك، على أن أصل التركيه افتراء و إن كانت عن صدق فإنه- كما تقدم بيانه- إسناد شريك إلى الله و ليس له في ملكه شريك قال تعالى: وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ: «الإسراء: ١١١».

و قوله: وَ كَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا أى لو لم يكن في التركيه إلا أنه افتراء على الله لكفى في كونه إثما مبينا، و التعبير بالإثم و هو الفعل المذموم الذى يمنع الإنسان من نيل الخيرات و يبطئها- هو المناسب لهذه المعصيه لكونه من إشراك الشرك و فروعه، يمنع نزول الرحمه، و كذا في شرك الكفر الذى يمنع المغفره كما وقع في الآيه السابقه:

وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا

بعد قوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ .

قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ»، الجبت و الجبس كل ما لا خير فيه، و قيل: و كل ما يعبد من دون الله سبحانه،



و الطاغوت مصدر فى الأصل كالطغيان يستعمل كثيرا بمعنى الفاعل، و قيل: هو كل معبود من دون الله، و الآيه تكشف عن وقوع واقعه قضى فيها بعض أهل الكتاب للذين كفروا على الذين آمنوا بأن سبيل المشركين أهدى من سبيل المؤمنين، و ليس عند المؤمنين إلا دين التوحيد المنزل فى القرآن المصدق لما عندهم، و لا عند المشركين إلا الإيمان بالجبت و الطاغوت فهذا القضاء اعتراف منهم بأن للمشركين نصيبا من الحق، و هو الإيمان بالجبت و الطاغوت الذى نسيه الله تعالى إليهم ثم لعنهم الله بقوله: **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ الْآيَةَ.**

و هذا يؤيد ما ورد فى أسباب النزول أن مشركى مكه طلبوا من أهل الكتاب أن يحكموا بينهم و بين المؤمنين فيما ينتحلونه من الدين ففضوا لهم على المؤمنين، و سيأتى الروايه فى ذلك فى البحث الروائى الآتى.

و قد ذكر كونهم ذوى نصيب من الكتاب ليكون أوقع فى وقوع الدم و اللوم عليهم فإن إيمان علماء الكتاب بالجبت و الطاغوت و قد بين لهم الكتاب أمرهما أشنع و أفظع.

قوله تعالى: **«أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ»** إلى قوله: **«نَقِيرًا»** النقيير فعيل بمعنى المفعول و هو المقدار اليسير الذى يأخذه الطير من الأرض بنقر منقاره، و قد مر له معنى آخر فى قوله: **«وَلَا يُظَلَّمُونَ فِتْيَالًا الْآيَةَ.»**

و قد ذكروا أن «أم» فى قوله: **«أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ»**، منقطع و المعنى: بل أ لهم نصيب من الملك، و الاستفهام إنكارى أى ليس لهم ذلك.

و قد جوز بعضهم أن تكون «أم» متصله، و قال: إن التقدير: أ هم أولى بالنبوه أم لهم نصيب من الملك؟ و رد بأن حذف الهمزه إنما يجوز فى ضروره الشعر، و لا ضروره فى القرآن، و الظاهر أن أم متصله و أن الشق المحذوف ما يدل عليه الآيه السابقه: **«أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ الْآيَةَ»**، و التقدير: أ لهم كل ما حكموا به من حكم أم لهم نصيب من الملك أم يحسدون الناس؟ و على هذا تستقيم الشقوق و ترتب، و يتصل الكلام فى سوجه.

و المراد بالملك هو السلطنه على الأمور الماديه و المعنويه فيشمل ملك النبوه و الولايه و الهدايه و ملك الرقاب و الثروه، و ذلك أنه هو الظاهر من سياق الجمل السابقه و اللاحقه فإن الآيه السابقه تومئ إلى دعواهم أنهم يملكون القضاء و الحكم على المؤمنين، و هو

مسانخ للملك على الفضائل المعنويه و ذيل الآيه: «فَإِذَا لَأَ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا» يدل على ملك الماديات أو ما يشمل ذلك فالمراد به الأعم من ملك الماديات و المعنويات.

فيقول معنى الآيه إلى نحو قولنا: أم لهم نصيب من الملك الذى أنعم الله به على نبيه بالنبوه و الولايه و الهدايه و نحوه، و لو كان لهم ذلك لم يؤتوا الناس أقل القليل الذى لا يعتد به لبخلهم و سوء سريرتهم، فالآيه قريبه المضمون من قوله تعالى: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ -:الإسراء: ١٠٠.

قوله تعالى: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ» و هذا آخر الشقوق الثلاثه المذكوره، و وجه الكلام إلى اليهود جوابا عن قضائهم على المؤمنين بأن دين المشركين أهدي من دينهم.

و المراد بالناس على ما يدل عليه هذا السياق هم الذين آمنوا، و بما آتاهم الله من فضله هو النبوه و الكتاب و المعارف الدينيه، غير أن ذيل الآيه: فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ «إلخ»، يدل على أن هذا الذى أطلق عليه الناس من آل إبراهيم، فالمراد بالناس حينئذ هو النبى ص، و ما انبسط على غيره من هذا الفضل المذكور فى الآيه فهو من طريقه و بركاته العالیه، و قد تقدم فى تفسير قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَ نُوحًا وَ آلَ إِبْرَاهِيمَ X الآيه X: -آل عمران: ٣٣»، إن آل إبراهيم هو النبى و آله.

و إطلاق الناس على المفرد لا ضير فيه فإنه على نحو الكنايه كقولك لمن يتعرض لك و يؤذيك: لا تتعرض للناس، و ما لك و للناس؟ تريد نفسك أى لا تتعرض لى.

قوله تعالى: «فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ» الجملة إثناس لهم فى حسدهم، و قطع لرجائهم زوال هذه النعمه، و انقطاع هذا الفضل بأن الله قد أعطى آل إبراهيم من فضله ما أعطى، و آتاهم من رحمته ما آتى فليموتوا بغيظهم فلن ينفعهم الحسد شيئا.

و من هنا يظهر أن المراد بآل إبراهيم إما النبى و آله من أولاد إسماعيل أو مطلق آل إبراهيم من أولاد إسماعيل و إسحاق حتى يشمل النبى ص الذى هو المحسود عند اليهود بالحقيقه، و ليس المراد بآل إبراهيم بنى إسرائيل من نسل إبراهيم فإن الكلام على هذا التقدير يعود تقريرا لليهود فى حسدهم النبى أو المؤمنين لمكان النبى ص فيهم

يفسد معنى الجملة كما لا يخفى.

وقد ظهر أيضا كما تقدمت الإشارة إليه أن هذه الجملة: فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ «إلخ» تدل على أن الناس المحسودين هم من آل إبراهيم، فيتأيد به أن المراد بالناس النبي ص و أما المؤمنون به فليسوا جميعا من ذرية إبراهيم، ولا كرامه لذريته من المؤمنين على غيرهم حتى يحمل الكلام عليهم، ولا- يوجب مجرد الإيمان و اتباع مله إبراهيم تسميه المتبعين بأنهم آل إبراهيم، وكذا قوله تعالى: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هَذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا XالآيةX:» آل عمران: ٦٨» لا يوجب تسميه الذين آمنوا بآل إبراهيم لمكان الأولويه فإن فى الآيه ذكرا من الذين اتبعوا إبراهيم، وليسوا يسمون آل إبراهيم قطعا، فالمراد بآل إبراهيم النبي أو هو و آله(ص) و إسماعيل جده و من فى حذوه.

قوله تعالى: «وَ آتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا» قد تقدم أن مقتضى السياق أن يكون المراد بالملك ما يعم الملك المعنوى الذى منه النبوه و الولايه الحقيقيه على هدايه الناس و إرشادهم و يؤيده أن الله سبحانه لا يستعظم الملك الدنيوى لو لم ينته إلى فضيله معنويه و منقبه دينيه، و يؤيد ذلك أيضا أن الله سبحانه لم يعد فيما عده من الفضل فى حق آل إبراهيم النبوه و الولايه إذ قال: فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ، فيقوى أن يكون النبوه و الولايه مندرجتين فى إطلاق قوله: و آتيناهم ملكا عظيما.

قوله تعالى: «فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ مِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ» الصد الصرف و قد قوبل الإيمان بالصد لأن اليهود ما كانوا ليقنعوا على مجرد عدم الإيمان بما أنزل على النبي ص دون أن يبذلوا مبلغ جهدهم فى صد الناس عن سبيل الله و الإيمان بما نزل من الكتاب، و ربما كان الصد بمعنى الإعراض و حينئذ يتم التقابل من غير عنايه زائده.

قوله تعالى: «وَ كَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا» تهديد لهم بسعير جهنم فى مقابل ما صدوا عن الإيمان بالكتاب و سعروا نار الفتنة على النبي ص و الذين آمنوا معه.

ثم بين تعالى كفايه جهنم فى أمرهم بقوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ وَ هُوَ بَيَانٌ فى صورته التعليل، ثم عقبه بقوله: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ ليتبين الفرق بين الطائفتين: مَنْ آمَنَ بِهِ ، وَ مَنْ صَدَّ عَنْهُ ، و يظهر أنهما فى قطبين

متخالفين من سعادته الحياه الأخرى و شقائها: دخول الجنات و ظلها الظليل، و إحاطه سعير جهنم و الاصطلاء بالنار- أعاذنا الله- و معنى الآيتين واضح.

قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ» إلخ الفقرة الثانيه من الآيه: «وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ» ظاهره الارتباط بالآيات السابقه عليها فإن البيان الإلهي فيها يدور حول حكم اليهود للمشركين بأنهم أهدي سبيلا- من المؤمنين، و قد وصفهم الله تعالى في أول بيانه بأنهم أوتوا نصيبا من الكتاب و الذى فى الكتاب هو تبين آيات الله و المعارف الإلهيه، و هى أمانات مأخوذ عليها الميثاق أن تبين للناس، و لا تكتم عن أهله.

و هذا الذى ذكر من القرائن يؤيد أن يكون المراد بالأمانات ما يعم الأمانات الماليه و غيرها من المعنويات كالعلوم و المعارف الحقه التى من حقها أن يبلغها حاملوها أهلها من الناس.

و بالجمله لما خانت اليهود الأمانات الإلهيه المودعه عندهم من العلم بمعارف التوحيد و آيات نبوه محمد ص فكتموها و لم يظهرها فى واجب وقتها، ثم لم يقنعوا بذلك حتى جاروا فى الحكم بين المؤمنين و المشركين فحكموا للوثنيه على التوحيد فأل أمرهم فيه إلى اللعن الإلهي و جر ذلك إياهم إلى عذاب السعير فلما كان من أمرهم ما كان، غير سبحانه سياق الكلام من التكلم إلى الغيبه فأمر الناس بتأديه الأمانات إلى أهلها، و بالعدل فى الحكم فقال: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ «إِلخ».

و الذى وسعنا به معنى تأديه الأمانات و العدل فى الحكم هو الذى يقضى به السياق على ما عرفت، فلا يرد عليه أنه عدول عن ظاهر لفظ الأمانه و الحكم فإن المتبادر فى مرحله التشريع من مضمون الآيه و جوب رد الأمانه الماليه إلى صاحبها، و عدل القاضى و هو الحكم فى مورد القضاء الشرعى، و ذلك أن التشريع المطلق لا يتقيد بما يتقيد به موضوعات الأحكام الفرعيه فى الفقه بل القرآن مثلا يبين و جوب رد الأمانه على الإطلاق، و جوب العدل فى الحكم على الإطلاق فما كان من ذلك راجعا إلى الفقه من الأمانه الماليه و القضاء فى المرافعات راجعه فيه الفقه، و ما كان غير ذلك استفاد منه فن أصول المعارف، و هكذا.

فى الدر المنثور، أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال " : كان رفاعه بن زيد بن التابوت من عظماء اليهود - إذا كلم رسول الله ص لوى لسانه، و قال: أرعنا سمعك يا محمد حتى نفهمك، ثم طعن فى الإسلام و عابه فأنزل الله فيه: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَهَ إِلَى قَوْلِهِ: فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا .

و فيه، أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن السدى " : فى قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ الْآيَه - قال: نزلت فى مالك بن الصيف، و رفاعه بن زيد بن التابوت من بنى قينقاع.

و فيه، أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال: كلم رسول الله ص رؤساء من أحبار اليهود - منهم عبد الله بن سوريا، و كعب بن أسد - فقال لهم: يا معشر اليهود اتقوا الله و أسلموا - فوالله إنكم لتعلمون إن الذى جئتكم به لحق - فقالوا: ما نعرف ذلك يا محمد فأنزل الله فيهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا الْآيَه.

أقول: ظاهر الآيات الشريفه على ما تقدم فى البيان السابق و إن كان نزولها فى اليهود من أهل الكتاب إلا أن ما نقلناه من سبب النزول لا يزيد على أنه حكم تطبيقى كغالب نظائره من الأخبار الحاكيه لأسباب النزول، و الله أعلم.

و فى تفسير البرهان، عن النعمانى بإسناده عن جابر عن الباقر (ع) فى حديث طويل يصف فيه خروج السفينانى، و فيه قال " : و ينزل أمير جيش السفينانى البيداء فينادى مناد من السماء: يا بيداء أبيدى بالقوم فيخسف بهم - فلا يفلت منهم إلا ثلاثة نفر - يحول الله وجوههم إلى أقيتهم، و هم من كلب، و فيهم نزلت هذه الآيه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ - آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ - مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا الْآيَه:

أقول: و رواه عن المفيد أيضا بإسناده عن جابر عن الباقر (ع) فى نظير الخبر فى قصه السفينانى.

و فى الفقيه، بإسناده عن ثوير عن أبيه\*: أن علياً (ع) قال: ما فى القرآن آية أحب إلى من قوله عز وجل: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ :

أقول: و رواه فى الدر المنثور عن الفريابى و الترمذى و حسنه عن على .

و فى الدر المنثور، أخرج ابن جرير و ابن أبى حاتم عن ابن عمر قال\* لما نزلت: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ الْآيَةَ - فقام رجل فقال: و الشرك يا نبى الله؟ فكره ذلك النبى ص فقال: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ الْآيَةَ .

و فيه، أخرج ابن المنذر عن أبى مجاز قال\*: لما نزلت هذه الآية: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا الْآيَةَ - قام النبى ص على المنبر فتلاها على الناس - فقام إليه رجل فقال: و الشرك بالله؟ فسكت - مرتين أو ثلاثاً - فنزلت هذه الآية: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ - وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ - فأثبتت هذه فى الزمر، و أثبتت هذه فى النساء .

أقول: و قد عرفت فيما تقدم أن آية الزمر ظاهره بحسب ما تتعقبه من الآيات فى المغفرة بالتوبه، و لا ريب أن التوبه يغفر معها كل ذنب حتى الشرك، و أن آية النساء موردها غير مورد التوبه فلا - تنافى بين الآيتين مضمونا حتى تكون إحداهما ناسخه أو مخصصه للأخرى .

و فى المجمع، عن الكلبى " \*: فى الآية: نزلت فى المشركين وحشى و أصحابه، و ذلك أنه لما قتل حمزه، و كان قد جعل له على قتله أن يعتق فلم يوف له بذلك، فلما قدم مكة ندم على صنيعه هو و أصحابه - فكتبوا إلى رسول الله ص: أنا قد ندمنا على الذى صنعناه، و ليس بمنعنا عن الإسلام إلا - أنا سمعناك تقول و أنت بمكة: وَ الَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ - وَ لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ - وَ لَا يَزْنُونَ الْآيَاتِ، و قد دعونا مع الله إليها آخر، و قتلنا النفس التى حرم الله، و زينا، فلو لا هذه لا تبعناك - فنزلت الآية: إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا الْآيَاتِ - فبعث بهما رسول الله ص إلى وحشى و أصحابه، فلما قرأهما كتبوا إليه: أن هذا شرط شديد - نخاف أن لا نعمل عملا صالحا - فلا نكون من أهل هذه الآية - فنزلت: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ الْآيَةَ - فبعث بها إليهم فقرءوها فبعثوا إليه: أنا نخاف أن لا نكون من أهل مشيئته - فنزلت: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ - لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ - إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا - فبعث بها إليهم فلما قرءوها

دخل هو و أصحابه فى الإسلام، و رجعوا إلى رسول الله ص فقبل منهم، ثم قال لوحشى أخبرنى كيف قتلت حمزه؟ فلما أخبره قال: ويحك غيب شخصك عنى - فلحق وحشى: بعد ذلك بالشام، و كان بها إلى أن مات:

أقول: و قد ذكر هذه الروايه الرازى فى تفسيره عن ابن عباس و التأمل فى موارد هذه الآيات التى تذكر الروايه أن رسول الله ص كان يراجع بها وحشيا لا يدع للمتأمل شكاً فى أن الروايه موضوعه قد أراد واضعها أن يقدر أن وحشيا و أصحابه مغفور لهم و إن ارتكبوا من المعاصى كل كبيره و صغيره فقد التقط آيات كثيره من مواضع مختلفه من القرآن فالاستثناء من موضع، و المستثنى من موضع مع أن كلا منها واقعه فى محل محفوفه بأطراف لها معها ارتباط و اتصال، و للمجموع سياق لا يحتمل التقطيع و التفصيل فقطعها ثم رتبها و نضدها نضداً يناسب هذه المراجعه العجيبه بين النبى ص و بين وحشى.

و لقد أجاد بعض المفسرين حيث قال بعد الإشاره إلى الروايه: كأنهم يثبتون أن الله سبحانه كان يداعب وحشيا.

فواضع الروايه لم يرد إلا- أن يشرف وحشيا بمغفره محتومه مختومه لا- يضره معها أى ذنب أذنب و أى فظيحه أتى بها، و عقب ذلك ارتفاع المجازاه على المعاصى، و لازمه ارتفاع التكليف عن البشر على ما يراه النصرانيه بل أشنع فإنهم إنما رفعوا التكليف بتفديه مثل عيسى المسيح، و هذا يرفعه اتباعاً لهوى وحشى.

و وحشى هذا هو عبد لابن مطعم قتل حمزه بأحد ثم لحق مكه ثم أسلم بعد أخذ الطائف، و قال له النبى ص: غيب شخصك عنى فلحق بالشام و سكن حمصاً و اشتغل فى عهد عمر بالكتابه فى الديوان، ثم أخرج منه لكونه يدمن الخمر، و قد جلد لذلك غير مره، ثم مات فى خلافه عثمان، قتله الخمر على ما روى.

روى ابن عبد البر فى الاستيعاب بإسناده عن ابن إسحاق عن عبد الله بن الفضل عن سليمان بن يسار عن جعفر بن عمرو بن أميه الضمري قال " \*: خرجت أنا و عبد الله بن عدى بن الخيار- فمررنا بحمص و بها وحشى، فقلنا: لو أتيناها و سألناه عن قتله حمزه كيف قتله، فلقينا رجلاً و نحن نسأل عنه فقال: إنه رجل قد غلبت عليه الخمر- فإن تجدها صاحياً تجدها رجلاً عريباً- يحدثك ما شئتما من حديث، و إن تجدها على

غير ذلك فانصرفا عنه، قال: فأقبلنا حتى انتهينا إليه، الحديث، وفيه ذكر كيفية قتله حمزه يوم أحد.

و في المجمع، روى مطرف بن شخير عن عمر بن الخطاب قال<sup>1</sup>: \*كنا على عهد رسول الله ص- إذا مات الرجل منا على كبيره- شهدنا بأنه من أهل النار- حتى نزلت الآية فأمسكنا عن الشهادات.

و في الدر المنثور، أخرج ابن المنذر من طريق المعتمر بن سليمان عن سليمان بن عتبة البارقي قال<sup>2</sup>: \*حدثنا إسماعيل بن ثوبان قال<sup>3</sup>: شهدت في المسجد قبل الداء الأعظم فسمعتهم يقولون: مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ- فقال المهاجرون و الأنصار: قد أوجب له النار- فلما نزلت: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ- وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ قالوا:

ما شاء الله، يصنع الله ما يشاء.

أقول: و روى ما يقرب من الروايتين عن ابن عمر بغير واحد من الطرق، و هذه الروايات لا تخلو من شيء فلا نظن بعامه أصحاب رسول الله ص أن يجهلوا أن هذه الآية: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ لا تزيد في مضمونها على آيات الشفاعة شيئاً كما تقدم بيانه، أو أن يغفلوا عن أن معظم آيات الشفاعة مكيه كقوله تعالى في سورة الزخرف:

وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ: «الزخرف: ٨٦»، و مثلها آيات الشفاعة الواقعة في سورة يونس، و الأنبياء، و طه، و سبأ، و النجم، و المدثر كلها آيات مكيه تثبت الشفاعة على ما مر بيانه، و هي عامه لجميع الذنوب و مقيدة في جانب المشفوع له بالدين المرضي و هو التوحيد و نفى الشريك و في جانب الله تعالى بالمشيئة، فمحصل مفادها شمول المغفرة لجميع الذنوب إلا الشرك على مشيئة من الله، و هذا بعينه مفاد هذه الآية: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ» .

و أما الآيات التي توعد قاتل النفس المحترمه بغير حق. و آكل الربا، و قاطع الرحم بجزاء النار الخالد كقوله تعالى: وَ مَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا X الآية X: «النساء: ٩٣»، و قوله في الربا: وَ مَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ: «البقرة: ٢٧٥»، و قوله في قاطع الرحم: أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ: «الرعد: ٢٥»، و غير ذلك من الآيات فهذه الآيات إنما توعد بالشر و تنبئ عن جزاء النار، و أما كونه جزاء محتوما لا يقبل التغيير و الارتفاع فلا صراحه لها فيه.



و بالجمله لا يترجح آيه «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ» على آيات الشفاعة بأمر زائد في مضمونها يمهد لهم ما ذكروه.

فليس يسعهم أن يفهموا من آيات الكبائر تحتم النار حتى يجوز لهم الشهادة على مرتكبها بالنار، ولا يسعهم أن يفهموا من آيه المغفرة (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ إِنْ شَاءَ) أمر ليس يفهم من آيات الشفاعة حتى يوجب لهم القول بنسخها أو تخصيصها أو تقييدها آيات الكبائر.

و يومئ إلى ذلك ما ورد في بعض هذه الروايات، و هو

ما رواه في الدر المنثور، عن ابن الضريس و أبي يعلى و ابن المنذر و ابن عدى بسند صحيح عن ابن عمر قال\*: كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر- حتى سمعنا من نبينا(ص): إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ- وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، و قال: إني ادخرت دعوتي شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، فأمسكنا عن كثير مما كان في أنفسنا- ثم نطقنا بعد و رجونا.

فظاهر الروايه أن الذي فهموه من آيه المغفرة فهموا مثله من حديث الشفاعة لكن يبقى عليه سؤال آخر، و هو أنه ما بالهم فهموا جواز مغفرة الكبائر من حديث الشفاعة، و لم يكونوا يفهمونه من آيات الشفاعة المكية على كثرتها و دلالتها و طول العهد؟ ما أدري!

و في الدر المنثور، \* في قوله: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ - إلى قوله:

سَيِّئًا

"أخرج البيهقي في الدلائل و ابن عساكر في تاريخه عن جابر بن عبد الله قال": \* لما كان من أمر النبي ص- ما كان اعتزل كعب بن الأشرف و لحق بمكه و كان بها، و قال:

لا- أعين عليه و لا- أقاتله، ف قيل له بمكه: يا كعب أ ديننا خير أم دين محمد و أصحابه؟ قال: دينكم خير و أقدم، و دين محمد حديث، فنزلت فيه: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ الْآيَةَ.

أقول: و في سبب نزول الآيه روايات على وجوه مختلفه أسلمها ما أوردناه غير أن الجميع تشترك في أصل القصة و هو أن بعضا من اليهود حكموا لقريش على النبي ص بأن دينهم خير من دينه.

و في تفسير البرهان، \* في قوله تعالى: أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ الْآيَةَ: عن الشيخ في أماليه، بإسناده عن جابر عن أبي جعفر(ع): \* أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ

عَلِيٍّ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

-قال: نحن الناس.

و في الكافي، بإسناده عن بريد عن الباقر (ع) في حديث\*:

«أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَيَّ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ»

-نحن الناس المحسودون، الحديث.

أقول: وهذا المعنى مروى عن أئمة أهل البيت (ع) مستفيضا بطرق كثيرة مودعه في جوامع الشيعة كالكافي، و التهذيب، و المعاني، و البصائر، و تفسيري القمي و العياشي، و غيرها.

و في معناها من طرق أهل السنه ما عن ابن المغازلي يرفعه إلى محمد بن علي الباقر (ع)\* في قوله تعالى:

أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَيَّ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

-قال:

نحن الناس و الله.

و ما في الدر المنثور، عن ابن المنذر و الطبراني من طريق عطاء عن ابن عباس " في قوله: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ» قال: نحن الناس دون الناس:، و قد روى فيه أيضا تفسير الناس برسول الله ص عن عكرمه و مجاهد و مقاتل و أبي مالك، و قد مر فيما قدمناه من البيان: أن الظاهر كون المراد بالناس رسول الله ص و أهل بيته ملحقون به.

و في تفسير العياشي، عن حمran عن الباقر (ع) \* «فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ» قال: النبوه، «و الْحِكْمَةَ» قال: الفهم و القضاء، «و مُلْكًا عَظِيمًا» قال: الطاعة.

أقول: المراد بالطاعة الطاعة المفترضة على ما ورد في سائر الأحاديث، و الأخبار في هذه المعاني أيضا كثيرة، و في بعضها تفسير الطاعة المفترضة بالإمامه و الخلافه كما في الكافي بإسناده عن بريد عن الباقر (ع).

و في تفسير القمي، \* في قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا الْآيَةَ» قال: الآيات أمير المؤمنين و الأئمه (ع).

أقول: و هو من الجرى.

و في مجالس الشيخ، بإسناده عن حفص بن غياث القاضي قال\* : كنت عند سيد الجعافره جعفر بن محمد (ع) -لما قدمه المنصور فأتاه ابن أبي العوجاء و كان ملحدا- فقال: ما تقول في هذه الآية: «كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا



؟ هب هذه الجلود عصت فعذبت فما بال الغير؟ قال أبو عبد الله (ع): ويحك هي هي و هي غيرها، قال: اعقلنى هذا القول، فقال له: أ رأيت لو أن رجلا- عمد إلى لبنه فكسرها- ثم صب عليها الماء و جبلها- ثم ردها إلى هيئتها الأولى ألم تكن هي هي و هي غيرها؟ فقال: بلى أمتع الله بك:

أقول: و رواه فى الإحتجاج، أيضا عن حفص بن غياث عنه (ع)، و القمى فى تفسيره مرسلا: و يعود حقيقه الجواب إلى أن وحده الماده محفوظه بوحده الصورة فبدن الإنسان كأجزاء بدنه باق على وحدته ما دام الإنسان هو الإنسان و إن تغير البدن بأى تغير حدث فيه.

و فى الفقيه، قال\*: سئل الصادق (ع) عن قول الله عز و جل - لَهْمُ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ قال: الأزواج المطهره اللاتى لا يحضن و لا يحدثن.

و فى تفسير البرهان، \* فى قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ الْآيَه: عن محمد بن إبراهيم النعمانى بإسناده عن زراره عن أبى جعفر محمد بن على (ع) قال\*:

سألته عن قول الله عز و جل: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا - وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ فقال: أمر الله الإمام أن يؤدى الأمانه إلى الإمام الذى بعده، ليس له أن يزويها عنه، أ لا تسمع قوله: «وَ إِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ - إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ» هم الحكام يا زراره، أنه خاطب بها الحكام:

أقول: و صدر الحديث مروى بطرق كثيره عنهم (ع)، و ذيله يدل على أنه من باب الجرى، و أن الآيه نازله فى مطلق الحكم و إعطاء ذى الحق حقه فينطبق على مثل ما تقدم سابقا.

و فى معناه ما فى الدر المنثور، عن سعيد بن منصور و الفريابى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب قال\*: حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله- و أن يؤدى الأمانه- فإذا فعل ذلك فحق على الناس أن يسمعوا له- و أن يطيعوا و أن يجيبوا إذا دعوا

## [سورة النساء (٤): الآيات ٥٩ الى ٧٠]

### إشارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٥٩) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَ مَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَ يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى اللَّهِ وَ إِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابْتَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَ تَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ عَظِّمْهُمْ وَ قُلْ لَهُمْ

فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (٦٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ  
لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا  
مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ  
فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا (٦٦) وَإِذْ لَاتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٦٨) وَ  
مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا  
(٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠)



الآيات- كما ترى غير عادمه الارتباط بما تقدمها من الآيات فإن آيات السوره آخذة من قوله تعالى: **وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**، كأنها مسوقه لترغيب الناس فى الإنفاق فى سبيل الله، وإقامه صلب طبقات المجتمع و أرباب الحوائج من المؤمنين و ذم الذين يصدون الناس عن القيام بهذا المشروع الواجب، ثم الحث على إطاعه الله و إطاعه الرسول و أولى الأمر، و قطع منابت الاختلاف و التجنب عن التشاجر و التنازع، و إرجاعه إلى الله و رسوله لو اتفق، و التحرز عن النفاق، و لزوم التسليم لأوامر الله و رسوله و هكذا إلى أن تنتهى إلى الآيات النادبه إلى الجهاد المبينه لحكمه أو الأمره بالنفر فى سبيل الله، فجميع هذه الآيات مجهزه للمؤمنين للجهاد فى سبيل الله، و منظمه لنظام أمورهم فى داخلهم، و ربما تخللها آيه أو آيتان بمنزله الاعتراض فى الكلام لا يخل باتصال الكلام كما تقدم الإيماء إليه فى قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ نَسَاءً: ٤٣**.

قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ** لما فرغ من الندب إلى عباده الله وحده لا شريك له و بث الإحسان بين طبقات المؤمنين و ذم من يعيب هذا الطريق المحمود أو صد عنه صدودا عاد إلى أصل المقصود بلسان آخر يتفرع عليه فروع آخر، بها يستحكم أساس المجتمع الإسلامى و هو التحضيض و الترغيب فى أخذهم بالائتلاف و الاتفاق، و رفع كل تنازع واقع بالرد إلى الله و رسوله.

و لا ينبغى أن يرتاب فى أن قوله: **أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ**، جملة سيقت تمهيدا و توطئه للأمر برد الأمر إلى الله و رسوله عند ظهور التنازع، و إن كان مضمون الجملة أساس جميع الشرائع و الأحكام الإلهيه.

فإن ذلك ظاهر تفريع قوله: **فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ**،

ثم العود بعد العود إلى هذا المعنى بقوله: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ إِيَّاكَ، وقوله: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ إِيَّاكَ، وقوله: فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ إِيَّاكَ.

و لا ينبغي أن يرتاب في أن الله سبحانه لا يريد بإطاعته إلا إطاعته في ما يوحيه إلينا من طريق رسوله من المعارف و الشرائع، و أما رسوله ص فله حيثتان:

إحداهما: حيثه التشريع بما يوحيه إليه ربه من غير كتاب، و هو ما بينه للناس من تفاصيل ما يشتمل على إجماله الكتاب و ما يتعلق و يرتبط بها كما قال تعالى: وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ: -النحل ٤٤، و الثانيه: ما يراه من صواب الرأي و هو الذى يرتبط بولايته الحكومه و القضاء قال تعالى: لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ: -النساء ١٠٥، و هذا هو الرأي الذى كان يحكم به على ظواهر قوانين القضاء بين الناس، و هو الذى كان (ص) يحكم به فى عزائم الأمور، و كان الله سبحانه أمره فى اتخاذ رأى بالمشاوره فقال: «وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ: آل عمران ١٥٩، فأشركهم به فى المشاوره و وحده فى العزم.

إذا عرفت هذا علمت أن لإطاعه الرسول معنى و لإطاعه الله سبحانه معنى آخر و إن كان إطاعه الرسول إطاعه الله بالحقيقه لأن الله هو المشرع لوجوب إطاعته كما قال:

«وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ»

فعلى الناس أن يطيعوا الرسول فيما بينه بالوحي، و فيما يراه من رأى.

و هذا المعنى (و الله أعلم) هو الموجب لتكرار الأمر بالطاعه فى قوله: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ، لا- ما ذكره المفسرون: أن التكرار للتأكيد فإن القصد لو كان متعلقا بالتأكيد كان ترك التكرار كما لو قيل: و أطيعوا الله و الرسول أدل عليه و أقرب منه فإنه كان يفيد أن إطاعه الرسول عين إطاعه الله سبحانه و أن الإطاعتين واحده، و ما كل تكرار يفيد التأكيد.

و أما أولوا الأمر فهم- كائنين من كانوا- لا نصيب لهم من الوحي، و إنما شأنهم رأى الذى يستصوبونه فلهم افتراض الطاعه نظير ما للرسول فى رأيهم و قولهم، و لذلك لما ذكر وجوب الرد و التسليم عند المشاجره لم يذكرهم بل خص الله و الرسول فقال:

فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ

، و ذلك أن المخاطبين بهذا الرد هم المؤمنون المخاطبون بقوله فى صدر الآيه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ



والتنازع تنازعهم بلا-ريب، ولا-يجوز أن يفرض تنازعهم مع أولى الأمر مع افتراض طاعتهم بل هذا التنازع هو ما يقع بين المؤمنين أنفسهم، وليس في أمر الرأى بل من حيث حكم الله في القضييه المتنازع فيها بقريته الآيات التاليه الذامه لمن يرجع إلى حكم الطاغوت دون حكم الله ورسوله، وهذا الحكم يجب الرجوع فيه إلى أحكام الدين المبينه المقرره في الكتاب و السنه، و الكتاب و السنه حجتان قاطعتان في الأمر لمن يسعه فهم الحكم منهما، و قول أولى الأمر في أن الكتاب و السنه يحكمان بكذا أيضا حجه قاطعه فإن الآيه تقرر افتراض الطاعه من غير أى قيد أو شرط، و الجميع راجع بالآخره إلى الكتاب و السنه.

و من هنا يظهر أن ليس لأولى الأمر هؤلاء-كائنين من كانوا-أن يضعوا حكما جديدا، و لا أن ينسخوا حكما ثابتا في الكتاب و السنه، و إلا لم يكن لوجوب إرجاع موارد التنازع إلى الكتاب و السنه و الرد إلى الله و الرسول معنى على ما يدل عليه قوله:

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا: -الأحزاب ٣٦، فقضاء الله هو التشريع و قضاء رسوله إما ذلك و إما الأعم، و إنما الذى لهم أن يروا رأيهم في موارد نفوذ الولايه، و أن يكشفوا عن حكم الله و رسوله في القضايا و الموضوعات العامه.

و بالجملة لما لم يكن لأولى الأمر هؤلاء خيره في الشرائع، و لا عندهم إلا ما لله و رسوله من الحكم أعنى الكتاب و السنه لم يذكرهم الله سبحانه ثانيا عند ذكر الرد بقوله: فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ، فله تعالى إطاعه واحده، و للرسول و أولى الأمر إطاعه واحده، و لذلك قال: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ .

و لا ينبغي أن يرتاب في أن هذه الإطاعه المأمور بها في قوله: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ، إطاعه مطلقه غير مشروطه بشرط، و لا مقيده بقيد و هو الدليل على أن الرسول لا يأمر بشيء، و لا ينهى عن شيء يخالف حكم الله في الواقعه و إلا كان فرض طاعته تناقضا منه تعالى و تقدس و لا يتم ذلك إلا بعصمه فيه(ص).

و هذا الكلام بعينه جار في أولى الأمر غير أن وجود قوه العصمه في الرسول لما قامت عليه الحجج من جهه العقل و النقل في حد نفسه من غير جهه هذه الآيه دون أولى

الأمر ظاهراً أمكن أن يتوهم متوهم أن أولى الأمر هؤلاء لا يجب فيهم العصمه و لا يتوقف عليها الآيه فى استقامه معناها.

بيان ذلك أن الذى تقرره الآيه حكم مجعول لمصلحه الأمه يحفظ به مجتمع المسلمين من تسرب الخلاف و التشتت فيهم و شق عصاهم فلا- يزيد على الولا-يه المعهوده بين الأمم و المجتمعات، تعطى للواحد من الإنسان افتراض الطاعه و نفوذ الكلمه، و هم يعلمون أنه ربما يعصى و ربما يغلط فى حكمه، لكن إذا علم بمخالفته القانون فى حكمه لا- يطاع فيه، و ينبه فيما أخطأ، و فيما يحتمل خطؤه ينفذ حكمه و إن كان مخطئاً فى الواقع و لا يبالي بخطئه فإن مصلحه حفظ وحده المجتمع و التحرز من تشتت الكلمه مصلحه يتدارك بها أمثال هذه الأغلاط و الاشتباهات.

و هذا حال أولى الأمر الواقع فى الآيه فى افتراض طاعتهم فرض الله طاعتهم، على المؤمنين فإن أمروا بما يخالف الكتاب و السنه فلا يجوز ذلك منهم و لا ينفذ حكمهم

لقول رسول الله ص: «لا- طاعه لمخلوق فى معصيه الخالق» و قد روى هذا المعنى الفريقان و به يقيّد إطلاق الآيه، و أما الخطأ و الغلط فإن علم به رد إلى الحق و هو حكم الكتاب و السنه، و إن احتمل خطؤه نفذ فيه حكمه كما فيما علم عدم خطئه، و لا بأس بوجود القبول و افتراض الطاعه فيما يخالف الواقع هذا النوع لأن مصلحه حفظ الوحده فى الأمه و بقاء السؤدد و الأبّه تتدارك بها هذه المخالفه، و يعود إلى مثل ما تقرر فى أصول الفقه من حجيه الطرق الظاهريه مع بقاء الأحكام الواقعيه على حالها، و عند مخالفه مؤداها للواقع تتدارك المفسده اللازمه بمصلحه الطريق.

و بالجملة طاعه أولى الأمر مفترضه و إن كانوا غير معصومين يجوز عليهم الفسق و الخطأ فإن فسقوا فلا طاعه لهم، و إن أخطئوا ردوا إلى الكتاب و السنه إن علم منهم ذلك، و نفذ حكمهم فيما لم يعلم ذلك، و لا بأس بإنفاذ ما يخالف حكم الله فى الواقع دون الظاهر رعايه لمصلحه الإسلام و المسلمين، و حفظاً لوحده الكلمه.

و أنت بالتأمل فيما قدمناه من البيان تعرف سقوط هذه الشبهه من أصلها، و ذلك أن هذا التقريب من الممكن أن نساعده فى تقييد إطلاق الآيه فى صورته الفسق بما ذكر من قول النبى ص: «لا طاعه لمخلوق فى معصيه الخالق» و ما يؤدى هذا المعنى من الآيات القرآنيه كقوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ: «الأعراف: ٢٨»، و ما فى هذا

المعنى من الآيات.

و كذا من الممكن بل الواقع أن يجعل شرعا نظير هذه الحجية الظاهرية المذكوره كفرض طاعه أمراء السرايا الذين كان ينصبهم عليهم رسول الله ص، و كذا الحكام الذين كان يوليهم على البلاد كمكه و اليمن أو يخلفهم بالمدينه إذا خرج إلى غزاه، و كحجيه قول المجتهد على مقلده و هكذا لكنه لا- يوجب تقييد الآيه فكون مسأله من المسائل صحيحه فى نفسه أمر و كونها مدلولا عليها بظاهر آيه قرآنيه أمر آخر.

فآليه تدل على افتراض طاعه أولى الأمر هؤلاء، و لم تقيده بقييد و لا شرط، و ليس فى الآيات القرآنيه ما يقيد الآيه فى مدلولها حتى يعود معنى قوله «وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ» إلى مثل قولنا: و أطيعوا أولى الأمر منكم فيما لم يأمرؤا بمعصيه أو لم تعلموا بخطئهم فإن أمرؤكم بمعصيه فلا طاعه عليكم، و إن علمتم خطأهم فقوموهم بالرد إلى الكتاب و السنه فما هذا معنى قوله: وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ .

مع أن الله سبحانه أبان ما هو أوضح من هذا القيد فيما هو دون هذه الطاعه المفترضه كقوله فى الوالدين: وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَ إِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا X الآيه X: «العنكبوت: ٨» فما باله لم يظهر شيئا من هذه القيود فى آيه تشتمل على أس أساس الدين، و إليها تنتهى عامه أعراق السعاده الإنسانيه.

على أن الآيه جمع فيها بين الرسول و أولى الأمر، و ذكر لهما معا طاعه واحده فقال: وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ، و لا يجوز على الرسول أن يأمر بمعصيه أو يغلط فى حكم فلو جاز شىء من ذلك على أولى الأمر لم يسع إلا أن يذكر القيد الوارد عليهم فلا مناص من أخذ الآيه مطلقه من غير أى تقييد، و لازمه اعتبار العصمه فى جانب أولى الأمر كما اعتبر فى جانب رسول الله ص من غير فرق.

ثم إن المراد بالأمر فى أولى الأمر هو الشأن الراجع إلى دين المؤمنين المخاطبين بهذا الخطاب أو دنياهم على ما يؤيده قوله تعالى: وَ شَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ: «آل عمران:

١٥٩»، و قوله فى مدح المتقين: وَ أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ: «الشورى: ٣٨»، و إن كان من الجائز بوجه أن يراد بالأمر ما يقابل النهى لكنه بعيد.

و قد قيد بقوله: «مِنْكُمْ» و ظاهره كونه ظرفا مستقرا أى أولى الأمر كائنين

منكم و هو نظير قوله تعالى: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ: «الجمعه: ٢»، و قوله فى دعوه إبراهيم: رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ: «البقره: ١٢٩»، و قوله:

رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِى: «الأعراف: ٣٥»، و بهذا يندفع ما ذكره بعضهم:

أن تقييد أولى الأمر بقوله: «مِنْكُمْ» يدل على أن الواحد منهم إنسان عادى مثلنا و هم منا و نحن مؤمنون من غير مزيه عصمه إلهيه.

ثم إن أولى الأمر لما كان اسم جمع يدل على كثره جمعيه فى هؤلاء المسمين بأولى الأمر فهذا لا شك فيه لكن يحتمل فى بادئ النظر أن يكونوا آحادا يلى الأمر و يتلبس بافتراض الطاعه واحد منهم بعد الواحد فينسب افتراض الطاعه إلى جميعهم بحسب اللفظ، و الأخذ بجامع المعنى، كقولنا: صل فرائضك و أطع سادتك و كبراء قومك.

و من عجب الكلام ما ذكره الرازى: أن هذا المعنى يوجب حمل الجمع على المفرد، و هو خلاف الظاهر، و قد غفل عن أن هذا استعمال شائع فى اللغة، و القرآن ملئ به كقوله تعالى: فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ: «القلم: ٨»، و قوله: فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ: «الفرقان:

٥٢»، و قوله: إِذَا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَ كُبُرَاءَنَا: «الأحزاب: ٦٧»، و قوله: وَ لَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ: «الشعراء: ١٥١»، و قوله: حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ: «البقره: ٢٣٨»، و قوله: وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ: «الحجر: ٨٨»، إلى غير ذلك من الموارد المختلفه بالإثبات و النفى، و الإخبار و الإنشاء.

و الذى هو خلاف الظاهر من حمل الجمع على المفرد هو أن يطلق لفظ الجمع و يراد به واحد من آحاده لا أن يوقع حكم على الجمع بحيث ينحل إلى أحكام متعدده بتعدد الآحاد، كقولنا: أكرم علماء بلدك أى أكرم هذا العالم، و أكرم ذاك العالم، و هكذا.

و يحتمل أيضا أن يكون المراد بأولى الأمر- هؤلاء الذين هم متعلق افتراض الطاعه-الجمع من حيث هو جمع أى الهيئه الحاصله من عده معدوده كل واحد منهم من أولى الأمر، و هو أن يكون صاحب نفوذ فى الناس، و ذا تأثير فى أمورهم كرؤساء الجنود و السرايا و العلماء و أولياء الدوله، و سراه القوم، بل كما ذكره فى المنار هم أهل الحل و العقد الذين تثق بهم الأمه من العلماء و الرؤساء فى الجيش و المصالح العامه كالتجاره و الصناعات و الزراعه و كذا رؤساء العمال و الأحزاب، و مديرو الجرائد المحترمه، و رؤساء تحريرها! فهذا معنى كون أولى الأمر هم أهل الحل و العقد، و هم الهيئه الاجتماعيه

من وجوه الأمة لكن الشأن فى تطبيق مضمون تمام الآيه على هذا الاحتمال.

الآيه داله- كما عرفت- على عصمه أولى الأمر و قد اضطر إلى قبول ذلك القائلون بهذا المعنى من المفسرين.

فهل المتصف بهذه العصمه أفراد هذه الهيئه فيكون كل واحد واحد منهم معصوما فالجميع معصوم إذ ليس المجموع إلا الآحاد؟ لكن من البديهي أن لم يمر بهذه الأمة يوم يجتمع فيه جماعه من أهل الحل و العقد كلهم معصومون على إنفاذ أمر من أمور الأمة و من المحال أن يأمر الله بشيء لا مصداق له فى الخارج، أو أن هذه العصمه- و هى صفه حقيقه- قائمه بتلك الهيئه قيام الصفه بموصوفها و إن كانت الأجزاء و الأفراد غير معصومين بل يجوز عليهم من الشرك و المعصيه ما يجوز على سائر أفراد الناس فالرأى الذى يراه الفرد يجوز فيه الخطأ و أن يكون داعيا إلى الضلال و المعصيه بخلاف ما إذا رآته الهيئه المذكوره لعصمتها؟ و هذا أيضا محال و كيف يتصور اتصاف موضوع اعتبارى بصفه حقيقه أعنى اتصاف الهيئه الاجتماعيه بالعصمه.

أو أن عصمه هذه الهيئه ليست وصفا لأفرادها و لا لنفس الهيئه بل حقيقته أن الله يصون هذه الهيئه أن تأمر بمعصيه أو ترى رأيا فتخطئ فيه، كما أن الخبر المتواتر مصون عن الكذب، و مع ذلك ليست هذه العصمه بوصف لكل واحد من المخبرين و لا للهيئه الاجتماعيه بل حقيقته أن العاده جاريه على امتناع الكذب فيه، و بعبارة أخرى هو تعالى يصون الخبر الذى هذا شأنه عن وقوع الخطأ فيه و تسرب الكذب عليه، فيكون رأى أولى الأمر مما لا- يقع فيه الخطأ البتة و إن لم يكن آحادهم و لا هيئتهم متصفه بصفه زائده بل هو كالخبر المتواتر مصون عن الكذب و الخطأ و ليكن هذا معنى العصمه فى أولى الأمر، و الآيه لا تدل على أزيد من أن رأيهم غير خابط بل مصيب يوافق الكتاب و السنه، و هو من عنايه الله على الأمة،

و قد روى عن النبى ص أنه قال:

لا تجتمع أمتى على خطأ.

أما الروايه فهى أجنبيه عن المورد فإنها إن صحت فإنما تنفى اجتماع الأمة على خطأ، و لا تنفى اجتماع أهل الحل و العقد منهم على خطأ، و للأمه معنى و لأهل الحل و العقد معنى آخر، و لا دليل على إرادته معنى الثانى من لفظ الأول، و كذا لا تنفى الخطأ عن اجتماع الأمة بل تنفى الاجتماع على خطأ، و بينهما فرق.

و يعود معنى الروايه إلى أن الخطأ فى مسأله من المسائل لا- يستوعب الأمة بل يكون دائما فيهم من هو على الحق: إما كلهم أو بعضهم و لو معصوم واحد، فيوافق ما دل من الآيات و الروايات على أن دين الإسلام و مله الحق لا يرتفع من الأرض بل هو باق إلى يوم القيامة، قال تعالى: فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ: «الأنعام:

٨٩» و قوله: وَ جَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ: «الزخرف: ٢٨» و قوله: إِذَا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذُّكْرَ وَإِذَا لَهُ لَحَافِظُونَ: «الحجر: ٩» و قوله: وَ إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لَا مِنْ خَلْفِهِ: «فصلت: ٤٢» إلى غير ذلك من الآيات.

و ليس يختص هذا بأمة محمد بل الصحيح من الروايات تدل على خلافه، و هى الروايات الواردة من طرق شتى عن النبى ص الداله على افتراق اليهود على إحدى و سبعين فرقه و النصرارى على اثنتين و سبعين فرقه، و المسلمين على ثلاث و سبعين فرقه كلهم هالك إلا واحده، و قد نقلنا الروايه فى المبحث الروائى الموضوع فى ذيل قوله تعالى:

وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا: «آل عمران: ١٠٣».

و بالجمله لا- كلام على متن الروايه إن صح سندها فإنها أجنبيه عن مورد الكلام، و إنما الكلام فى معنى عصمه أهل الحل و العقد من الأمة لو كان هو المراد بقوله: وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ .

ما هو العامل الموجب لعصمه أهل الحل و العقد من المسلمين فيما يرونه من الرأى؟ هذه العصابه التى شأنها الحل و العقد فى الأمور غير مختصه بالأمة المسلمه بل كل أمه من الأمم العظام بل الأمم الصغيره بل القبائل و العشائر لا تفقد عده من أفرادها لهم مكانه فى مجتمعهم ذات قوه و تأثير فى الأمور العامه، و أنت إذا فحصت التاريخ فى الحوادث الماضيه و ما فى عصرنا من الأمم و الأجيال وجدت موارد كثيره اجتمعت أهل الحل و العقد منهم فى مهام الأمور و عزائمها على رأى استصوبوه ثم عقبوه بالعمل، وربما أصابوا و ربما أخطئوا، فالخطأ و إن كان فى الآراء الفرديه أكثر منه فى الآراء الاجتماعيه لكن الآراء الاجتماعيه ليست بحيث لا تقبل الخطأ أصلا فهذا التاريخ و هذه المشاهده يشهدان منه على مصاديق و موارد كثيره جدا:

فلو كان الرأى الاجتماعى من أهل الحل و العقد فى الإسلام مصونا عن الخطأ فإنما هو بعامل ليس من سنخ العوامل العاديه بل عامل من سنخ العوامل المعجزه الخارقه

للعاده، و يكون حينئذ كرامه باهره تختص بها هذه الأمه تقيم صلبيهم، و تحفظ حماهم و تقيهم من كل شر يدب فى جماعتهم و وحدتهم و بالآخره سيبا معجزا إلهيا يتلو القرآن الكريم، و يعيش ما عاش القرآن، نسبته إلى حياه الأمه العمليه نسبه القرآن إلى حياتهم العلميه فكان من اللازم أن يبين القرآن حدوده و سعه دائرته، و يمتن الله به كما أمتن بالقرآن و بمحمد ص، و يبين لهذه العصابه وظيفتهم الاجتماعيه كما بين لنبيه ذلك، و أن يوصى به النبى ص أمته، و لا سيما أصحابه الكرام و هم الذين صاروا بعده أهلا للحل و العقد، و تقلدوا ولايه أمور الأمه، و أن يبين أن هذه العصابه المسماه بأولى الأمر ما حقيقتها، و ما حدها و ما سعه دائره عملها، و هل يتشكل هيئه حاكمه واحده على جميع المسلمين فى الأمور العامه لجميع الأمه الإسلاميه؟ أو تنعقد فى كل جمعيه إسلاميه جمعيه أولى الأمر فيحكم فى نفوسهم و أعراضهم و أموالهم؟.

و لكان من اللازم أن يهتم به المسلمون و لا سيما الصحابه فيسألوا عنه و يبحثوا فيه، و قد سألوا عن أشياء لا قدر لها بالنسبه إلى هذه المهمه كالأهله، و ما ذا ينفقون، و الأنفال قال تعالى: «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ» و «يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ» و «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ» فما بالهم لم يسألوا؟ أو أنهم سألوا ثم لعبت به الأيدى فخفى علينا؟ فليس الأمر مما يخالف هوى أكثره الأمه الجاريه على هذه الطريقه حتى يقضوا عليه بالإعراض فالترك حتى ينسى.

و لكان من الواجب أن يحتج به فى الاختلافات و الفتن الواقعه بعد ارتحال النبى ص حيننا بعد حين، فما لهذه الحقيقه لا توجد لها عين و لا أثر فى احتجاجاتهم و مناظراتهم، و قد ضبطها النقله بكلماتها و حروفها، و لا توجد فى خطاب و لا كتاب؟ و لم تظهر بين قدماء المفسرين من الصحابه و التابعين حتى ذهب إليه شردمه من المتأخرين: الرازى و بعض من بعده!

حتى أن الرازى أورد على هذا الوجه بعد ذكره: بأنه مخالف للإجماع المركب فإن الأقوال فى معنى أولى الأمر لا- تجاوز أربعة: الخلفاء الراشدون، و أمراء السرايا، و العلماء و الأئمه المعصومون، فالقول الخامس خرق للإجماع، ثم أجاب بأنه فى الحقيقه راجع إلى القول الثالث فأفسد على نفسه ما كان أصلحه فهذا كله يقضى بأن الأمر لم يكن بهذه المثابه، و لم يفهم منه أنه عطيه شريفه و موهبه عزيزه من معجزات الإسلام و كراماته الخارقه لأهل الحل و العقد من المسلمين.

أو يقال: إن هذه العصمه لا تنتهي إلى عامل خارق للعاده بل الإسلام بنى تربيته العامه على أصول دقيقه تنتج هذه النتيجة: أن أهل الحل و العقد من الأمه لا يغلطون فيما اجتمعوا عليه، و لا يعرضهم الخطأ فيما رأوه.

و هذا الاحتمال مع كونه باطلا- من جهه منافاته للناموس العام و هو أن إدراك الكل هو مجموع إدراكات الأبعاض، و إذا جاز الخطأ على كل واحد واحد جاز على الكل يرد عليه أن رأى أولى الأمر بهذا المعنى لو اعتمد فى صحته و عصمته على مثل هذا العامل غير المغلوب لم يتخلف عن أثره فإلى أين تنتهى هذه الأباطيل و الفسادات التى ملأت العالم الإسلامى؟.

و كم من منتدى إسلامى بعد رحله النبى ص اجتمع فيه أهل الحل و العقد من المسلمين على ما اجتمعوا عليه ثم سلكوا طريقا يهديهم إليه رأبهم فلم يزيدوا إلا ضلالا و لم يزد إسعادهم المسلمين إلا شقاء و لم يمكث الاجتماع الدينى بعد النبى ص دون أن عاد إلى إمبراطوريه ظالمه حاطمه! فليبحث الباحث الناقد فى الفتن الناشئه منذ قبض رسول الله ص و ما استتبعته من دماء مسفوكه، و أعراض مهتوكه، و أموال منهوبه، و أحكام عطلت و حدود أبطلت! ثم ليبحث فى منشئها و محتدها، و أصولها و أعراقها هل تنتهى الأسباب العامله فيها إلا إلى ما رآته أهل الحل و العقد من الأمه ثم حملوا ما رأوه على أكتاف الناس؟.

فهذا حال هذا الركن الركين الذى يعتمد عليه بنايه الدين أعنى رأى أهل الحل و العقد لو كان هو المراد بأولى الأمر المعصومين فى رأبهم.

فلا مناص على القول بأن المراد بأولى الأمر أهل الحل و العقد من أن نقول بجواز خطئهم و إنهم على حد سائر الناس يصيبون و يخطئون غير أنهم لما كانوا عصابه فاضله خبيره بالأمر مدربين مجربين يقل خطؤهم جدا، و أن الأمر بوجوب طاعتهم مع كونهم ربما يغلطون و يخطئون من باب المسامحه فى موارد الخطأ نظرا إلى المصلحه الغالبه فى مداخلتهم فلو حكموا بما يغير حكم الكتاب و السنه، و يطابق ما شخصوه من مصلحه الأمه بتفسير حكم من أحكام الدين بغير ما كان يفسر سابقا أو تغيير حكم بما يوافق صلاح الوقت أو طبع الأمه أو وضع حاضر الدنيا كان هو المتبع، و هو الذى يرتضيه الدين لأنه لا يريد إلا سعادته المجتمع و رقيه فى اجتماعه كما هو الظاهر المتراءى من سير الحكومات الإسلاميه فى صدر الإسلام و من دونهم فلم يمنع حكم من الأحكام الدائره فى زمن النبى ص



و لم يقض على سيره من سيره و سننه إلا- علل ذلك بأن الحكم السابق يزاحم حقا من حقوق الأمة، و أن صلاح حال الأمة في إنفاذ حكم جديد يصلح شأنهم، أو سن سنه حديثه توافق آمالهم في سعادته الحياه، و قد صرح بعض الباحثين (1) أن الخليفه له أن يعمل بما يخالف صريح الدين حفظا لصلاح الأمة.

و على هذا فيكون حال المله الإسلاميه حال سائر المجتمعات الفاضله المدنيه في أن فيها جمعيه منتخبه تحكم على قوانين المجتمع على حسب ما تراه و تشاهده من مقتضيات الأحوال، و موجبات الأوضاع.

و هذا الوجه أو القول- كما ترى- قول من يرى أن الدين سنه اجتماعيه سبكت في قالب الدين، و ظهرت في صورته فهو محكوم بما يحكم على متون الاجتماعات البشريه و هياكلها بالتطور في أطوار الكمال التدريجي، و مثال عال لا ينطبق إلا على حياه الإنسان الذي كان يعيش في عصر النبوه و ما يقاربه.

فهى حلقة متفضيه من حلق هذه السلسله المسماه بالمجتمع الإنسانى لا ينبغى أن يبحث عنها اليوم إلا كما يبحث علماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) عن السلع المستخرجه من تحت أطباق الأرض.

و الذى يذهب إلى مثل هذا القول لا كلام لنا معه فى هذه الآيه: **أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ** الآيه، فإن القول بيتنى على أصل مؤثر فى جميع الأصول و السنن المأثوره من الدين من معارف أصليه و نواميس أخلاقيه و أحكام فرعيه و لو حمل على هذا ما وقع من الصحابه فى زمن النبى و فى مرض موته ثم الاختلافات التى صدرت منهم و ما وقع من تصرف الخلفاء فى بعض الأحكام و بعض سير النبى ص ثم فى زمن معاويه و من تلاحه من الأمويين ثم العباسيين ثم الذين يلونهم و الجميع أمور متشابهه أنتج نتيجة باهته.

و من أعجب الكلام المتعلق بهذه الآيه ما ذكره بعض المؤلفين أن قوله تعالى:

**«أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ»**

لا يدل على شىء مما ذكره المفسرون على اختلاف أقوالهم.

ص: ٣٩٧

(١-١) صاحب فجر الإسلام فيه.

أما أولا- فلأن فرض طاعه أولى الأمر كائنين من كانوا لا يدل على فضل و مزيه لهم على غيرهم أصلا كما أن طاعه الجبابره و الظلام واجبه علينا فى حال الاضطرار اتقاء من شرهم، و لن يكونوا بذلك أفضل منا عند الله سبحانه.

و أما ثانيا فلأن الحكم المذكور فى الآيه لا- يزيد على سائر الأحكام التى تتوقف فعليتها على تحقق موضوعاتها نظير وجوب الإنفاق على الفقير و حرمة إعانه الظالم فليس يجب علينا أن نوجد فقيرا حتى ننفق عليه أو ظالما حتى لا نعينه.

و الوجهان اللذان ذكرهما ظاهرا الفساد، مضافا إلى أن هذا القائل قدر أن المراد بأولى الأمر فى الآيه الحكام و السلاطين و قد تبين فساد هذا الاحتمال.

أما الوجه الأول فلأنه غفل عن أن القرآن مملوء من النهى عن طاعه الظالمين و المسرفين و الكافرين، و من المحال أن يأمر الله مع ذلك بطاعتهم ثم يزيد على ذلك فيقرن طاعتهم بطاعه نفسه و رسوله، و لو فرض كون هذه الطاعه طاعه تقيه لغير عنها بإذن و نحو ذلك كما قال تعالى: **إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً** : «آل عمران: ٢٨»، لا بالأمر بطاعتهم صريحا حتى يستلزم كل محذور شنيع.

و أما الوجه الثانى فهو مبنى على الوجه الأول من معنى الآيه أما لو فرض افتراض طاعتهم لكونهم ذا شأن فى الدين كانوا معصومين لما تقدم تفصيلا، و محال أن يأمر الله بطاعه من لا مصداق له، أو له مصداق اتفاقى فى آيه تتضمن أس أساس المصالح الدينيه و حكما لا يستقيم بدونه حال المجتمع الإسلامى أصلا، و قد عرفت أن الحاجه إلى أولى الأمر عين الحاجه إلى الرسول و هى الحاجه إلى ولايه أمر الأمه و قد تكلمنا فيه فى بحث المحكم و المتشابه.

و لنرجع إلى أول الكلام فى الآيه:

ظهر لك من جميع ما قدمناه أن لا معنى لحمل قوله تعالى: **«وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ»** على جماعه المجمعين من أهل الحل و العقد، و هى الهيئه الاجتماعيه بأى معنى من المعانى فسرناه فليس إلا أن المراد بأولى الأمر آحاد من الأمه معصومون فى أقوالهم مفترض طاعتهم فحتاج معرفتهم إلى تنصيب من جانب الله سبحانه من كلامه أو بلسان نبيه فينطبق على ما روى من طرق أنهم أهل البيت (ع) أنهم هم.

و أما ما قيل: إن أولى الأمر هم الخلفاء الراشدون أو أمراء السرايا أو العلماء المتبعون في أقوالهم و آرائهم فيدفع ذلك كله أولا: أن الآية تدل على عصمتهم و لا عصمه في هؤلاء الطبقات بلا إشكال إلا ما تعتقده طائفه من المسلمين في حق علي (ع)، و ثانيا: أن كلا من الأقوال الثلاث قول من غير دليل يدل عليه.

و أما ما أورد على كون المراد به أئمه أهل البيت المعصومين (ع):

أولا: إن ذلك يحتاج إلى تعريف صريح من الله و رسوله، و لو كان ذلك لم يختلف في أمرهم اثنان بعد رسول الله ص.

و فيه: أن ذلك منصوص عليه في الكتاب و السنه كآيه الولاية و آيه التطهير و غير ذلك، و سيأتي بسط الكلام فيها، و

كحديث السفينه: «مثل أهل بيتي كمثل سفينه نوح من ركبها نجا، و من تخلف عنها غرق»

و حديث الثقلين: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي أهل بيتي- ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبدا» و قد مر في بحث المحكم و المتشابه في الجزء الثالث من الكتاب، و كأحاديث أولى الأمر المروييه من طرق الشيعة و أهل السنه، و سيجيء بعضها في البحث الروائي التالي.

و ثانيا: أن طاعتهم مشروطه بمعرفتهم فإنها من دون معرفتهم تكليف بما لا يطاق و إذا كانت مشروطه فالآيه تدفعه لأنها مطلقة.

و فيه: أن الإشكال منقلب على المستشكل فإن الطاعه مشروطه بالمعرفه مطلقا، و إنما الفرق أن أهل الحل و العقد يعرف مصداقهم على قوله من عند أنفسنا من غير حاجه إلى بيان من الله و رسوله، و الإمام المعصوم يحتاج معرفته إلى معرفه يعرفه، و لا فرق بين الشرط و الشرط في منافاته الآية.

على أن المعرفه و إن عدت شرطا لكنها ليست من قبيل سائر الشروط فإنها راجعه إلى تحقق بلوغ التكليف فلا تكليف من غير معرفه به و بموضوعه و متعلقه، و ليست راجعه إلى التكليف و المكلف به، و لو كانت المعرفه في عداد سائر الشرائط كالاستطاعه في الحج، و وجدان الماء في الوضوء مثلا لم يوجد تكليف مطلق أبدا إذ لا معنى لتوجه التكليف إلى مكلف سواء علم به أو لم يعلم.

و ثالثا: أنا في زماننا هذا عاجزون عن الوصول إلى الإمام المعصوم و تعلم العلم

و الدين منه، فلا يكون هو الذى فرض الله طاعته على الأمة إذ لا سبيل إليه.

وفيه: أن ذلك مستند إلى نفس الأمة فى سوء فعالها و خيانتها على نفسها لا إلى الله و رسوله فالتكليف غير مرتفع كما لو قتلت الأمة نبيها ثم اعتذرت أنها لا تقدر على طاعته، على أن الإشكال مقلوب عليه فإننا لا نقدر اليوم على أمه واحده فى الإسلام ينفذ فيها ما استصوبته لها أهل الحل و العقد منها.

و رابعا: أن الله تعالى يقول: «فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» ، و لو كان المراد من أولى الأمر الإمام المعصوم لوجب أن يقال: فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الإمام.

وفيه: أن جوابه تقدم فيما مر من البيان، و المراد بالرد الرد إلى الإمام بالتقريب الذى تقدم.

و خامسا: أن القائلين بالإمام المعصوم يقولون: إن فائده اتباعه إنقاذ الأمة من ظلمه الخلف، و ضرر التنازع و التفرق و ظاهر الآيه يبين حكم التنازع مع وجود أولى الأمر، و طاعه الأمة لهم كأن يختلف أولو الأمر فى حكم بعض النوازل و الوقائع، و الخلاف و التنازع مع وجود الإمام المعصوم غير جائز عند القائلين به لأنه عندهم مثل الرسول ص فلا يكون لهذا الزيادة فائده على رأيهم.

وفيه: أن جوابه ظاهر مما تقدم أيضا فإن التنازع المذكور فى الآيه إنما هو تنازع المؤمنين فى أحكام الكتاب و السنه دون أحكام الولايه الصادره عن الإمام فى الوقائع و الحوادث، و قد تقدم أن لا حكم إلا لله و رسوله فإن تمكن المتنازعون من فهم الحكم من الكتاب و السنه كان لهم أن يستنبطوه منهما، أو يسألوا الإمام عنه و هو معصوم فى فهمه، و إن لم يتمكنوا من ذلك كان عليهم أن يسألوا عنه الإمام، و ذلك نظير ما كان لمن يعاصر رسول الله ص كانوا يتفقون فيما يتمكنون منه أو يسألون عنه رسول الله ص، و يسألونه فيما لا يتمكنون من فهمه بالاستنباط.

فحكم أولى الأمر فى الطاعه حكم الرسول على ما يدل عليه الآيه، و حكم التنازع هو الذى ذكره فى الآيه سواء فى ذلك حضور الرسول كما يدل عليه الآيات التاليه، و غيبته كما يدل عليه الأمر فى الآيه بإطلاقه، فالرد إلى الله و الرسول المذكور فى الآيه

مختص بصوره تنازع المؤمنين كما يدل عليه قوله: **تَنَازَعْتُمْ**، و لم يقل: **فإن تنازع أولو الأمر**، و لا قال: **فإن تنازعوا**، و الرد إلى الله و الرسول عند حضور الرسول هو سؤال الرسول عن حكم المسأله أو استنباطه من الكتاب و السنه للمتمكن منه، و عند غيبته أن يسأل الإمام عنه أو الاستنباط كما تقدم بيانه، فلا يكون قوله: **فإن تنازعتم في شئ** «إلخ» زائدا من الكلام مستغنى عنه كما ادعاه المستشكل.

فقد تبين من جميع ما تقدم: أن المراد بأولى الأمر في الآيه رجال من الأمه حكم الواحد منهم في العصمه و افتراض الطاعه حكم الرسول ص، و هذا مع ذلك لا ينافى عموم مفهوم لفظ أولى الأمر بحسب اللغه، و إرادته من اللفظ فإن قصد مفهوم من المفاهيم من اللفظ شئ و إرادته المصداق الذى ينطبق عليه المفهوم شئ آخر، و ذلك كما أن مفهوم الرسول معنى عام كلى و هو المراد من اللفظ في الآيه لكن المصداق المقصود هو الرسول محمد ص.

قوله تعالى: **فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ** إلى آخر الآيه تفریع على الحصر المستفاد من المورد فإن قوله: **أَطِيعُوا اللَّهَ** «إلخ» حيث أوجب طاعه الله و رسوله، و هذه الطاعه إنما هي في المواد الدينيه التى تتكفل رفع كل اختلاف مفروض، و كل حاجه ممكنه لم يبق مورد تمس الحاجه الرجوع إلى غير الله و رسوله، و كان معنى الكلام: **أطيعوا الله**، و لا تطيعوا الطاغوت، و هو ما ذكرناه من الحصر.

و توجه الخطاب إلى المؤمنين كاشف عن أن المراد بالتنازع هو تنازعهم بينهم لا تنازع مفروض بينهم و بين أولى الأمر، و لا تنازع مفروض بين أولى الأمر فإن الأول أعنى التنازع بينهم و بين أولى الأمر لا يلائم افتراض طاعه أولى الأمر عليهم، و كذا الثانى أعنى التنازع بين أولى الأمر فإن افتراض الطاعه لا يلائم التنازع الذى أحد طرفيه على الباطل، على أنه لا يناسب كون الخطاب متوجها إلى المؤمنين فى قوله: **فإن تنازعتم في شئ** فَرُدُّوهُ .

و لفظ الشئ و إن كان يعم كل حكم و أمر من الله و رسوله و أولى الأمر كائنا ما كان لكن قوله بعد ذلك: **فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ** يدل على أن المفروض هو النزاع

فى شىء لىس لأولى الأمر الاستقلال و الاستبداد فىه من أوامرهم فى دائره ولايتهم كأمرهم بنفر أو حرب أو صلح أو غير ذلك، إذ لا معنى لإيجاب الرد إلى الله و الرسول فى هذه الموارد مع فرض طاعتهم فيها.

فالآيه تدل على وجوب الرد فى نفس الأحكام الدينيه التى لىس لأحد أن يحكم فيها بإنفاذ أو نسخ إلا-الله و رسوله، والآيه كالصريح فى أنه لىس لأحد أن يتصرف فى حكم دينى شرعه الله و رسوله، و أولو الأمر و من دونهم فى ذلك سواء.

□ و قوله: **إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**، تشديد فى الحكم و إشاره إلى أن مخالفته إنما تنتشى من فساد فى مرحله الإيمان فالحكم يرتبط به ارتباطاً فالمخالفة تكشف عن التظاهر بصفه الإيمان بالله و رسوله، و استبطان للكفر، و هو النفاق كما يدل عليه الآيات التاليه.

□ و قوله: **ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا** أى الرد عند التنازع أو إطاعه الله و رسوله و أولى الأمر، و التأويل هو المصلحه الواقعيه التى تنشأ منها الحكم ثم تترتب على العمل و قد تقدم البحث عن معناه فى ذيل قوله تعالى: **وَ ابْتَغَاءَ تَأْوِيلِهِ** □ و **مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ** X الآية X: «آل عمران: ٧» فى الجزء الثالث من الكتاب.

قوله تعالى: **«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ»** إلى آخر الآيه الزعم هو الاعتقاد بكذا سواء طابق الواقع أم لا، بخلاف العلم فإنه الاعتقاد المطابق للواقع، و لكون الزعم يستعمل فى الاعتقاد فى موارد لا يطابق الواقع ربما يظن أن عدم مطابقه الواقع مأخوذ فى مفهومه و لىس كذلك، و الطاغوت مصدر بمعنى الطغيان كالرهوت و الجبروت و الملكوت غير أنه ربما يطلق و يراد به اسم الفاعل مبالغه يقال:

طغى الماء إذا تعدى ظرفه لوفوره و كثرته، و كان استعماله فى الإنسان أولاً على نحو الاستعاره ثم ابتذل فلحق بالحقيقه و هو خروج الإنسان عن طوره الذى حده له العقل أو الشرع، فالطاغوت هو الظالم الجبار، و المتمرد عن وظائف عبوديه الله استعلاء عليه تعالى و هكذا، و إليه يعود ما قيل: إن الطاغوت كل معبود من دون الله.

□ و قوله: **بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ** □ و **مَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ**، بمنزله أن يقال: بما أنزل الله على رسله، و لم يقل: آمنوا بك و بالذين من قبلك لأن الكلام فى وجوب الرد إلى كتاب الله و حكمه و بذلك يظهر أن المراد بقوله: **«وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ»** الأمر فى الكتب السماويه

و الوحي النازل على الأنبياء: محمد و من قبله (ص).

□  
و قوله: أَلَمْ تَرَ الْإِخْلَاقَ بِمَنْزِلِهِ دَفْعَ الدُّخْلِ كَمَا قِيلَ: مَا وَجَّهَ ذِكْرَ قَوْلِهِ: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ «إِخْلَاقًا» فَقِيلَ: أَلَمْ تَرَ إِلَى تَخَلُّفِهِمْ مِنَ الطَّاعَةِ حَيْثُ يَرِيدُونَ التَّحَاكُمَ إِلَى الطَّاغُوتِ؟ وَ الِاسْتِفْهَامَ لِلتَّأْسُفِ وَ الْمَعْنَى: مِنَ الْأَسْفِ مَا رَأَيْتَهُ أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ، وَ هُمْ مَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَ إِلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ إِنَّمَا أَنْزَلْتَ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، وَ قَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ بِقَوْلِهِ: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ: «البقرة: ٢١٣» يتحاكمون عند التنازع إلى الطاغوت و هم أهل الطغيان و المتمردون عن دين الله المتعدون على الحق، و قد أمروا في هذه الكتب أن يكفروا بالطاغوت، و كفى في منع التحاكم إليهم أنه إلغاء لكتب الله و إبطال لشرائعه.

و في قوله «وَ يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا»، دلالة على أن تحاكمهم إنما هو بإلقاء الشيطان و إغوائه، و الوجهه فيه الضلال البعيد.

□  
قوله تعالى: «وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا» إلى آخر الآيه، تعالوا بحسب الأصل أمر من التعالي و هو الارتفاع، و صد عنه يصد صدودا أى أعرض، و قوله: «إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ إِلَى الرَّسُولِ»، بمنزله أن يقال: إلى حكم الله و من يحكم به، و في قوله: «يَصُدُّونَ عَنْكَ»، إنما خص الرسول بالإعراض مع أن الذى دعوا إليه هو الكتاب و الرسول معا لا الرسول وحده لأن الأسف إنما هو من فعل الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل الله فهم ليسوا بكافرين حتى يتجاهروا بالإعراض عن كتاب الله بل منافقون بالحقيقه يتظاهرون بالإيمان بما أنزل الله لكنهم يعرضون عن رسوله.

و من هنا يظهر أن الفرق بين الله و رسوله بتسليم حكم الله و التوقف فى حكم الرسول نفاق البتة.

□  
قوله تعالى: «فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ» إِنْ إِذَانِ بَأَنَّ هَذَا الْإِعْرَاضَ وَ الْإِنْصِرَافَ عَنِ حُكْمِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ، وَ الْإِقْبَالَ إِلَى غَيْرِهِ وَ هُوَ حُكْمُ الطَّاغُوتِ سَيَعْقِبُ مَصِيبَهُ تَصْيِيهِمْ لَا سَبَبَ لَهَا إِلَّا هَذَا الْإِعْرَاضَ عَنِ حُكْمِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ، وَ التَّحَاكُمَ إِلَى الطَّاغُوتِ، وَ قَوْلُهُ: ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ، أَيْ حَكَايَهُ لِمَعْدَرَتِهِمْ أَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَرِيدُونَ بِرُكُونِهِمْ إِلَى حُكْمِ الطَّاغُوتِ سُوءًا، وَ الْمَعْنَى: وَ اللَّهُ أَعْلَمُ: -فَإِذَا كَانَ حَالُهُمْ هَذَا الْحَالُ كَيْفَ صَنِعْتَهُمْ

إذا أصابهم بفعالهم هذا وباله السيئ ثم جاءوك يحلفون بالله قائلين ما أردنا بالتحاكم إلى غير الكتاب و الرسول إلا الإحسان و التوفيق و قطع المشاجره بين الخصوم.

قوله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ» إلخ تكذيب لقولهم فيما اعتذروا به، و لم يذكر حال ما في قلوبهم، و أنه ضمير فاسد لدلاله قوله: «فَأَعْرَضْ عَنْهُمْ وَ عِظْهُمْ» على ذلك إذ لو كان ما في قلوبهم غير فاسد كان قولهم صدقا و حقا و لا يؤمر بالإعراض عن من يقول الحق و يصدق في قوله.

و قوله: «وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا أَى قَوْلًا يَبْلُغُ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا تَرِيدُ أَنْ يَقِفُوا عَلَيْهِ وَ يَفْقَهُوه مِنْ مَفَاسِدِ هَذَا الصَّنِيعِ، وَ أَنَّهُ نِفَاقٌ لَوْ ظَهَرَ نَزَلَ بِهِمُ الْوَيْلُ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى.»

قوله تعالى: «وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ» رد مطلق لجميع ما تقدمت حكايته من هؤلاء المنافقين من التحاكم إلى الطاغوت، و الإعراض عن الرسول، و الحلف و الاعتذار بالإحسان و التوفيق. فكل ذلك مخالفه للرسول بوجه سواء كانت مصاحبه لعذر يعتذر به أم لا، و قد أوجب الله طاعته من غير قيد و شرط فإنه لم يرسله إلا ليطاع بإذن الله، و ليس لأحد أن يتخيل أن المتبع من الطاعة طاعه الله، و إنما الرسول بشر ممن خلق إنما يطاع لحيازه الصلاح فإذا أحرز صلاح من دون طاعته فلا بأس بالاستبداد في إحرازه، و ترك الرسول في جانب، و إلا- كان إشراكا بالله، و عباده لرسوله معه، و ربما كان يلوح ذلك في أمور يكلمون فيها رسول الله ص يقول قائلهم له إذا عزم عليهم في مهمه: أ بأمر من الله أم منك؟.

فذكر الله سبحانه أن وجوب طاعه النبي ص وجوب مطلق، و ليست إلا- طاعه الله فإنها بإذنه نظير ما يفيداه قوله تعالى: مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ X الآية X: «النساء: ٨٠».

ثم ذكر أنهم لو رجعوا إلى الله و رسوله بالتوبه حين ما خالفوا الرسول بالإعراض لكان خيرا لهم من أن يحلفوا بالله، و يلقوا أعدارا غير موجهه لا تنفع و لا ترضى رسول الله ص لأن الله سبحانه يخبره بحقيقه الأمر، و ذلك قوله: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.»

قوله تعالى: «فَلَا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ إِيَّاهُ فِي الشَّيْءِ» - بسكون الجيم - و الشجور: الاختلاط يقال: شجر شجرا و شجورا أى اختلط، و منه التشاجر



و المشاجره كأن الدعاوى أو الأقوال اختلط بعضها مع بعض، و منه قيل للشجر: شجر لا اختلاط غصونها بعضها مع بعض، و الحرج الضيق.

و ظاهر السياق فى بدء النظر أنه رد لزعم المنافقين أنهم آمنوا بالنبي ص مع تحاكمهم إلى الطاغوت فالمعنى: فليس كما يزعمون أنهم يؤمنون مع تحاكمهم إلى الطاغوت بل لا يؤمنون حتى يحكموك «إلخ».

لكن شمول حكم الغايه أعنى قوله: **حَتَّى يُحَكِّمُوكَ** «إلخ» لغير المنافقين، و كذا قوله بعد ذلك: **«وَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ»** إلى قوله: **«فَعَلَوْهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ»** يؤيد أن الرد لا يختص بالمنافقين بل يعمهم و غيرهم من جهة أن ظاهر حالهم أنهم يزعمون أن مجرد تصديق ما أنزل من عند الله بما يتضمنه من المعارف و الأحكام إيمان بالله و رسوله و بما جاء به من عند ربه حقيقه، و ليس كذلك بل الإيمان تسليم تام باطنا و ظاهرا فكيف يتأتى لمؤمن حقا أن لا يسلم للرسول حكما فى الظاهر بأن يعرض عنه و يخالفه، أو فى باطن نفسه بأن يتحرج عن حكم الرسول إذا خالف هوى نفسه، و قد قال الله تعالى لرسوله: **لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ: «النساء: ١٠٥»**.

فلو تحرج متحرج بما قضى به النبي ص فمن حكم الله تحرج لأنه الذى شرفه بافتراض الطاعه و نفوذ الحكم.

و إذا كانوا سلموا حكم الرسول، و لم يتحرج قلوبهم منه كانوا مسلمين لحكم الله قطعا سواء فى ذلك حكمه التشريعى و التكوينى، و هذا موقف من مواقف الإيمان يتلبس فيه المؤمن بعده من صفات الفضيله أو ضحها: التسليم لأمر الله، و يسقط فيه التحرج و الاعتراض و الرد من لسان المؤمن و قلبه، و قد أطلق فى الآيه التسليم إطلاقا.

و من هنا يظهر أن قوله: **فَلَا - وَ رَبِّكَ** إلى آخر الآيه، و إن كان مقصورا على التسليم لحكم النبي ص بحسب اللفظ لأن مورد الآيات هو تحاكمهم إلى غير رسول الله ص مع وجوب رجوعهم إليه إلا- أن المعنى عام لحكم الله و رسوله جميعا، و لحكم التشريع و التكوين جميعا كما عرفت.

بل المعنى يعم الحكم بمعنى قضاء رسول الله ص و كل سيره سار بها أو عمل عمل به لأن الأثر مشترك فكل ما ينسب بوجه إلى الله و رسوله بأى نحو كان لا يتأتى

لمؤمن بالله حق إيمانه أن يردّه أو يعترض عليه أو يمله أو يسوءه بوجه من وجوه المساءه فكل ذلك شرك على مراتبه، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾: (يوسف: ١٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ قد تقدم في قوله: ﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ نساء ٤ إن هذا التركيب يدل على أن الحكم للهيئه الاجتماعيه من الأفراد و هو المجتمع، و أن الاستثناء لدفع توهم استغراق الحكم و استيعابه لجميع الأفراد، و لذلك كان هذا الاستثناء أشبه بالمنفصل منه بالمتصل أو هو برزخ بين الاستثنائين: المتصل و المنفصل لكونه ذا جنبتين.

على هذا فقوله ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ وارد مورد الإخبار عن حال الجملة المجتمعه أنهم لا- يمثلون الأحكام و التكاليف الحرجيه الشاقه التي تماس ما يتعلق به قلوبهم تعلق الحب الشديد كنفوسهم و ديارهم، و استثناء القليل لدفع التوهم.

فالمعنى: لو أنا كتبنا أى فرضنا عليهم قتل أنفسهم و الخروج من ديارهم و أوطانهم المألوفه لهم ما فعلوه أى لم يمثلوا أمرنا، ثم لما استشعر أن قوله: ما فعلوه يوهم أن ليس فيهم من هو مؤمن حقا مسلم لحكم الله حقيقه دفع ذلك باستثناء القليل منهم، و لم يكن يشمل الحكم حقيقه لأن الإخبار عن حال المجتمع من حيث إنه مجتمع و لم تكن الأفراد داخله فيه إلا بتبع الجملة.

و من هنا يظهر أن المراد قتل الجملة الجملة و خروج الجملة و جلاؤهم من جملته ديارهم كالبلد و القرية دون قتل كل واحد نفسه، و خروجه من داره كما في قوله تعالى: ﴿فَتَوَبُّوا إِلَىٰ بَارئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾: (البقره: ٥٤)، فإن المقصود بالخطاب هو الجماعه دون الأفراد.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثِيْبًا﴾ في تبديل الكتابه في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾، بالوعظ في قوله: ﴿مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ إشاره إلى أن هذه الأحكام الظاهره في صوره الأمر و الفرض ليست إلا إشارات إلى ما فيه صلاحهم و سعادتهم فهي في الحقيقه مواعظ و نصائح يراد بها خيرهم و صلاحهم.

و قوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أى في جميع ما يتعلق بهم من أولاهم و أخراهم، و ذلك أن خير الآ-خره لا- ينفك من خير الدنيا بل يستتبعه، و قوله: ﴿وَأَشَدَّ تَثِيْبًا﴾ أى

لنفوسهم و قلوبهم بالإيمان لأن الكلام فيه، قال تعالى: يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ X الآية X: «إبراهيم: ٢٧».

قوله تعالى: «وَ إِذَا لَأْتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا» أى حين تثبتوا بالإيمان الثابت، و الكلام فى إبهام قوله: «أَجْرًا عَظِيمًا» كالكلام فى إطلاق قوله: «لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ» .

قوله تعالى: «وَ لَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا» قد مضى الكلام فى معنى الصراط المستقيم فى ذيل قوله: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ :«الحمد: ٦» فى الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: «وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ» إلى قوله: «حَسَنَ أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا» جمع بين الله و الرسول فى هذا الوعد الحسن مع كون الآيات السابقة متعرضه لإطاعة الرسول و التسليم لحكمه و قضائه، لتخلل ذكره تعالى بينها فى قوله: «وَ لَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ «إِخ» فالطاعة المفترضة طاعته تعالى و طاعه رسوله، و قد بدأ الكلام على هذا النحو فى قوله: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ الْآيَةَ» .

و قوله: «فَأُولِيَّكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» يدل على اللحق دون الصيروره فهؤلاء ملحقون بجماعه المنعم عليهم، و هم أصحاب الصراط المستقيم الذى لم ينسب فى كلامه تعالى إلى غيره إلا إلى هذه الجماعه فى قوله تعالى: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ :«الحمد: ٧»، و بالجمله فهم ملحقون بهم غير صائرين منهم كما لا- يخلو قوله: «وَ حَسَنَ أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا» من تلويح إليه، و قد تقدم أن المراد بهذه النعمه هى الولايه.

و أما هؤلاء الطوائف الأربع أعنى النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين فالنبيون هم أصحاب الوحي الذين عندهم نبأ الغيب، و لا خبره لنا من حالهم بأزيد من ذلك إلا من حيث الآثار، و قد تقدم أن المراد بالشهداء شهداء الأعمال فيما يطلق من لفظ الشهيد فى القرآن دون المستشهدين فى معركة القتال، و أن المراد بالصالحين هم أهل اللياقه بنعم الله.

و أما الصديقون فالذى يدل عليه لفظه هو أنه مبالغه من الصدق، و من الصدق ما هو فى القول، و منه ما هو فى الفعل، و صدق الفعل هو مطابقته للقول لأنه حاك عن الاعتقاد فإذا صدق فى حكايته كان حاكيا لما فى الضمير من غير تخلف، و صدق القول مطابقته لما فى الواقع، و حيث كان القول نفسه من الفعل بوجه كان الصادق فى فعله لا يخبر إلا عما يعلم صدقه و أنه حق، ففى قوله الصدق الخبرى و المخبرى جميعا.

فالصديق الذى لا يكذب أصلاً هو الذى لا يفعل إلا ما يراه حقاً من غير اتباع لهوى النفس، ولا يقول إلا ما يرى أنه حق، ولا يرى شيئاً إلا ما هو حق فهو يشاهد حقائق الأشياء، ويقول الحق، ويفعل الحق.

و على ذلك فيترتب المراتب فالنبيون و هم الساده، ثم الصديقون و هم شهداء الحقائق و الأعمال، و الشهداء و هم شهداء الأعمال، و الصالحون و هم المتهيون للكرامه الإلهيه.

و قوله تعالى: «وَ حَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا» أى من حيث الرفاقه فهو تمييز، قيل:

و لذلك لم يجمع، و قيل: المعنى: حسن كل واحد منهم رفيقا، و هو حال نظير قوله:

ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا: «الحج: ٥».

قوله تعالى: «ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَ كَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا» تقديم «ذَلِكَ» و إتيانه بصيغه الإشاره الداله على البعيد و دخول اللام فى الخبر يدل على تفخيم أمر هذا الفضل كأنه كل الفضل، و ختم الآية بالعلم لكون الكلام فى درجات الإيمان التى لا سبيل إلى تشخيصها إلا العلم الإلهي.

و اعلم أن فى هذه الآيات الشريفة موارد عديده من الالتفات الكلامي متشابك بعضها مع بعض فقد أخذ المؤمنون فى صدر الآيات مخاطبين ثم فى قوله: «وَ لَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ» كما مر غائبين، و كذلك أخذ تعالى نفسه فى مقام الغيبه فى صدر الآيات فى قوله:

أَطِيعُوا اللَّهَ

الآيه، ثم فى مقام المتكلم مع الغير فى قوله: «وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ آيَهُ، ثم الغيبه فى قوله: يَا ذَنِ اللَّهِ آيَهُ، ثم المتكلم مع الغير فى قوله: «وَ لَوْ أَنَا كَتَبْنَا آيَهُ، ثم الغيبه فى قوله: «وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ آيَهُ.

و كذلك الرسول أخذ غائبا فى صدر الآيات فى قوله: «أَطِيعُوا الرَّسُولَ آيَهُ، ثم مخاطبا فى قوله: «ذَلِكَ خَيْرٌ آيَهُ، ثم غائبا فى قوله: «وَ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ آيَهُ، ثم مخاطبا فى قوله: «فَلَا وَ رَبِّكَ آيَهُ، ثم غائبا فى قوله: «وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ آيَهُ، ثم مخاطبا فى قوله: «وَ حَسُنَ أُولَئِكَ آيَهُ، فهذه عشر موارد من الالتفات الكلامي و النكات المختصه بكل مورد مورد ظاهره للمتدبر.

## بحث روائى

فى تفسير البرهان، عن ابن بابويه بإسناده عن جابر بن عبد الله الأنصارى\*: لما أنزل

الله عز و جل على نبيه محمد ص: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ- وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ قلت: يا رسول الله عرفنا الله و رسوله- فمن أولو الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟ فقال (ص): هم خلفائي يا جابر- و أئمة المسلمين من بعدى: أولهم على بن أبى طالب، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم على بن الحسين، ثم محمد بن على المعروف فى التوراه بالباقر- ستدرکه يا جابر فإذا لقيته فأقرئه منى السلام، ثم الصادق جعفر بن محمد ثم موسى بن جعفر، ثم على بن موسى، ثم محمد بن على، ثم على بن محمد، ثم الحسن بن على، ثم سمى محمد و كنى حجه الله فى أرضه- و بقيته فى عباده ابن الحسن بن على ذاك- الذى يفتح الله تعالى ذكره على يديه مشارق الأرض و مغاربها، ذاك الذى يغيب عن شيعته و أوليائه غيبه- لا يثبت فيه على القول بإمامته- إلا من امتحن الله قلبه للإيمان.

قال جابر: فقلت له يا رسول الله- فهل يقع لشيعته الانتفاع به فى غيبته- فقال (ص) إى و الذى بعثنى بالنبوه- إنهم يستضيئون بنوره، و ينتفعون بولايته فى غيبته كانتفاع الناس بالشمس- و إن تجلاها سحاب، يا جابر هذا من مكنون سر الله- و مخزون علم الله فاكتمه إلا عن أهله.

أقول: و عن النعمانى بإسناده عن سليم بن قيس الهلالي عن على (ع) ما فى معنى الروايه السابقه، و رواها على بن إبراهيم بإسناده عن سليم عنه (ع)، و هناك روايات آخر من طرق الشيعة و أهل السنه، و فيها ذكر إمامتهم بأسمائهم من أراد الوقوف عليها فعليه بالرجوع إلى كتاب ينابيع الموده و كتاب غايه المرام للبحرانى و غيرهما.

و فى تفسير العياشى، عن جابر الجعفى قال\*: سألت أبا جعفر (ع) عن هذه الآيه:

﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾

قال: الأوصياء.

أقول: و فى تفسير العياشى، عن عمر بن سعيد عن أبى الحسن (ع)\* مثله و فيه:

على بن أبى طالب و الأوصياء من بعده.

و عن ابن شهر آشوب\*: سأل الحسن بن صالح عن الصادق (ع) عن ذلك- فقال:

الأئمة من أهل بيت رسول الله ص:

أقول: و روى مثله الصدوق عن أبى بصير عن الباقر (ع)\* و فيه: قال: الأئمة من ولد على و فاطمه إلى أن تقوم الساعه.

و في الكافي، بإسناده عن أبي مسروق عن أبي عبد الله (ع) قال: \*قلت له: إنا نكلم أهل الكلام-فاحتج عليهم بقول الله عز وجل: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ» فيقولون: نزلت في المؤمنين، و نحتج عليهم بقول الله عز وجل:

«قُلْ لَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى» فيقولون: نزلت في قربي المسلمين قال: فلم أدع شيئا مما حضرني ذكره من هذا و شبهه إلا- ذكرته، فقال لي: إذا كان ذلك فادعهم إلى المباهلة، قلت: و كيف أصنع؟ فقال: أصلح نفسك ثلاثا و أطبه، قال: و صم و اغتسل و ابرز أنت و هو إلى الجبال-فتشبهك أصابعك من يدك اليمنى في أصابعه-ثم أنصفه، و ابدأ بنفسك، و قل: اللهم رب السموات السبع و رب الأرضين السبع-عالم الغيب و الشهادة الرحمن الرحيم-إن كان أبو مسروق جحد حقا و ادعى باطلا-فأنزل عليه حسبانا من السماء و عذابا أليما، ثم رد الدعوه عليه فقل: و إن جحد حقا و ادعى باطلا-فأنزل عليه حسبانا من السماء و عذابا أليما.

ثم قال لي: فإنك لا تلبث أن ترى ذلك فيه، فوالله ما وجدت خلقا يجيبني إليه.

و في تفسير العياشي، عن عبد الله بن عجلان عن أبي جعفر (ع) \*في قوله: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ» قال: هي في علي و في الأئمة-جعلهم الله مواضع الأنبياء غير أنهم لا يحلون شيئا و لا يحرمونه.

أقول: و الاستثناء في الروايه هو الذي قدمنا في ذيل الكلام على الآية أنها تدل على أن لا حكم تشريعا إلا لله و رسوله.

و في الكافي، بإسناده عن بريد بن معاوية قال: \*تلا أبو جعفر (ع): «أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ»-فإن خفتم تنازعا في الأمر-فأرجعوه إلى الله و إلى الرسول و إلى أولى الأمر منكم.

قال: كيف يأمر بطاعتهم و يرخص في منازعتهم-إنما قال ذلك للمارقين الذين قيل لهم: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ» .

أقول: الروايه لا تدل على أزيد من كون ما تلاه (ع) تفسير للآيه و بيانا للمراد منها، و قد تقدم في البيان السابق توضيح دلالتها على ذلك، و ليس المراد هو القراءه كما ربما يستشعر من قوله: تلا أبو جعفر (ع).

و يدل على ذلك اختلاف اللفظ الموجود في الروايات كما

في تفسير القمي، بإسناده

عن حريز عن أبي عبد الله (ع) قال\*: نزلت: «فإن تنازعتهم في شيء - فأرجعوه إلى الله و إلى الرسول و إلى أولى الأمر منكم».

و ما فى تفسير العياشى، عن بريد بن معاوية عن أبى جعفر (ع) «و هو روايه الكافى، السابقه) و فى الحديث\*: ثم قال للناس: «يا أيها الذين آمنوا» فجمع المؤمنين إلى يوم القيامة «أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولى الأمر منكم» إيانا عنى خاصه «فإن خفتهم تنازعا فى الأمر - فأرجعوا إلى الله و إلى الرسول و أولى الأمر منكم» هكذا نزلت، و كيف يأمرهم بطاعه أولى الأمر - و يرخص لهم فى منازعتهم - إنما قيل ذلك للمأمورين الذين قيل لهم: «أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولى الأمر منكم» .

و فى تفسير العياشى، فى روايه أبى بصير عن أبى جعفر (ع) قال\*: نزلت (يعنى آيه أطيعوا الله) ، فى على بن أبى طالب (ع) - قلت له: إن الناس يقولون لنا: فما منعه أن يسمى عليا و أهل بيته فى كتابه؟ فقال أبو جعفر (ع): قولوا لهم: إن الله أنزل على رسوله الصلاه و لم يسم ثلاثا و لا أربعا - حتى كان رسول الله ص هو الذى فسر ذلك (لهم) و أنزل الحج و لم ينزل طوفوا أسبوعا - حتى فسر ذلك لهم رسول الله ص، و الله أنزل: «أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولى الأمر منكم» تنزلت فى على و الحسن و الحسين (ع)، و قال فى على من كنت مولاه فعلى مولاه، و قال رسول الله ص:

أوصيكم بكتاب الله و أهل بيتى - إنى سألت الله أن لا يفرق بينهما - حتى يوردهما على الحوض فأعطانى ذلك، و قال: فلا تعلموهم فإنهم أعلم منكم، إنهم لن يخرجوكم من باب هدى، و لن يدخلوكم فى باب ضلال، و لو سكت رسول الله و لم يبين أهلها - لادعى آل عباس و آل عقيل و آل فلان، و لكن أنزل الله فى كتابه: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت - و يطهركم تطهيراً» فكان على و الحسن و الحسين و فاطمه (ع) تأويل هذه الآيه، فأخذ رسول الله ص بيد على و فاطمه و الحسن و الحسين (ص) - فأدخلهم تحت الكساء فى بيت أم سلمه - و قال: اللهم إن لكل نبي ثقلا و أهلا فهؤلاء ثقلى و أهلى، و قالت أم سلمه: أ لست من أهلك؟ قال: إنك إلى خير، و لكن هؤلاء ثقلى و أهلى، الحديث:

أقول: و روى فى الكافى، بإسناده عن أبى بصير عنه (ع) مثله مع اختلاف يسير فى اللفظ.

و فى تفسير البرهان، عن ابن شهر آشوب عن تفسير مجاهد\*: أنها نزلت فى أمير المؤمنين

حين خلفه رسول الله ص بالمدينه-فقال: يا رسول الله أ تخلفنى على النساء و الصبيان؟ فقال: يا أمير المؤمنين-أ ما ترضى أن تكون منى بمنزله هارون من موسى؟ حين قال له:

«اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ» فقال الله: وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ .

قال: على بن أبى طالب وواه الله أمر الأمه بعد محمد، و حين خلفه رسول الله ص بالمدينه-فأمر الله العباد بطاعته و ترك خلافه.

و فيه، عنه عن أبانه الفلكي "»: أنها نزلت حين شك أبو بريده من على (ع)، الخبر.

و فى العبقات، عن كتاب يناييع الموده، للشيخ سليمان بن إبراهيم البلخي عن المناقب عن سليم بن قيس الهلالي عن على فى حديث قال\*: و أما أدنى ما يكون به العبد ضالا-أن لا يعرف حجه الله تبارك و تعالى و شاهده على عباده، الذى أمر الله عباده بطاعته، و فرض ولايته.

قال سليم: قلت: يا أمير المؤمنين صفهم لى، قال: الذين قرنهم الله بنفسه و نبيه فقال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا-أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ» فقلت له:

جعلنى الله فداك أوضح لى، فقال: الذين قال رسول الله ص فى مواضع-و فى آخر خطبته يوم قبضه الله عز و جل إليه: إنى تركت فيكم أمرين لن تضلوا بعدى-إن تمسكتم بهما كتاب الله عز و جل، و عترتى أهل بيتى، فإن اللطيف الخبير قد عهد إلى أنهما لن يفترقا-حتى يردا على الحوض كهاتين-و جمع بين مسبتيه-و لا أقول: كهاتين و جمع مسبتيه و الوسطى-فتمسكوا بهما و لا تقدموهم فتضلوا.

أقول: و الروايات عن أئمه أهل البيت (ع) فى المعانى السابقه كثيره جدا و قد اقتصرنا فيما نقلناه على إيراد نموذج من كل صنف منها، و على من يطلبها أن يراجع جوامع الحديث.

و أما الذى روى عن قدماء المفسرين فهى ثلاثه أقوال: الخلفاء الراشدون، و أمراء السرايا و العلماء، و ما نقل عن الضحاک أنهم أصحاب النبى ص فهو يرجع إلى القول الثالث فإن اللفظ المنقول منه: أنهم أصحاب رسول الله ص هم الدعاه الرواه، و ظاهره أنه تعليل بالعلم فيرجع إلى التفسير بالعلماء.

و اعلم أيضا أنه قد نقل فى أسباب نزول هذه الآيات أمور كثيره، و قصص مختلفه شتى لكن التأمل فيها لا يدع ريبا فى أنها جميعا من قبيل التطبيق النظرى من روايتها، و لذلك تركنا إيرادها لعدم الجدوى فى نقلها، و إن شئت تصديق ذلك فعليك بالرجوع



إلى الدر المنثور، و تفسير الطبرى، و أشباههما.

و فى محاسن البرقى، بإسناده عن أبى الجارود عن أبى جعفر (ع) \* فى قول الله تعالى:

فَلَا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ

الآيه، قال: التسليم، الرضا، و القنوع بقضائه.

و فى الكافى، بإسناده عن عبد الله الكاهلى قال: \* قال أبو عبد الله (ع): لو أن قوما عبدوا الله وحده لا شريك له، و أقاموا الصلاه، و أتوا الزكاه، و حجوا البيت، و صاموا شهر رمضان- ثم قالوا الشىء صنع الله و صنع رسوله ص: لم صنع هكذا و كذا، و لو صنع خلاف الذى صنع، أو وجدوا ذلك فى قلوبهم لكانوا بذلك مشركين، ثم تلا هذه الآيه:

فَلَا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ- ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

ثم قال أبو عبد الله (ع): عليكم بالتسليم.

و فى تفسير العياشى، عن عبد الله بن يحيى الكاهلى عن أبى عبد الله (ع) قال: \* سمعته يقول: و الله لو أن قوما عبدوا الله وحده لا شريك له و أقاموا الصلاه، و أتوا الزكاه، و حجوا البيت، و صاموا شهر رمضان- ثم قالوا لشىء صنع رسول الله ص: لم صنع كذا و كذا؟ و وجدوا ذلك فى أنفسهم لكانوا بذلك مشركين، ثم قرأ: فَلَا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ- ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا- مما قضى محمد و آل محمد و يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا .

أقول: و فى معنى الروايتين روايات آخر، و الذى ذكره (ع) تعميم فى الآيه من جهة الملا-ك من جهتين: من جهة أن الحكم لا يفرق فيه بين أن يكون حكما تشريعا أو تكوينا، و من جهة أن الحاكم بالحكم لا يفرق فيه بين أن يكون هو الله أو رسوله.

و اعلم أن هناك روايات تطبق الآيات أعنى قوله: فَلَا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ إلى آخر الآيات على ولاية على (ع) أو على ولاية أئمه أهل البيت (ع)، و هو من مصاديق التطبيق على المصاديق، فإن الله سبحانه و رسوله ص و الأئمه من أهل البيت (ع) مصاديق الآيات و هى جاريه فيهم.

و فى أمالى الشيخ، بإسناده إلى على بن أبى طالب (ع) قال: \* جاء رجل من الأنصار إلى النبى ص- فقال: يا رسول الله ما أستطيع فراقك، و إنى لأدخل منزلى فأذكرك- فأترك ضيعتى و أقبل حتى أنظر إليك جبا لك، فذكرت إذا كان يوم القيامه فأدخلت الجنة- فرفعت فى أعلى عليين فكيف لى بك يا نبى الله؟ فنزل: «وَ مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ- مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصَّادِقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ- وَ حَسُنَ

-فدعا النبي ص الرجل فقرأها عليه و بشره بذلك.

أقول: و هذا المعنى مروى من طرق أهل السنه أيضا رواه فى الدر المنثور، عن الطبرانى و ابن مردويه و أبى نعيم فى الحليه و الضياء المقدسى فى صفه الجنه و حسنه عن عائشه، و عن الطبرانى و ابن مردويه من طريق الشعبى عن ابن عباس، و عن سعيد بن منصور و ابن المنذر عن الشعبى، و عن ابن جرير عن سعيد بن جبير.

و فى تفسير البرهان، عن ابن شهر آشوب عن أنس بن مالك عن سمي عن أبى صالح عن ابن عباس " \* فى قوله تعالى: «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ» يعنى محمدا- و «الْصَّادِقِينَ» يعنى عليا و كان أول من صدق- و «الشُّهَدَاءِ» - يعنى عليا و جعفرا و حمزه و الحسن و الحسين (ع).

أقول: و فى هذا المعنى أخبار أخر.

و فى الكافى، عن الباقر (ع) قال: \* «أعينونا بالورع فإنه من لقي الله بالورع كان له عند الله فرحاً فإن الله عز و جل يقول: وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ، و تلا الآية- ثم قال:

فمنا النبى و منا الصديق و منا الشهداء و الصالحون.

و فيه، عن الصادق (ع): \* «المؤمن مؤمنان: مؤمن وفى الله بشروطه- التى اشترطها عليه- فذلك مع النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين- و حسن أولئك رفيقا، و ذلك ممن يشفع و لا يشفع له، و ذلك ممن لا يصيبه أهوال الدنيا و لا أهوال الآخرة، و مؤمن زلت به قدم- فذلك كخامه الزرع كيفما كفاته الريح انكفاً، و ذلك ممن يصيبه أهوال الدنيا و أهوال الآخرة- و يشفع له، و هو على خير.

أقول: فى الصحاح: الخامة: الغضه الرطبه من النبات انتهى، و يقال: كفات فلانا فانكفاً أى صرفته فانصرف و رجع، و هو (ع) يشير فى الحديث إلى ما تقدم فى تفسير قوله: صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ: «الفاثحه: ٧» أن المراد بالنعمة الولاية فينطبق على قوله تعالى: أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ كَانُوا يَتَّقُونَ: «يونس:

٦٣» و لا سبيل لأهوال الحوادث إلى أولياء الله الذين ليس لهم إلا الله سبحانه.

## [سوره النساء (٤): الآيات ٧١ الى ٧٦]

### اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا بِلِبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) وَ إِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَ لَيْسَ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧٣) فَلْيَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَ مَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ

نُوتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦)

الآيات بالنسبه إلى ما تقدمها-كما ترى-بمنزله ذى المقدمه بالنسبه إلى المقدمه و هى تحت و تستنهض المؤمنين للجهد فى سبيل الله،و قد كانت المحنه شديده على المؤمنين أيام كانت تنزل هذه الآيات،و هى كأنها الربع الثانى من زمن إقامة رسول الله ص بالمدينه كانت العرب هاجت عليهم من كل جانب لإطفاء نور الله،و هدم ما ارتفع من بنايه الدين يغزو رسول الله ص مشركى مكه و طواغيت قريش،و يسرى السرايا إلى أقطار الجزيره،و يرفع قواعد الدين بين المؤمنين،و فى داخلهم جمع المنافقين و هم ذو قوه و شوكة،و قد بان يوم أحد أن لهم عددا لا ينقص من نصف عدده المؤمنين بكثير (١).

و كانوا يقبلون الأمور على رسول الله ص،و يتربصون به الدوائر،و يثبطون المؤمنين و فيهم مرضى القلوب سماعون لهم،و حولهم اليهود يفتنون المؤمنين و يغزونهم

ص: ٤١٥

---

١- ١) و قد تقدم فى أحاديث أحد أن النبى ص خرج إلى أحد فى ألف ثم رجع منهم ثلاثمائة من المنافقين مع عبد الله بن أبى،و بقى مع النبى سبعمائه.

و كانت عرب المدينة تحترمهم، و تعظم أمرهم من قديم عهدهم فكانوا يلقون إليهم من باطل القول و مضلات الأحاديث ما يبطل به صادق إرادتهم، و ينتقض به مبرم جدهم، و من جانب آخر كانوا يشجعون المشركين عليهم، و يطيبون نفوسهم فى مقاومتهم، و البقاء و الثبات على كفرهم و وجودهم، و تفتين من عندهم من المؤمنين.

فالأيات السابقة كالمسوقه لإبطال كيد اليهود للمسلمين، و إمحاء آثار إلقاءاتهم على المؤمنين، و ما فى هذه الآيات من حديث المنافقين هو كتميم إرشاد المؤمنين، و تكميل تعريفهم حاضر الحال ليكونوا على بصيره من أمرهم، و على حذر من الداء المستكن الذى دب فى داخلهم، و نفذ فى جمعهم، و ليبطل بذلك كيد أعدائهم الخارجين المحيطين بهم، و يرتد أنفاسهم إلى صدورهم، و ليتم نور الدين فى سطوعه، و الله متم نوره و لو كره المشركون و الكافرون.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا بِلِبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ الحذر بالكسر فالسكون ما يحذر به و هو آله الحذر كالسلاح، و ربما قيل: إنه مصدر كالحذر بفتح الحين، و النفر هو السير إلى جهة مقصوده، و أصله الفرع، فالنفر من محل السير فرع عنه و إلى محل السير فرع إليه، و الثبات جمع ثبه، و هى الجماعه على تفرقه، فالثبات الجماعه بعد الجماعه بحيث تتفصل ثانيه عن أولى، و ثالثه عن ثانيه، و يؤيد ذلك مقابله قوله: «فَانفِرُوا بِلِبَاتٍ» قوله: «أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا» .

و التفرع فى قوله: فَانفِرُوا بِلِبَاتٍ ، على قوله: خُذُوا حِذْرَكُمْ ، بظاهرة يؤيد كون المراد بالحذر ما به الحذر على أن يكون كناية عن التهيؤ التام للخروج إلى الجهاد و يكون المعنى: خذوا أسلحتكم أى أعدوا للخروج و اخرجوا إلى عدوكم فرقه فرقه (سرايا) أو اخرجوا إليهم جميعا(عسكرا).

و من المعلوم أن التهيؤ و الإعداد يختلف باختلاف عدو العدو و قوته فالترديد فى قوله: أو انفروا، ليس تخييرا فى كيفية الخروج و إنما الترديد بحسب تردد العدو من حيث العده و القوه أى إذا كان عددهم قليلا فثبه، و إن كان كثيرا فجميعا.

فيقول المعنى -و خاصه بملاحظه الآيه التاليه: وَ إِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ، - إلى نهيمهم عن أن يضعوا أسلحتهم، و ينسلخوا عن الجد و بذل الجهد فى أمر الجهاد فيموت عزمهم و يفتقد نشاطهم فى إقامة أعلام الحق، و يتكاسلوا أو يتبطئوا أو يتشبثوا فى قتال أعداء الله، و تطهير الأرض من قدارتهم.

قوله تعالى: «وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ» ، قيل: إن اللام الأولى لام الابتداء لدخولها على اسم إن، واللام الثانية لام القسم لدخولها على الخبر و هي جمله فعليه مؤكده بنون التأكيد الثقيله، والتبطئه و الإبطاء بمعنى، و هو التأخير فى العمل.

و قوله: «وَإِنَّ مِنْكُمْ» ، يدل على أن هؤلاء من المؤمنين المخاطبين فى صدر الآيه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ، على ما هو ظاهر كلمه «مِنْكُمْ» كما يدل عليه ما سياتى من قوله: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ، فإن الظاهر أن هؤلاء أيضا كانوا من المؤمنين، مع قوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ﴾ ، و قوله: ﴿وَإِنْ تُصَبِّهُمُ حَسْبَتُهُ﴾ «إلخ» و كذا قوله: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ﴾ ، و قوله: ﴿وَمِمَّا لَكُمْ لَا تَعْلَمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ، و قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ، كل ذلك تحريض و استنهاض للمؤمنين و فيهم هؤلاء المبطئون على ما يلوح إليه اتصال الآيات.

على أنه ليس فى الآيات ما يدل بظاهره على أن هؤلاء المبطئين من المنافقين الذين لم يؤمنوا إلا بظاهر من القول، مع أن فى بعض ما حكى الله عنهم دلاله ما على إيمانهم فى الجملة كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَصَابَكُمْ مِصْرَةٌ فَسَبِّحْهُ﴾ ، و قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ﴾ «إلخ».

نعم ذكر المفسرون أن المراد بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ﴾ ، المنافقون، و أن معنى كونهم منهم دخولهم فى عددهم، أو اشتراكهم فى النسب فهم منهم نسا أو اشتراكهم مع المؤمنين فى ظاهر حكم الشريعة بحقن الدماء و الإرث و نحو ذلك لتظاهرهم بالشهادتين، و قد عرفت أن ذلك تصرف فى ظاهر القرآن من غير وجه.

و إنما دعاهم إلى هذا التفسير حسن الظن بالمسلمين فى صدر الإسلام (كل من لقي النبى ص و آمن به) و البحث التحليلى فيما ضبطه التاريخ من سيرتهم و حياتهم مع النبى و بعد يضعف هذا الظن، و الخطابات القرآنيه الحاده فى خصوصهم توهن هذا التقدير.

و لم تسمح الدنيا حتى اليوم بأمه أو عصابه طاهره تألفت من أفراد طاهره من غير استثناء مؤمنه واقفه على قدم صدق من غير عثره قط (إلا ما نقل فى حديث الطف) بل مؤمنو صدر الإسلام كسائر الجماعات البشرىه فيهم المنافق و المريض قلبه و المتبع هواه و الطاهر سره.

و الذى يمتاز به الصدر الأول من المسلمين هو أن مجتمعهم كان مجتمعا فاضلا يقدمهم رسول الله ص، و يغشاهم نور الإيمان، و يحكم فيهم سيطره الدين، هذا حال مجتمعهم

من حيث إنه مجتمع، وإن كان يوجد بينهم من الأفراد الصالح و الطالح جميعا، و في صفاتهم الروحيه الفضيله و الرذيله معا و كل لون من ألوان الأخلاق و الملكات.

و هذا هو الذى يذكره القرآن من حالهم، و بينه من صفاتهم قال تعالى: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سِجْدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ -X إلى أن قال X-: وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْرًا عَظِيمًا: «الفتح: ٢٩»، فقد بدأ تعالى بذكر صفاتهم و فضائلهم الاجتماعيه مطلقه، و ختم بذكر المغفره و الأجر لأفرادهم مشروطه.

قوله تعالى: «فَإِنْ أَصَابَكُمْ مِصْرَبٌ» أى من قتل أو جرح «قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا» حتى أبتلى بمثل ما ابتلى به المؤمنون.

قوله تعالى: «وَ لَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ» من قبيل غنيمه الحرب و نحوها، و الفضل هو المال و ما يماثله، و قوله: لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ، تشبيه و تمثيل لحالهم فإنهم مؤمنون، و المسلمون يد واحده يربط بعضهم ببعض أقوى الروابط، و هو الإيمان بالله و آياته الذى يحكم على جميع الروابط الأخر من نسب أو ولايه أو بيعه أو موده لكنهم لضعف إيمانهم لا- يرون لأنفسهم أدنى ربط يربطهم بالمؤمنين فيتمنون الكون معهم و الحضور فى جهادهم كما يتمنى الأجنبى فضلا ناله أجنبى فيقول أحدهم: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا، و من علائم ضعف إيمانهم إكبارهم أمر هذه الغنائم، و عدم حيازه الفضل و المال فوزا عظيما، و كل مصيبه أصابت المؤمنين فى سبيل الله من قتل أو جرح أو تعب نقمه.

قوله تعالى: «فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ» قال فى المجمع: يقال شريت أى بعت، و اشترت أى ابتعت، فالمراد بقوله يشرون الحياه الدنيا بالآخره أى يبيعون حياتهم الدنيا و يبدلونها بالآخره.

و الآيه تفريع على ما تقدم من الحث على الجهاد، و ذم من يبطل فى الخروج إليه ففيها تجديد للحث على القتال فى سبيل الله بتذكير أن هؤلاء جميعا مؤمنون، قد شروا بإسلامهم لله تعالى الحياه الدنيا بالآخره كما قال: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ: «التوبه: ١١١»، ثم صرح على فائده القتال الحسنه و أنها الأجر العظيم على أى حال بقوله: وَ مَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ «إلخ».

فبين أن أمر المقاتل فى سبيل الله ينتهى إلى إحدى عاقبتين محمودتين: أن يقتل

فى سبيل الله، أو يغلب عدو الله، و له أى حال أجر عظيم، و لم يذكر ثالث الاحتمالين - و هو الانهزام - تلويحا إلى أن المقاتل فى سبيل الله لا يهزم.

و قدم القتلى على الغلبه لأن ثوابه أجزل و أثبت فإن المقاتل الغالب على عدو الله و إن كان يكتب له الأجر العظيم إلا أنه على خطر الحبط باقتراف بعض الأعمال الموجبه لحبط الأعمال الصالحه، و استتباع السيئه بعد الحسنه بخلاف القتل إذ لا حياه بعده إلا حياه الآخره فالمقتول فى سبيل الله يستوفى أجره العظيم حتما، و أما الغالب فى سبيل الله فأمره مراعى فى استيفاء أجره.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ «إلخ» عطف على موضع لفظ الجلاله، و الآيه تشتمل على حث و تحريض آخر على القتال فى لفظ الاستفهام بتذكير أن قتالكم قتال فى سبيل الله سبحانه، و هو الذى لا بغيه لكم فى حياتكم السعيده إلا رضوانه، و لا سعادته أسعد من قربه، و فى سبيل المستضعفين من رجالكم و نساءكم و ولدانكم.

ففى الآيه استنهاض و تهييج لكافه المؤمنين و إغراء لهم: أما المؤمنون خالصو الإيمان و طاهرو القلوب فيكفيهم ذكر الله جل ذكره فى أن يقوموا على الحق و يلبوا نداء ربهم و يجيوا داعيه، و أما من دونهم من المؤمنين فإن لم يكفهم ذلك فليكفهم أن قتالهم هذا على أنه قتال فى سبيل الله قتال فى سبيل من استضعفه الكفار من رجالهم و نساءهم و ذرارهم فليغيروا لهم و ليتعصبوا.

و الإسلام و إن أبطل كل نسب و سبب دون الإيمان إلا أنه أمضى بعد التلبس بالإيمان الأنساب و الأسباب القوميه فعلى المسلم أن يفدى عن أخيه المسلم المتصل به بالسبب الذى هو الإيمان، و عن أقربائه من رجاله و نساءه و ذراريه إذا كانوا على الإسلام فإن ذلك يعود بالآخره إلى سبيل الله دون غيره.

و هؤلاء المستضعفون الذين هم أبعاضهم و أفلاذهم مؤمنون بالله سبحانه بدليل قوله: الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا «إلخ»، و هم مع ذلك مذللون معذبون يستصرخون و يستغيثون بقولهم: ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، و قد أطلق الظلم، و لم يقل: الظالم أهلها على أنفسهم، و فيه إشعار بأنهم كانوا يظلمونهم بأنواع التعذيب و الإيذاء و كذلك كان الأمر.

و قد عبر عن استغاثتهم و استنصارهم بأجمل لفظ و أحسن عباره فلم يحك عنهم أنهم يقولون: يا للرجال، يا للسراة، يا قوماه، يا عشيرتاه بل حكى أنهم يدعون ربهم



و يستغيثون بمولاهم الحق فيقولون: رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ثُمَّ يَشِيرُونَ إِلَى النَّبِيِّ ص وَ إِلَى مَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُجَاهِدِينَ بِقَوْلِهِمْ: وَ اجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَ اجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا، فهُمْ يَتَمَنُونَ وَلِيًّا، وَ يَتَمَنُونَ نَصِيرًا لَكِنْ لَا يَرْضُونَ دُونَ أَنْ يَسْأَلُوا رَبَّهُم الْوَلِيَّ وَ النَّصِيرَ.

### كلام فى الغيره و العصبه

انظر إلى هذا الأدب البارع الإلهى الذى أتى به الكتاب العزيز وقسه إلى ما عندنا من ذلك بحسب قضاء الطبع ترى عجايبا.

لا شك أن فى البنية الإنسانية ما يبعثه إلى الدفاع عما يحترمه و يعظمه كالذرارى و النساء و الجاه و كرامه المحتد و نحو ذلك و هو حكم توجهه الفطره الإنسانية و تلهمه إياه لكن هذا الدفاع ربما كان محمودا إذا كان حقا و للحق، و ربما كان مذموما يستتبع الشقاء و فساد أمور الحياه إذا كان باطلا و على الحق.

و الإسلام يحفظ من هذا الحكم أصله و هو ما للفطره، و يبطل تفاصيله أولا ثم يوجهه إلى جهه الله سبحانه بصرفه عن كل شىء ثم يعود به إلى موارده الكثيره فيسبك الجميع فى قالب التوحيد بالإيمان بالله فيندب الإنسان أن يتعصب لرجاله و نسائه و ذراريه و لكل حق يارجع الجميع إلى جانب الله فالإسلام يؤيد حكم الفطره، و يهذب من شوب الأهواء و الأمانى الفاسده و يصفى أمره فى جميع الموارد، و يجعلها جميعا شريعه إنسانيه يسلكها الإنسان على الفطره، و يخلصها من ظلمه التناقض إلى نور التوافق و التسالم، فما يدعو إليه الإسلام و يشرعه لا تناقض و لا تضاد بين أجزائه و أطرافه، يشترك جميعها فى أنها من شئون التوحيد، و يجتمع كلها فى أنها اتباع للحق فيعود جميع الأحكام حينئذ كليه و دائمه و ثابتة من غير تخلف و اختلاف.

قوله تعالى: «الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» إلى قوله «الطَّاغُوتِ» مقياسه بين الذين آمنوا و الذين كفروا من جهه وصف قتالهم، و بعبارة أخرى من جهه نيه كل من الطائفتين فى قتالهم ليعلم بذلك شرف المؤمنين على الكفار فى طريقتهم و أن سبيل المؤمنين ينتهى إلى الله سبحانه و يعتمد عليه بخلاف سبيل الكفار ليكون ذلك محرزا آخر للمؤمنين على قتالهم.

قوله تعالى: «فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا» الذين كفروا لوقوعهم فى سبيل الطاغوت خارجون عن ولايه الله فلا مولى لهم إلا ولى الشرك

و عباده غير الله تعالى، و هو الشيطان فهو وليهم، و هم أولياؤه.

و إنما استضعف كيد الشيطان لأنه سبيل الطاغوت الذى يقابل سبيل الله، و القوه لله جميعا فلا يبقى لسبيل الطاغوت الذى هو مكيد الشيطان إلا الضعف، و لذلك حرض المؤمنين عليهم بيان ضعف سبيلهم، و شجعهم على قتالهم، و لا ينافى ضعف كيد الشيطان بالنسبه إلى سبيل الله قوته بالنسبه إلى من اتبع هواه، و هو ظاهر.

## بحث روائى

فى المجمع، \* فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ الْآيَةَ﴾، قال: سُمى الأسلحة حذرا لأنها الآله التى بها يتقى الحذر: قال: و هو المروى عن أبى جعفر (ع):

قال:

و روى عن أبى جعفر (ع): \* أن المراد بالثبات السرايا، و بالجميع العسكر.

و فى تفسير العياشى، عن سليمان بن خالد عن أبى عبد الله (ع): \* يا أيها الذين آمنوا - فسامهم مؤمنين و ليس هم بمؤمنين و لا كرامه، قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ - فَانْفِرُوا بِلِبَاتٍ أَوْ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾ إلى قوله: فَافُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا، و لو أن أهل السماء و الأرض - قالوا: قد أنعم الله على - إذ لم أكن مع رسول الله ص لكانوا بذلك مشركين، و إذا أصابهم فضل من الله قال: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

أقول: و روى هذا المعنى الطبرسى فى المجمع، و القمى فى تفسيره عنه (ع) و المراد بالشرك فى كلامه (ع) الشرك المعنوى لا الكفر الذى يسلب ظاهر أحكام الإسلام عمن تلبس به، و قد تقدم بيانه.

و فيه، عن حمران عن الباقر (ع) \* فى قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ الْآيَةَ﴾ - قال: نحن أولئك:

أقول: و رواه أيضا عن سماعه عن الصادق (ع)، و لفظه: فأما قوله:

وَالْمُسْتَضْعَفِينَ

الآيه، فأولئك نحن، الحديث، و الروايتان فى مقام التطبيق و الشكوى من بغى الباغين من هذه الأمة، و ليستا فى مقام التفسير.

و فى الدر المنثور، أخرج أبو داود فى ناسخه و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و البيهقى فى سننه من طريق عطاء عن ابن عباس \* : فى سورة النساء «خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا بِلِبَاتٍ أَوْ انْفِرُوا جَمِيعًا» عسبا و فرقا، قال: نسخها: «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً» الآية.

أقول: الآيتان غير متنافيتين حتى يحكم بنسخ الثانية للأولى، و هو ظاهر بل لو كان فإنما هو التخصيص أو التقييد. و الحمد لله.







بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام  
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية  
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب  
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات  
توسيع عام لفكرة المطالعة  
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية  
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة  
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة  
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات  
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : [www.ghaemiyeh.com](http://www.ghaemiyeh.com)

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة ( sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آواده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : [www.ghbook.ir](http://www.ghbook.ir)

البريد الإلكتروني : [Info@ghbook.ir](mailto:Info@ghbook.ir)

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.



مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية  
اصبحان  
الغمامة



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى  
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم  
**www.Ghaemiyeh.com**

[www.Ghaemiyeh.net](http://www.Ghaemiyeh.net)

[www.Ghaemiyeh.org](http://www.Ghaemiyeh.org)

[www.Ghaemiyeh.ir](http://www.Ghaemiyeh.ir)

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

